دكتور عبد الرازق أبو زيد زايد

# علم البديع

## نشأته وتطوره
## من ابن المعتز حتى أسامة بن منقذ

١٩٧٧

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

دكتور عبد الرازق أبو زيد زايد

# علم البديع

## نشأته وتطوره
## من ابن المعتز حتى أسامة بن منقذ

١٩٧٧

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

# الإهداء

إلى التى أنا جزء منها

إلى من نتقرب إلى الله بحبها

إلى صاحبة الفضل . . والفضل إليها يعود

إلى أمى الغالية أهدى هذا الكتاب

عبد الرازق أبو زيد

# المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وبعد ....

فالذى لاشك فيه أن « العربية » لقيت من اهتمام أصحابها مالم تلقه لغة فى قديم ولا فى حديث ، فقد توفروا عليها جمعا وتصنيفا ، وتحليلا فى كل مايتصل منها بسبب .

ومن الحقائق المقررة أن علوم العربية نشأت فى خدمة النص القرآنى الكريم ، إذ انطلق المسلمون يدرسون العربية فى سبيل الوصول إلى فهمه ومعرفة أحكامه ، وقد جاء القرآن معجزة فى البيان العربى ، على مانعرفه من تحديه لقدراتهم اللغوية من مثل قوله عز وجل : ( وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ) .(١)

كان القرآن إذن مدار العلم العربى ، فى ظله نشأ النحو والصرف والبلاغة والفقه ، ومن أجله دوّن الحديث . وظهر الكلام وظهرت علوم العربية المختلفة . ولما كانت هذه العلوم جميعها واحدة النشأة — على الأغلب — فإنها كانت تتأثر بعضها بالبعض الآخر أكثر من تأثرها بمصادر خارجية . فضلا

---

(١) سورة البقرة ( آية ٢٣ ، ٢٤ ) .

عن أن أسلافنا القدماء كان الواحـــد منهم يجمع بين معظمها فى أغلب الأحوال .

والبلاغة علم من هذه العلوم التى نشأت فى ظل القرآن . إذ كانت غايتها الأولى البحث فى الأسلوب القرآنى لبيان خصائصه الجمالية . والوصول إلى مناط الاعجاز فيه . وأخذ العلماء يتتابعون واحدا إثر واحد ، يطورون هذا العلم ، ويوضحون مصطلحاته ، ويفرعونه فروعا ، ويؤصلون مناهجه .

وفى العصر الحديث . بدأت الدراسات الجامعية تهتم بالعـــلوم العربية إيمانـا بأن درس القـديم هو الأساس السليم لفهم الجديد ، أو لتطوير القديم .

ومن الحقائق المعروفة أن « البديع » فرع من البلاغة العربية له أهميته من الدرس . لأن له منهجا وغاية كان يسير عليها القدماء . ولعلّ الذى دفع بالباحثين المحدثين إلى إغفاله هو ماوقر فى أذهان كثير منهم — نتيجة مرحلة الانحطاط الأدبى فيما قبل العصر الحديث — أنه أحد مظاهر هذا الانحطاط وسبب من أسبابه.

والذى لاشك فيه أن النظر إلى البديع على هذا الأساس فيه قدر غير ضئيل من مجافاة المنهج العلمى . لأننا لم نبحث بعد نشأة هذا العلم وتطوره ومناهجه حتى يصح لنا الحكم عليه حكما يتسق مع مايتوافر لدينا من مواد . فضلا عن أن المحدثين لم ينـكروا — فيما نحسب — أهمية البديع فى الدرس البلاغى . أو فى الدرس النقدى على وجه العموم . ولايزال النظر فى « الشكل والمضمون » يستدعى ضرورة درس البديع .

من هذا الفهم كان تقدمى لدرس هذا الموضوع . فى محاولة لتأريخ فترة

من حياة علم البديع . مقدرا أن محاولة تأريخه شاملا لاتتلاءم مع البحث الجامعى المتخصص .

وعلى هذا الأساس كان اختيارى لعنوان الموضوع على هذا النمط :

« علم البديع نشأته وتطوره من ابن المعتز حتى أسامه بن منقذ » .

ولما كانت أجزاء البحث تبدأ كما تنتهى بعلم من أعلامه فقد قسمت الأبواب حسب ماقدم هؤلاء الأعلام من مؤلفات . ومن ثم كان تقسيمى البحث إلى ثلاثة أبواب ، يتناول كل باب منها الكتب التى ظهرت فى مرحلته التاريخية . بحيث يمكن أن تؤدى هذه الأبواب إلى الوصول إلى تصور واضح لتطور البديع .

ووفقا لهذه الرحلة الزمنية التى سارها علم البديع منذ نشأته حتى القرن السادس الهجرى ، جعلت الباب الأول خاصا بنشأتة حتى نهاية القرن الثالث حيث يمثل الجاحظ فى منتصف هذا القرن نقطة فاصلة فى تاريخ هذا العلم . وجعلته فصلين ، عرضت فى الفصل الأول للبديع قبل ابن المعتز . فتناولت معنى مصطلح البديع . ثم البديع عند الجاحظ . وختمته بالبديع عند الرواة : أبى عبيدة ، والأصمعى ، والمبرّد ، وثعلب .

ثم جعلت الفصل الثانى للحديث عن كتاب « البديع » لابن المعتز باعتباره أول كتاب يحمل هذا الاسم .

وبعد مرحلة التكوين الأولى وظهور المصطلح على مابينا فى الباب الأول سار البديع فى رحلته الزمنيه . حيث تضافرت بيئات فكرية متعددة فى معالجته

وتطويره . ومن ثم جعلت الباب الثانى خاصا بالحديث عن « البديع » فى ظل هذه البيئات بحيث يتبين لنا تأثير الحياة العربية والإسلامية فى تحديد ميدان العلم ، وقسمته سبعة فصول ؛ تحدثت فى الفصل الأول عن هذه البيئات : بيئة الأدباء ، وبيئة المتفلسفه ، وبيئة المتكلمين ،وبيئة النقاد . وأثر كل بيئة فى تطور علم البديع .

ثم توالت الفصول الستة الأخرى بحيث يختص كل فصل منها بدراسة كتاب ينتمى إلى هذه البيئات . فتناولت فى الفصل الثانى كتاب « عيار الشعر » لابن طباطبا العلوى ( ت ٣٢٢ هـ ) . وفى الثالث « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر ( ت ٣٣٧ هـ ) . وفى الرابع كتاب « البرهان فى وجوه البيان » لاسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب المعاصر لقدامة .

وفى الفصل الخامس درست البديع فى كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى (ت ٣٧١ هـ ) . ثم درسته فى « صناعة الشعر » لأبى أحمد العسكرى ( ت ٣٨٢ هـ ) . وأخيرا حيث الفصل السابع دراسة البديع فى كتاب « الصناعتين » لأبى هـــلال العسكرى ( ت ٣٩٥هـ ) .

وبعد هذه المرحله التى يمثلها الباب الثانى بدأ علم البديع يسلك طريقه نحو الاستقرار . وقد استغرق ذلك فترة زمنية هى تلك التى حددتها نهاية لهذا البحث . وقد رأيتها تقف عند أسامه بن منقذ . ومن ثم جعلت عنوان الباب الثالث . « من الباقلانى إلى أسامة بن منقذ » وقسمته خمسة فصول،عرضت فى الفصل الأول للبديع عند عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ )

فى كتابيه «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» ثم الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) فى تفسيره « الكشاف » . ودرست فى الفصل الثانى كتاب «إعجاز القرآن » لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ( ت ٤٠٣ هـ ) ، ثم عرضت فى الثالث لفنون البديع فى كتاب « العمدة » لابن رشيق القيروانى ( ت ٤٦٣ هـ).

وفى الفصل الرابع تناولت ألوان البديع فى كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى ( ت ٤٦٦ هـ ) . ثم وصلت إلى نهاية هذه المرحلة بالحديث عن البديع فى كتاب « البديع فى نقد الشعر » لأسامة بن منقذ ( ت ٥٨٤ هـ ) .

وأحسب أن تقسيم البحث على هذا الأساس — يساعد على تصور المراحل الزمنية التى سلكها علم البديع من حالة النشأة الأولى إلى فترة النمو فى أحضان البيئات الثقافية المتعددة . وإلى مرحلة الاقتراب من الاستقرار المنهجى. وأحسب أيضاً أن هذه المراحل تمثل الفترة المهمة فى تاريخ علم البديع على ما فيها صعوبة تصفية المادة البديعية من كثير من المواد الأخرى التى كانت تحفل بها الكتب التى عرضناها فى فصول البحث.

وأخيرا أنهيتُ الدراسة بخاتمة حاولت فيها أن أقدم مختصراً لحياة هذا العلم ومنهج علمائنا فيه .

ولست أرانى فى حاجة إلى تبيين مالقيته فى إعداد البحث — من صعوبات ، فالذين يتصلون بمثل هذا العلم فى أصولة القديمة يدركون ذلك خير إدراك. ولست أدعى أنى وصلت إلى شىء يخلو من النقص أو العيب ، ولكن حسبى أنى حاولت وجهدت ما وسعنى الجهد. وكل ما أرجوه أن

أكون قد أسهمت بنصيب فى خدمة لغة القرآن . وفى خدمة الدرس الجامعى على العموم .

والله نسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه .

وبالله وحده التوفيق ...

**المؤلف**

# الباب الأول

## فى النشأة

# الفصل الأول

## خطوات أولى فى علم البديع

كان لعلماء العربية القدماء منهج ثابت فى تتبع الألفـــاظ الدالة على مصطلحات علمية أو على أبواب من العلوم ، إذ يشرحون معناها فى اللغة ثم مدلولها فى الاصطلاح .

ولا ريب أن أى بحث فى علم من العلوم يقتضى ابتداء توضيح المصطلح الذى يطلق على هذا العلم ، ومن ثم نرى اتباع علمائنا القدماء فى منهجهم الذى أصلوه مفيدين مما وصل إليه الدرس الحـــديث ، وما يقره من أن الألفاظ تدل — فى أصل وضعها — على معان مادية ثم تتطور مع تدرج الحياة للدلالة على معان معنوية أو اصطلاحية .

وباستقرائنا للمادة اللغوية التى تحفل بها المعاجم عن لفظة « البديع » وما استطعنا أن نصل إليه من نصوص أدبية — شعراً ونثراً — يغلب على ظننا أن المعنى المادى الأول للفظة « البديع » يرجع إلى « البدع » وهو « الحفر ابتداء » فهم يقولون : « بدع الركية »[1] استنبطها وأحدثها . وركى بديعة : « حديثة الحفر » ويشارك هذا المعنى المادى ما نقل عنهم من أن « الحبل البديع ، والزمام البديع : الجديد » فالمعنى المادى — فيما نظن — هو الحفر والاستنباط والاحداث ابتداء ، ثم انتقل المعنى المادى للدلالة على كل إنشاء وابداع واختراع

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة « بدع » وبديع القرآن لابن أبى الاصبع المصرى ( الطبعة الاولى ) طبعة نهضة مصر ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧م ) ص ٨.

لا على مثال . فالبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها على غير مثال سابق ، وهو البديع الأول قبل كل شيء . وأبدع الشاعر : جاء بالبديع، وفى التنزيل : « قل ما كنت بدعا من الرسل »[١] أى ما كنت أول من أرسل ، قد أرسل قبلى رسل كثيرون .

وانتقلت اللفظة فى الإسلام لتطلق على كل ما يستحدثه الناس مما لم ينزل به قرآن . ولم تأت به سنة « فكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » .

وورد لفظ « البديع » أو مشتقاته فى الشعر الجاهلى وشعر المخضرمين بمعنى الجديد والمخترع .

قال عدى بن زيد[٢] :

فلا أنا بدع من حوادث تعترى
رجالاً غدتْ من بعد بؤس بأسْعد

وقال حسان بن ثابت[٣] :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوّهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجيّة تلك فيهم غير محدثة
إن الخلائق ، فاعلم ؛ شرّها البدع

وأما فى القرآن فقد وردت كلمة ( بديع ) مرتين فى قوله تعالى : ( بديع

(١) سورة الأحقاف ( آية ٩ ) .
(٢) بديع القرآن ص ٨ والقرطبى ( ١٦/١٨٥ ) طبع دار الكتب المصرية .
(٣) ديوان حسان بن ثابت ( طبعة دار صادر - بيروت سنة ١٣٨١ هـ — ١٩٦١م ) ص ١٤٥ وانظر بديع القرآن ص ٨ .

السموات والأرض ، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون )[١] وقوله تعالى : ( بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم )[٢] .

ومعناها في هاتين الآيتين : منشئهما ومبدئهما على غير مثال سابق .

وفى الحديث الشريف : يقول الرسول عليه السلام فى وصف تهامة : ( إن تهامة كبديع العسل حلو أوله ، حلو آخره )[٣] . وقد وردت المادة أيضاً بمعنى الجدة ، فقد روى عن الرسول عليه السلام : ( كيف أصنع بما أبدع علىّ منها ). [٤]

فاذا انتقلنا إلى نصوص الأدب العربى فى صدر الإسلام شعراً ونثرا وجدنا المادة مستعملة فى المعانى السابقة .

أما فى النثر ، فكقول على رضى الله عنه : ( إن أبغض الخلائق إلى رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه ، فهو جائر عن قصد السبيل ، مشغوف بكلام بدعة ، ودعاء ضلاله ) . وقوله : ( إنما بدء وقوع الفتنة أهواء تتبع ، وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ). [٥]

ووردت هذه المادة أيضا فى كلام عبد الحميد الكاتب وابن المقفع بنفس هذا المعنى . يقول عبد الحميد الكاتب[٦] : الحمد لله العلى مكانه ، المنير

---

(١) بديع القرآن ص ٩ وانظر سورة البقرة ( آية ١١٧ ) .
(٢) سورة الأنعام ( آية ١٠١ ) .
(٣) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ( ط . الحلبى ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م ) ١/١٠٦ .
(٤) المصدر السابق ١/١٠٧ وانظر صحيح مسلم ( الطبعة الأولى — ط . عيسى البابى الحلبى ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م ) ٢/٩٦٢ .
(٥) بديع القرآن ص ١٠ .
(٦) المصدر السابق : نفس الصفحة .

برهانه، العزيز سلطانه الثابتة كلماته، الشافية آياته ... إلى أن يقول: وقدّرها بحكمه على مايشاء من عزمه، مبتدعا لها بانشائه إياها، وقدرته عليها).

ويقول ابن المقفع: (فمن جرى على كلام يستحسن منه فلا يعجبن به إعجاب المبتدع فإنه إنما اجتباه كما وصفنا ..)(١).

وأما فى الشعر: فكقول عمر بن أبى ربيعة المخزومى:(٢)

فأتتها فأخبرتها بعـــذرى ∴ ثم قالت أتيت أمرا بديعا

ومن الحقائق المقررة أن العلوم العربية كلها نشأت فى خدمة النص القرآنى ذلك أن العرب أدركوا أن كتابهم الذى أنزله الله عليهم إنما هو مناط الشريعة التى أرادها الله لهم. فنهضوا لفهمه ودرسه توصلا إلى معرفة الأحكام التى تشكل هذه الشريعة. وانطلقوا يدرسونه من كل ناحية. فأنشأوا علم القراءات لضبط طريقة أدائه، وأنشأوا النحو لضبط ألفاظه وتراكيبه، وأنشأوا البلاغة لدراسة ألوان الجمال فيه وإدراك إعجازه. واستعانوا على ذلك بكل ماأوتوه — فى زمنهم — من أدوات الدرس ومناهجه. وكان من بينها جمع اللغة فى نصوصها الشعرية والنثرية. ثم دراسة هذه النصوص على مانعرف تفصيله فى النشأة المبكرة لحركة العلوم عند العرب.

وكان « البديع » من هذه العلوم التى نشأت بعد الإسلام — فى زمن متأخر عن العلوم اللغوية على الأغلب — خدمة للنص القرآنى. ومن هنا ظهر المعنى الاصطلاحى للفظة. حيث انتقلت لتدل على هذا العلم المخصوص.

---

(١) بديع القرآن ص ١٠.
(٢) ديوانه (الطبعة الأولى — ط. المطبعة الوطنية — بيروت ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤م) ص ١٦٩.

ولئن كنا نعجل الآن بتقديم بعض التعريفات عن علم «البديع» لتوضيح المعنى الاصطلاحي ، فإننا نؤثر أن نرجىء هذا التعريف إلى نهاية الكلام حتى تكون قد اكتملت لدينا صورة أكثر وضوحا عنه بما نقدم من عرض لما ألف فيه فى الفترة التى اخترناها مجالا للبحث .

والبديع كما يقول الخطيب القزوينى : «هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة » . [1]

ويعرفه ابن خلدون بأنه: « هو النظر فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق. إما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه . لاشتراك اللفظ بينهما . أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك »[2] .

واختلفت البلاغيون والنقاد فى نشأة « البديع » وادعت الشعوبية أن الموالى هم مخترعو فنون البديع ومبتدعوها . ولعل أقدم النصوص التى تشير إلى نشأة البديع وأول من اعتنقه مانجده عند الجاحظ. إذ يقول : « ومن الخطباء والشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابى وكنيته أبو عمرو . وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما . وكان العتابى

---

(١) الايضاح للخطيب القزوينى ( الطبعة الثانية . ط . مطبعة الجمالية الحديثة بالقاهرة ) ص ٢٤٣ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ( الطبعة الثالثة ط . دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٦٧ ) ص ١٠٦٦ .

يحتذى حذو بشار فى البديع . ولم يكن فى المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمه »[١] .

وتختلط فى هذا النص أسماء عربية هى العتابى والنمرى وابن هرمه بأسماء فارسية هى بشار ومسلم بن الوليد . مما يجعلنا نتردد فى قبول الرأى القائل بأن البديع نشأ فى الأدب العربى عن طريق الفرس الذين يعرفون بميلهم إلى التعبير باللون[٢] . وكل مايمكن أن يقال أنهم أعانوا فى هذا المذهب شأن البديع فى ذلك شأن العلوم العربية كالنحو وغيره . فهم لم يخترعوه ولم يبتكروه من تلقاء أنفسهم ، إنما هو علم عباسى . تعاونت فيه طوائف الشعراء من العرب مع طوائف الشعراء من الفرس .

على أن العباسيين كانوا يردونه إلى أصول عربية خالصة ، فالجاحظ يقرر فى بيانه : « أن البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان ، والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع »[٣] . ولعل الجاحظ قد أخطأ حين قصر البديع على العرب . إذ البديع موجود فى كل لغة . ولا تخلو لغة من من اللغات من ألوانه . يقول الدكتور شوقى ضيف : « ولعله لم يكن جادا كل الجد حين خص العرب بالبديع لأن كل أدب لا يخلو من تشبيه واستعارة

---

(١) البيان والتبيين ١/٥١ وانظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ( للدكتور شوقى ضيف — الطبعة الرابعة ـ ط . دار المعارف ١٩٦٠ ) ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) انظر النثر الفنى ( لزكى مبارك ، الطبعه الثانية ط . مطبعة السعادة سنة ١٩٥٧ ) ١/٤٤ .

(٣) البيان والتبيين ٤/٥٥ وانظر بديع القرآن ص ١٢ ، ١٣ والقزوينى وشروح التلخيص للدكتور أحمد مطلوب ( الطبعة الرابعة ـ ط . دار التضامن ببغداد سنة ١٩٦٧ ) ص ٤٢٤ والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٧٥ .

وغير ذلك من فنون البديع ، إلا أن يكون إكثار معاصريه منه هو الذى دفعه لمثل هذا الحكم ، وربما كان ذكره للراعى بين أصحاب البديع ، وهو شاعر أموى هو الذى أوحى لابن المعتز بفكرته التى دعا لها فى كتابه « البديع » ونقصد فكرة أن المحدثين سبقوا فى البديع من قديم سبقهم إليه الاسلاميون من أمثال الراعى ، بل أيضاً الجاهليون ، وما نشك فى أن كثيرا من الفنون التى صورها ابن المعتز فى كتابه التقطه التقاطا من كتابات الجاحظ ، إما منه مباشرة ، وإما ممن نقل عنهم آراءهم فى البلاغة ومحاسنها المختلفة (١) .

وربما كان من الأسباب التى دفعت الجاحظ إلى قصر البديع على العرب غلوه فى حبهم ، ورغبته فى الرد على الشعوبية الحاقدة . ويلاحظ أن الجاحظ سلك فى البديع ابن هرمه وبشارا والنمرى والعتابى والراعى ، وأكبر الظن أن « مرجع ذلك عنده أنه كان يعنى بكلمة البديع التشبيهات والاستعارات الطريفة ، أما الجناس والطباق فلا نجد لهما ذكرا فى كتاباته سواء فى « البيان والتبيين » أو فى « الحيوان » (٢) . وكان من الظواهر العامة أن علماء العربية جميعا كانوا يضعون هذه اللغة موضعا عاليا لا ترقى إليه لغة أخرى ، ولذلك تحدثوا عنها دائما باعتبارها ( اللغة الشريفة اللطيفة ) ومع مقارنتها دائما بالفارسية نراهم يؤكدون أن ما أوتيته العربية لم تؤته الفارسية وغيرها . يقول ابن جنى : قيل لو أحست العجم بلطف صناعة العرب فى هذه اللغة ، وما فيها من الغموض والرقة والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها ، فضلا عن التقديم لها والتنويه منها » « فإن قيل : لا ، بل لو عرفت العرب مذاهب العجم فى

(١) البلاغة تطور وتاريخ ( للدكتور شوقى ضيف — ط . دار المعارف سنة ١٩٦٥م ) ص ٥٦ .

(٢) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٧٦ .

حسن لغتها ، وسداد تصرفها ، وعذوبة طرائقها لم تبء[١] بلغتها ، ولا رفعت من رءوسها باستحسانها وتقديمها » .

« قيل : قد اعتبرنا ما تقوله ، فوجدنا الأمر فيه بضده ، وذلك أنا نسأل علماء العربية ممن أصله عجمي وقد تدرب بلغته قبل استعرابه ، عن حال اللغتين ، فلا يجمع بينهما ، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك ، لبعده في نفسه ، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه ، سألت غير مرة أبا علي — رضي الله عنه — عن ذلك ، فكان جوابه عنه نحوا مما حكيته »[٢] .

ومن الجدير بالذكر أن علماء اللغة المحدثين يرفضون هذه النظرة إلى اللغة ، إذ يرون أنه لا توجد لغة أجمل أو أفصح من لغة أخرى. يقول سابير : « لا معنى لأن نقول إن هناك لغة — مهما تكن — أكثر فصاحة أو أكثر ارتباطا من لغة أخرى . قد تكون أكثر تعقيدا أو أكثر صعوبة »[٣] .

ويبدو أن مسلم بن الوليد ( المتوفى سنة ٢٠٨ هـ )[٤] هو الذي أطلق اسم « البديع » على تلك الفنون لأول مرة[٥] ، وقد أكثر منه الشعراء بعده وفي مقدمتهم أبو تمام ( المتوفى سنة ٢٣١ هـ ) وابن الرومي ( المتوفى سنة ٢٨٣ هـ ) والبحتري ( المتوفى سنة ٢٨٤هـ ) وعبد الله بن المعتز ( المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ).

(١) من بأى يبأى — كسعى يسعى — بأوا ، وبأيا : فخر .

(٢) ابن جني ( أبو الفتح بن عثمان ) : الخصائص — تحقيق محمد علي النجار . ط . دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م ) ١/٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٣) Sapir (Edward): Culture, language and Perso nality California 1960, p. 6.

(٤) انظر ترجمة مسلم بن الوليد في الشعر والشعراء لابن قتيبة (بتحقيق أحمد محمد شاكر — ط . دار المعارف سنة ١٩٦٦ ) ٢/٨٣٢ وما به من مراجع .

(٥) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ( تحقيق عبد الستار أحمد فراج — نشر دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٥٩ ) ١٨/٣١٥ .

وكانوا طبقات ، منهم من اندفع فيه إلى درجة الإفراط كأبي تمام ، ومنهم من وقف فيه عند حد القصد كالبحترى وابن المعتز .

والواقع أن العرب لم يكونوا يتكلفون البديع ، إذ امتاز شعرهم بإرساله على حسب ما اقتضته بلاغتهم الفطرية. بدون تكلف، وبدون مراعاة لما تستدعيه الصناعة البديعية ، فلم يتعمدوا جناسا ، ولم يتكلفوا طباقا ، ولم يقصدوا إلى تورية ولم ينقبوا عن مجاز ، ولم يفتشوا عن كناية ، وما وقع لهم من ذلك فإنما كان عفواً ، لا أثر فيه لتعمل ،ولا لتكلف ،خلا بعضا من سجع الكهان.

يقول القاضى الجرجانى : « وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد أبياته، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض ، وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ، ويتفق لها فى البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها ، فسموه البديع ، فمن محسن ومسىء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط » (١).

فالشعر العربى انتهى إلى المحدثين فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، صحيحا فى مبانيه قويا فى عباراته،جزلا فى تراكيبه ، محكما فى نسجه،واضحا فى معانيه . لا تزال تستشف فيه روح البداوة القديمة فى المنهج والصياغة ، والطابع والخيال . والبعد عن الحشو والنفرة من المبالغة المغرقة الغالية ، وعدم القصد إلى البديع إلا ما جاء عفو الخاطر ، مما يستدعيه المعنى استدعاء قويا ،

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ( الطبعة الثالثة ـ ط . عيسى البابى الحلبى ) ص ٣٣ ، ٣٤ .

ويطلبه طلبا ملحا ؛ وكانت تلك الحلى عند الإسلاميين كما كانت عند أسلافهم الجاهليين فطرية سمحة. فإذا وقعت فى النظم على هذا النحو أكسبته الروعة وكسته ثوب البهاء ، وكانت مثل الياقوته التى تكون فريدة العقد ، إذا اعترضت فى كلام وشحته وزينته ، وتميزت عنه ، وبانت بحسنها منه ، فإن كانت فى رسالة كانت عينها ، أو فى خطبة كانت وجهها ، أو فى قصيدة كانت غرتها اللامعة ودرتها الساطعة .

وكان الشعراء فى العصر الجاهلى يقفون عند اختيار الألفاظ والمعانى والصور وكانوا يسوقون أحيانا ملاحظات لاريب فى أنها أصل الملاحظات البيانية فى بلاغتنا العربية[1]. ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات وتتناثر فيها من حين إلى حين ألوان المقابلات والجناسات مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة باحسان الكلام والتفنن فى معارضه البليغة .

وأخذت تنمو هذه العناية بعد ظهور الإسلام بفضل ما نهج القرآن ورسوله الكريم من طرق الفصاحة والبلاغة .

وإذا تحولنا إلى عصر بنى أمية وجدنا الخطابة بجميع ألوانها من سياسية وحفلية ووعظية تزدهر ازدهارا عظيما ، وفى كل لون من هذه الألوان يشتهر غير خطيب . وكثرت الملاحظات المتصلة بحسن البيان ، لا فى مجال الخطابة والخطباء فحسب ، بل أيضا فى مجال الشعر والشعراء ، ولعل المجال الثانى كان أكثر نشاطا لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه .

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣ .

ولا نكاد نصل إلى العصر العباسى الأول حتى نرى ازدهار الثقافة واتساع الملاحظات البلاغية والبديعية .

البديع عند الجاحظ :[1]

مر بنا أن الجاحظ قصر البديع على العرب وذلك لتعصبه الشديد للعرب والعربية . وقد ذكر فى كتابه « البيان والتبيين » فى أكثر من موضع ألوانا مختلفة جمعت كلها فيما بعد فى فنون البديع مثل السجع إذ أفرد له فى بيانه فصولا مختلفة[2] نوه فيها بتأثيره فى نفوس السامعين موردا بعض نماذجه .

وتحدث عن الازدواج[3] ، وكان يلهج به فى كلامه ، كما كان يلهج به كثير من معاصريه . وأشار إلى اقتباس[4] الخطباء من آى الذكر الحكيم وقد سماه البلاغيون من بعده ( حسن التضمين ) . ونوه بالتقسيم وجودته وعلل به استحسان عمر بن الخطاب لبعض شعر زهير وعبدة بن الطبيب يقول[5] : « ولقد أنشدوه شعرا لزهير — وكان لشعره مقدما — فلما انتهوا إلى قوله :

وإنَّ الحقَّ مَقْطَعه ثلاثٌ : يمينٌ ، أو نفارٌ ، أو جلاءُ[6]

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ، وإقامته أقسامها :

وإنَّ الحقَّ مقطعه ثلاثٌ : يمينٌ ، أو نفارٌ ، أو جلاءُ

---

(١) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ١٦ / ٧٤ ونزهة الألباء فى طبقاء الأدباء لابن الأنبارى ص ١٨٤ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٥٤ ، وانظر الجاحظ حياته وآثاره للدكتور طه الحاجرى ص ١٥ وما بعدها . والجاحظ ( نوابغ الفكر العربى ) لحنا الفاخورى .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٤٠٨ ، ٦/٣ .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ١١٦ .

(٤) المصدر السابق ١/١١٨ ، ٦/٢ .

(٥) المصدر السابق ١ / ٢٤٠ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٢ .

(٦) النفار : المنافرة إلى حكم يقضى بينهم .

يردد البيت من التعجب . وأنشدوه قصيدة عبدة بن الطبيب الطويلة التى على اللام فلما بلغوا قوله :

والمرءُ ساعٍ لشيءٍ ليس يُدْركه     والعيشُ، شُحٌ، واشفاقٌ، وتأميلُ

قال عمر متعجباً : ( والعيش شح واشفاق وتأميل ) يعجبهم من حسن ما قسم وفصل .

وتكلم عن الإيجاز الذى هو كالوحى والإشارة[١] ، ووقف عندطائفة من اللغز فى الجواب ؛ وأدرج فيها ما سمى فيما بعد باسم الأسلوب الحكيم من مثل قول الحجاج لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال : أمفرقا فأجمعه ؟ قال : أتقرؤه ظاهراً ؟ قال : بل أقرؤه وأنا أنظر إليه . قال : أفتحفظه ؟ قال : أخشيت فراره فأحفظه[٢]. وبهذا الفصل هيأ الجاحظ لحديث البلاغيين فيما بعد عن اللغز وعن الأسلوب الحكيم جميعاً[٣] .

وتنبه لما سماه البلاغيون بعده باسم ( الاحتراس ) وقد سماه إصابة المقدار يقول : « وقال طرفه فى المقدار وإصابته :

فَسقىَ ديارَكَ ـ غيْرَ مفْسدها ـ     صوبُ الرّبيع وديمةٌ تهْمِى

طلب الغيث على قدر الحاجة. لأن الفاضل ضار[٤]. ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه : « اللهم اسقنا سقيا نافعاً » لأن المطر ربما جاء فى غير إبان الزراعات. وربما جاء والطعام فى البيادر ، وربما كان فى الكثرة مجاوزا لمقدار الحاجة .

---

(١) البيان والتبين ١/١٠٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ٢/٢٧٨ ، ٢٨١ .
(٢) المصدر السابق ٢/١٤٨ .
(٣) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص٥٣ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٢٢٨ وانظر البيان العربى ص ٧٦ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٥٤ .

وتحدث عن « الهزل يراد به الجد » أو يدخل فى الجد : ومثل له بقول إبراهيم بن هانىء : « من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ويكون شيخا بعيد مدى الصوت ، ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء ، ومن تمام آلة المغنى أن يكون فاره البرذون ( الدابة الكبيرة ) براق الثياب عظيم الكبر سيىء الخلق ، ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذميا »(١).

وأشار إلى ماسماه البلاغيون من بعده بالتوشيح أو الارصاد أو التسهيم — وما سماه ابن المعتز رد أعجاز الكلام على ما تقدمها — يقول : « وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك . كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته . . . ولكل فن صدر يدل على عجزه »(٢).

وذكر فى غير موضع الاعترض والتعريض والكناية ، وأورد قول شريح : الحدة كناية عن الجهل . وقول أبى عبيدة : العارضة كناية عن البذاء وإذا قالوا فلان مقتصد : فتلك كناية عن البخل . وإذا قيل للعامل ( الوالى ) مستقص فذلك كناية عن الجور . ورأى أن « الكناية والتعريض » لا يعملان فى العقول عمل الافصاح والكشف (٣).

ومن حديثه فى البيان والتبيين عن الاستعارة تعليقة على قول الشاعر :

يا دارُ قد غيَّرها بِلاها ... كأنما بقلمٍ محاها
وطَفِقَتْ سحابةٌ تغشاها ... تبكى على عراصها عيناها

(١) البيان والتبيين ١/٩٣ ، ٩٤ .
(٢) المصدر السابق ١/١١٦ .
(٣) المصدر السابق ١/١١٧، ٢٦٣ .

يقول : « طبقت يعنى ظلت . تبكى على عراصها عيناها ، عيناها هاهنا للسحاب ، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه »(١).

ويعلق الدكتور شوقى ضيف على كلام الجاحظ فيقول : « ونظن ظنا أن تحليله لاستعارة هذا البيت وما يماثله هى التى جعلت البلاغيين فيما بعد ينظمون مثل هذه الاستعارة فى باب الاستعارة التصريحية التبعية ، إذ أجروا الاستعارة فى القرينة أى فى مثل تبكى فى البيت، وقد يجعلونها فى باب الاستعارة المكنية إذا أجروا الاستعارة فى السحابة ، على نحو ماهو معروف مشهور ، وكأن الجاحظ هو المسئول عن إدخال مثل هذه الصورة فى باب الاستعارة ، وكان يحسن به أن يفردها عنها ، لأن الشاعر حين يجعل السحابة تبكى لا يشبه ولا يستعير ، وإنما يشخص ويبث الحياة والمشاعر فى عنصر من عناصر الطبيعة، وسنرى المتأخرين يضطربون إزاء هذه الاستعارة اضطرابا شديداً »(٢).

وقد توقف الجاحظ مرارا فى كتابه « الحيوان » خاصة فى جزءيه الرابع والخامس يكشف عن الدلالات الدقيقة للآيات ، وأشار فى ثنايا ذلك إلى مافيها من استعارات وتمثيلات وتشبيهات ، وكذلك صنع فى تعليقه على بعض الأشعار وقد أكثر من ذكر التشبيه بنفس معناه الاصطلاحى(٣) وكذلك صنع بالاستعارة وهى عنده من باب المجاز ، ومن طريف تصويره لها تعليقه على الآية الكريمة : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »(٤) إذ قال : إنها من باب المجاز. والتشبيه على شاكلة قوله تعالى :

---

(١) البيان والتبيين ١/١٥٢ ، ١٥٣ .
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٤ .
(٣) انظر فهرس الحيوان فى الجزء السابع ص ٦٢٩ والبلاغة تطور وتاريخ : ص ٥٥ .
(٤) سورة النساء ( آية ١٥ ) .

( أكّالون للسحت )[١] يقول : « وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ، ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الأكل . وقد قال الله عز وجل في تمام الآية : ( إنما يأكلون في بطونهم ناراً ) وهذا مجاز آخر . ويمضي فيقرن بالآية الكريمة بعض آيات أخرى من التنزيل وبعض أشعار العرب التي تجرى مجراها في الاستعارة ، ويعقب بقوله : « فهذا كله مختلف وهو كله مجاز »[٢] .

ونراه يدخل الاستعارة التمثيلية هي الأخرى في المجاز إذ يقول : « ونار تأتي على طريق المثل لا على طريق الحقيقة[٣] » كقول ابن ميّادة :

وناراه نارٌ نارُ كَلٍّ مُدَفَّعٍ وأخرى يُصيب المجرمين سعيرُها[٤]

واستعماله لكلمتي الحقيقة والمجاز في الحيوان يدخل في استعمال البلاغيين المتأخرين ، فقد استعملهما بمعناهما الدقيق ، ولعل في ذلك ما يدل على أن ابن تيمية أخطأه التوفيق حين زعم أن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز تقسيم حادث بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، أما مارجحه من أن حدوث هذا التقسيم كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين فهو صحيح إلى أبعد غاية[٥] .

ونص ابن المعتز في لون أساسي من ألوان البديع الخمسة التي بنى عليها كتابه وهو المذهب الكلامي ، على أن الجاحظ هو الذي سماه بهذا الاسم[٦] .

---

(١) المائدة آية ( ٤٢ ) .
(٢) الحيوان ٥/٢٥ ـ ٢٨ .
(٣) المصدر السابق ٥/١٣٣ .
(٤) الكل : من يعوله غيره — المدفع : الفقير المهين .
(٥) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤ .
(٦) البديع ص ٥٣ .

وإذا كان الجاحظ قد ألم بكثير من فنون البديع ، فإنه لم يسق ذلك فى تعريفات وتحديدات ، إذ كان مشغولا بإيراد النماذج البلاغية .

يقول الدكتور عبد العزيز عتيق : « إن كلمة البديع عند الجاحظ يقصد بها الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية ، وإن كان لم يوضحها توضيحا دقيقا ، ومع تعرضه لبعض أنواع البديع ، فإنه لم يحاول وضع تعريفات ومصطلحات لها ، لأن اهتمامه عند الكلام عنها ، كان بتقديم الأمثلة والنماذج لا بوضع القواعد »(١) .

وهو حقا لم يكن يعنى بوضع ملاحظاته فى شكل قوانين محددة بالتعريفات الدقيقة ، ولكنه صورها فى أمثلة متعـــددة بحيث تمثلها من خلفوه تمثلا واضحاً .

ويمكن الآن حصر فنون البديع التى عرض لها الجاحظ ، وهى : السجع والازدواج ، والتضمين ، والتقسيم والإيجاز الذى هو كالوحى والإشارة ، واللغز فى الجواب ، وإصابة المقدار ( الاحتراس ) ، والهزل يراد به الجد ، والتوشيح أو الإرصاد أو التسهيم ، والاعتراض ، والتعريض والكناية ، والاستعارة وهى عنده من باب المجاز ، والمذهب الكلامى .

وهذه الفنون أدخلها البلاغيون من بعده فى علم البديع وإن كان قد طرأ على ألقابها بعض التغيير .

البديع عند الرواة :

( أبو عبيدة ، والأصمعى ، والمبرّد ، وثعلب ) .

---

(١) علم البديع ( للدكتور عبد العزيز عتيق - طبعة دار النهضة العربية ببيروت سنة ١٩٧٠ ) ص ١١ .

أولا — أبو عبيدة[١] معمر بن المثنى ( المتوفى سنة ٢٠٨ هـ ) وله كتاب مشهور يسمى « مجاز القرآن » وظاهر عنوانه يوهم أنه صنفه فى المجاز بالمعنى البلاغى الاصطلاحى ، وحقيقة الأمر أن كلمة المجاز عنده تعنى الدلالة الدقيقة لصيغ التعبير القرآنية المختلفة ، وقد تنبه لذلك القدماء .. يقول ابن تيمية : « أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية[٢] » . أو بعبارة أخرى عنى به تفسيرها وتأويلها ، ويتضح هذا المعنى من السطور الأولى فى الكتاب ، فقد جاء فى فاتحته : « قال الله جل ثناؤه : ( إن علينا جمعه وقرآنه )[٣] مجازه : تأليف بعضه إلى بعض ، ثم قال :(فإذا قرأناه فاتبع قرآنه )[٤] مجازه : فإذا ألّفنا منه شيئا فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمه إليك » .

على أنه يلاحظ أنه اختار الآيات التى تصور طرقا مختلفة فى الصياغة والدلالة ، متمثلا بما يشبهها من أشعار العرب وأساليبهم[٥] ، وشارحا لما تتضمنه من لفظ غريب . وأدّاه هذا الاختيار إلى أن يتحدث عما فى الآيات من استعارة وتشبيه وكناية وتقديم وتأخير وحذف وتكرار وإضمار ، وتوسع فى تصوير الخصائص التعبيرية كالدلالة بلفظ الخصوص على معنى العموم ، وبلفظ العموم على معنى الخصوص ، وكمخاطبة الواحد مخاطبة الجميع .

(١) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ١٩/ ١٥٤ وأنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطى ( طبعة دار الكتب ١٩٥٠ ) ٣/٢٧٦ ، وتاريخ بغداد ١٣ / ٢٥٢ ، ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى ص ٨٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ٣٢٣ .

(٢) كتاب الايمان ص ٣٥ .

(٣) سورة القيامة ( آية ١٧ ) .

(٤) سورة القيامة ( آية ١٨ ) .

(٥) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ص ٢٩ .

ومخاطبة الجميع مخاطبة الواحد ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الاثنين ، وتنبه فى ثنايا ذلك إلى الصورة العامة للالتفات ، وإن لم يقترح لها اسمه الاصطلاحى يقول : « ومن مجاز ما جاءت ومخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته إلى مخاطبة الغائب .. قال الله تعالى : ( حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم[1] أى بكم[2] » ويتضح من ذلك أن فنون البديع التى عرض لها أبو عبيدة هى : الاستعارة والتشبيه والكناية والالتفات .

ثانياً — الأصمعى :[3] ( المتوفى سنة ٢١١ هـ ) لم يترك الأصمعى فى صيغ التعبير القرآنى والأدبى كتابا مثل كتاب أبى عبيدة . غير أن من جاءوا بعده أشاروا إلى أنه ألف فى التجنيس كتابا . يقول ابن المعتز : « التجنيس هو أن تجىء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر وكلام ، ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها على السبيل التى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها »[4] . ويظهر أنه أول من أفاض فى الحديث عن المطابقة بمعناها الاصطلاحى . وربما كان أول من اقترح اسمها ، يقول ابن رشيق : « ذكر الأصمعى المطابقة فى الشعر فقال : أصلها ( اللغوى ) وضع الرجل فى موضع اليد فى مشى ذوات الأربع .. ثم قال أحسن بيت قيل لزهير فى ذلك :

---

(١) سورة يونس ( آية ٢٢ ) .

(٢) مجاز القرآن ( لأبى عبيدة — تحقيق محمد فؤاد سزكين — نشر الخانجى بالقاهرة ) . ص ١١

(٣) انظر ترجمة الأصمعى فى أنباه الرواة ٢/١٩٧ - ٢٠٥ ومابه من مراجع ، ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء ص ٩٠ وما به من مراجع ، وروضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ( لمحمد بن باقر الخوانسارى ط . طهران ١٣٠٦ هـ ) ص ٤٥٨ ومقدمة الأصمعيات ( تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون — الطبعة الثانية . ط . دار المعارف ١٩٦٤ ) ص ١١ — ١٤ .

(٤) البديع ص ٢٥ وانظر الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ٣٢١ .

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرِّجَالَ إذَا
مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عن أقْرَانِهِ صَدَقَا[1]

وهو أول بيت مثل به ابن المعتز المطابقة أو الطباق[2] . وذكر الدكتور شوقي ضيف أن الأصمعي أول من اقترح «للالتفات» اسمه الاصطلاحي في البلاغة[3] ، وقد جعله ابن المعتز على نوعين : نوع ينصرف فيه المتكلم من المخاطبة إلى الإخبار ، ومن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك . وهذا هو الذي يصدق على الالتفات في الآية القرآنية المذكورة آنفا عند أبي عبيدة وهي قوله تعالى : (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم)[4] . ونوع ثان ينصرف فيه المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر[5] أو بعبارة أدق : بعد أن يفرغ من المعنى وتظن أنه سيجاوزه يلتفت إليه ، فيذكره بغير ما تقدم ذكره . وقد تنبه الأصمعي إلى هذا النوع الثاني وأعطاه اسمه الاصطلاحي لأول مرة فيما نعلم ، إذ روى أنه « سأل بعض من كان يتحدث إليهم أتعرف التفاتات جرير ؟ فقال له لا فما هي ؟ قال :

أَتَنْسَى إذْ تُودِّعُنَا سُلَيْمَى بِعُودِ بَشَامَةٍ سُقِيَ البَشَامُ[6]

ألا تراه مقبلاً على شعره . ثم التفت إلى البشام فدعا له . وقوله :

طَرِبَ الحَمَامُ بِذِي الأَرَاكِ فَشَاقَنِي لازلت في غَلَلٍ وأَيْكٍ نَاضِرِ[7]

---

(١) انظر العمدة لابن رشيق القيرواني ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الثالثة ـ ط . مطبعة السعادة ١٩٦٣ ) ٢/٦ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٣٠ ، وعثر : موضع باليمن .

(٢) البديع ص ٣٨ .

(٣) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٠ .

(٤) سورة يونس ( آية ٢٢ ) .

(٥) البديع ص ٥٨ .

(٦) البشام : شجر لاثمر له .

(٧) ذو الأراك : موضع — الغلل : الماء على سطح الحدائق — الأيك : الشجر الملتف .

فالتفت إلى الحمام فدعا له[1] ، وتنبه الأصمعى أيضاً إلى لون بديعى آخر وهو الايغال ، وإن لم يقترح له اسمه ، وهو كما عرفه قدامة بن جعفر : « أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ، ثم يأتى بها لحاجة الشعر فى أن يكون شعراً إليها ، فيزيد بمعناها فى تجويد ماذكره فى البيت »[2] . يقول التوزى :[3] « قلت للأصمعى : من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتى بالمعنى الخسيس ، فيجعله بلفظه كبيرا ، أو الكبير فيجعله بلفظه خسيسا ، أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت نحو من ؟ قال : نحو ذى الرمة حيث يقول :

قِفِ العيس فى أطلال ميَّة فاسْأَلِ
رُسوماً كأَخْلاق الرِّدَاءِ المُسَلْسَلِ[4]

فتم كلامه قبل « المسلسل » ، ثم قال : « المسلسل » فزاد شيئا .

ثم قال :

أظن الذى يُجْدِى عليك سؤَالها .. دموعا كتَبْدِيد الجمان المُفَصَّلِ[5]

فتم كلامه بالجمان ، ثم احتاج إلى القافية ، فقال : « المفصل » فزاد شيئا .

قال قلت : ونحو من ؟ قال الأعشى ، حيث قال :

كَناطحٍ صخرةً يوما لِيَفْلِقَهَا .. فلمْ يَضِرْهَا وأوْهى قَرْنَهُ الوَعِلُ[6]

---

(١) انظر الصناعتين ص ٣٩٢ .
(٢) نقد الشعر لقدامة ( تحقيق كمال مصطفى — نشر الخانجى ١٩٦٣ ) ص ١٩٢ .
(٣) المصدر السابق ص ١٩٤ وانظر الصناعتين ص ٣٨٠ .
(٤) انظر ديوان ذى الرمة — ( الطبعة الثانية — نشر المكتب الاسلامى — بيروت ١٩٦٤ )ص٥٨٦ ، والبلاغة تطور وتاريخ ص٣١ : والرداء الخلق والأخلاق: البالى. المسلسل : ردىء النسج.
(٥) الجمان : اللؤلؤ — المفصل : الذى عقد فيه بين كل لؤلؤتين خرزه .
(٦) الوعل بكسر العين : تيس الجبل — جمعه أوعال ووعول .

فتم كلامه بيضرها ، فلما احتاج إلى القافية قال : وأوهى قرنه الوعل فزاد معنى ، قلت : فكيف صار الوعل مفضلا على كل ماينطح ؟ قال : لأنه ينحط من قلة الجبل على قرنيه فلا يضيره [1] . وعلق الدكتور شوقى ضيف على كلام الأصمعى فقال : « وأغلب الظن أن الأصمعى إنما أشار فى صدر كلامه للتوزى إلى ماسماه ابن المعتز الافراط فى الصفة ، وسماه قدامة بعده باسم المبالغة » [2] .

ثالثاً ـ أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ): [3]

ونجد له ملاحظات بيانية تتخلل كتابه (الكامل) من حين إلى حين وهو فيه يعرض نماذج أدبية شعرية ونثرية كثيرة ، متبعا لها بالشرح اللغوى ، ومشيرا أحيانا إلى ما فى الكلام من استعارة [4] أو التفات أو ايجاز أو إطناب أو تقديم أو تأخير ، ويذكر أحيانا كلمة المجاز ولكن بالمعنى اللغوى [5] . وقد وقف عند الكناية وجعلها على ثلاثة أوجه : فهى إما للتعمية والتغطية ، وإما للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى مايدل على معناه من غيره . . وهذا النوع فى نظره ، أحسن أنواع الكناية . يقول : ( ويكون من الكناية وذاك أحسنها الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى مايدل على معناه من غيره . قال الله وله المثل الأعلى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » [6] وقال : « أولا مستم النساء » [7] والملامسة فى قول أهل المدينة مالك وأصحابه غير

---

(١) نقد الشعر ص ١٩٥ .

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢ .

(٣) انظر ترجمته فى نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ص ١٦٤ ومابعة من مراجع .

(٤) الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ( الطبعة الأولى — ط . مطبعة التقدم العلمية ١٣٢٣ هـ ) ١ / ١٣٥ .

(٥) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٦٠ .

(٦) سورة البقرة ( آية ١٨٧ ) .

(٧) سورة النساء ( آية ٤٣ ) وسورة المائدة ( آية ٦ ) .

كناية ، وإنما هو اللمس بعينه ) [١] وإما للتفخيم والتعظيم ... وذكر أن الكنية اشتقت من هذا النوع ، وفصل الحديث فى التشبيه تفصيلا لم يسبق إليه ، ساق فيه أمثلة كثيرة .

وقد وزعه على أربعة أنواع يقول : « والعرب تشبه على أربعة أضرب : فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام » [٢] وينهى حديثه فى التشبيه بقوله : « والتشبيه كثير وهو باب كأنه لا آخر له ، وإنما ذكرنا منه شيئا لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعانى » [٣] .. ويعلق الدكتور بدوى طبانه على كلام المبرد فى التشبيه فيقول : « كان علاج المبرد لهذا الموضوع علاجا استقرائيا تقليديا يعرض فيه ألوانا من تشبيهات القدامى والمحدثين ، ويعلق عليها بالاستحسان أو بالاستهجان ، وقد يورد فى أثناء عرضه الاستطرادى شيئا من التشبيهات التقليديه » [٤] .

والواقع أن المبرد لم يكتف بالسرد بل حلل كثيرا من الأمثلة تحليلا يعتمد على الذوق والحاسة الفنية ، وقرر فى بيان ناصع أن التشابه يقع فى بعض الصفات لا كلها . فقال : ( واعلم أن للتشبيه حدا . فالأشياء تشابه من وجوه وتباين من وجوه . فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ) [٥] ولم يزد المبرد فى ألوان البديع شيئا . فكل ما عرض له الاستعارة ، والالتفات ، والكناية ، والتشبيه ،

---

(١) الكامل ٤١/١ .

(٢) المصدر السابق ١٠٥/١

(٣) المصدر السابق ١١٥/١ .

(٤) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ص ١٩٠ .

(٥) الكامل ٧٤/١ وانظر فن التشبيه ( د . على الجندى ) ص ٤٠ .

رابعاً ـ ثعلب : هو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب[1] ( المتوفى سنة ٢٩١ هجرية ) وقد صنف كتيبا صغيرا أسماه ( قواعد الشعر ) . وهي عنده أربعة : أمر ونهي ؛ وخبر واستخبار[2] . وبعد أن مثل لها تحدث عما تجرى فيه من المديح والهجاء والرثاء والاعتذار والتشبيه واقتصاص الأخبار . ومما يلفت النظر هنا اشتراكه مع قدامة في عد ( التشبيه ) أحد فنون الشعر . وأخذ يعرض لبعض وجوه البلاغة ، فتحدث عن المبالغة وسماها ( الافراط في الإغراق[3] ) ومثل لها بقوله النابغة :

إنك شمسٌ والملوك كواكب .·. إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[4]

كما تحدث عن الكناية وسماها ( لطافة المعنى ) وعرفها بقوله :( هي الدلالة بالتعريض عن التصريح )[5] ومثل لها بقول عروة بن الورد :

أُقسّم جسمي في جسومٍ كثيرة .·. وأحْسُو قراح الماء والماء بارد[6]

يريد : أوثر أضيافي بزادي . وأيضاً فإنه تحدث عن الاستعارة وعرفها بقوله : « هو أن يستعار للشيء اسم غيره ؛ أو معنى سواه[7] ، » كقول امرىء القيس في صفة الليل ، فاستعار وصف جمل :

فقلتُ له لما تمطّى بِصُلْبِه     وأردف أعجازاً وناء بكَلْكل

---

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب ٢ / ٢٠٧ وانباه الرواه ١ / ١٣٨ ومابه من مراجع .

(٢) قواعد الشعر لثعلب ( تحقيق د . رمضان عبد التواب ـ نشر دار المعرفة ـ الطبعة الأولى ١٩٦٦ ) ص ٣٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٠ :

(٥) المصدر السابق ص ٥٣ .

(٦) المصدر السابق ص ٥٥ .

(٧) المصدر السابق ص ٥٧ .

وكقول أبى ذؤيب الهذلى :

وإذَا المنيّـةُ أنشبتْ أظفارهَا ألْـفيتَ كلَّ تميمةٍ لاَ تنفْع[1]

وتـكلم عن «حسن الخروج»[2] من النسيب ووصف الإبل إلى المديح ولم يرتض — فيما يظهر — تسمية الأصمعى للمطابقة أو الطباق فسماه « مجاورة الأضداد » وعرفه بقوله : « هو ذكر الشىء مع مايعدم وجوده(٣) كقوله تعالى ( لا يموت فيها ولا يحي )(٤) . وكقول زهير فى الفزاريّين :

هنيئاً لِنَعَم السيّدان وُجدتما على كلّ حال من سحيلٍ ومُبرم

فكلمة : السحيل ضد المبرم .

كما لم يرتض تسمية الأصمعى للجناس فسماه المطابق — واقتدى به قدامه فى هذه التسمية — وعرفه بقوله : « هو تـكرير اللفظة بمعنيين مختلفين(٥) نحو قوله تعالى : « ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت )(٦) وقوله : ( وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ) (٧) . ومثاله من المنظوم قول الأحوص :

سلام الله يا مطـــر عليها وليس عليك يا مطر السلام(٨)

مطر : من الغيث . ومطر : اسم رجل .

---

(١) قواعد الشعر ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٦١ .

(٤) سورةالأعلى ( آية ١٣ ) وسورة طه ( آية ٧٤ ) .

(٥) قواعد الشعر ص ٦٤ .

(٦) سورة ابراهيم ( آية ١٧ ) .

(٧) سورة الحج ( آية ٢ ) .

(٨) قواعد الشعر ص ٦٦ .

ثم عرض لجزالة الألفاظ(١) ، واتساق النظم ، ولفرائد من الأبيات أعطاها أسماء مختلفة . ويعلق الدكتور شوقي ضيف على (قواعد الشعر) بقوله : « والحق أنه لا يضيف إلى البحث البلاغى شيئا يمكن الوقوف عنده ، وإنما هى نظرات طائرة وإن شفعت بالتعريفات والتحديدات ، وهى نظرات تخلو من كل تحليل »(٢) .

وعلق الدكتور إحسان عباس على هذا الكتاب فقال : « ويتسم كتاب قواعد الشعر بغرابة المنحى وسذاجته معاً ، وبالتفرد فى كثير من المصطلح النقدى ، فلن تجد ناقداً سوى مؤلف هذا الكتاب يجعل قواعد الشعر هى : الأمر والنهى والخبر والاستخبار ، وأن فنون الشعر من مدح ورثاء واعتذار ... وغيرها إنما تنبع من هذه القواعد ، ثم يجمع إلى هذا كله حديثاً عن لطافة المعنى وعن حسن الخروج ، ومجاورة الأضداد والمطابقة ، ثم عن جزالة اللفظ واتساق النظم ، كل ذلك فى سطور وبانتقال مفاجئ من موضوع إلى آخر »(٣) .

وفنون البديع التى عرض لها ثعلب هى : الإفراط فى الاغراق (المبالغة) ، لطافة المعنى ( الكناية ) ، الاستعارة ، حسن الخروج ، مجاورة الأضداد ( الطباق ) المطابق ( المجانس ) .

---

(١) قواعد الشعر ص ٦٧ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٦١ .

(٣) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ( للدكتور احسان عباس ــ الطبعة الأولى ــ طبعة مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م ) ص ٨٤ .

# الفصل الثانى

## كتاب البديع (لابن المعتز)

أول محاولة علمية جادة فى ميدان علم البديع، هى تلك المحاولة التى قام بها خليفة عباسى ولى الخلافة يوما وليلة، ثم مات مقتولا، وقيل مخنوقا سنة ٢٩٦ هجرية. هذا الخليفة هو أبو العباس عبد الله بن المعتز[١]، صاحب كتاب «البديع». وكان مادفع ابن المعتز إلى تأليف هذا الكتاب ظهور منازع ثلاثة فى البلاغة منذ أواسط القرن الثالث الهجرى. «فكان هناك من يقيسونها بالمقاييس العربية الخالصة التى لا يشوبها أى مقياس أجنبى وهم اللغويون الذين لم يكونوا يقدرون عملا أدبيا الا إذا تلاءم مع صورة البلاغة الموروثة، وإذا سمعوا شيئا من شعر أو نثر لا يتلاءم معها أنكروه إنكاراً شديداً، وكان هناك من يقيسونها بالمقاييس اليونانية الخالصة وهم المتفلسفة الذين كانوا يعجبون بآثار الفكر اليونانى ويرونها المثل الأعلى حتى فى شئون البلاغة العربية، وكان يتوسط بين هذين المذهبين مذهب ثالث معتدل، لا يسرف فى التجديد ولا فى المحافظة، وهو مذهب المتكلمين، وفى مقدمتهم المعتزلة من أمثال الجاحظ. وكانوا أكثر قبولا لدى الكتّاب والشعراء، لأنهم فسحوا للجديد، ولكن مع غير قليل من الاحتياط،

---

(١) انظر ترجمة ابن المعتز فى تاريخ بغداد ١٠/٩٥ وتاريخ ابن الأثير ٨/١٤، ١٥، ١٦، والأوراق للصولى فى أشعار أولاد الخلفاء ص ١٠٧ والأغانى ١٠ / ٢٨٦ ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء ص ١٧٦ وابن خلكان ٢/٢٦٣ ومرآة الجنان ٢/٢٢٥ وشذرات الذهب ٢/٢٢١ وسلسلة أعلام العرب (ابن المعتز العباسى) وكتاب علم البديع ص ٤١.

فسحوا له عن طريق إساغته والملاءمة الدقيقة بينه وبين روح البلاغة العربية وخصائصها الذاتية . وكانت الخصومة تشتد بين المنزعين الأولين : منزعى المحافظة والتجديد المسرف ، فكان الأولون يعرضون عن كل مانقل عن اليونان ، ويزرون عليه ازراء شديدا ، وكان الثانون يقبلون عليه مستظهرين لكل مايصرح به أو يومىء إليه لامن الآراء الفلسفية فحسب ، بل أيضاً من الآراء البلاغية ، ودفعت الخصومة بين الطرفين إلى نشاط بلاغى خصب ، إذ مضى المتفلسفة ينقلون بعض مختصرات لآراء أرسطو فى الخطابة والشعر ، ومضى اللغويون يذيعون فى مصنفاتهم آراءهم البلاغة . وحاول ثعلب — كما مر بنا — أن يصنف فى الشعر كتابا . وصنف فعلا كتيبه ( قواعد الشعر ) غير أنه لم ينقع غله المحافظين لما أشاع فيه من جفاف »[1] .

وكان من حسن حظهم أن تجرد ابن المعتز لتأليف كتابه « البديع » حاملا عنهم عبء الدفاع عن حصونهم إزاء هجمات المتفلسفة المتكررة .

يقول ابن المعتز فى ثنايا كتابه إنه صنفه سنة أربع وسبعين ومائتين .[2]

وقد قام المستشرق الروسى ( أغناطيوس كراتشقوفسكى ) عضو أكاديمة العلوم فى لينتجرار بنشر الكتاب معتمدا على نسخة الاسكوريال الخطية . وطبعه عام ١٩٣٥ بمطبعة استيفن أوستن بمدينة هرت فورد باشراف لجنة تذكار جب الانجليزية .

وقد أخرج هذا المستشرق الكتاب بالعربية فى سبع وسبعين صحيفة

---

(١) انظر البلاغة وتطور وتاريخ ص٦٥ ، ٦٦ .

(٢) البديع ص ٥٨ .

وأضاف إليه عدة فهارس باللغة العربية، وعدة مقابلات لبعض النصوص الواردة فى الكتاب . وفى بعض كتب الأدب العربى والبلاغة العربية . ذاكرا النصوص باللغة العربية وباقى التعاليق والمقابلات باللغة الانجليزية وكتب شرحا باللغة الانجليزية لبعض الكلمات اللغوية الواردة فى الكتاب استنادا إلى كتب اللغة، وكتب بعد ذلك مقدمة باللغة الانجليزية فى دراسة ابن المعتز وكتابه . وصدر الكتاب بذكر المراجع التى اعتمد عليها فى كتابة المقدمة وسواها، ويستغرق ذلك نحو مائة صفحة .

وكان لجهود ذلك المستشرق فضل عظيم فقد تسنى للباحثين الاطلاع على هذا الكتاب المبكر . والافادة مما فيه من بحوث تعد المصدر الأول للمؤلفين فى البلاغة والبيان والبديع . كما يقول ابن رشيق فى عمدته [1] وكما يقول ابن المعتز نفسه فى الكتاب : « وما جمع فنون البديع ولاسبقنى إليه أحد » [2].

وقد صنف ابن المعتز كتابه بعد أن استكمل كثيراً من خصائص شخصيته الثقافية والأدبية . فأصبح الشاعر الملهم . والأديب الفذ . والكاتب البليغ . والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان . والعالم المحيط بكثير من ألوان الثقافة العربية .

ولون الثقافة البادية على كتابه عربى خالص من شوائب الثقافات الأخرى وهو مظهر لثقافة أدبية واسعة . تنم عن اطلاع على كتب النقد والبيان التى كانت فى متناول الشباب الناشئين إذ ذاك . لاسيما كتب الجاحظ عامة و « البيان والتبيين » خاصة . كما تنم عن نشأة عالية على يد شيوخ العربية وأئمتها الذين تتلمذ عليهم .

---

(١) العمدة ١/٢٦٥ .

(٢) البديع ص ٥٨ .

وقد مضى ابن المعتز منذ السطور الأولى فى كتابه يعلن أنه صنفه ليدل دلالة واضحة على أن ما يكثر منه المحدثون مما يسمى بديعا موجود من قديم فى القرآن الكريم والحديث وكلام الجاهليين والاسلاميين . يقول : « قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم . وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع . ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم[1] وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن . ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم . فأعرب عنه ودل عليه . ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه . وفرع فيه وأكثر منه ، فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض . وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف »[2] .

وما يلبث أن يصرح بغرضه من كتابه قائلا : « وإنما غرضنا فى هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع »[3] « فغايته من الكتاب التى يعلنها فيه إعلانا دون مواربة هى : أن يثبت أن المحدثين لم يخترعوا البديع الذى يلهجون به . مما يدل بوضوح على أنه كان هناك من يزعم أن المحدثين هم الذين أنشأوا البديع إنشاء ، أنشأوه من عدم . فلم تكن العربية تعرفه حتى ظهر بشار ومن خلفه من المحدثين ، وتلاه أبو نواس ومسلم يتزيدان فيه . حتى إذا كان أبو تمام أوفى به على الغاية . ولم يسم ابن المعتز أصحاب هذا الزعم . وكانوا

---

(١) تقيلهم : حاكاهم .

(٢) البديع ص ١ .

(٣) المصدر السابق ص ٣

لا يخلون من أحد اثنين[١] : إما متفلسف متعصب . لا يتعمق الأدب العربى وأصوله . وإما شعوبى ممن يغمطون العرب القدماء حقهم وينكرون عليهم كل فضل . وتصدى لهم ابن المعتز ينقض دعواهم الباطلة . مبينا بالبرهان القاطع أن البديع قديم فى العربية . بل إنه ليتعمق فى القدم حتى العصر الجاهلى ، وأن ما للمحدثين منه من أمثال بشار إنما هو الإكثار من استخدام فنونه فحسب . ويقول إن أبا تمام أفرط فى استخدامها وأسرف مما جعله يحسن تارة وتارة يسىء . وقد أفرد له رسالة مستقلة تحدث عن محاسنه ومساويه احتفظ بها المرزبانى فى موشحه[٢] . وكأنه يريد أن يعارض فى قوة من يسرفون فى التجديد واستخدام البديع ببيان أن أبا تمام مثلهم الأعلى أخطأه التوفيق فى كثير من الأحيان لتتبعه هذه الفنون ، وتكلفه الشديد حتى ليستكره الألفاظ ، وحتى ليجرى فيها غير قليل من الالتواء والتعقيد . بل إن إسرافه فى استخدامها ليجعل قارئه يمله مللا شديداً مهما أحسن ومهما أتى بالنادر الطريف . مثله فى ذلك مثل صالح بن عبد القدوس فى بناء شعره جميعة على الحكم والأمثال . يقول : « لو أن صالحا نثر أمثاله فى شعره ، وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق أهل زمانه . وغلب على مد ميدانه »[٣] وكذلك أبو تمام لو أنه جعل البديع فى شعره مفرقا لصارت أشعاره نوادر وازداد بها الكلام حظوة وحسنا »[٤] .

ولم يكد ابن المعتز يتقدم فى الكتاب حتى قال : « ولعل بعض من

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٦٧

(٢) انظر الموشح للمرزبانى ( تحقيق محمد على البجاوى — ط . دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥ ) ص ٤٧٠ وما بعدها .

(٣) البديع ص ١ ، ٢ .

(٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ٦٨ .

قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنية مشاركتنا فى فضيلته فيسمى فنا من فنون البديع بغير ماسميناه به . أو يزيد فى الباب من أبوابه كلاما منثورا أو يفسر شعرا لم نفسره ، أو يذكر شعرا قد تركناه ولم نذكره إما لأن بعض ذلك لم يبلغ فى الباب مبلغ غيره فألقيناه ، أو لأن فيما ذكرناه كافيا ومغنيا »[١] . وكأنه كان يتنبأ بما سيحدث فى علم البديع من كثرة الخلاف فى ألقاب مصطلحاته . على أن أكثر الألقاب التى وضعها له ظلت ثابتة لاتتغير — كما سنرى من تتبعنا لتطور علم البديع — وظل خلفاؤه ومن جاءوا بعده يتمسكون بها ، ويقتدون به فى تلقيبها .

وقد عرض ابن المعتز فى كتابه « البديع » ما استطاع جمعه من نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه السلام وكلام الصحابة والأعراب ، ثم من عيون الشعر الجاهلى والإسلامى والعباسى ، مما اشتمل على محسن من المحسنات البديعية التى كان القدماء يعرفونها ، ويمثلون بها أدبهم ، دون أن يضعوا لها أسماء ، فسماها ابن المعتز ، ومثل لها بما استطاع من الشواهد التى سبقت عصره ، وكان هدفه من هذا التأليف واضحا كما سبق أن ذكرنا ، فهو يريد أن يبين أن المحدثين الذين ذكرهم ، والذين نسب إليهم استخدام التحسين البديعى ، لم يكونوا مبتدعية .

ولقب البديع ، ليس لقبا مستحدثا فى عهد ابن المعتز ، ولكنه اسم لهذه الألوان الساحرة فى الأسلوب ، ولهذا الترف البيانى فى الأداء ، من استعارة وتشبيه وتجنيس وطباق . . . . الخ . سماه به مسلم بن الوليد — كما أسلفنا — وتارة كان يسميه باللطيف . يقول أبو الفرج الأصفهانى : « وهو فيما زعموا

---

(١) البديع ص ٢ ، ٣ .

أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقّب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعة فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائى[١] » .

وينقل عن القاسم بن مهرويه قوله : « أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الذى سماه الناس البديع »[٢] ويقول ابن رشيق : « وهو أول من تكلف البديع من المولدين . وأخذ نفسه بالصنعة ( البديع ) . وأكثر منها . ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل صريع الغوانى إلا النبذ اليسيرة »[٣] . ويردد صاحب معاهد التنصيص ما قاله أبو الفرج فيقول : « هو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس بالبديع واللطيف. وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائى »[٤] .

فسلم هو صاحب هذا المذهب الجديد الذى اقترح له اسمه البديع ، ودرج على هذا اللقب من بعده من العلماء والأدباء حتى جاء ابن المعتز وأفرده بكتاب.

ونرى ابن السبكى يقول : « أول من اخترع ذلك ( يريد علم البديع ) ابن المعتز فجمع منها ( أنواع البديع ) سبعة عشر نوعا ، وعاصره قدامة فجمع منها عشرين نوعا . توارداً منها على سبعة فكان جملة ما زاده ثلاثة عشر نوعا . فتكامل بهذا ثلاثون نوعا ثم تتبعها الناس فجمع العسكرى سبعة وثلاثين ثم جمع ابن رشيق مثلها . وأضاف إليه خمسة وستين بابا من الشعر . وتلاها شرف الدين الشاشى فبلغ بها السبعين . »[٥] .

---

(١) الأغانى ١٨/٣١٥ .
(٢) المصدر السابق . نفس الصفحة .
(٣) العمدة ١/١٣١ .
(٤) معاهد التنصيص للعباسى ١/٢٠ .
(٥) انظر عروس الأفراح فى شروح التلخيص ( الطبعة الثانية — ط . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٣ هـ ) ٤/٤٦٧

وتعداد السبكى لأنواع البديع عند ابن المعتز والعسكرى غير دقيق تماما . على نحو ماسنرى فيما بعد .

وقد جعل ابن المعتز فنون البديع التى بنى عليها الشطر الأكبر من كتابه خمسة هى: الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة أوالطباق ، ورد الأعجاز على ما تقدمها . والمذهب الكلامى .

أولا : الاستعارة :

عرفها بقوله : « هى استعارة الكلمة لشىء لم يعرف بها من شىء قد عرف بها »[1]. كقوله تعالى : ( هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب )[2] وكقوله تعالى ( واخفض لهما جناح الذل من الرحمة )[3] وقوله : ( واشتعل الرأس شيبا )[4].

وأول ما يلاحظ من كلام ابن المعتز أنه عنى بتعريف الاستعارة ، فلم يكتف بالتمثيل لها بل وضع حدا لها دقيقا — والاستعارة فى هذه الآيات « أم الكتاب » و « جناح الذل » و « اشتعل » .

ومن الاستعارة قول امرىء القيس :[5].

وليلٍ كموج البحر أَرْخى سُدوله
علىّ بأنواع الهموم ليبتلى

(١) البديع ص ٢
(٢) سورة آل عمران ( آية ٧ )
(٣) سورة الاسراء ( آية ٢٤ )
(٤) سورة مريم ( آية ٤ )
(٥) البديع ص ٧

فقلتُ له لمّـــــا تمطّى بصلبه
وأرْدف أعجازاً وناء بكلْكل(١)

لأن الليل لا صلب له ولا عجز . وكقول زهير :(٢).

صحا القلبُ عن سلْمى وأقصر باطله
وعرّى أفراس الصبّى ورواحله

وكقول طفيل الغنوى :(٣).

وجعلتُ كُورى فَوْقَ ناجيةٍ
يقتات شحم سِنامِها الرّحلُ

ويتم باب الاستعارة بذكر عيوبها أو المعيب منها . ويقع العيب فيها عنده لغرابتها أو عدم لياقتها للمعنى . أو عدم استساغة الذوق لها . يقول : « هذا وأمثاله من الاستعارة مما عيب من الشعر والكلام . وإنما نخبر بالقليل ليعرف فيتجنب »(٤).

ومنه قول الطائى :(٥).

فضربتُ الشتاء فى أخدعيه
ضربةً غادرته عوداً ركوبا

فالشاعر يصوّر انتصار أبى سعيد الثغرى فى بعض معاركه مع الروم وقد

(١) انظر ديوان امرىء القيس ( نشر دار صادر بيروت سنة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م ) ص ٤٨ ، وكتاب التشبيهات ( لابن أبى عون طبعة كمبردج ١٩٥٠ م ) ص ٢٠٦
(٢) البديع ص ٨
(٣) المصدر السابق ص ١٠
(٤) المصدر السابق ٢٣
(٥) ديوانه ـ ( شرح الخطيب التبريزى ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ ط ٠ دار المعارف سنة ١٩٦٤ ) ١٦٦

تراكمت الثلوج ، فجعل للشتاء اخدعا . . .فعده ابن المعتز من معيب الاستعارة على الرغم من علمه أن أبا تمام صاحب مذهب جديد ومن حقه أن يجدد وأن يقترح من الأدوات ما يريد ، وكان يحسن بابن المعتز أن يخضع لهذا المذهب الجديد . وأن يعرف أن هـذا نوع آخر فى الاستعارة ، ليس هو الاستعارة المألوفة . وكان من الممكن أن يسميه اسما جديدا لا يتصل بالاستعارة كما فعل البلاغيون المتأخرون . إذ سموه « الاستعارة المكنية » . على نحو ما نعرف فى كتب البلاغة العربية . « والبيت بدون شك طريف . إذ جعل أبو تمام الشتاء بوعوثه ثلوجه فرساً جامحاً . وجعل انتصار أبى سعيد فيه كأنه ضربة سددت إليه ، فقضت على جموحه وشراسته ، وجعلته سهل القياد ذلولا . ولكن ابن المعتز — وتابعه فى ذلك الآمدى — لم يعجب بالبيت لأن فيه الاستعارة المكنية التى يرى فيها خروجاً على عمود الشعر العربى »[1] .

وكان صنيع أبى تمام هذا محور حملة شديدة عليه. حملها النقاد المحافظون وقد فتح الآمدى فصلا فى كتابه[2] ( الموازنة ) استعرض فيه طائفة من أبيات هذا الصبغ وصفها بالقبح ، والحق أن حملة الآمدى على الاستعارات المكنية عند أبى تمام أساسها ابن المعتز وحملته عليه .

ثانيا : التجانس :

« وهو أن تجىء الكلمة مجانسة لأخرى فى بيت شعر أو كلام ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها على السبيل التى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها » (٣) .وقال الخليل : الجنس لكل ضرب من الناس

(١) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٣٨ .

(٢) الموازنة للآمدى ١/٢٤٥ .

(٣) البديع ص ٢٥ .

والطير والعروض والنحو ، فمنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى فى تأليف حروفها ومعناها . ويشتق منها مثل قول الشاعر :

« يوم خلجت على الخليج نفوسهم . . . . » (١) .

أو يكون تجانسها فى تأليف الحروف دون المعنى مثل قول الشاعر مسلم بن الوليد :

يا صاح إنّ أخاك الصبّ مهموم
فارْفق به إنّ لومَ العاشق اللّوم(٢)

فنراه يطلق التجنيس على ما اتحد فى المعنى . أو اختلف من غير تفرقه بينهما .

ومنه قوله تعالى : ( وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ) (٣) وقوله : ( فأقم وجهك للدين القيم ) (٤)

وواضح أن ابن المعتز ليس صاحب هذا المصطلح والسابق إليه ، بل هو نفسه يصرح بأن الأصمعى قد ألف كتابا فى الأجناس ، وأن الأصمعى مسبوق بالخليل بن أحمد ( المتوفى سنة ١٧٥ هجرية ) .(٥)

ويتم ابن المعتز حديثه عن التجنيس بذكر المعيب منه كما فعل فى الاستعارة يقول : « ومن التجنيس المعيب فى الكلام قول بعض المحدثين وهو منصور ابن الفرج : (٦)

(١) البديع ص ٢٥ والصناعتين ص ٣٢١ والبيت لأبى يعقوب اسحاق بن حسان الخريمى وشطره الثانى « عصبا وأنت لمثلها مستام »
(٢) اللوم . اللؤم .
(٣) سورة النمل ( آية ٤٤ )
(٤) سورة الروم ( آية ٤٣ ) .
(٥) انظر الصيغ البديعى فى اللغة العربية ( للدكتور أحمد إبراهيم موسى ، نشر دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٩ م ) ص ١٣٣ .
(٦) البديع ص ٣٤ .

أكابد منـك أليـمَ الألَمْ
فقـد أنحل الجِسْمَ بعـد الجَسَمْ

ومنه قول أبي تمام :

ذهبت بمذهبه السّماحـةُ فالتوت
فيه الظّنون : أَمُذْهِبٌ أمْ مَذْهَبُ(١)

وواضح أن ابن المعتز هو الذي فتح الأبواب أمام الآمدى (٢) لكي يهاجم أبا تمام في استخدامه للجناسات المعقدة .

ثالثا : المطابقة :

إستمد ابن المعتز هذا الفن من الأصمعى — الذى أفاض فى الحديث عن المطابقة(٣) بمعناها الاصطلاحى ، وربما كان أول من اقتراح اسمها كما سبق أن ذكرنا ، ونقل ابن المعتز تعريف الخليل لها فقال : « قال الخليل رحمه الله: يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد، وكذلك قال أبو سعيد(٤) فالقائل لصاحبه أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا فى ضيق الضمان ، قد طابق بين السعة والضيق فى هذا الخطاب » (٥) . قال الله تعالى : ( ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ) (٦) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » . وقال عيسى

(١) البديع ص ٣٥ وانظر ديوان أبى تمام ١/١١٩ .
(٢) الموازنة ١/٢٦٥ .
(٣) العمدة ٢/٦ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٠ .
(٤) يقصد الأصمعى .
(٥) البديع ص ٣٦ وانظر تاريخ النقد العربى إلى القرن الرابع الهجرى ( للدكتور محمد زغلول سلام — ط . دار المعارف سنة ١٩٦٤ ) ص ١١٨ .
(٦) سورة البقرة ( آية ١٧٩ ) .

ابن طلحة لعروة بن الزبير حين ابتلى فى رجله : « إن ذهب أهونك علينا فقد بقى أعزك علينا ، فطابق كما ترى بين العز والهوان .

وأول بيت مثل به ابن المعتز للمطابقة قول زهير :

ليثٌ بعـثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذَا
ما اللّيثُ كذَّب عن أقرانِهِ صَدقَا

وقد ذكر الأصمعى أن هذا أحسن بيت قيل لزهير فى ذلك(١) .

ومن المطابقة عند ابن المعتز قول عبد الله بن الزبير الأسدى :

رمى الحِدْثانُ نسوةَ آل حربٍ
بمقدارٍ سمدْنَ له سُموداً
فردّ شعورَهُنّ السودَ بيضاً
وَرَدَّ وجوهَهُنّ البيضَ سُوداً

والظاهر من الأمثلة التى ذكرها ابن المعتز أن المراد بالمطابقة هو جمع كلمتين متضادتين والمقابلة بينهما فى عبارة أو بيت شعر . وأما المعيب منها فمرجعه إلى عدم استساغة الذوق له ، أو احالته مثل قول الأخيطل :

قلت المُقامَ وناعبٌ قال النّوى
فعَصيتُ أمرى والمطاعُ غُـرابُ

فقال ابن المعتز : « وهذا من غث الكلام وبارده »(٢) ولا ترجع الغثاثة فى البيت إلى المطابقة وحدها وإن كانت المطابقة كشفتها فى عجز البيت .

ومن معيب المطابقة عنده أيضاً قول بعض المحدثين :

---

(١) البديع ص ٣٨ والعمدة ٢/٦ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٣٠ .

(٢) البديع ص ٤٦ .

وجعلتَ مالكَ دون عِرْضِكَ جُنَّةً
إذ عِرْضُ غيرِكَ لا يقيه بقوّة

رابعا : رد أعجاز الكلام على ماتقدمها :

لقد ذكرنا فى الفصل الأول أن الجاحظ تنبه إلى هذا اللون البديعى ، وإن لم يقترح له اسمه ، وجاء ابن المعتز فلم يعرفه ولكنه قسمه إلى ثلاثة أقسام هى : (١)

١ — ما يوافق آخر كلمه فيه آخر كلمة فى نصفه الأول مثل قول الشاعر :

تُلْـقَى إذَا ما الأمرُ كانَ عرمرَما
فى جيش رأى لا يُفَلّ عَرَمْرَم (٢)

٢ — ما يوافق آخر كلمة منه أوّل كلمة فى نصفه الأول كقول الشاعر :

سريعٌ إلى ابن العمِّ يَشْتِمُ عِرْضَهُ
وليس إلى داعى النَّدَى بسريعِ (٣)

٣ — ما يوافق آخر كلمة من البيت بعض ما فيه ، أو بعبارة أخرى بعض ما فى حشوه كقول الشاعر :

عميدُ بَنِي سُلَيْمٍ أقْصَدَتْهُ
سِهامُ الموتِ وهْىَ له سِهامُ (٤)

ومنه قوله تعالى : ( انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)(٥) . وكقوله عز وجل : ( لا تفتروا على الله كذبا

(١) البديع ص ٤٧ .
(٢) العرمرم : الشديدة ، والجيش الكثيف .
(٣) البديع ص ٤٨ .
(٤) أقصدته . أصابته فقتلته .
(٥) سورة الاسراء ( آية ٢١ ) .

فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ) (١) . وفى الحديث : « من مقت نفسه فقد آمنه الله من مقته » .

وأمثال ذلك مما تتقابل فيه الألفاظ على اختلاف موضعها فى مطلع البيت أو فى عروضه أو فى حشوه .

وكعادته يختم حديثه عن رد أعجاز الكلام على ما تقدمها بذكر المعيب منه . فيقول : « ومن المعيب منه فى الكلام أو الشعر قول ذى نواس البجلى : (٢)

يُقَيِّمُنِى بَرْقُ المَبَاسِمِ بِالحِمَى
ولا بارقٌ إلا الكريمُ يُقيمُهْ

وهذا قد جمع على غثاثته بابين من بديع الكلام وهما هذا الباب ، وباب الاستعارة .

وقال منصور بن الفرج :

زرناكِ شوقاً ولو أنّ النوى نشرَتْ
بُسْطَ المَلاَ بيننَا بُعْداً لَزُرنَاكِ

وهذا أيضاً قد جمع معنيين من البديع وليس بشىء » .

خامسا : المذهب الكلامى :

ذكر ابن المعتز أن هذا الباب من البديع مذهب سماه الجاحظ « المذهب الكلامى ، وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئا ، وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » .

---

(١) سورة طه ( آية ٦١ ) .
(٢) البديع ص ٥٣ .

ثم يذكر قول أبى الدرداء — وهو من المتقدّمين — : « إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم أن يقال علمتَ فماذا علمت ؟ » . وقال الفرزدق :

لكلّ امرىء نفسان : نفسٌ كريمةٌ
وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى
إذا قلّ من أحرارهِنّ شفيعُها(١)

« وقال عمر لعبد الله بن عباس من ترى أن نوليه حمص ؟ قال : رجلا صحيحا منك صحيحا لك . قال : كن أنت ذلك الرجل . قال لا ينتفع بى مع سوء ظنى فى سوء ظنك بى . »

والمذهب الكلامى الذى تحدث عنه ابن المعتز ، وجعله أحد أبواب البديع فى كتابه . «هو نوع من الجدل العقلى ، والقدرة على توليد المعانى ، والدقة فى المفارقات ، ولم ير ابن المعتز بدا من ذكره ميزة من مميزات الشعر الجديد الذى يرى امامه أبا تمام : « أن الشعر صوب العقول » : وهو فيما نعتقد ليس من جوهر الشعر ، بل ولا من جوهر التفكير المنتج » .(٢)

ولم يحدد ابن المعتز المذهب ، بل اكتفى بذكر بعض أمثلة وشواهد تصوره وقد ظن بعض السابقين والمعاصرين أن الجاحظ وابن المعتز جميعا يريدان به القياس المضمر الذى يحذف فيه حده الأصغر ، غير أن من يدقق النظر فى الأمثلة التى ساقها ابن المعتز ، يرى فى وضوح أن دلالة المذهب عنده كانت أوسع من ذلك . وأكبر الظن أنه هو والجاحظ جميعا يريدان به طريقة المتكلمين العقلية فى الاحتجاج والجدل والاحتيال للعلل والمعاذير ، وربما شهد لذلك قول الجاحظ :

---

(١) البديع ص ٥٤ .

(٢) النقد المنهجى عند العرب للدكتور محمد مندور — ط . نهضة مصر سنة ١٩٤٨ ) ص ٤٨ .

« لولا استعمال المعرفة ، لما كان للمعرفة معنى ، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى ، وللعقل فى خلال ذلك مجال ، وللرأى تقلب ، وتنشأ للخواطر أسباب ويتهيأ لصواب الرأى أبواب »(١)

ويذكر الدكتور شوقى ضيف أن ابن المعتز أراد بهذا المذهب « طريقة المتكلمين العقلية فى دقة الاستنباط ، وفى التعليل وفى الكشف عن المعانى الخفية »(٢) .

ونخلص من هذا إلى أن ابن المعتز فى كتابه ( البديع ) عندما أراد أن يحصى مميزات المذهب الجديد . جمع بين ثلاثة أشياء مختلفة بطبيعتها هى : (٣)

١ — الاستعارة التى هى عنصر أصيل فى الشعر .

٢ — طرق أداء تتعلق بالشكل ولا تمس جوهر الشعر فى كثير وهى : التجنيس ، والطباق ، ورد العجز على الصدور .

٣ — مذهب عقلى هو المذهب الكلامى .

* * *

هذا أبواب البديع الخمسة التى بنى عليها ابن المعتز الشطر الأكبر من كتابه ، وجعلها عماده . وبعد أن فرغ من ذكرها نراه يقول : « قد قدمنا أبواب البديع الخمسة ، وكمل عندنا . وكأنى بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال : البديع أكثر من هذا . أو قال : البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التى قدمناها . فيقل من يحكم عليه . لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ، ونقاد المتأدبين منهم . فأما العلماء باللغة

---

(١) الحيوان ٢/ ١١٥، ١١٦ .
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٧١
(٣) النقد المنهجى عند العرب ص ٤٨ .

والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ، ولا يدرون ماهو ، وماجمع فنون البديع ولاسبقني إليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين »[١] .

وعلى الرغم من أن لون الثقافة البادية على كتاب ابن المعتز عربية خالصة من شوائب الثقافات الأخرى ، نرى الدكتور مندور يعلق على كلام ابن المعتز فيقول : « يقول ابن المعتز أنه لم يسبقه إلى ذلك أحد ، وأنه قد ألفه سنة ٢٧٤ هجرية ، ولكننا نعلم أن حنين بن اسحق (م ٢٩٦ هـ) قد ترجم كتاب « الخطابة » لأرسطو مما يدل على أن هذا الكتاب قد عرفه العرب ، وليس بغريب أن يكونوا قد أحاطوا بموضوعه قبل ترجمة حنين[٢] ، ومع ذلك نستطيع أن نرجع إلى نص أرسطو نفسه فنجده فى الجزء الثالث من كتابه يتحدث عن « العبارة » وفيه يذكر الاستعارة ، والطباق ، والجناس ورد الأعجاز على ماتقدمها ، وهذه أربعة أوجه من الخمسة التى ميز بها ابن المعتز مذهب المحدثين ، أما الخامس وهو المذهب الكلامى ، فيذكر ابن المعتز نفسه أنه أخذه عن الجاحظ ، وهو فى الواقع ليس من خصائص الصياغة الجديدة ، بل هو منهج عقلى . »[٣]

ويردد الدكتور كال زكى ماذكره الدكتور مندور : « من أن ابن المعتز قد أخذ بعض مصطلحاته من كتاب الخطابة لأرسطو ، وأنه لايستبعد

(١) البديع ص ٥٧ ، ٥٨

(٢) يقرر الدكتور مندور فى كتابه النقد المنهجى عند العرب ص ٥٧ أنه اطلع على هذه الترجمة بمكتبةجامعة القاهرة .

(٣) النقد المنهجى عند العرب ص ٥٦ ، ٥٧

أن يكون ابن المعتز قد استعان ببعض شواهده بعد تبديلها ،وتغيير الأعلام فيها . » (١)

ويحاول الدكتور مندور بعد ذلك أن يعترف بفضل ابن المعتز فيقول : « إذا كان أرسطو قد تحدث عن هذه الأوجه الأربعة التى رأى فيها ابن المعتز مميزات لمذهب البديع ، فهذا لايسلب ابن المعتز فضله ، وذلك لأنه لم يأخذ عن أرسطو إلا مجرد التوجيه العام ، والفطنة إلى طريقة تحليل هذه الظواهر التى طبقها على اللغة العربية باحثا عن الأمثلة فى القرآن الكريم ، وأشعار المتقدمين والمتأخرين ، ثم إنه لم يقتصر على التعريفات والتقاسيم بل تعداها إلى نقد المعيب من كل وجه من أوجة البديع التى ذكرها وهو فى هذا أيضا يشبه أرسطو ، الذى نجده فى نفس الفصل الثالث من « خطابته » ينتقد مافى بعض الأمثلة من عيوب . » (٢)

ولكننا نختلف مع الدكتور مندور فيما ذهب إليه وذلك لسببين :

الأول : أنه ليس هناك دليل على أن كتاب الخطابة لأرسطو كان مترجما ترجمة دقيقة قبل سنة ٢٧٤ هجرية . (٣)

الثانى : أن الفنون الخمسة التى ذكرها ابن المعتز أشار اليها الأصمعى والجاحظ كما مربنا فى غير هذا الموضع .

وبعد أن فرغ ابن المعتز من ذكر فنون البديع الخمسة قال : « ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنها كثيرة لاينبغى للعالم أن

---

(١) ابن المعتز العباسى ( سلسلة أعلام العرب) ص ٢٦٧ .

(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ٥٩ ، ٦٠

(٣) انظر كتاب أرسطو طاليس فى الشعر نقل أبي بشر متى بن يونس من السريانى إلى العربى ( حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره فى البلاغة العربية د ، شكرى محمد عياد ــ نشر دار الكتاب العربى ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٧ م )ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق فى المعرفة فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الفنون الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ، أو لم يأت غير رأينا فله اختياره . »(١)

وقد علق الدكتور شوقى ضيف على ذلك بقوله : « وهى فقرة طريفة فى الكتاب ، إذ يذكر فيها طائفة من الحقائق المهمة ، من ذلك أن كلمة البديع ، إنما كانت تدور قبله بين الشعراء ونقاد المتأدبين ، أما اللغويون فلم يكونوا يعرفونها ولا كانوا يعرضون لها ، وذكرنا فى غير هذا الموضع أن أول من اقترحها مسلم بن الوليد ، ونراها مبثوثة فى كتابات الجاحظ — كما أسلفنا — وفعلا لم تلقنا فى كتابات اللغويين حتى عصر ابن المعتز » .(٢)

ويقول ابن المعتز إنه ربما اعترض عليه معترض ، فقال إن الفنون الخمسة الأساسية التى عدها أركان البديع أكثر مما ينبغى ، وأنه كان يحسن أن يقف بها عند فن واحد أو فنين فحسب ، ويقول إنه ربما اعترض آخر بأنها أكثر مما عده ، مدخلا فيها فنونا أخرى من فنون محاسن الكلام والشعر ، ويذكر أنه قصد إلى أن يقصر البديع على الفنون الخمسة ، لاعن جهل منه بل عن معرفة دقيقة ، ولكى يؤكد معرفته بمحاسن الشعر والكلام مما لم يذكره ، رأى أن يفصل الحديث فى طائفة منها ، مبيحا لغيره أن يضيف إليها محاسن أخرى لم يذكرها ، ما شاءت له رغبته ، أو ما شاء له اجتهاده .

---

(١) البديع ص ٥٨ .

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٦٩ .

« ونعتقد اعتقادا أن ابن المعتز إنما اكتفى بفنون خمسة من محاسن الكلام رأى أن يخصها باسم البديع لأنها فعلا الفنون التى كانت موضع أخذ وردٍ بين أصحاب البلاغة العربية الخالصة وبين طوائف المتفلسفة ، ومن ينزعون نحو التجديد المسرف .

واقرأ فى النقد الذى وجه إلى أبى تمام ، وجمع أطرافه الآمدى [1] فى كتابه فستراه يدور على الجناس والطباق والاستعارة المتعمقة ، وغموض المعانى ودقتها مما سماه ابن المعتز باسم المذهب الكلامى ، ناقلا للتسمية عن الجاحظ . أما رد الأعجاز على ماتقدمها — فعلاوة على أن الجاحظ قد نبه إليه — فقد جاء به رمزا لعناية بعض المحدثين بموسيقاهم الحسيه » .

وتحدث ابن المعتز بعقب الفنون الخمسة عما سماه محاسن الكلام وذكر أنها أكثر من أن يحاط بها ، وفصل الحديث فى ثلاثة عشر منها هى :

( ١ ) الالتفات :

قسمه ابن المعتز إلى قسميه اللذين عرضنا لهما فى حديثنا عن أبى عبيدة والأصمعى وذكر شواهدهما من القرآن الكريم والشعر القديم والحديث . وقد سبق أن ذكرنا أن الأصمعى هو الذى أعطى « الالتفات » اسمه الاصطلاحى لأول مرة .

( ٢ ) الاعتراض :

هذا الفن موجود عند الجاحظ ، وجعله ابن المعتز من محاسن الكلام والشعر وعرفه بقوله : « هو اعتراض كلام فى كلام لم يتمم معناه ، ثم يعود إليه فيتممه فى بيت واحد » [2] كقول كثيّر :

(١) الموازنة بين الطائفين ١/٢٤٥ وما بعدها ، وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٠ .
(٢) البديع ص ٥٦

لو أنّ الباخلين — وأنتِ منهم —
رأوكِ تعلَّموا منكِ المِطَالا

ومنه قول النابغة الجعدى :

ألا زَعَمَتْ بنو سعدٍ بأنِّى
ألا كذبوا كبيرُ السنّ فانِ

(٣) الرجوع :

« وهو أن يقول الشاعر شيئا ويرجع عنه »[(١)] كقول بشار :

نُبِّئتُ فاضِحَ أُمِّهِ يغتابُنِى
عندَ الأميرِ وَهَلْ عَلَيْهِ أَمِيرُ

ومنه قول بعض الشعراء :

أليس قليلاً نظرةٌ إن نظرتُها
إليكِ وَكَلاًّ ليس منكِ قليلُ

(٤) حسن الخروج :

مر بنا أن ثعلبا[(٢)] تحدث فى قواعده عن حسن الخروج من النسيب ووصف الإبل إلى المديح ، وعرفة ابن المعتز بأنه : « الخروج من معنى[(٣)] إلى معنى » وساق فيه شواهد كثيرة منها ماسماه أبو تمام فى بعض حديثة للبحترى باسم « الاستطراد »[(٤)] وقد تبعه فيه البلاغيون[(٥)] ، من مثل قول مسلم بن الوليد خارجا من الغزل إلى الهجاء :

---

(١) البديع ص ٦٠
(٢) قواعد الشعر ص ٦٠
(٣) البديع ص ٦٠
(٤) العمدة ٢ / ٤٠
(٥) انظر الصناعتين ص ٣٩٨ وإعجاز القرآن ص ١٠٣ ، ١٠٤

وأحببْتُ من حُبِّها الباخليـــــ
ـن حتى وَمِقْتُ ابن سَلْمٍ سعيدا[١]

ومنه قول السموءل :

وإنا لقوْم ما نرى القتْــل سُــــبَّةً
إذَا ما رأتْه عامرٌ وســـلولُ[٢]

وكقول حسان[٣] :

إن كُنْتِ كاَذِبةَ التى حــدَّثتنا
فنجوْتِ مَنْجَى الحـارثِ بن هشام

( ٥ ) تأكيد للمدح بمـا شبه الذم :

لم يعرفه ابن المعتز ولـكنه مثل له بقول النابغة الذبيانى المشهور :

ولا عيب فيهم غـــــير أنّ سيوفَهم
بهنّ فلولٌ من قِراع الـكتائبِ[٤]

وقول النابغة الجعدى :

فتىً كملتْ أخـــــلاقُه غير أنَّه
جوادٌ فـما يُبْـقِى من المـــالِ باقيا

وهذا الفن سماه البلاغيون من بعده « الاستثناء[٥] » .

---

(١) البيت فى كتاب البديع ( ص ٦١ ) منسوب لأبى العتاهية

(٢) انظر كتاب البديع ص ٦١ والصناعتين ص ٣٩٩ واعجاز القرآن ص ١٠٤ والعمدة ٢/٣٩ ، ( عامر وسلول : قبيلتان ) .

(٣) ديوانه ص ٢١٥ .

(٤) البديع ص ٦٢ .

(٥) انظر الصناعتين ص ٤٠٨ وإعجاز القرآن ص ١٠٦ ، ١٠٧ والعمدة ٢/٤٨ .

(٦) تجاهل العارف :

وهو ضرب من مزج الشك باليقين ليزيد الكلام تأكيدا ومثل له ابن المعتز بقول زهير[١] .

وما أدْرى — وسوف إخالُ أدرى —
أقومٌ آل حصنٍ أم نساءُ

وقول ابن أمية :

فدَيْتُك لم تَشْبَعْ ولم تَرْوَ من هجْرى
أتستحْسِنُ الهِجْرانَ أكْثرَ من شَهْرِ
أرانى سأسلو عنك إن دام ما ترى
بِلا ثِقَةٍ لكن أظنُّ ولا أدرى

(٧) الهزل يراد به الجد :

وقد استمده ابن المعتز من الجاحظ[٢] . ومثل له بقوال أبى العتاهية يهجو هازئا :

أرقيك أرقيك باسم الله أرقيكا
من بُخْلِ نفسٍ لعلّ الله يشفيكا
ما سِلْمُ نَفْسِك إلّا من يتاركُها
وما عدُوّك إلّا من يُرجّيكا[٣]

(٨) حسن التضمين :

تنبه إليه الجاحظ فأشار إلى اقتباس الخطباء لآى الذكر الحكيم فى

(١) انظر شعر زهير بن أبى سلمى ص ١٣٢ .
(٢) البيان والتبين ١/٩٣ وانظر البلاغة والتطور وتاريخ ص ٥٦ ، ٧٢ .
(٣) البديع ص ٦٣ .

كلامهم ، وأنهم قد يتمثلون بالشعر في خطبهم ، وأيضاً يتمثل به الكتاب في رسائلهم إلا أن تكون إلى الخلفاء [١] . ويلاحظ أن الجاحظ يسميه ( الاقتباس ) .

وحسن التضمين هو استعارة الشاعر الأبيات وأنصافها أو بعض الألفاظ في حشوها من شعر غيره ، وادخالها في أثناء أبيات قصيدته كقول بعض الشعراء يمدح أحد القواد :

ولقد سَمَا للخُرَّمىّ فلم يَقُـــــلْ
يوم الوَغَى لـكن تضايقَ مقْدَمى [٢]

فكلامه « لـكن تضايق مقدمى » استعارها الشاعر من عنترة إذ يقول :

إذ يتقون بىَ الأســـــنَّة لم أخِمْ
عنها وَلـكن تضـــــايق مَقْدَمى [٣]

وقد ورد في صحيفة البلاغة الهندية إشارة إلى أن التضمين معيب [٤] ، وكرر الجاحظ ذلك في كلامه ، وهو يريد أن يكون الفصل الأول من الكلام أو البيت من الشعر مفتقرا إلى مايليه ، بحيث لا يتم معناه إلا به ، وهو بهذا من عيوب الكلام لا من محاسنة .

كما أن أصحاب البلاغة العربية فيما بعد شددوا في وجوب اكتفاء كل بيت في القصيدة بمعناه ، وسموا البيت الذى يفتقر إلى مابعده مضمنا، وعدوا

---

( ١ ) البيان والتبيين ١/١١٨ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٣ .
( ٢ ) البديع ص ٦٤ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص٧٣ .
( ٣ ) انظر ديوان عنترة ( تحقيق محمد سعيد مولوى — نشر المكتب الإسلامى — بيروت سنة ١٩٧٠ م ) ص ٢١٥ .وأخم . أجبن — مقدمى : إقدامى .
( ٤ ) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٣ .

التضمين من أشد عيوب الشعر فكل بيت ينبغى أن يستقل بمعناه إستقلالا تاما .

(٩) التعريض والكناية :

وقد وردت كثيرا فى كتابات الجاحظ[١] ، واللغويين[٢] ، ويقول ابن المعتز : « قال على رضى الله عنه لعقيل ومعه كبش له: أحد الثلاثة أحمق .. فقال عقيل . أما أنا وكبشى فعاقلان[٣] » ومنه قول بشار :

وإذا ما التقى ابن أعْيا وبكرُ
زاد فى ذا شبْرٌ وفى ذاك شبرُ

أراد أنهما يتبادلان ، وأن كلا منهما يحنّ إلى صاحبه حنين الحليلة لبعلها . ويلاحظ هنا أن ابن المعتز لم يفرّق بين أمثلة الكناية وأمثلة التعريض ممّا يدلّنا على أنهما مترادفان عنده .

(١٠) الإفراط فى الصفة :

هذا الفن أشار اليه الأصمعى فى صدر كلامة للتّوزى ،[٤] وسماه « ثعلب » « الإفراط فى الإغراق »[٥] ومثل له ابن المعتز بقول إبراهيم ابن العباس الصولى :

يا أخاً لم أرَ فى الناس خِلاًّ
مثله أسرعَ هجْراً ووَصْلا

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١١٧ و٢٦٣ .
(٢) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٥ والكامل للمبرد ١/٤١ .
(٣) البديع ص ٦٤ .
(٤) انظر الصناعتين ص ٣٨٠ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢ .
(٥) قواعد الشعر ص ٤٩ .

كُنْتَ لى فى صدر يومى صديقاً
فَعلَى عهدك أمسيت أم لا ؟[1]

ومنه قول الشاعر يهجو رجلا :

تبكى السمواتُ إذا ما دَعا
وتستعيذ الأرض من سجْدَتِهْ
إذا اشتهى يوماً لحومَ القطا
صرّعها فى الجوّ من نكهتِهْ

ويلاحظ أن ابن المعتز اكتفى بالتمثيل لهذا الفن دون تعريفه وتحديد معناه. وسماه قدامة بعده المبالغة وفرع منها الغلو ،[2] وتبعه فى ذلك البلاغيون.

(١١) حسن التشبيه :

سبق أن ذكرنا فى الفصل السابق أن الجاحظ أكثر من ذكر التشبيه بنفس معناه الاصطلاحى وأن المبرد فصل الحديث فيه ووزعه على أربعة أنواع ، أما ابن المعتز فاكتفى بايراد الشواهد الكثيره المختلفة فى القديم والحديث ... منها قول امرىء القيس[3] .

كأنّ قلوبَ الطّير رطْباً ويابساً
لدى وكْرِها العنّابُ والحشفُ البالى

وقول زهير :

---

(١) البديع ص ٦٦ .
(٢) نقد الشعر ( نشر الخانجى ١٩٦٣ ) ص ١٦٠ ومابعدها ، وص ١٩٢ .
(٣) البديع ص ٦٨ ، ٦٩ وانظر ديوانه ص ١٤٥ .

بكرْنَ بكوراً واسْتَحَرْنَ بسحْرةٍ
فهنّ لوادِى الرسّ كاليَد فى الفمِ(١)

فالشاعر يريد أن يقول : إنهن ابتدأن السير ، وسرن سحرا وهنّ قاصدات لوادى الرس ، لايخطئنه كاليد القاصدة للفم لاتخطئه .

ومن التشبيهات العجيبة عند ابن المعتز قول عنترة بن الشداد العبسي فى الذباب :

هزجا يحكّ ذراعَه بذراعِه
قدْح المُكبّ على الزّناد الأجذم(٢)

(١٢) إعنات الشاعر نفسه فى القوافى وتكلفه من ذلك ماليس له(٣) :

وهو يريد به ما اصطلح عليه من جاءوا بعده باسم « لزوم مالا يلزم » وهو ألا يكتفى الشاعر فى قصيدته أو مقطوعته بروى واحد ، بل يضيف إليه التزام الحرف السابق له كقول بعض الشعراء :

يقولون فى البُسْتان للعين لذّةٌ
وفى الخمر والماء الذى غيرُ آسنِ
فإنْ شئت أن تلقى المحاسن كلَّها
ففى وَجْه من تَهْوَى جميعُ المحاسنِ

وواضح أنه التزم السين قبل النون ، وكأنما ابن المعتز هو الذى رشح لكى ينظم الشعراء على هذا الحسن من محسنات البديع بعض أشعارهم ، حتى

(١) البديع ص ٦٩ وانظر شعر زهير بن أبى سلمى ص ٨ .
(٢) ديوان عنتره ص ٩٧ وانظر التشبيهات ص ٣٨٩ وكتاب البديع ص ٧٠ .
(٣) البديع ص ٧٤ .
(٤) البديع ص ٧٥ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٣

إذا كان أبو العلاء نظم منه ديوانه الضخم الملقب باسم « اللزوميات » .

(١٣) حسن الابتداءات :

وهو المحسن الأخير عند ابن المعتز ومثّل له بقول النابغة :

كليني لهمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصبِ
وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بطيءِ الكواكب[1]

ومنه قول أبي تمام[2] :

أَجَلْ أيها الرَّبْعُ الذى خفَّ آهلُهْ
لقد أدركتْ فيك النّوى ما تحاوِلُهْ

وبهذا المحسن ينهى ابن المعتز كتابه « البديع » .

ويلاحظ أن ابن المعتز حرص فى كل هذه المحسنات وماسبقها من فنون البديع أن يستشهد عليها من كلام القدماء والمحدثين ، وهو بذلك ينفصل عن اللغويين الذين كانوا يزرون إزراء شديداً على المحدثين ، وفى الوقت نفسه يلتقى بذوق البلاغيين من المتكلمين أمثال الجاحظ الذى كان يعتد بالقدماء والمحدثين والذى كان يتلوّم اللغويين لموقفهم الخاطىء من بارعى المحدثين من أمثال بشار وأبى نواس[3] .

وربما كان اللغوى الوحيد الذى شذ على ذوق اللغويين هو ابن قتيبة ، إذ لم يكن يتعصب للقدماء ضد المحدثين بل كان يسوى بينهم ، يقول فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » : « ولا نظرتُ إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ، ولا إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرتُ بعين العدل

(١) البديع ص ٧٥ .
(٢) ديوانه ٣/٢١ .
(٣) انظر الحيوان ٢/٢٧ ، ٣/١٣٠ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٤ .

للفريقين وأعطيت كلاً حقه . . . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم »[١] «غير أن ابن قتيبة كان شذوذا على ذوق اللغويين، ولم يلبث أن عاد إليهم بعد قوله السالف بقليل ، إذ حرّم على المحدثين الخروج[٢] عن مذاهب المتقدمين فى بكاء الأطلال ووصف الناقة والورود على المياه الآسنة. فليس لهم ــ فى رأيه ــ أن يبكوا مشيّد البنيان ، ولا أن يصفوا بغلا ركبوه، بل لابد أن يجعلوه ناقة، ولا ينعتوا ماء عذبا جاريا وردوه ، بل حتى ليس لهم أن يذكروا النرجس والورد والآس ، وما إلى ذلك من أزهار الحاضرة ، وإنما يذكرون الشيح والحنوة والعرار ، وما إلى ذلك من أزهار البادية ».

« وإنما أطلنا فى بيان هذا الجانب لندل على أن ابن المعتز لم يكن من ذوق اللغويين أمثال ابن قتيبة ، فقد كان معتدلا فى نظرته على شاكلة الجاحظ وغيره من المتكلمين ، فهو يسوى بين المحدثين والقدماء فى الإحسان مع الاحتياط إزاءهم جميعا ، وهو احتياط جعله يعقب على شواهدهم الرائعة فى فنون البديع بما يعاب من كلامهم وأشعارهم جميعا . فهو يستحسن حين يرى الاستحسان ، ويستهجن حين يرى الاستهجان ، بغض النظر عن القدم والحداثة ، إذ المعول على الحسن الذاتى ، لا على الزمان ولا على المكان » .

ومما لاشك فيه أن كتاب « البديع تتويج[٣] لحركة النقد التى نهض بها الشعراء ، فلم يعد النقد عندهم مايصوره ابن المعتز ، ملاحظات جزئية تثار إزاء بعض الأبيات وألفاظها أو معانيها ، بل أصبح مجموعة من القواعد

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٦٢ ، ٦٣ .
(٢) المصدر السابق ١/٧٦ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٤ ، ٧٥ .
(٣) النقد ( للدكتور شوقى ضيف — ط . دار المعارف سنة ١٩٥٤ م ) ٣٧ .

والقوانين يصوغها ابن المعتز فى مصطلحات خاصة أهمها فى رأيه الاستعارة والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى أو ما يحاوله بعض الشعراء من استخدام الطرق المنطقية والفلسفية فى شعره مقتديا فى ذلك بالمتكلمين وما يستظهرونه فى مناظراتهم ومحاوراتهم من هذه الطرق » .

والكتاب يعد دراسة فنية لعناصر الجمال فى الفن الأدبى ، جمع فيه محاسن الكلام التى ازدان بها كلام الفحول من الجاهليين والإسلاميين ، ووردت فى الكتاب الكريم وفى حديث الرسول عليه السلام ، وكلام الصحابة والتابعين (١) .

وجدير بالذكر أن ابن المعتز لم يكن يعنى من « البديع » أو يفهم منه ما فهمه البلاغيون المتأخرون، من أنه العلم الذى يبحث فى وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد .

أى أنهم يجعلونه ترفا . وشيئا فى وسع الأديب أن يستغنى عنه مع بقاء خصائص الفن الأدبى من الوضوح والقوة والجمال . وفاتهم أن الأدب « صناعة » أو فن . وأن الفن مجال التأنق ومجال إظهار براعة الأديب فى اختيار ألفاظه، وتنسيقها ونظمها فى وضع خاص يحدث جرساموسيقيا وقوة ووضوحا وتوكيدا لمعانيه وأفكاره التى يريد العبارة عنها . ومن هنا جمع ابن المعتز فى بديعه ومحاسن الكلام عنده أصول علم « البيان » عند البلاغيين كالاستعارة التى جعلها أول البديع . والتشبيه ، والكناية والتعريض . كما اشتمل البديع على مباحث من « علم المعانى » عندهم كالالتفات والاعتراض . وبقية البديع ومحاسن الكلام عند ابن المعتز هى أصول « علم البديع » عندهم .

---

(١) البيان العربى ( للدكتور بدوى طبانه — ط . مطبعة الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م ) ص ٩٨ .

ولقد بذل ابن المعتز جهودا واضحة نعترف له بها فى البحث عن تلك الألوان البيانية والبديعية. مدفوعاً إلى ذلك بعصبيته لعروبته . منكراً ما ادعاه المحدثون من أن تلك الألوان البديعيــة من صنعهم واختراعاتهم . وأن العرب لم يعرفوها ولم يستعملوها .

وبذلك رسم ابن المعتز منهج البديع. أو وسائل تحسين الأسلوب الأدبى(١) ومهد السبيل لكثير من العلماء الذين خاضوا بحار الصنعة. واستخلصوا فنونا بديعية لا يكاد يدركها الحصر. هذا بالإضافة إلى أنه كان شاعراً ذواقه بطبعه ودقة حسه وفطنته . فيصدر أحكامه على ما يرويه من قصائد . ولا يكتم إعجابه ولا استهجانه فى عبارات تدل على انفعال حقيقى بجمال الشعر أو قبحه . ويكفيه ما تركه لنا من آثار أدبية . فكتابه « البديع » يعد بلاشك محاولة علمية جادة. تلقفها البلاغيون والنقاد من بعده وأضافوا إليها ما استكملوا به مباحث هذا العلم وقضاياه كما سنرى فيما بعد .

ولعلنا نستطيع الآن أن نحدد فنون البديع كما أوردها ابن المعتز فى كتابه وهى : الاستعارة ، التجنيس ، المطابقة ، رد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، المذهب الكلامى ، الالتفات ، الإعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج من معنى إلى معنى ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، تجاهل العارف ، هزل يراد به الجد ، حسن التضمين ، التعريض والكناية ، الإفراط فى الصفة ، حسن التشبيه ، وإعنات الشاعر نفسه فى القوافى ، وأخيرا حسن الابتداءات .

---

(١) انظر البيان العربى ص ٩٩ .

# الباب الثانى

## من ابن طباطبا العلوى إلى أبى هلال العسكرى

# الفصـــل الأول

## عرض عام

زخر القرن الرابع بطائفة من العلماء الأفذاذ . وبكثير من البحوث المتخصصة فى الأدب التى استوعبت جهات البحث فيه ، وتعددت مناهجها بحسب اختلاف العقليات التى أملتها .

وجدير بالذكر أن القواعد ظلت فى هذا القرن الرابع مختلطة بمسائل النقد الأدبى (١) فى أكثر الأحيان ، وعند أكثر المؤلفين . على الرغم من ظهور كتاب البديع فى الربع الأخير من القرن الثالث . ولاعجب فى ذلك ، فإن موضوع البلاغة وموضوع النقد واحد . وهو فن الأدب ومايكون فيه من مظاهر الحسن وأساليب التأثير .

وظهرت فى هذا القرن بيئات كثيرة تعنى بالبحث البلاغى مما هيأ لنموه . وهو نمو صاحبته بعض دراسات تطبيقية . وأول هذه البيئات بيئة الأدباء . ومن نتاج هذه البيئة كتاب « عيار الشعر » لابن طباطبا العلوى ( المتوفى سنة ٣٢٢ هـ . ) ، وهو كتاب عام فى الشعر ، تكلم فيه ابن طباطبا عن فن الشعر وأدواته التى يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه ، وما يبين به الشعر عن المنثور ؛ وعن صناعة الشعر ومايسلكه الشاعر فى تأليفه ؛ وعن المعانى والألفاظ ووجوب العناية بهما . وعن أشعار المولدين ومايستحسن فيها ، وعن طبيعة الشعر الجاهلى والمثل الأخلاقية التى بنى عليها العرب أهاجيهم

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢١ وانظر البيان العربى ص ٩٩ .

ومدائحهم وعن العلة فى استحسان الشعر . وأهم مبحث فيه هو كلامه فى التشبيهات وضروبها على نحو ماسنرى فى الفصل الثانى .

والكتاب الثانى هو كتاب « التشبيهات » لابن أبى عون ( المتوفى سنة ٣٢٢ ه ) وهو كتاب يضم مجموعة من التشبيهات التى جمعت من الشعر القديم والمحدث ، ورتبت حسب الموضوعات .

ومن الطريف أن ابن أبى عون يرى الشعر قائماً على ثلاثة أنحاء : المثل السائر ، والاستعارة الغريبة ، والتشبيه الواقع النادر . وأن ماخرج عن هذه الأقسام الثلاثة فكلام وسط أو دون لا طائل فيه ولا فائدة معه . وأن أجل هذه الأنحاء وأصعبها على صانعها التشبيه . وذلك أنه لايقع إلا لمن طال تأمله ولطف حسه . وميز بين الأشياء بلطيف فكره .(١) واستشهد على المثل السائر بقول الأخطل : (٢) .

فأقسم المجـــدُ حقًّا لا يحالفهم
حتى يحالف بطن الرّاحـــة الشَّعرُ

وقول الفرزدق :

أمّا العـــدوّ فإنا لا نلين له
حتّى يلين لضرس الماضغ الحجـــــــر

أما الاستعارة الغريبة عنده فكقول الطّرماح :

فقلت لهـا يا أم بيضـاء إنّه
هريق شبابى واســـتشنّ أديمى

---

(١) التشبيهات لابن ابى عون ص ٢،١ وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب ( للدكتور إحسان عباس ) ص ١٣٠، ١٣١ .

(٢) التشبيهات ص ١ وانظر دراسات فى الأدب العربى ( لفوستاف فون غرنباوم — ترجمة دكتور إحسان عباس وآخرين — نشر دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٥٩ ) ص ١٢٢ .

وكقول الحطيئة :

قد ناضلوك فأبدوا من كنائنهم
مجداً تليداً ونبلا غير أنكاس

والتشبيه الواقع النادر كقول امرىء القيس فى العقاب[١] :

كأنَّ قُلوبَ الطَّير رطْباً ويَابِساً
لَدَى وكْرِها العنَّاب والحشفُ البالِي

وكقول عدّى بن الرّقاع فى وصف الثور البرىّ :

تُزْجى أغَنَّ كأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ
قلمٌ أصابَ من الدواة مِدادَها[٢]

وبعد ذلك نراه يقول : « وأنا أثبت لك فى هذا الكتاب أبياتاً من التشبيه مختارة ، وأتخلل المعانى المختلفة ، والتشبيهات المتداولة إلى الأبيات الطريفة النادرة ، وأقتصر على جملة يكون لك فيها حظ ومتعة ، وتأدّب ورياضة وأتجنّب الإطالة التى يتلقاها الملالة ، وأتبع ذلك بكتاب فى الأمثال وكتاب فى الاستعارة ، ونبتدىء على اسم الله بتشبيهات خالق الأشياء جلّ وعز فى كتابه ، إنه كان أكمل شاهد وأوضح حجّة[٣] :

ويلاحظ أن ابن أبى عون قد وعد بأن يتبع كتابه فى التشبيهات بكتاب فى الأمثال وكتاب فى الاستعارة ، وليس هناك ما يدل على أنه قام بتأليف هذين الكتابين[٤] .

---

(١) ديوانه ص ١٤٥ والتشبيهات ص ٢ ودراسات فى الأدب العربى ص١٢٢ .
(٢) الشعر والشعراء ٦١٩/٢ ، تزجى : تسوق وتدفع برفق . والأغن من الغزلان : الذى فى صوته غنة . والروق ، بفتح الراء : القرن .
(٣) التشبيهات ص ٢ .
(٤) دراسات فى الأدب العربى ص ١٢٧ .

وجعل ابن أبي عون التشبيات القرآنية على نوعين :

( أ ) ما شبّه به الأشخاص المماثلة : كقوله تعالى : « والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم[1] » . وكقوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين »[2] . وقوله : « كأنهن الياقوت والمرجان »[3] .

(ب) تشبيه الأفعال : ومثله قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً »[4] وقوله : « مثل الذين كفروا بربّهم أعمالهم كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف »[5] .

ثم يأتي بقسم آخر يميزه بوجود أداة التشبيه[6] أو حذفها ، وقد أخذ عليه ( غرنباوم ) عدم تمييزه بين أنواع التشبيه الذى أداته الكاف (كأن ، كمن ، كما) أو مثل ( كمثل ، كأمثال) و (تخال) و (تظن) و (تكاد) وما إليها وما أشبهها ، وبإضمار أحد هذه الحروف ، إذ لم يتسع للشاعر إقامة الوزن باظهاره .

وذكر أن اختياره لبيت امرىء القيس[7] :

سموتُ إليها بَعْدَ مَا نام أهلُهـــا
سُمُوَّ حَبَابِ المـاءِ حالاً على حال

(١) سورة يس ( آية ٣٩ ) .
(٢) سورة الصافات ( آية ٦٣ ) .
(٣) سورة الرحمن ( آية ٥٨ ) .
(٤) سورة النور ( آية ٣٩ ) .
(٥) سورة ابراهيم ( آية ١٨ ) .
(٦) التشبيهات ص ٣ .
(٧) التشبيهات ص ٤ وديوان امرىء القيس ص ١٤١ .

ليمثل به على التشبيه دون استعمال الأداة ، يدل على اختلاط التشبيه والاستعارة فى ذهنه[١] .

ثم يأتى بقسم ثالث للتشبيه يسميه :

(أ) التشبيه المقلوب[٢] ، ومثله قول ذى الرمه [٣] :

ورمْلٍ كأوراكِ العذارى قطعتُه
وقد جللته المظلماتُ الحَنَادسُ

ويعلق ابن أبى عون على ذلك بقوله : « وهذا من التشبيه المقلوب لأنهم يقولون كأن عجزيها كثيبا رمل »[٤] .

(ب) التشبيهات باستثناء شىء أو نقصان شىء[٥] . كقول الأخطل يصف زقاقا :

أناخوا فجرّوا شاصيات كأنها
رجال من السّودان لم يتسرْبلُوا[٦]

ويقول غرنباوم : « وهناك أساس رابع للتقسيم يبدو لنا عندما يشير ابن أبى عون إلى أن بشار بن بُرد عندما سمع بيت امرىء القيس الذى شبّه فيه شيئين[٧] ، كدّ فكرته حتى نظم بيتاً جعل فيه المشبه شيئين ، وهو قوله :

(١) دراسات فى الأدب العربى ص ١٢٣ .
(٢) انظر التشبيهات ص ١١٢ .
(٣) ديوانه ( الطبعة الثانية — ط . المكتب الاسلامى بدمشق سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م ) القصيدة : ٤١ البيت ٣١ ص ٤٠٨ .
(٤) التشبيهات ص ١١٢ .
(٥) التشبيهات ص ٣٠٧ .
(٦) الشاصى : الرافع رجليه ـ الشاغر : الرافع احداهما .
(٧) قول امرى القيس : ( كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالى ) .

كأنَّ مُثار النقع فَوْقَ رُءوسنا
وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ[1]

وذكر ابن أبى عون أن التشبيه أصعب من الاستعارة أو من المثل السائر[2].

وربما لم يقره الذين يمارسون صنعة الشعر. إلا أن له فى كتابه موقفا يحمد عليه، وهو اعتداله فى وقوفه إلى جانب المحدثين الذين أيدهم، واختار شواهده من شعرهم، دون أن يقف موقفا معاديا من القدماء، فهو يبدى إعجابه بأبى نواس الذى يخالف مذاهب القدماء ويسلك غير مسلكهم فى وصف بلى الرسم والبكاء على الطلل واستسقاء المطر[3].

ويؤكد اتجاهه هذا فى هذه الفقرة التى يبدى فيها تقديره لجهود القدماء والمحدثين على السواء فى التشبيه يقول: « وقد تكررت فى كتابنا تشبيهات للمحدثين مثل أبى نواس وبشار ومسلم والطائى والبحترى وابن الرومى وابن المعتز وأضرابهم، لأنا اعتمدنا على إثبات عيون التشبيهات المختارة والمعانى الغريبة البعيدة دون المتداولة الخلقة. والمتقدمون وإن كانوا افتتحوا القول وفتحوا للمحدثين الباب، ونهجوا لهم الطريق فكان لهم فضل السبق واستئناف المعانى، وصعوبة الابتداء، فإن هؤلاء قد أحسنوا التأمل وأصابوا التشبيه وولدوا المعانى وزادوا على ما نقلوا وأغربوا فيما أبدعوا ولو أثبتنا تشبيهاتهم القديمة: الناقة فى الضخم بالقصر والقنطرة، وفى الصلابة بالعلاة والصخرة، وفى السرعة بالعندلة والأثفية، وسرعة الفرس بنجاء الظبى،

(١) دراسات فى الأدب العربى ص ١٢٥ وانظر التشبيهات ص ١٠٣.
(٢) التشبيهات ص ٣١١.
(٣) التشبيهات ص ١٦٨.

وتشبيه الجواد بالبحر والسيد بالقرم وهو فحل الإبل ، والوجه الحسن بالقمر والشمس وأحداج النساء بالنخل والسفن والنجوم بالمصابيح ، والنساء ببيض النعام ، لطال بذلك الكتاب وآل أكثره إلى معنى واحد ، وكان المحكى منه معروفا غير مستغرب لزوال حسن الاختيار ، وتنقى الألفاظ واستغراب المعانى ، وطلابنا الجيد حيث وجد وقصدنا الفضى والنادر لمن كان [١] .

ويلاحظ على كتاب التشبيهات أن مؤلفه يحجم عن استعمال تعريفات التشبيه ، والاستعارة التى توصل إليها البلاغيون قبله ، كما أنه أباح لنفسه أن يترك أقسام التشبيه متداخلة دون أن يحاول تصنيفها .

* * *

وألف ابن وكيع التنيسى ( المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ) [٢] كتابا سماه « المنصف » فى الدلالات على سرقات المتنبى ، بدأه بمقدمة فى السرقات [٣] — تقع فى أزيد من عشرين صفحة — تعتبر أساس منهجه فى دراستها ، ثم أفرد بعد ذلك فصلا فى أنواع البديع ، ولعل ابن وكيع هو أول من ربط بين السرقات وعلم البديع فى دراسة منهجية ، ويبدأ ابن وكيع — بعد استيفاء أنواع البديع — فى سرد سرقات المتنبى وذلك حتى نهاية الكتاب .

وما الحديث عن السرقات عامة وعن فنون البديع إلا توطئة ، فأما غاية « المنصف » الأولى هى إبراز سرقات المتنبى ، وتلك غاية يريد ابن وكيع أن يلتزم بتحقيقها التزاماً دقيقاً لولا أنه يخشى إذا هو تغاضى عن عيوب أخرى فى شعر المتنبى كالغثاثة واللحن وإلا حالة أن يقال إنه غفل عنها لقلة تمييزه ، ولذلك فإنه ينبه إلى تلك العيوب ، لئلا تلحق به تلك التهمة .

---

(١) التشبيهات ص ٧٤ وانظر دراسات فى الأدب العربى ص ١٢٦ .

(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ( تحقيق الدكتور احسان عباس — نشر دار الثقافة ببيروت ١٩٦٦ م ) ٢/١٠٤ .

(٣) انظر مشكلة السرقات فى النقد العربى ( الدكتور محمد مصطفى هداره — ط . لجنة البيان العربى ١٩٥٨ ) ص ١٦١ .

ويذكر الدكتور إحسان عباس أن كلام ابن وكيع عن البديع مستمد من ثلاثة مصادر هى : كتاب « البديع » لابن المعتز ، وكتاب « نقد الشعر » لقدامة ، وكتاب « حلية المحاضرة » للحاتمى [1] ، وأكد أن صورة الحاتمى واضحة فى « المنصف » وإن لم يصرح ابن وكيع بذكر الحاتمى فيه .

ومن الطريف أن نجـــد ابن وكيع يتعلق بتحديد ابن أبى عون لأقسام الشعر ، فهى : إما مثل سائر ، أو تشبيه باهر ، أو استعارة لفظها فاخر [2] .

وقد صادف كتاب ابن وكيع هذا هجوما من جانب بعض النقاد كابن رشيق القيروانى الذى يقول فيه . « وأما ابن وكيع فقد قدم فى صدر كتابه على أبى الطيب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر إلا الصدر الأول إن سلم ذلك لهم ، وسماه كتاب « المنصف » مثلما سمى اللديغ سليما ، وما أبعد الإنصاف منه [3] » ولـكن الـكتاب صادف فى الوقت نفسه قبولا من بعض النقاد الذين اعتمدوا عليه فى دراستهم [4] .

بيئة المتفلسفة :

ظل المتفلسفة طوال القرن الثالث الهجرى يرددون ما عرفوه من قواعد البلاغة عند أرسطو وفلاسفة اليونان ، وتجرد منهم من يحسنون الترجمة عن اليونانية وربما عن السريانية ، لنقل خلاصات لـكتابى الشعر والخطابة

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٩٨ .

(٢) انظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٩٨ والتشبيهات ص ١ .

(٣) العمدة ٢/٢٨١ وانظر النقد المنهجى عند العرب ص ١٧٥ .

(٤) مشكلة السرقات فى النقد العربى ص ١٦١ .

لأرسطو إلى العربية.[١] ومن أقدم هذه الخلاصات مختصر كتاب الشعر للكندى[٢] ( المتوفى سنة ٢٥٢ هـ ).

ورأوا أن هذه الخلاصات لاتفيد الفائدة المرجوة فى تصوير المقاييس البلاغية اليونانية ، فعمدوا إلى نقل الكتابين تامين كاملين . أما كتاب الشعر فيقول ابن النديم عنه : « نقله أبو بشرمتى بن يونس ( المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ) من السريانى إلى العربى ، ونقله يحيى بن عدى ( تلميذه المتوفى سنة ٣٦٤ هـ ) وقيل إن فيه كلاماً لثامسطيوس ويقال إنه منحول إليه[٣] » .

ويذاكر ابن النديم فى موضع آخر من كتابه[٤] أن اسحق بن حنين المتوفى ٢٩٨ هـ . ) نقله ، ولكنه لم يوضح هل نقله إلى العربية أو السريانية ؟ والمظنون أنه نقله عن اليونانية إلى السريانية[٥] . وعلى ذلك فيكون متى ابن يونس أول من نقل « كتاب الشعر » إلى العربية نقلا كاملا .

أما كتاب الخطابة فيقول ابن النديم عنه . « يصاب بنقل قديم ، وقيل إن اسحق بن حنين نقله إلى العربى ، ونقله إبراهيم بن عبد الله وفسره الفارابى أبو نصر[٦] » ويقول إنه رآه فى نحـــو مائة ورقة بخط أحمد ابن الطيب السرخسى تلميذ الكندى .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٥ .

(٢) فهرست ابن النديم ( نسخه مصورة عن طبعة فلوجل — نشر مكتبة خياط بيروت ) ص ٢٥٠ .

(٣) الفهرست ص ٢٥٠ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٥ وفن الشعر لأرسططاليس مع الترجمة العربية القديمة لمتى بن يونس وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد ( للدكتور عبد الرحمن بدوى — نشر مكتبة النهضة المصرية ) ص ٥١ .

(٤) الفهرست ص ٢٩٨ .

(٥) راجع تحقيق ذلك فى فن الشعر لأرسططاليس للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٥١

(٦) الفهرست ص ٢٥٠ وانظر مقدمة كتاب الخطابة لارسططاليس — تحقيق د . عبد الرحمن بدوى ) ص ٢

وليس من شك فى أن هذا النقل القديم لم يتقدم كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ الذى لم نعثر فيه على إشارة يمكن أن يوصل نسبها إلى كتاب « الشعر » أو « الخطابة (١) » .

وترجمة متى لكتاب الشعر سيئة كما يبدو من الصورة التى وصلتنا منها ، وتدل على أن بين المترجم والنص حجابا من عدم الفهم ، لأن النماذج الشعرية عند العرب لا تسعف عليه ، ولأن المصطلح من ثم قاصر عن أداء الأصل بدقة (٢) .

ويمكن تقسيم كتاب « الشعر » إلى قسمين : « قسما يتناول فيه صناعة الشعر بوجه عام ، موضحا الصفة المشتركة بينها وبين الصنائع المشابهة لها ( أو « الفنون » بتعبيرنا الحديث ) وهى صفة المحاكاة ، ومبينا اختلاف أنواع المحاكاة من حيث الموضوع ومن حيث الوسائط ، ومن حيث الطريقة ، ثم محللا الدوافع النفسية التى دعت إلى نشوء الشعر ، ومتتبعا تطوره فى إيجاز ، ومقررا أن التراجيديا والكوميديا هما الصورة العليا من صور الشعر ، وهذا القسم يشمل الفصول الخمسة الأولى من الكتاب فى تقسيم المحدثين (٣) » .

« والقسم الثانى — وهو القسم الأكبر — يدرس فيه التراجيديا (٤) خاصة معرفا إياها ومبينا أجزاءها ، معتنيا عناية خاصة بارتباط الحوادث فيها ، ثم يدرس عنصر « الأخلاق » ثم عنصرى « الفكر » و « العبارة » . . وبعد أن يستوفى الكلام فى المأساة ( التراجيديا ) يوازن بينها وبين الملحمة مبينا نواحى الاتفاق ونواحى الاختلاف بينهما ، ثم يفاضل بين

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٦ .

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٨٧ .

(٣) فن الشعر لأرسطاليس ( للدكتور شكرى عياد ) ص ١٨٧ .

(٤) انظر ترجمة متى ص ١٨ .

التراجيديا والملحمة [١] . والقسم الأول ـ بوجه عام ـ أوضح فى ترجمة متى من القسم الثانى » :

وقسم أرسطو كتابه فى الخطابة إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، تناول فى القسم الأول الحديث عن الخطابة[٢] وأنواعها من سياسية وحفلية وقضائية ، ويفيض فيما يلزم الأولى من معرفة نظم الحكم والثانية من معرفة الفضائل والرذائل والثالثة من معرفة العدل والظلم .

وأما القسم الثانى [٣] فتكلم فيه عن انفعالات المستمعين وعواطفهم وطبائعهم أو بعبارة أخرى عن مقتضى حال المخاطبين وما يناسبهم من الكلام. وأما القسم الثالث فتكلم فيه عن العبارة أو الأسلوب ، وهذا القسم يقابل ماسماه العرب بالبلاغة . وكان فهم السريان والعرب جميعا لهذا القسم أدق من فهمهم للقسمين الأولين . هذا فضلا عن أنه كان قسما عاما لا يختص بلغة معينة ، وقد وضع فيه أرسطو الأصول البلاغية العامة للعبارة بحيث يمكن تطبيقها على جميع الآداب ، يونانية وغير يونانية ، ومن أجل ذلك اتسع تأثيره فى البلاغة العربية ، وأقبل المتفلسفة بعد نقل هذا الكتاب وكتاب الشعر يحاولون أن يضعوا قواعد البلاغة العربية فى لغتنا على ضوء ماتمثلوه منهما وما ثقفوه من كتابات أرسطو فى المنطق والجدل[٤] وكانت ثمرة هذه المحاولة كتابين : هما « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر الذى يحمل ـ بدون شك ـ أثارا قويه من الفكر اليونانى ، ولا غرو فى ذلك فقدامة نفسه كان شارحاً لكتب الفلاسفة ، وكتابه مؤلف على طريقتهم ، فيبدأه بحد الشعر وبيان

---

(١) ترجمة متى ص ٨٧ .
(٢) الخطابة لأرسطا ليس ص ٣ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٧ .
(٣) الخطابة لأرسطا ليس ص ٨٠ .
(٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٨ .

أقسامه ، ثم يصف نعوت كل قسم ، ثم عيوب كل قسم ، وهذه محاولة واسعة المدى لتنظيم علم الشعر تنظيما أشبه بالعلوم العقلية [١] .

أما الكتاب الثانى فهو « البرهان فى وجوه البيان » لاسحق بن إبراهيم ابن سليمان بن وهب . وسنفرد لكل منهما فصلا مستقلا من هذا الباب .

بيئة المتكلمين .

سبق أن تحدثنا عن بيئة المتفلسفة، ورأينا مدى تأثرهم بالمعايير اليونانية، إلا أن نشاط هذه البيئة لم يطرد فى وضع قواعد البلاغة العربية على أساس تلك المعايير بعد كتابى « نقد الشعر » و « البرهان فى وجوه البيان » . وقد تكون من أهم الأسباب فى ذلك أن فى كل لغة ملاحظات بيانية خاصة بها ، وأن من الواجب تسجيلها قبل تطبيق المعايير البيانية الأجنبية عليها [٢] ، وكان تطبيق ابن وهب ـ الذى أوغل فى الاستعارة من المعايير اليونانية ـ إيذانا بأنه ينبغى التحول عنها ، كما مضى اللغويون يعنون بدراسة خصائص العبارات ، دراسة لغويه ، وبذلك انحازوا عن الدراسات البلاغية ، إلا بعض إشارات هنا وهناك وهى إشارت لاتؤلف دراسة منظمة . وإذا كان اللغويون قدخمد نشاطهم البلاغى فإن المتكلمين ظل لهم نشاطهم وظل يؤتى ثماره ، ذلك أنهم بحثوا مباحث واسعة فى إعجاز القرآن من حيث بيانه وبلاغته .

فألف على بن عيسى الرمانى [٣] ( المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة ) رسالته « النكت فى إعجاز القرآن » جوابا على سؤال لشخص طلب إليه تفسير تلك النكت فى إجمال وبدون تطويل فى الحجاج ، وهذا الجواب يتلخص

(١) فن الشعر لأرسططاليس ( للدكتور شكرى عياد ) ص ٢٣٣ .
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٢ .
(٣) انظر ترجمته فى نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ص ٢٢٣ ومابه من مراجع ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٤/٧٣ والفهرست ص ٦٣ ، ٦٤ .

فى أن وجوه الاعجاز تظهر من سبع جهات ، هى : ترك المعارضة مع توافر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة [1] ».

وبهمنا من هذه الرسالة حديثة عن البلاغة ، التى جعلها ثلاث طبقات [2]. منها ماهو فى أعلى طبقة ، ومنها ما هو فى أدنى طبقه ، ومنها ما هو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فأما الطبقة العليا فهى بلاغة القرآن ، والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم فى البلاغة .

ثم يعرف البلاغة بأنها : « إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ » .

ويحصر الرمانى البلاغة فى أقسام عشرة هى : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان [3] . وأفرد لكل نوع فصلا على حدة . وقد علق الدكتور إحسان عباس على تقسيم الرمانى هذا للبلاغة فقال : « ومن الواضح أن هذه القسمة لأنواع البلاغة تنتمى إلى مصادر مختلفة ، فبعضها فى الصورة ، وبعضها فى النظم ، وبعضها فى المعنى . ومنها ما يتصل باللفظة الواحدة ( كالفواصل ). ولاختلاف مصادرها كانت قسمة متداخلة غير منطقيه [4] » .

ويفصل الحديث فى كل قسم من هذه الأقسام مبتدئا بتعريفه ، ثم مصورا شعبه ممثلا لها بآى الذكر الحكيم . وأول قسم وقف عنده ( الإيجاز ) وقد

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ( طبعة دار المعارف ) ص ٦٩ .
(٢) المصدر السابق : نفس الصفحة .
(٣) المصدر السابق ص ٧٠ .
(٤) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٣٤٠ .

عرفه بأنه : « تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى »[1] وهو قسمان : إيجاز حذف . وهو ما أسقطت فيه كلمة للاستغناء عنها بدلالة غيرها من الحال أو من فحوى الكلام ، كقوله تعالى . ( واسأل القرية )[2] أى أهل القرية . والبلاغيون المتأخرون يدخلون هذا التعبير فى المجاز المرسل .[3] والقسم الثانى من الإيجاز إيجاز القصر وهو بناء الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف مثل . ( ولكم فى القصاص حياة )[4] وبعد ذلك يقول : « والإيجاز على وجهين : أحدهما إظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة ، والثانى إحضار المعنى بأقل ما يمكن من العبارة ،[5] والايجاز على ثلاثة أوجه : إيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد ، وإيجاز باعتماد الغرض دون ماتشعب ، وإيجاز بإظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبح . فهذه قسمة أولى وثانية وثالثة للايجاز مع تغيير زاوية النظر فى كل مرة . . وبذلك صور الرمانى الإيجاز تصويرا نهائيا بحيث لم يضف إليه البلاغيون التالون شيئا .

وعرف ( التشبيه ) بأنه : « العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل ، ولايخلو التشبيه من أن يكون فى القول أو فى النفس »[6] فأما القول فنحو قولك : ( زيد شديد كالأسد ) فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه ، وأما العقد فى النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول . وأما التشبيه الحسى فكماءين وذهبين يقوم أحدهما مقام الأخر ونحوه ، وأما التشبيه

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٠ .
(٢) سورة يوسف ( آية ٨٢ ) .
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٤ .
(٤) سورة البقرة ( آية ١٧٩ ) .
(٥) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٣ .
(٦) المصدر السابق ص ٧٤ .

النفسى فنحو تشبيه قوة زيد بقوة عمرو ، فالقوة لا تشاهد ولـكنها تعلم . ثم يجعل التشبيه على وجهين : تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما ، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما ، فالأول كتشبيه الجوهر بالجوهر ، وتشبيه السواد بالسواد، والثانى كتشبيه الشدة بالموت، والبيان بالسحر الحلال، والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف .[1]

ومن أبدع ما فى هذا الباب جعله التشبيه على وجهين : تشبيه بلاغة ، وتشبيه حقيقة ، فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الـكفار بالسراب ، وتشبيه الحقيقة نحو : « هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت »[2] وقد انتفع بهذه التفصيلات فى التشبيه كل من جاءوا بعده على نحو ماسنرى عند أبى هلال العسكرى وعبد القاهر الجرجانى .

وعلى نحو مابحث التشبيه بحثا دقيقا بحث الاستعارة وهى عنده : « تعليق العبارة على غير ماوضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للابانة »[3] وفرق بينها وبين التشبيه بأن الـكلمات فيه تظل لها معانيها الحقيقية بخلاف الـكلمات فى الاستعارة فإنها تدل على مالم توضع له فى اللغة . ويقول : « كل استعارة لابد فيها من مستعار ومستعار له ومستعار منه » ويقول أيضا إن الاستعارة الحسنة هى التى توجب بلاغة بيان لا تنوب منابه الحقيقة كقول امرىء القيس فى صفة الفرس : ( قيد الأوابد ) ، والحقيقة فيه ( مانع الأوابد ) و ( قيد الأوابد ) أبلغ وأحسن. ويعرض أمثلة كثيرة يصور فيها فضل الاستعارة على الحقيقة وأنها أبلغ منها فى قوة البيان .

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٥ .

(٣) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٩ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٥ .

وتحدث عن ( التلاؤم ) ويريد به حسن النظم والرصف ، وهو نقيض التنافر ، وقد استمد فى هـــذا النعت من كلام الجاحظ القائل بأن فصاحة الـكلام هى فى تلاحم أجزائه وائتلاف ألفاظه حتى كأن الـكلام بأسره من حسن الجوار وشدة التلاحم كلمة واحدة .

ونراه هنا يقسم الـكلام إلى ثلاث طبقات : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا وهو أسلوب القرآن الـكريم .(١)

وتحدث عن الفواصل فقال إنها : « حرووف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى ».(٢) وفرق بين فواصل القرآن والأسجاع فقال : « الفواصل بلاغة والأسجاع إعيب ، وذلك أن الفواصل تابعة المعانى وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها ، ثم بين أن الفواصل على وجهين :(٣) . وجه على الحروف المتجانسة كقوله تعالى . ( والطور ، وكتاب مسطور )(٤) ، ووجه على الحروف المتقاربة كالدال مع الباء نحو قوله تعالى : ( ق والقرآن المجيد )(٥) ثم قال . ( هذا شىء عجيب ) .

وترك الفواصل إلى التجانس فقال : « تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الـكلام الذى يجمعه أصل واحد فى اللغة »(٦) والتجانس عنده على وجهين : مزاوجة ومناسبة ، فالمزاوجه تقع فى الجزاء كقوله تعالى . ( فمن اعتدى عليـكم فاعتدوا عليه ) .(٧)

(١) ثلاث رسائلى فى إعجاز القرآن ص ٨٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٩٠ .
(٤) سوره الطور ( آية ١ ، ٢ ) .
(٥) سورة ق ( آية ١ ) .
(٦) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩١ .
(٧) سورة البقرة ( آية ١٤ ) .

أى جازوه بما يستحق على طريق العدل ، إلا أنه استعير للثانى لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة فى المقدار ، فجاء على مزاوجه الكلام لحسن البيان وأما المناسبة فتدور فى فنون المعانى التى ترجع إلى أصل واحد مثل قوله تعالى : (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) [١] فجونس بالانصراف عن الذكر وصرف القلب عن الخير ، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشىء ، أما هم فذهبوا عن الذكر وأما قلوبهم فذهب عنها الخير [٢]. وواضح أنه لم يقصد بالتجانس إلى كل صور الجناس ، وإنما قصد إلى هاتين الصورتين الخاصتين وسنراه يسمى بعض صور الجناس الأخرى باسم التصريف. [٣]

والمراد ( بالتصريف ) عند الرمانى تصريف المعنى فى المعانى المختلفة [٤] كتصريفه فى الدلالات المختلفة ، وهو عقدها به على جهة التعاقب . فتصريف المعنى فى المعانى كتصريف الأصل فى الاشتقاق فى المعانى المختلفة وهو عقدها به على جهة المعاقبة كتصريف الملك فى معانى الصفات ، فصُرّف فى معنى مالك ، وملك ، وذى الملكوت ، والمليك ، وفى معنى التمليك . والتمالك . والاملاك . والتملك . والمملوك . وعنده أن هذا التصريف يأتى لوجوه من الحكمة منها التصرف فى البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة ، ومنها تمكين العبرة والموعظة ، ومنها حل الشبهة فى المعجزة. وينتقل إلى (التضمين) وهو عنده : « حصول معنى فى الكلام من غير ذكر له باسم أو صفة هى عبارة عنه » [٥] وهو على وجهين : مايدل عليه الكلام دلالة إخبار لأنه يحمله فى ظاهر لفظه كدلالة كلمة مكسور على كاسر . . والوجه الثانى : ما يدل عليه

---

(١) سورة التوبة ( آية ١٢٧ ) .

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩٢ .

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٦ .

(٤) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩٣ وانظر البيان العربى ص ٤٦ .

(٥) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩٤ .

الكلام دلالة قياس كدلالة البسملة على تعظيم الله والاعتراف بنعمته وأنه ملجأ الخائف وحصن كل لائذ .

وعرّف (المبالغة) فقال : « هى الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة »[١] وذكر أنها على وجوه : منها مبالغة عن طريق البنية كصيغ المبالغة فى مثل غفّار ، ومنها المبالغة بالصيغة العامة فى موضع الخاصّة مثل قولك : أتانى الناس ، والذى أتاك جماعة منهم . ومنها إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة . . . كقوله تعالى : « وجاء ربّك والمَلَكُ صفًّا صفًّا »[٢] ، فجعل مجىء دلائل الآيات مجيئاً له على المبالغة فى الكلام . ومنها مبالغة إخراج الممكن إلى الممتنع نحو قوله تعالى : ولا يدخُلُون الجنَّة حتّى يَلِجَ الجَمَلُ فى سَمّ الخِياطِ »[٣] . ومبالغة إخراج الكلام مخرج الشك . . . . ومن ذلك قوله تعالى : « وإنّا أوْ إيّاكم لعَلَى هُدًى أو فى ضلالٍ مُبين »[٤] : ومنها مبالغة بحذف جواب الشرط ، كقوله تعالى : « ولو ترى إذْ وقِفُوا على النّار »[٥] ، وكقوله : « ص ، والقُرآن ذى الذكر »[٦] . كأنه قيل : لجاء الحقُّ أو لعظُم الأمرُ ، أو لجاء بالصدْقِ ، كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفخيم ، والحذف أبلغ من الذكر ، لأن الذكر يقتصر على وجه ، والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمّنه من التفخيم[٧] .

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٩٦ .
(٢) سورة الفجر ( آية ٢٢ ) .
(٣) سورة الأعراف ( آية ٤٠ ) .
(٤) سورة سبأ ( آية ٢٤ )
(٥) سورة الأنعام ( آية ٢٧ ) .
(٦) سورة ص ( آية ١ ) .
(٧) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩٧ .

ويلاحظ أن الرمانى فى دراسته للمبالغة قد درسها فى صورها القرآنية ولم يدرسها بمعناها العام .

ويختم الرمانى كلامه فى البلاغة بقسمها العاشر الذى سماه ( البيان ) وهو عنده: « الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره فى الإدراك »[١] وذكر أنه على أربعة أقسام : كلام ، وحال ، وإشارة ، وعلامة . ومن قبله قسمة الجاحظ بعد أن عرفه إلى لفظ ، وإشارة ، وعقد ، وخط ، وحال .[٢] ويقول الرمانى :[٣] ( وليس يحسن أن يطلق اسم بيان على ماقبح من الكلام لأن الله قد مدح البيان واعتد به فى أيادية الجسام فقال : ( الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ) .[٤]

وحسن البيان فى الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبه ماجمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظم حتى يحسن فى السمع ، ويسهل على اللسان وتتقبله النفس .

تلك هى أقسام البلاغة عند الرمانى ، وهكذا يمكن أن يقال إنه بحديثه عن البلاغة قد أضاف إضافات جديدة إلى من سبقوه ، تتمثل فى تحديد بعض فنونها تحديدا نهائيا ، وبيّن أقسام هذه الفنون بوضوح . مستشهدا فى كلامه بالآية تلو الآية من القرآن الكريم ، وندر أن يستشهد ببيت من الشعر أو قول مأثور من النثر إلا ما استلزمته الموازنة بين الآية وما فى معناها من كلام العرب . وقد أفاد منه البلاغيون من بعده كما تشهد بذلك كتبهم .

---

( ١ ) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩٨ .

( ٢ ) انظر البيان والتبيين ١ /٧٦ وما بعدها .

( ٣ ) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩٨ .

( ٤ ) سورة الرحمن ( آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ) .

بيئة النقاد :

ظهر فى القرن الثالث الهجرى مذهبان واضحان فى الشعر : « مذهب أبى تمام الذى كان يُعنىَ — بتأثير ماثقف من الفلسفة وغيرها من ضروب الثقافة — بالتعمق فى معانيه ، كما كان يعنى بمحسنات البديع حتى ليُسرف فيها إسرافاً شديداً ، ومذهب البحترى الذى لم يكن يأخذ نفسه بفلسفة ولا بثقافة ، حتى كاد يلحق بالأوائل ، وهو مع ذلك كان يستخدم محسنات البديع ولكن دون إسراف أو إفراط ، ومعنى ذلك أنه كان يسلك الطريقة القديمة مع شىء من التأثر بطريقة أبى تمام الجديدة ، إذ كان يصطنع البديع بأكثر مما كان يصطنعه القدماء ، وسقطت إليه أطراف من معانى أبى تمام بحكم إعجابه به وعكوفة على شعره .(١)

و « وطبيعى أن يصبح عماد النقد النظر فى هذين المذهبين المتقابلين ، وكانا يقومان فى أكثر جوانبهما على مدى مايُسْمحُ للشاعر به من استخدام فنون البديع ، وهل يأتى بها فى قصد أو يتجاوز القصد والاعتدال إلى الإسراف والمبالغة فيه . وأيضا كانا يقومان على مدى التدقيق فى المعانى والغوص على خبيئها . وكان أنصار أبى تمام يكثرون من الحديث عن اختراعاته فى المعانى والصور البديعية ، فانفتح باب كبير أمام خصومه ، دخلوه ليردُّوا على أنصاره دعواهم له الاختراع والابتكار ، وهو باب سرقاته من سابقيه ، ولم يلبث أنصاره أن فتحوا بابا مقابلا هو سرقات البحترى منه ، ليدلوا على سبقه عليه وتفوقه . واتسعوا جميعاً فى بحث السرقات فطبقوها على غيرهما من الشعراء العباسيين ، بل صعدوا فى العصرين الإسلامى والجاهلى يطبقونها على الشعراء القدماء »(٢) .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

واحتدمت الخصومة بين المذهبين فى القرن الرابع ، وانبرى النقاد يحاولون الفصل فيها ، وكان ثمرة ذلك عدة كتب لعل أهمها كتاب ( الموازنة ) لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وهو أول ناقد متخصص ، جعل النقد أهم ميدان لجهوده ، وفيه كتب أكثر مؤلفاته(١) . وقد حاول الآمدى فى موازنته أن يفصل فى تلك الخصومة التى نشبت بين أنصار أبى تمام من جهة ، وأنصار البحترى من جهة ثانية . وسنتحدث عن هذا الكتاب بالتفصيل فى الفصل الخامس من هذا الباب .

وفى الوقت نفسه كان المتنبى قد ملأ الدنيا دويا بشعره وما اتخذه فيه من أسلوب عصره ، أسلوب التكلف الذى يؤدى صاحبه المعانى الموروثة بطرق ملتوية جديدة . . وكان ذا بصيرة نافذة ، مثقفاً ثقافة واسعة بكل ما عرف لعصره من معارف وآراء ، وقد اتجه بشعره إلى أن يستوعب هذه المعارف والآراء ، وأن يمثل عناصرها المتنوعة حتى ينال إعجاب العلماء والمثقفين لعصره . ورأى أن العباسيين السابقين استنفدوا المعانى وما يتصل بها من المحسنات فاندفع فى أسلوب تميز به ، وهو أسلوب يقوم على اصطناع بعض الأساليب اللغوية والنحوية الشاذة والتصنع لبعض الصيغ الفلسفية والشيعية والصوفية (٢) . وكان بارعا ، فأخفى ذلك أو كاد يخفيه ، غير أن جهابذة النقاد لاحظوا صنيعه فى وضوح ، فانبروا يناقشون فيه ، واشتدت الخصومة بينه وبينهم (٣) .

ويقول الدكتور إحسان عباس . « إن المتنبى صدم الذوق مرتين : مرة بشخصه المتعالى المتعاظم ، ومرة بجرأته فى الشعر ، جرأته التى تركب المبالغة

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٥٤ .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ص ٣١١ وما بعدها .

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٢ .

حتى تمس العقيدة الدينية ، وتنتحل آراء فلسفية غريبة ، وتستخف بأصول اللياقة والعرف فى مخاطبة الممدوحين ورثاء النساء ، وتتصرف باللغة تصرف المالك المستبد »[١] مما أثار حفيظة معاصريه من النقاد فى كل مكان ، ونشبت المعركة بين الأنصار والخصوم ، فألف ابن وكيع فى سرقاته وشعره كتابه « المنصف » وألف الحاتمى ( المتوفى سنة ٣٨٨ هـ . )[٢] فيه رسالتين : سمى إحداهما الرسالة الموضحة[٣] ، وعنى فى الثانية ببيان سرقاته من أرسطو شيخ الحكماء[٤] . على أن مايهمنا هو كتابه ( حلية المحاضرة ) الذى يقول فى فاتحته : ( وقد رأيت أن اخترع كتابا أشرع فيه لمحاسن الشعر شريعة ترد القرائح قراح مائها ، وترود منها قطر أندائها ، وتشيم بروق أنوائها ، وتستهدى بنجوم سمائها ، وأقصره على فقره النادرة ، وغرر معانية السافرة ، ولمعه البارعة ، وكواكبه الصادعة ، وأقسامة المختارة . . . وهى ثلاثة ، مثل شرود ، وتشبيه رائع ، واستعارة واقعة ، وأودعه من ذلك ما وقع إجماع نقاد الكلام والعلماء بسرائر الشعر ، على أنه أشعر ماقيل فى معناه من كل نوع تتناوله المحاضرة ، وتتهادى جواهره المذاكرة . . . )[٥] .

وأفرد بعد ذلك فصولا فى المصطلح الشعرى البلاغى عرض فيها لطائفه من فنون البديع هى : المطابقة[٦] والتقسيم يقول ابن رشيق : ( وزعم الحاتمى

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٥٢ .
(٢) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٢/٢١٤ وابن خلكان ٣/٤٨٢ .
(٣) نشرتها دار صادر ببيروت ( سنة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م ) بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم .
(٤) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٣ وتاريخ النقد العربى إلى القرن الرابع الهجرى ص ٢٠٩ .
(٥) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٥٤ ٢٥٥ .
(٦) العمدة ٢/٦ .

أن أصح تقسيم وقع لشاعر قول الأسعر الجعفي يصف فرسا :

أمّا إذا استقبلته فكأنه
بازٌ يكفكفُ أن يطيرَ وَقَدْ رأى
أما إذا استدبرته فتسوقُه
ساقٌ قَمُوصُ الوقعِ عاريةُ النَّسَا
أما إذا استعرضته متمطِّراً
فتقول : هذا مِثْلُ سِرْحَانِ الغَضَا[1]

واختاره أيضاً قدامة[2] .

وتحدث الحاتمي عن التسهيم[3] ، وقال عن الاستطراد : « وقد يقع من هذا الاستطراد ما يخرج به من ذم إلى مدح كقول زهير :

إنّ البخيلَ ملومٌ حيثُ كان ولـ
كنّ الجوادَ على علاّته هَرِمُ[4]

فسمّى الخروج استطراداً كما تراه اتساعاً ، وأنشد في الخروج بالاستطراد من مدح إلى ذم قول بكر بن النطاح يمدح مالك بن طوق :

عرضتُ عليها ما أرادتْ من المنى
لترضى ، فقالتْ : قم فجئني بكوكبِ
فقلتُ لها : هذا التعنت كلّه
كمن يتشهّى لحمَ عنقاء مغربِ

---

(١) الباز : ضرب من الصقور يصاد به . متمطراً : مسرعاً . السرحان . الذئب . الغضا : شجر .

(٢) العمدة ٢/٢٢ ونقد الشعر ص ١٥٠ .

(٣) العمدة ٢/٣١

(٤) شعر زهير بن أبي سلمى ص ١٠٠ .

سَـلِي كلَّ أمر يستقيم طلابه
ولا تسألي يا درّ في كل مـذهب

فأقسم لو أصبحت في عزّ مالك
وقدرته أعيي بما رمت مطلبي

فـتى شقيتْ أمواله بصفاته
كما شقيتْ قيس بأرْماح تَغْلِبِ

فهذا مليح : أوله خروج وآخره استطراد . وملاحته أن مالكا من بني تغلب . فصار الاستطراد زيادة في مدحه )[١] .

وتكلم الحاتمي عن الايغال[٢] مشيرا في ذلك إلى كلام الأصمعي عنه . وأفاض في الحديث عن الغلو والاغراق فقال :( وجدت العلماء بالشعر يعيبون على الشاعر أبيات الغلو والاغراق ويختلفون في استحسانها واستهجانها . ويعجب بعض منهم بها وذلك على حسب ما يوافق طباعه واختياره . ويرى أنها من إبداع الشاعر الذي يوجب الفضيلة له فيقولون :أحسن الشعر أكذبه وأن الغلو إنما يراد به المبالغة والإفراط ، وقالوا : إذا أتى الشاعر من الغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم فإنما يريد به المثل وبلوغ الغاية في النعت، واحتجوا بقول النابغة ـ وقد سئل : من أشعر الناس ـ فقال : من استجيد كذبه وأضحك رديئه . وقد طعن قوم على هذا المذهب بمنافاته الحقيقة ، وأنه لا يصح عند التأمل والفكرة )[٣] .

ويذكر الدكتور إحسان عباس أنه تكلم عن الاستعارة ، والمجانسة ،

---

(١) العمدة ٢/ ٤٠ ، ٤١ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٧ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٦١ ، ٦٢ .

والمقابلة ، والتتميم ،والتشبيه ، والابتداء ، والتخلص . وفيها يتضح أن الحاتمى اطلع على مصطلح قدامـة وأفاد منه وأورد أمثلته ولـكنه زاد عليه فى المصطلح والأمثلة معا . (١) ويقول : ( ومن هذا يتبين أن حلية المحاضرة قد جمع جهود قدامة وابن المعتز فى المصطلح ، وجهود ثعلب والنقاد السابقين فى تبيان أشعر بيت وأغزل بيت ، وجهود ابن قتيبة فى حصر أبيات المعانى . ثم أضاف الحاتمى بابا كان شديد الشغف به وهـــو الحديث عن السرقات ؛ ذلك الموضوع الذى عالجه كثيرون قبله ، إلا أنه ميز حدوده بمصطلح جديد ) (٢) .

وصنف القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ( المتـوفى سنة ٣٩٢ للهجرة ) (٣) كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه ) ويتضح من اسم الـكتاب أنه أراد أن يتوسط فيه بين المتنبي وخصومه . وهو توسط أقامه على محجة القضاء العادل. وهدته تلك المحجة إلى أنه ينبغى أن لا يُحكم على الشاعر بما أساء فيه، بل يحكم عليه بما أحسنه وجوّده إذ لـكل شاعر إساءاته وأغلاطه، ولا يصح أن تتخذ أساسا للحكم عليه. ومن أجل ذلك قدم لبحثه بأغلاط الشعراء قدماء ومحدثين فى ألفاظهم ومعانيهم . يقول : ( ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه . إما فى لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه أو معناه أو إعرابه ) (٤) .

وقد لاحظ القاضى الجرجانى أن أبا تمام يتفاوت شعره بين السهولة

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٦ .

(٣) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ١٤/١٤ ومقدمة كتاب الوساطة ( ط . عيسى البابى الحلبى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى) .

(٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٣ وانظر الوساطة ص ٤ .

والإغراب اللفظى[١] . بينما يمتاز البحترى بالسهل الممتنع والسمح المنقاد[٢] .
ومضى يتحدث فى البديع ووجوهه وصوره قائلا : « أنها كانت تأتى قليلة وبدون تعمد وقصد فى أشعار الجاهليين فلما أفضى الشعر إلى المحدثين أكثروا منها إكثارا »[٣]. ويأخذ فى الحديث عن ألوان البديع بادئا بالاستعارة : فيذكر طائفة من أمثلتها الحسنة والسيئة . ويلاحظ أن بعض الناس يخلطون بينها وبين التشبيه البليغ ، يقول : ( وربما جاء من هذا الباب مايظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل . فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبى نُواس :[٤] .

والحبُّ ظَهْــــرٌ أنت راكبُـهُ
فإذا صرفتَ عنانَه انْصَرفَا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحبّ مثل ظهْر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء ، وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشّبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر»[٥] .

ويلاحظ من كلام الجرجانى أن الاستعارة عنده: حسنة وقبيحة. وطالب فيها أن تظهر المناسبة بيّنة بين المستعار والمستعار منه . وأن ملاكها الشبه،

---

(١) الوساطة ص ١٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٤ .
(٤) ديوانه ( نشر دار صادر — بيروت ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م ) ص ٤٢٧ .
(٥) الوساطة ص ٤١ .

وكانوا من قبله يخلطون أحيانا فيدخلون فيها صورا من المجاز المرسل . وكأنه يحاول إخراج هذه الصور [1] .

وفى موضع آخر من الوساطة يتوسع قليلا فى الكلام عن الاستعارة فيقول : ( فأما الاستعارة فهى أحد أعمدة الكلام، وعليها المعول فى التوسع والتصرف . وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر ) [2] ويقول : « وقد قدمنا عند ذكرنا البديع نبذا منها مثلنا بها المستحسن والمستقبح . وفصلنا بين المقتصد والمفرط . وقد كانت الشعراء تجرى على نهج منها قريب من الاقتصاد ، حتى استرسل فيه أبو تمام ومال إلى الرخصة . فأخرجه إلى التعدى ، وتبعه أكثر المحدثين بعده ، فوقفوا عند مراتبهم من الإحسان والإساءة والتقصير والإصابة . وأكثر هذا الصنف من الباب الذى قدمت لك القول فيه ، وأقمت لك الشواهد عليه وأعلمتك أنه يميز بقبول النفس ونفورها ، وينتقد بسكون القلب ونبوه، وربما تمكنت الحجج من إظهار بعضه، واهتدت إلى الكشف عن صوابه أو غلطه » [3] .

وعلى هذا يكون مرد الحكم على جودة الاستعارة أو قبحها عند القاضى الجرجانى هو « قبول النفس أو نفورها » وأن ذلك أكثر من الحجج الدالة على جودة الاستعارة أو قبحها ، فقد يجد الناقد حججا يستدل بها على جودة الاستعارة ، ومع ذلك تنفر منها النفس ، أو قد يجد حججا يستدل بها على قبح الاستعارة ، ومع ذلك تقبل عليها النفس .

وينتقل إلى التجنيس [4] فيقسمه أقساما ملاحظا أن منه المطلق وهو

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٤ .

(٢) الوساطة ص ٤٢٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٢٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٤١ .

ما سمّى عند بعض البلاغيين باسم جناس الاشتقاق . . . . من مثل قول أبي تمام[١] :

تطلّ الطّلول الدّمع من كل موقف
وتمثل بالصـبر الديار المواثل[٢]

ومنه المستوفى ، وهو الجناس الـكامل الذى سماه قدامة بالمطابق . . . من مثل قول أبي تمام[٣] :

مَا مَاتَ من كرم الزّمان فإنّه
يحيـا لدَى يحيي بن عبد الله

فقد جانس بين يحيا ويحيي وحروف كل لفظ منهما مستوفاة فى الآخر . وإنما عد فى هذا الباب لاختلاف المعنيَين ، ولأن أحدهما فعل والآخر اسم ، ولو اتفق المعنيان لم يعدّ تجنيسا ، وإنما كان لفظة مكررة .

ومنه التجنيس الناقص كقول الأخنس بن شهاب[٤] :

وحامى لواءٍ قـد قتلنـا وحاملٍ
لواءً مَنعنـاَ والسّيوفُ شَوارعُ

فقد جانس بين حامى وحامل ، والحروف الأصلية تنقص فى إحدى الـكلمتين .

---

(١) ديوانه ٣/ ١١٣ والوساطة ص ٤٢ .

(٢) تطل : تسقط من الدمع مايشبه الطل .
تمثل بالصبر : تعاقبه وتجعله مثلة ونكالا
المواثل : الدوارس .

(٣) ديوانه ٣/٣١٧ ورواية البيت : من مات من حدث الزمان فإنه . . . . . .

(٤) الوساطة ص ٤٣ .

ومنه التجنيس المضاف من مثل قول البحترى[١] :

أيا قمر التمام أعنتَ ظلماً
علىَّ تطاولَ الليل التمامِ[٢]

فمعنى التمام واحد فى الأمرين ، ولو انفرد لم يعدّ تجنيسا ، ولكن أحدهما صار موصولا بالقمر ، والآخر بالليل ، فكانا كالمختلفين . ومنه التصحيف[٣] كقول البحترى فى المعتز بالله وبعض الخارجين عليه :

ولم يكن المغترُّ بالله إذ سرى
ليُعجِز ، والمعتزُّ بالله طالبُهُ[٤]

فقد جانس بين المعتز والمغتر بنقط العين وحذف نقطة الزاى ، حتى بدت كلمة المغتر كأنها تصحيف لكلمة المعتز .

ومن فنون البديع التى عرض لها أيضاً « المطابقة » وعنها يقول : « وأما المطابقة فلها شعب خفية ، وفيها مكامن تغمض ، وربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف »[٥] .

كذلك عرض لأقسام المطابقة ، لا بالتحديد والتصريف ، وإنما بإيراد الشواهد عليها . فمن أقسامها عنده ما جرى مجرى قول دعبل :

لا تَعْجبى يا سَلْمُ من رجلٍ
ضَحِكَ المشيبُ برأسه فبكى

---

(١) الوساطة ص ٤٤ وانظر ديوان البحترى ( تحقيق حسن كامل الصيرفى ط . دار المعارف سنة ١٩٦٤ ) ٣/٢٠٣٠ .

(٢) قمر التمام : القمر فى تمامه واكتماله .
ليل التمام : أطول ليالى الشتاء .

(٣) الوساطة ص ٤٦ .

(٤) انظر ديوان البحترى ١/٢١٥ .

(٥) الوساطة ص ٤٤ .

وأما القسم الثانى فقد عـبر عنه بقوله : « وقد يجىء منها جنس آخر تـكون المطابقة فيه بالنفى كقول البحترى (١) .

يقيّض لى من حيث لا أعلمُ الهوَى
ويَسْرِى إلىّ الشّوقُ من حيث أعلمُ

وعلق على هذا البيت بقوله : « لما كان قوله : (لا أعلم) كقوله : (أجهل) ، وكان قوله : (أجهل) مطابقة كان هو الآخر بمثابته » ومعروف أن من البلاغيين من سمى هذا الضرب باسم « السلب والإيجاب »(٢) .

وذكر التقسيم ، ولم يكتف بإيراد الأمثلة الدالة على بعض أنواعه ، كما يفعل عادة ، ولـكنه عرض له بشىء من الموازنة والمقارنة . . يقول : « ومن البديع : (التقسيم) وقد يكون موصلا كقول زهير(٣) :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطّعنوا
ضارب حتى إذا ماضاربوا اعتنقا

فقسم البيت على أحوال الحرب ومراتب اللقاء ، ثم ألحق بـكل قسم ما يليه فى المعنى الذى قصده من تفضيل الممدوح ، فصار موصولا به ، مقرونا إليه . ونحوه قول عنترة (٤) :

إن يلحقوا أكرر ، وإن يستلحموا
أشدد ، وإن يلفوا بضنك أنزل

فهذا كالأول فى الصنعة ، وإن كان إنما أزوج كل قسم بقرينه ، وما هو

(١) الوساطة ص ٤٥ وانظر ديوان البحترى ٣/١٩٢٨ وروايته :
(تقيض لى من حيث لا أعلم النوى . . . . . . ) .
(٢) الصناعتين ص ٤٠٥ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٥ .
(٣) شعر زهير بن أبى سلمى ص ٧٣ .
(٤) ديوانه ص ٢٤٨ وانظر الوساطة ص ٤٧ .

وقفه ، ولم يرض الأول إلا بأن قسم ثم تقدم عن كل قسم قدماً ، وارتفع عليه درجة .

وقد تكون القسمة مطلقة غير مشفوعة . . . كقول النابغة :

فلله عينا من رأى أهل قبة
أضرّ لمن عادى وأكثر نافعاً
وأعظمُ أحلاماً وأكرم سيداً
وأفضلُ مشفوعاً إليه وَشافعاً

فهذا ضرب من التقطيع على معان مختلفة ، ولست أسمح بتسميته تقسيما ، وقد رأيت من يطلق له هذه السمة .

وبعد ذلك تحدث القاضى الجرجانى عن الاستهلال والتخلص والخاتمة فقال : « والشاعر الحاذق يجتهد فى تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة ، فإنها المواقف التى تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء ، ولم تكن الأوائل تخصها بفضل مراعاة ، وقد احتذى البحترى على مثالهم إلا فى الاستهلال ، فإنه ُعنى به فاتفقت له فيه محاسن ، فأما أبو تمام والمتنبى فقد ذهبا فى التخلص كل مذهب ، واهتمَّا به كل اهتمام ، واتفق للمتنبى فيه خاصة ما بلغ المراد ، وأحسن وزاد » (١)

ولعلى بن عبد العزيز فى تضاعيف حديثه عن المتنبى نظرات فاحصة كثيرة ، من ذلك حديثه عن الغلو والمبالغة يقول : « أما الإفراط فمذهب عام فى المحدثين ، وموجود كثير فى الأوائل ، والناس فيه مختلفون ، فمستحسن قابلٌ ومستقبح رادٌّ ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز الوصفُ

(١) الوساطة ص ٤٨ .

حدَّها جمع بين القصْد والاستيفاء، وسلم من النقص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية وأدَّته الحـــال إلى الإحالة، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط، وشعبة من الإغراق، والباب واحد، ولكن له دَرجٌ ومراتب »[١]

ومعنى ذلك أنه يرتضى المبالغة والغلو إلا أن يخرج بهما الشاعر عن حد المعقول إلى حد الوهم الشديد الذى تصبح فيه المعانى مضادة للحقيقة تضاداً يؤذى السامع، وقد تصبح ضرباً من المحال الذى يُستكرَهُ ولا يُقبل[٢].

وعرض لنوع من أنواع الالتفات[٣]، وهو العدول عن ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب اعتمادا على ظهور المعنى، ومثل له بقوله تعالى، ( حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة )[٤].

وتحدث في موضع آخر من كتابه عن التشبيه، فنراه ينشد قول المتنبي :

بَليتُ بِلَى الأطْلاَلِ إن لم أقِفْ بِهَا
وقوفَ شحيحٍ ضاع فِى التُّرْب خاتمهُ

ثم يعلق عليـــه مصورا ما أراده المتنبى من تمثيل نفسه فى الوقوف بالأطلال بالشحيح يفقد خاتمه فى بعض التراب.. يقول : «[٥] إن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة، وأخرى بالحال والطريقة، فإذا قال الشاعر، وهو يريد إطالة وقوفه : إنى أقف وقوف شحيح ضاع خاتمه، لم يُرِدْ التسوية بين الوقوفين فى القدر والزمان والصورة، وإنما يريد : لأقفن وقوفا زائدا على القدْر المعتاد خارجاً عن حدِّ الاعتدال، كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يُعرَف فى أمثاله وعلى ما جرت به العادة فى أضرابه، وإنما هو كقول الشاعر :

---

(١) الوساطة ص ٢٤٠ .
(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٨ .
(٣) الوساطة ص ٤٤٨ .
(٤) سورة يونس ( آية ٢٢ ) .
(٥) الوساطة ص ٤٧١، ٤٧٢ .

ربّ ليـلٍ أمدّ من نفَسِ العا
شِقِ طُولاً قطعتهُ بانتحابِ

ونحن نعلم أن نفس العاشق بالغا ما بلغ لا يعقد امتداد أقصر أجزاء الليل، وأن الساعة الواحدة من ساعاته لاتنقضى إلا عن أنفاس لا تُحصىَ، كائنةً ما كانتْ فى امتدادها وطولها، وإنما مراد الشاعر أن الليل زائد فى الطول على مقادير الليالى كزيادة نفس العاشق على الأنفاس » .

وعلق الدكتور شوقى ضيف على ذلك بقوله : « وهى ملاحظة دقيقة، وربما كانت من البواعث التى دفعتْ عبد القاهر فى كتابه ( أسرار البلاغة ) إلى أن يقف طويلا أمام التشبيه الحسى والعقلى، وأن يُعلى الثانى على الأول لما فيه من خفاء وبعد فى التشبيه والتمثيل » . (١)

ويستطرد على بن عبد العزيز فيقول : « وللشعراء فى التشبيه أغراض، فإذا شبهوا بالشمس فى موضع الوصف بالحسن أرادوا به البهاء والرونق والضياء ونُصوع اللون والتمام، وإذا ذكروه فى الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموم مطلعها وانتشار شعاعها واشتراك الخاص والعام فى معرفتها وتعظيمها . وإذا قرنوه بالجلال والرفعة أرادوا بها أنوارها وارتفاع محلها وإذا ذكروه فى باب النفْع والإرفاق قصدوا به تأثيرها فى النشوء والنماء والتحليل والتصفية . ولكل واحد من هذه الوجوه باب مفرد وطريق متميز، فقد يكون المشبه بالشمس فى العلو والنباهة والنفع والجلالة أسودَ، وقد يكون منير الفعال كَمِدَ اللون، واضح الأخلاق كاسف المنظر » ، وهى نظرة كسابقتها تشفع بتحليل دقيق لوجه التشبيه وكيف أن المشبه به يكون

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٨ وانظر أسرار البلاغة ( لعبد القاهر الجرجانى — تحقيق هـ . ريتر ط . استانبول سنة ١٩٥٤ ) ص ٨٠ وما بعدها .

شيئا واحدا ، ويختلف وجه الشبه باختلاف غرض القائل ، وليس هناك من شك فى أن عبد القاهر استمد من هذه النظرة فى تحليله للتشبيه كما استمد من النظرة السابقة . (١)

* * *

وبعد . . فهذه هى فنون البديع التى عرض لها القاضى الجرجانى فى وساطته بين المتنبي وخصومه . . . وعلى الرغم من أن البلاغيين قد سبقوه إلى هذه المصطلحات ، فقد أضاف إليها إضافات واسعة تأثر بها وأفاد منها المتأخرون فى بحوثهم النقدية والبلاغية .

* * *

وبذلك نكون قد عرضنا فى هذا الفصل للبديع فى الكتب التى ظهرت فى القرن الرابع الهجرى موزعة حسب البيئات البلاغية وهى : بيئة الأدباء ، وبيئة المتفلسفة ، وبيئة المتكلمين ، وبيئة النقاد ، ورأينا مدى ما أسهمت به كل بيئة فى علم البديع فى هذا القرن .

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٩ .

# الفصل الثانى

## عيار الشعر (لابن طباطبا العلوى)

مصنف هذا الكتاب محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى [1] الأصبهانى (المتوفى سنة ٣٢٢ للهجرة) ويرجع نسبه إلى الحسن بن على بن أبى طالب ، فهو من العلويين الأشراف .

وكان من شعراء عصره ونقاده، وله مصنفات مختلفة فى الشعر وعروضه ، أهمها « عيار الشعر » وهو كتاب ألفه فى صناعة الشعر ، والميزان الذى به تقاس بلاغته .

وهو يستهله بأن الشعر يفترق من النثر بوزنه ، وأنه لابد له من طبع وذوق ،قبل الوقوف على عروضه، وأيضا لابد له من أدوات مختلفة من معرفة علمى اللغة والنحو والوقوف على أيام العرب وأمثالهم وسننهم فى الشعر ،ولابد من معرفة مناهجهم فى الكلام : جزله وعذبه، ولابد من الوقوف على مايشين الشعر من سفساف الكلام وسخيفه وقبيحه ، ولابد فيه من تمكن القوافى ، وتمكن الألفاظ بحيث تنزل فى أوطانها وتستقر فى مواضعها [2] .

ثم يتحدث عن صناعة [3] الشعر ،وما ينبغى على الشاعر من إحكام كلامه ونظمه فى نسق مطرد ، ويطلب إليه أن يلائم بين الألفاظ ، فلا يخلط بين

---

(١) انظر فى ترجمة ابن طباطبا معجم الأدباء لياقوت ١٤٣/١٧ ومقدمة كتابه عيار الشعر (تحقيق الدكتور طه الحاجرى، والدكتور محمد زغلول سلام. نشر المكتبة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٥٦) .

(٢) عيار الشعر ص ٤ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص١٢٣ .

(٣) عيار الشعر ص ٥ .

أسلوب حضرى وأسلوب بدوى ، وأن يلائم بين كلامه والسامعين الذين يخاطبهم[(١)] ، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات ، ويتوقى حطها عن مراتبها ، وأن يخلطها بالعامة. كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك ، ويعد لكل معنى ما يليق به ، ولكل طبقة ما يشا كلها . وهذا هو ماسماه البلاغيون فيما بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ويطلب ابن طباطبا من الشاعر أن يتوخى الصدق فى تشبيهاته وحكاياته ونص على ذلك صراحة فى غير موطن من كتابه فيقول : « على الشاعر أن يتعمد الصدق والوفق فى تشبيهاته »[(٢)] وأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبها به صورة ومعنى[(٣)]. وللتشابه أنحاء : منها الصورة والهيئة والمعنى والحركة واللون والصوت،فكلما زاد عدد هذه الأنحاء فى التشبيه قوى التشبيه وتأكد الصدق فيه[(٤)] . فإذا خرج الشاعر عن الصدق انتقـــل إلى الغلو والإفراط وذلك عيب ، ومتى تضمن الشعر صفات صادقة وتشبيهات موافقة وأمثالا مطابقة تصاب حقائقها ارتاحت إليه النفس وقبله الفهم[(٥)] . فإذا توفرت للشعر أنواع الصدق ، وتوفر للشاعر صدق التجربة جاء شعراً جميلا معتدلا مؤثراً ، هكذا يجب أن ينسق الكلام صدقا لا كذب فيه ، وحقيقة لا مجاز معها فلسفيا[(٦)] .

---

(١) عيار الشعر ص ٦ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ص ١١ وانظر تاريخ النقد الادبى عند العرب ص ١٤٤ .

(٤) عيار الشعر ص ١٧ .

(٥) المصدر السابق ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٦) المصدر السابق ص ١٢٨ ، وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٤٥ .

وقد لاحظ الدكتور إحسان عباس جور ابن طباطبا على قوة الخيال والتشخيص فى الشعر فقال : « إن التزام ابن طباطبا بالحقيقة شديد الجناية على النقد »(١) وأورد بعض الأمثلة من الشعر عابهـا ابن طباطبا لبعدهـا عن الحقيقة وقربها من الخيال . . منها قول المثقب العبدى على لسان ناقته :

تقولُ وقد درأْتُ لَهَا وضينى
أهـذا دينه أبداً ودِينِى

أكلّ الدّهر حِلٌّ وارتحالٌ
أمَا يُبْقِى عَلَىَّ ولَا يقينى

فالحكاية عن ناقته من المجاز المباعد للحقيقة ، وإنما أراد الشاعر أن الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول ، ثم يعد من الإيماء المشكل قول الشاعر :

أَوْمت بكفّيها من الهوْدجِ
لوْلاَكَ هـذا العام لم أحْجج

أنت إلى مكّة أخرجْتنى
حبًّا ولولا أنت لم أخْرُجِ

فهذا إفراط لأن « الإيماء » لا يتحمل كل هذه المعانى التى قالتها(٢) .

ومما يدل — أيضاً — على عدم عناية ابن طباطبا بالخيال أنه لم يهتم بالاستعارة وهى أعمق من التشبيه .

وينصح ابن طباطبا الشاعر بحسن التخلص من الغزل إلى المديح ، ومن

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٤٥
عيار الشعر ص ١٢٠

المديح إلى الشكوى، ومن الشكوى إلى الاستماحة ،ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافى والنوق، ومن وصف الرعود والبروق إلى وصف الرياض والرواد ، ومن وصف الظلمان والأعيار إلى وصف الخيل والأسلحة [١] . ونحو ذلك من المعانى المقترحة التى ينبغى على الشاعر أن يحتال للوصل بينها وصلا دقيقا .

وهذا الفن ( حسن الخروج ) موجود عند ثعلب ، وابن المعتز ، وأسلفنا أن أبا تمام سماه ( الاستطراد ) .

ونحس من الوهلة الأولى صلة كتاب ( عيار الشعر ) بالبيان والتبيين للجاحظ ، فابن طباطبا يردد كثيراً من ألفاظ الجاحظ .

ويتحدث عن المعانى والألفاظ فيقول : « وللمعانى ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح فى غيرها ، فهى لها كالمعرض للجارية الحسناء التى تزداد حسناً فى بعض المعارض دون بعض ، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذى أبرز فيه ، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه ، وكم من صارم عضب قد انتضاه من وددت لو أنه انتضاه فهزّه ثم لم يضرب به ، وكم من جوهرة نفسية قد شينت بقرينة لها بعيدة منها ،فأفردت عن أخواتها المشاكلات لها ، وكم من زائف وبهرج قد نفقا على نقدهما ، ومن جيد نافق قد بهرج عند البصير بنقده فنفاه سهواً ، وكم من زبر للمعانى فى حشو الأشعار لا يحسن أن يطبعها غير العلماء بها ، والصياقلة للسيوف المطبوعة منها، وكم من حكمة غريبة قد ازدريت لرثاثة كسوتها ، ولو جليت فى غير لباسها ذلك لكثر المشيرون إليها ، وكم من سقيم من الشعر قد يئس طبيبه من برئه، عولج سقمه فعاودته سلامته ، وكم من صحيح حُنى عليه فأرداه حينه » [٢] .

---

(١) عيار الشعر ص ٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٨ .

ولا شك أن ابن طباطبا فى حديثه هذا قد استمد من فكره ابن قتيبة[١] فى مقدمته لكتاب ( الشعر والشعراء )، إذ قسم الشعر إلى ما حسن لفظه وجاد معناه ، وما حسن لفظه دون معناه ، أو معناه دون لفظه ، وما تأخر لفظه ومعناه . ويكاد الكتاب من هذا الموضع فيه إلى نهايته يكون تفسيراً لفكرة ابن قتيبة، وهو تفسير يستمد فيه من كتابات الجاحظ وما جد بعده من أفكار فى حسن البيان،ومن ملاحظاته الخاصة فى بعض محاسن القول. ونراه يعترف فى كتابه بإحساس شعراء العصر بضيق مسالك القول إلى سابقيهم فيقول : « ستعثر فى أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم،ولطفوا فى تناول أصولها منهم ، ولبسوها على من بعدهم ، وتكثروا بأبداعها فسلمت لهم عند إدعائها »[٢] . ثم يقول : « والمحنة على شعراء زماننا فى أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم ، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح » .

ويتحدث بعد ذلك عن طريقة العرب فى التشبيه ،ويلاحظ ملاحظة دقيقة وهى أن الشعر ليس شيئاً منفصلا عن البيئة والمثل الأخلاقية ، وطريقتهم فى التشبيه مستمدة من بيئتهم لأن : « صحونهم البوادى وسقوفهم السماء ، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها ، وفى كل واحدة منهما فى فصول الزمان على اختلافها : من شتاء ، وربيع ، وصيف ، وخريف ، من ماء ، وهواء ، ونار ، وجبل ، ونبات ، وحيوان ، وجماد ، وناطق ، وصامت ، ومتحرك ، وساكن ، وكل متولد من وقت نشوئه وفى حال نموه إلى حال انتهائه »[٣] ويقول : « فإذا اتفق لك فى أشعار العرب التى يحتج بها تشبيه

(١) الشعر والشعراء ص ٦٤ وما بعدها وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٤ .

(٢) عيار الشعر ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٠ .

لا تتلقاه بالقبول ، أو حكاية تستغربها فابحث عنه ونقر عن معناه، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها ، وعلمت أنهم أدق طبعاً من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته » (١) .

وذكر أن للعرب مثلا عليا هي متكأهم في المدح والهجاء : منها « في الخَلْق : الجمال والبسطة ، ومنها في الخلق : السخاء والشجاعة والحلم والحزم والعزم والوفاء والعفاف والبر والعقل والأمانة .. (٢) » فهذه مما يمدح به كما أن أضدادها تصبح موضوعا للهجاء ، على أن هناك حالات تؤكد هذه المثل ، فالجود في حال العسر أهم من مجرد الجود والبخل من الواجد القادر أشنع ، وهكذا تتخذ هذه المثل نفسها مراتب متفاوته تتشعب منها فنون من القول وصنوف من التشبيهات . وما من شك في أننا هنا نقترب اقترابا شديدا من نظرية قدامة في هذا الصدد . ولكن يبدو أن كلا من الناقدين كان يعمل على حدة دون أن يتأثر أحدهما برأى الآخر أو يسمع به . (٣)

وكل هذه مقدمات يضعها ابن طباطبا بين يدى حديثه عن عيار الشعر ، ثم لا يلبث أن يتكلم عن علة حسن الشعر فيقول : « وعيار الشعر أن يورد على الفهم الثاقب فما قبله واصطفاه فهو واف ، وما مجه ونفاه فهو ناقص »(٤) ويقول : « وعلة كل حسن مقبول الاعتدال . كما أن علة كل قبيح منفى الاضطراب . والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها ، وتقلق مما يخالفه . ولها أحوال تتصرف بها ، فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له وحدثت لها أريحية وطرب ، فإذا ورد عليها ما يخالفها قلقت واستوحشت »(٥) .

(١) عيار الشعر ١١ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢ .
(٣) انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٣٥ .
(٤) عيار الشعر ص ١٤ .
(٥) المصدر السابق ص ١٥ .

ويتحدث عن التشبيه . وكأنه يعده جوهر الشعر ولبه . ومبحثه فيه يعد أهم مبحث فى كتابه يتصل بالبلاغة ، وتطور البحث فى مسائلها ، وجعله على ضروب مختلفة منها[١] : « تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة، ومنها تشبيهه به معنى ، ومنها تشبيهه به حركة وبطؤاً وسرعة . ومنها تشبيهه به لوناً ، ومنها تشبيهه به صوتاً ، وربما امتزجت هذه المعانى بعضها ببعض ، فإذا اتفق فى الشيء المشبه بالشيء معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه وتأكد الصدق فيه ، وحسن الشعر به للشواهد الكثيرة المؤيدة له » .

فأما تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة فكقول امرىء القيس[٢] :

كَأَنَّ عُيُونَ الوحْشِ حول خبائنا
وأرحلنا الجَـزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ

وأما تشبيه الشيء بالشيء لوناً وصورة . . . فكقول امرىء القيس[٣] يصف الدّرع :

ومشـــدودة السّـك ، موضونة
تضـاءل فى الطّى ، كالمبرد[٤]
تفيض على المـــــرء أردانُها
كفيض الأتّى على الجدجــــــد

وكتشبيه الثغر بالأقحوان إذ لونهما وصورتهما سواء .

---

(١) عيار الشعر ص ١٧ .

(٢) ديوانه ص ٧٠ وانظر عيار الشعر ص ١٨ .

(٣) ديوانه ص ٨٦ وراجع التشبيهات ص ١٤٧ وينسبها لابن أبى دؤاد مع خلاف فى رواية صدر البيت الأول والصناعتين ص ٢٤٦ .

(٤) السك : الدرع الضيقة الحلق .
الموضونة : الدرع المنسوجة أو المقاربة النسج .
الجدجد : الأرض المستوية .

وأما تشبيه الشيء بالشيء صورة ولوناً وحركة وهيئة ، فكقول ذي الرّمة[١] :

ما بالُ عينك منها الماء ينسكبُ
كأنّهُ من كُلىً مفرية سَرِبُ
وفراء غرفيةٌ أثأى خوارزها
مشلشلٌ ضيعته بينها الكُتُبُ[٢]

وكقول القائل : الشمس كالمرآة في كف الأشلّ .

وأما تشبيه الشيء بالشيء حركة وهيئة فكقول عنترة :

وترَى الذُّبابُ بها يغنى وحده
هزجاً كفعل الشّارب المترنِّم
غرداً يحكُّ ذراعه بذراعِهِ
قَدْحَ المكبّ على الزّناد الأجذمِ[٣]

وأما تشبيه الشيء بالشيء معنى لاصورة فكتشبيه الجواد الكثير العطاء بالبحر والحيا ، وتشبيه الشجاع بالأسد ، وتشبيه الجميل الباهر الحسن الرواء بالشمس ، وتشبيه للمهيب الماضي في الأمور بالسيف ، وتشبيه العالي الهمة بالنجم ، وتشبيه أضداد هذه المعاني بأشكالها[٤].

---

(١) ديوانه ( طبعة المكتب الإسلامي ببيروت ) ص ٣ .
(٢) عيار الشعر ص ١٩ . وأثأى : جمع الخرزتين فصارتا واحدة وهي الثأى . مشلشل : متصل القطر نعت لسرب . والكتب : جمع كتبة وهي الخرزة .
(٣) ديوان عنترة ص ١٩٧ ، ١٩٨ وراجع التشبيهات ٢٨٩ وروايته :
( وخلا الذباب بها فليس ببارح .·. غردا كفعل الشارب المترنم )
والعمدة ٢٩١/١ وجعله من التشبيهات العقم .
(٤) عيار الشعر ص ٢٢ .

ويوصى ابن طباطبا الشاعر الحاذق بأن يمزج بين هذه المعانى فى التشبيهات لتكثر شواهدها، ويتأكد حسنها وأن يتوقى الاقتصار على ذكر المعانى التى يغير عليها دون الإبداع فيها، والتلطيف لها لئلا يكون كالشيء المعاد المملول(١). ولعل هذا هو الإبداع فى نظره. وتكلم بعد ذلك عن أدوات التشبيه فقال: « فما كان من التشبيه صادقا قلت فى وصفه كأنه أو قلت كذا، وما قارب الصدق قلت فيه تراه أو تخاله أو يكاد ».

ثم يعود ابن طباطبا للحديث عن باقى ضروب التشبيه ومنها: تشبيه الشيء بالشيء حركة وبطؤاً وسرعة(٢) . . . فكقول امرىء القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً
كجلمود صخر حطّه السيلُ من علِ(٣)

أصاح ترى برقاً أريك وميضه
كلمع اليدين فى حبىّ مكلّل(٤)

ومنها تشبيه الشيء بالشيء لوناً فكقول امرىء القيس(٥):

وليلٍ كموْج البحر أرخَى سُدُولَه
علىّ بأنواع الهُمومِ ليبتلِيه

وتشبيه الشيء بالشيء صوتاً فكقول الراعى:

كأنّ دوىّ النّحل تحت ثيابها
حصاد السّفا لاقى الرّياح الزعازعا(٦)

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥ .
(٣) ديوان امرىء القيس ص٥٢ .
(٤) المصدر السابق ص ٥٩ ، الحبى : السحاب المتراكم .
(٥) عيار الشعر ص ٢٦ ، وانظر ديوانه ٤٨ .
(٦) عيار الشعر ص ٢٨ .

وكتشبيه صوت النبل فى الحروب بنواح الثكلى .

ويتحدث فى موضع آخر عن التشبيهات المعيبة[١] ، إما لشدة الغلو فيها أو لتشبيه كبير بصغير كتشبيه السهام بأعناق الظباء ، أو لنبو التشبيه عن الذوق . ونوه بالتشبيهات الغريبة البديعة من مثل قول مسلم بن الوليد[٢] :

وإنى وإسماعيل يوم فراقه
لكالغمد يوم الروع زَايلَه النَّصْلُ[٣]

فإنْ أغْشَ قوماً بعده أو أزُرْهمُ
فكالوحْش يُدْنيها من الأَنسَ المحْلُ[٤]

ولم يكن ابن طباطبا أول من تحدث عن التشبيه فقد سبقه إليه الجاحظ وذكره بنفس معناه الاصطلاحى ، وكذلك المبرد الذى وزعه على أربعة أنواع — كما أسلفنا — ولكن يعتبر ابن طباطبا أهم من تحدث عن التشبيه من القدماء ، وربما كان هذا المبحث أهم مباحثه فى كتابه ، فقد فصل القول فى التشبيه خاصة فى التشبيه الحسى وعرض لرائعه ومعيبه . ولم نر أحداً من البلاغيين بعد ابن طباطبا يفصل القول فى التشبيه ويعدد أقسامه مثل الخطيب القزوينى الذى تأثر به .[٥]

وتكلم ابن طباطبا عن الابتداء ؛[٦] وهو ماسماه ابن المعتز ردّ أعجاز

---

(١) عيار الشعر ص ٨٩ وما بعدها .
(٢) انظر الشعر والشعراء ٨٣٣/٢ والتشبيهات ص ٣٨٧ .
(٣) يوم الروع : يوم الحرب .
زايله : فارقه .
(٤) المحل : الجدب .
(٥) انظر الإيضاح ص ١٥١ وما بعدها .
(٦) عيار الشعر ص ٢٨ .

الكلام على ما تقدمها وسماه من جاءوا بعده رد الأعجاز على الصدور ـ فقال: «وأما الابتداء بما يحس السامع بما ينقاد إليه القول فيه قبل استتمامه» فكقول النابغة الذبياني :

إذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم
عصائبُ طير تهتدى بعصائب

فقدم فى هذا البيت معنى ما تحلق الطير من أجله ، ثم أوضحه بقوله :

يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم
من الضاريات بالدّماء الدّوارب

فهو يشير إلى تماسك المعانى ، واتصال أول الكلام بما يليه .

وتحدث عن الكناية وسمّاها « التعريض »[1] الذى ينوب عن التصريح، والاختصار الذى ينوب عن الإطالة . كقول حميد بن ثور :

أرَى بَصَرى قَدْ رَابَنِي بعدْ صحّة
وحسبُكَ داء أن تصحّ وتسلَمَا[2]

ثم تكلم عن الأبيات المتفاوتة النسج فقال : « فأما هذه الأبيات المستكرهة الألفاظ المتفاوتة النسج ، القبيحة العبارة ، التى يجب الاحتراز من مثلها فكقول الفرزدق[3] :

وما مثلُه فِى النّاس إلا مملَّكاً
أبُو أمّه حىّ أبوه يقُاربه

وهذا هو الكلام الفث المستكره الغلق ، وطالب بتجنبه .

(١) عيار الشعر ص ٢٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٠ وانظر الشعر والشعراء ١/٦٥ ، ٣٩٠ .
(٣) عيار الشعر ص ٤٣ .

وقد أكثر الجاحظ فى بيانه من الحديث عن جزاله الألفاظ ، وفخامتها ورقتها وعذوبتها وخفتها وسهولتها، ونشر ذلك فى كل جانب من الكتاب، وكأنما رأى من تتمة الكلام عن صفاتها أن يعرض لحروفها التى هى جوهرها ملاحظاً أن منها ما لا يقترن بعضه إلى بعض فى الكلام (١) ، وأيضا فإنه عرض لتلاقى الكلمة مع الكلمة ملاحظاً أن من الألفاظ مايتنافر بعضه من بعض ، حتى لقد شبهها بعض معاصريه بأولاد العلات ، ويطيل الوقوف إزاء بعض أشعار يشتد فيها التنافر بين ألفاظها ، ليكشف للقارىء مافيها من ثقل ومئونة على اللسان . لأن الكلمة لم تقرن إلى أختها ، ولم يجمع لها ما ينعقد معها فى سلكها . (٢)

وهذا هو ماسماه البلاغيون المتأخرون التعقيد (٣) . وله سببان : أحدهما: مايرجع إلى اللفظ ، وهو يختل نظم الكلام ولايدرى السامع كيف يتوصل منه إلى معناه كبيت الفرزدق سالف الذكر . والثانى : مايرجع إلى المعنى وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثانى الذى هو لازمه والمراد به ظاهر . وجعلوا عدم التعقيد شرطاً من شروط فصاحة الكلام .

وتكلم ابن طباطبا بعد ذلك عن المبالغة فعرض لطائفة من الأبيات أفرط الشعراء فى معانيها ، وبالغوا فيها مبالغة شديدة ، كقول أبى نواس (٤) فى بعض مديحه للرشيد :

وأخفتَ أهلَ الشِّرْكِ ، حتى أنه
لَتَخافُكَ النُّطفُ التى لَمْ تُخْلَقِ

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٦٠ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٦٥ .

(٣) الايضاح ص ٦ .

(٤) ديوانه ص ٤٥٢ وانظر عيار الشعر ص ٤٨ .

وهذا الفن تنبه إليه الجاحظ والأصمعى وسماه ثعلب « الإفراط فى الإغراق »[١] وسماه ابن المعتز الافراط فى الصفة[٢] .

ويشيد بالأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعانى، الحسنة الرصف ، السلسة الألفاظ التى تخرج خروج النثر سهولة وانتظاما ، فلا استكراه فى قوافيها ولا تكلف فى معانيها .[٣] ويقف عند طائفة من الأشعار الغثة الألفاظ ، الباردة المعانى ، المتكلفة النسج ، القلقة القوافى .[٤] ويلم بالسرقات الشعرية . ويفتح الباب أمام الشعراء المعاصرين له كى يتناولوا المعانى الموروثة بشرط تدقيق النظر فى تناولها واستعارتها ، وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها [٥] وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها ، ويقول إنه لابأس من أن يستمد الشعراء فى معانيهم من بعض الرسائل أو من بعض الخطب ، أو من بعض ما ترجم إلى العربية ، أو من بعض أحاديث الناس .

ولا يلبث أن يستمد — من تقسيمات ابن قتيبة للفظ والمعنى التى أشرنا إليها آنفا — فصلا يعرض فيه طائفة من الأبيات حسن لفظها [٦] وضعف معناها ، وإنما يستحسن منها اتفاق الحالات التى وضعت فيها ، وتذكر اللذات بمعانيها، والعبارة عما كان فى الضمير منها. ويتلو هذا الفصل بفصل آخر يعرض فيه طائفة من الأبيات صح معناها [٧] ورثت صياغتها ، ثم يتكلم عن المعنى البارع فى المعرض الحسن .

---

(١) قواعد الشعر ص ٤٩ .
(٢) كتاب البديع ص ٦٥ .
(٣) عيار الشعر ص ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٧ .
(٥) المصدر السابق ص ٧٧ .
(٦) المصدر السابق ص ٨٣ وانظر الشعر والشعراء ١/٦٦ والبلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٦ .
(٧) عيار الشعر ص ٨٧ .

ويفتتح فصلا يتحدث فيه عن التشبيهات البعيدة التى لم يلطف أصحابها فيها ، ولم يخرج كلامهم فى العبارة عنها سلساً سهلا ، ثم يتكلم بعد ذلك فى فصل عن وجوه من الخلل فى معانى الشعر وألفاظه ،[1] وقد أفاد من هذا الفصل المرزبانى فى الموشح[2] وأبو هلال العسكرى فى حديثه عن الخطأ فى المعانى والألفاظ :[3] .

ويلى بعد ذلك فصل يتحدث فيه عن الشعر الردىء النسج فيقول : « ومن الأبيات المستكرهة الألفاظ ، القلقة القوافى ، الرديئة النسج ، فليست تسلم من عيب يلحقها فى حشوها أو قوافيها أو ألفاظها أو معانيها »[4] .

ثم يخرج إلى عرض طائفة من الشعر المحكم النسج الذى تتمكن قوافيه فى قرارها مهما وجد الشاعر طريقه إليها ضيقاً حتى لكأنما يسقطها فى نصابها الطبيعى إسقاطاً . . من مثل قول زهير :

وأعلَم مَا فِي اليوم والأمس قبلَهُ
ولكنَّنِى عنْ عِلْمِ مَا فِى غَدٍ عَمِ[5]

فكلمة ( عم ) عجيبة الموقع . وأفاد العسكرى من هذا البحث فى حديثه عن حسن المقطع وجودة موضعه[6] .

ثم ذكر التخلص فى الشعر وقصد به الخروج من غرض إلى غرض آخر ، كالتخلص من الوصف إلى المديح مثلا[7] ، ثم يتحدث عما ينبغى من ملاءمة

---

(١) عيار الشعر ص ٩٦ .
(٢) الموشح ص ١٣٢ وما بعدها .
(٣) الصناعتين ص ٦٩ وما بعدها .
(٤) عيار الشعر ص١٠٢ .
(٥) عيار الشعر ص ١٠٦ وانظر شعر زهير بن أبى سلمى ص ٢١ .
(٦) الصناعتين ص ٤٤٥
(٧) عيار الشعر ص ١١١ .

معانى الشعر لمبانيه ، وأن يخلو فى افتتاحياته مما يتشاءم به يستجفى من الـكلام والمخاطبات كذكر البكاء ووصف إقفار الديار ، ونعى الشباب ، وذم الزمان خاصة فى المديح أو التهانى [١] . وتستعمل هذه المعانى فى المراثى ، ووصف الخطوب الحادثة، فإن الـكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح .

ويدعو ابن طباطبا الشعراء إلى تنسيق أبياتهم تنسيقاً دقيقاً [٢] بحيث تتماسك معانيها وألفاظها . ويدعو بقوة إلى وحدة السياق، وأن تترابط أبيات القصيدة حتى تغدو بناء محكما متشاكلا ، بل حتى تغدو كالجسد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر ، فكل بيت ينزل فى مستقره ، ويحل فى موضعه، بحيث لا يمكن التقدم به ولا التأخر . يقول : « وأحسن الشعر ماينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره على ماينسقه قائله ، فإن قدم بيتاً على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها ، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف ويكون خروج الشاعر عن كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجاً لطيفاً على ما شرطناه فى أول الكتاب، حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً كالأشعار التى استشهدنا بها فى الجودة والحسن واستواء النظم، لا تناقض فى معانيها ولا وهى فى مبانيها ولا تكلف فى نسجها، تقتضى كل كلمة مابعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها، فإذا كان الشعر على هذا التمثيل

(١) عيار الشعر ص ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٤ .

سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهى إليها راويه »[١] .

ويعلق الدكتور شوقى ضيف على كلام ابن طباطبا فيقول : « كأنه تنبه فى دقة إلى ما ردده ـ ولا يزال يردده ـ النقاد فى عصرنا من فكرة الوحدة العضوية فى القصيدة ،بحيث تصبح عملاً محكماً إحكاما فلا تخلخل بين المعانى المتعاقبة ، ولا ممرات ولا خنادق تفصل بينها ، إنما انتظام واتساق والتحام ، حتى تصبح القصيدة كأنها كلمة واحدة ومعنى واحد . ولعل من الغريب حقاً أن أصحاب النقد والبلاغة بعد ابن طباطبا لم يتوسعوا فى هذا الموضوع ، بل لقد كادوا يجمعون على أن تعلق بيت بما قبله من حيث تمام الفكرة والتعبير يعدُّ عيباً، وسموه منذ عصره الجاحظ باسم ( التضمين ) وبذلك ظلت تعمّ فكرة وحدة البيت ، وظلت القصيدة تتركب من وحدات منفصلة ، وقلما جرت فيها وحدة تامة، تجعلها بناء مترابطاً بل جسداً واحداً »[٢].

والواقع أن كلام ابن طباطبا يتضح منه هذا الإلحاح الشديد على نوع من الوحدة فى القصيدة ربما لانجده كثيرا عند غيره من النقاد . وقد تصوّر ابن طباطبا العلاقة بين المعنى واللفظ فىالقصيدة علىنحو العلاقةبين الروح والجسد. يقول : « والكلام الذى لامعنى له كالجسد الذى لاروح فيه كما قال بعض الحكماء : الكلام جسد وروح ، فجسده النطق وروحه معناه »[٣]. وذلك تصور يجعل الصلة بين اللفظ والمعنى عنـــد ابن طباطبا أوضح مما رسمه ابن قتيبة[٤] ، « على أنه ربما لم يقتصر فى العلاقة بينهما على الوجوه الأربعة التى

---

(١) عيار الشعر ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص١٢٧ .

(٣) انظر عيار الشعر ص ١١ ، ١٢١ .

(٤) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص١٤٠ .

عدّها ابن قتيبة ، لأنه لا يريد أن يلتزم بقسمة منطقية ، فهناك أشعار مستوفاة المعانى سلسة الألفاظ ، وأشعار غثة الألفاظ باردة المعنى ، وأشعار حسنة الألفاظ واهية تحصيلا ومعنى ، وأشعار صحيحة المعنى رثّة الصياغة ، وأشعار بارعة المعنى قد أبرزت فى أحسن معرض وأبهى كسوة وأرق لفظ ، وأشعار مستكرهة الألفاظ قلقة القوافى رديئة النسج (دون إشارة إلى ماتتضمنه من المعانى) مما يشير إلى أن ابن طباطبا يصدر فى حديثه عن مستويات مختلفة ، وعن تذوق خالص لا علاقة له بالتقسيم المنطقى » .

• • •

هذا هو كتاب « عيار الشعر » لابن طباطبا ، وهو يدور حول فن الشعر وأدواته ، وما يبين به الشعر عن المنثور ، وصناعة الشعر ، وما يسلكه الشاعر فى تأليفه ، والمعانى والألفاظ ووجوب العناية بهما ، وأشعار المولّدين وما يستحسن فيها ، وطبيعة الشعر الجاهلى والمثل الأخلاقية التى بنى عليها العرب أهاجيهم ومدائحهم ، والعلة فى استحسان الشعر .

ومن أهم مباحث الكتاب كلامه فى التشبيهات وضروبها ، وتحدث عن حسن الابتداءات وحسن التخلّص ، والتعريض الذى ينوب عن التصريح ، والاختصار الذى ينوب عن الإطالة ، والإغراق .

وذلك إلى جانب الآراء المستفيضة فيما يستحسن لأجله الشعر ، وما يعاب مما يدخل فى صميم المباحث النقدية مع القدرة الفائقة على التمثيل والاستشهاد الذى يدل على سعة اطلاع المؤلف ، وغزارة محفوظه من الشعر العربى ، وبذلك ظلت فنون البديع كما تركها ابن المعتز ثمانية عشر فناً لم يزد عليها ابن طباطبا شيئاً وإن كان قد فصّل القول لأول مرة فى التشبيه .

ويقول الدكتور إحسان عباس : « إن كتاب عيار الشعر يعد مقالة استطرادية فى النقد معتمدة على صفاء الذوق الفنى دون سواه ، ولكنه من الكتب التى لفتت إليها التوحيدى فأكثر من النقل عنه فى البصائر وفى « المنتزع » كما تأثر به آخرون من بعد ، وفى الرد عليه ألف الآمدى ( نقض عيار الشعر )[1] . »

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١٣٣ .

# الفصل الثالث

## نقد الشعر ( لقدامة بن جعفر )

مؤلف هذا الكتاب قدامة بن جعفر ( المتوفى سنة ٣٣٧ للهجرة )[١] المعروف بالكاتب البغدادى ، وكان مثل أبيه جعفر من كتَّاب الديوان العباسى ببغداد ، وقد كان فى أول أمره نصرانيا ثم دخل الإسلام على يد الخليفة المكتفى ( ٢٨٩ – ٢٩٥ ﻫ ) .

واشتهر بين معاصريه بثقافته العميقة بالفلسفة والمنطق ، يقول عنه ابن النديم : « كان قدامة أحد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة الفضلاء ، وممن يشار إليه فى علم المنطق »[٢] . ويقول ياقوت : « . . . فقرأ واجتهد وبرع فى صناعتى البلاغة والحساب ، وقرأ صدراً صالحاً من المنطق ، وهو لائح على ديباجة تصانيفه ، وإن كان المنطق فى ذلك العصر لم يتحرر تحريره الآن ، واشتهر فى زمانه بالبلاغة ونقد الشعر وصنف فى ذلك كتبا[٣] » .

والحق أن ماوصل إلينا من مصنفات قدامة يدل على تأثره الشديد بالثقافات الأربع التى كانت تقوم عليها يومئذ المدنية الإسلامية : العربية والفارسية واليونانية والهندية ، أما تمكنه من الثقافة العربية فظاهر فى كتابيه « نقد

---

(١) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ١٧/١٢ وتاريخ بغداد ٧/٢٠٥ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٦/١٠٧ ونقد النثر ص ٣٣ . وقدامة بن جعفر والنقد الأدبى ( للدكتور بدوى طبانه — الطبعة الثالثة ٠ ط . المطبعة الفنية الحديثة ١٣٨٩ﻫ – ١٩٦٩ م ) ص٤٧ .

(٢) الفهرست ص ١٣٠ .

(٣) معجم الأدباء ٦/٢٠٤ .

الشعر » وكتاب « الألفاظ » ، والأول يدل على بصر بالشعر العربى ، والثانى يدل على إحاطة تامة بمفردات اللغة العربية ، وعلى ذوق موسيقى فى تخير الألفاظ وتأليفها . يقول قدامة فى خطبة الكتاب : « هذا كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة تدل على معان متفقة مؤتلفة ، وأبواب موضوعة ، بحروف مسجعة مكنونة ، متقاربة الأوزان والمبانى ، متناسبة الوجوه والمعانى ، تونق أبصار الناظرين ، وتروق بصائر المتوسمين ، وتتسع بها مذاهب الخطاب ، وينفسح معها بلاغة الكتاب ، لأن مؤلف الكلام البليغ الفصيح ، واللفظ المسجع الصحيح ، كناظم الجوهر المرصع ، ومركب العقد المرشح ، يعد أكثر أصنافه ليسهل عليه إتقان رصفه وائتلافه »[1] .

وهو كتاب جمع فيه قدامة الألفاظ المأثورة ، والعبارات الموروثة ، وضم فيه الالف إلى إلفه ، وراعى مابين الألفاظ التى تخيرها من الوحدة فى النغم والجرس واستشهد له بشواهد الشعر ، ومحكم القرآن استشهاداً قوياً ينطق بالتعمق وسعة الإحاطة بالإضافة إلى تمكنه من علم الاشتقاق والتصريف .

وقد علق الدكتور بدوى طبانة على كتاب « جواهر الألفاظ » بقوله : « وهذا الكتاب مصدر نقدى لقدامة ، لأنه مقياس ذوقى له ، ومعجم من معاجم الألفاظ والأساليب التى بذل المؤلف جهداً عظيما فى جمعها وإحصائها ، ولم شعثها ، ونظمها فى أبواب بحسب ماتدل عليه من المعانى ، ولايعنى بالبحث فى بنية الكلمة أو اشتقاقها ، ولكنه يجمع فى صعيد واحد الألفاظ والتراكيب التى تدل على معنى بعينه ، مع اختيار أجود هذه الأساليب وأبلغها مما استعملته العرب فى تعابيرها »[2] .

---

(١) جواهر الالفاظ ( لقدامة بن جعفر — ط . مطبعة السعادة — القاهرة سنة ١٩٣٢ ) ص ٢ .

(٢) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى ٩٧ .

وأما تأثره بالثقافة الفارسية فيؤخذ من تلك الفصول التى عقدها فى كتابه « الخراج وصناعة الكتابة » وجعل موضوعها مايسميه علماء المسلمين بالآداب السلطانية ، وهى من قبيل ما كتبه ابن المقفع فى ذلك الموضوع نفسه.[١] على أن كتاب الخراج يحوى فوق ذلك فصولا أخرى فى جغرافية الدولة الإسلامية لذلك العهد ، وخاصة نظمها المالية.

وأما تأثره بالثقافة اليونانية فيظهر واضحا فى كتابه « نقد الشعر » الذى تبدو فيه عناية قدامة بالحدود وتنظيم الأقسام ، وكان قدامة ممن يشار إليهم فى معرفة هذه الثقافة والبحث عنها، والسبق إلى تحصيلها ، وأخص تلك الألوان الفلسفة ، حتى عده النديم : أحد الفلاسفة ، وذكر أن له تفسير بعض المقالة الأولى من السماع الطبيعى[٢] كما ذكر له كتبا فى صناعة الجدل[٣].

ويزيد صاحب كشف الظنون أن الكتاب اسمه « سمع الكيان » من كتب الطبيعيات لاسكندر الأفروديس ، لخص فيه كتابا لأرسطو ، وهو ثمانى مقالات ، ثم يذكر ماذكره صاحب الفهرست من أن قدامة فسر بعض المقالة الأولى[٤] .

وأما تأثره بالثقافة الهندية فيتضح فى ثقافته الحسابية الدقيقة التى نلقاها فى كتابه عن الخراج وصناعة الكتابة .

بالإضافة إلى هذه الثقافات كان لقدامة طريقة فى التأليف فذّة طريفة ، تجمع إلى غزارة المادة وعمق التفكير ، حسن الترتيب، وسهولة العبارة وإيجازها،

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٣٩ .

(٢) الفهرست ص ٢٥٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٠ .

(٤) كشف الظنون ٢/١٠٠٢ ، ١٠٠٣ وانظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبى ص ٨٣

وقد بعثه على انتهاج هذه الطريقة قصده فى كثير من كتبه إلى أن تكون سهلة التناول والاستظهار على ناشئة الكتّاب الذين يعدّون أنفسهم لتقلد الأعمال الديوانية، وهو يصرّح بذلك فى صدر المنزلة السادسة من (كتاب الخراج) فكتبه من قبيل كتب ابن قتيبة ، وإن كان قدامة أروع أسلوبا ، وأمثل طريقة ، وأشدّ تأثرا بالعلوم الدخيلة فى العربية[١] .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه منذ أواسط القرن الثالث الهجرى برزت بيئة جديدة فى مجال البلاغة ، هى بيئة المتفلسفة — كما سبق أن ذكرنا فى مطلع هذا الباب — وكانت هذه البيئة تتخذ من فلسفة اليونان ومعاييرهم فى البلاغة أساسا تحتكم إليه فى تقدير القيم البيانية للكلام . مما جعل البحترى يشكو منهم شكواه المعروفة ، ووقف معه اللغويون المحافظون يزرون على الفلسفة ، ومن يستظهر مصطلحاتها خاصة من الكتاب ، واحتدمت الخصومة بين الطرفين وكان من حسن حظ اللغويين أن انتصر لهم ابن المعتز بكتابه (البديع) الذى ردّ فيه على المتفلسفة وأضرابهم من الشعوبيين الذين كانوا يخاصمون البلاغة العربية[٢] .

ومضى المتفلسفة يرددون ماعرفوه من قواعد البلاغة اليونانية، وأخذوا يكتبون خلاصات لكتابى الشعر والخطابة لأرسطو ، ثم ترجموها ترجمة كاملة ، وهى ترجمة اعتورها غير قليل من سوء الفهم ، إذ لم يكونوا يتصوّرون المأساة اليونانية التى دار عليها الكتاب الأول ، وأيضا لم يكونوا يتصوّرون الخطابة القضائية عند اليونان ولا نظمهم فى الحكم التى عرض لها أرسطو فى حديثه عن الخطابة السياسية .

---

(١) انظر مقدمة نقد النثر ص ٣٩ .

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

لـكن على كل حال بقيت بعد ذلك أجزاء من الـكتابين تتحدث عن لغة الشعر والنثر وخصائصهما البيانية والتعبيرية ، مما يتصل بالأبحاث البلاغية وأصولها العامة .

ولم يلبث قدامة بن جعفر أن حاول إخضاع البلاغة العربية لتلك الأصول فألف كتابه « نقد الشعر » ومضى يستمد فيه من منطق أرسطو وفلسفته وكتابيه «الخطابة» و «الشعر» باذلا فى ذلك جهداً عنيفاً ، وتمثل تمثلا دقيقا ما وضعه الأصمعى والجاحظ وابن المعتز وثعلب من معايير بلاغية ، واستطاع أن يضيف إلى ماسجله ابن المعتز من فنون بديعية ثلاثة عشر فنا جديدا[١] .

وإذا كان ابن المعتز قد قصر كتابه على علم البديع ، فإن كتاب قدامة كان فى نقد الشعر بصفة عامة، وجاء تعرضه فيه للمحسنات البديعية عنصراً من العناصر التى منها تألف منهاجه فى نقد الشعر ، فهو لم يذكر هذه المحسنات على أنها بديع ، ولا ذكر اسم البديع ، بل ذكر هذه المحسنات على أنها نعوت للشعر ومحاسن له .

ويستهل قدامة كتابه ( نقد الشعر ) : « بأن العلم بالشعر ينقسم أقساما : فقسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه ، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه ، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته ، وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد به ، وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه . ويقول إن الناس عنوا بوضع الـكتب فى القسم الأول وما يليه إلى الرابع عناية تامة ، أما القسم الأخير فإنه لم يجد فيه كتابا منظما ، ومن ثم كان الناس يخبطون فيه منذ تفقهوا فى العلم ، وقليلا ما يصيبون »[٢] . « وهو بذلك كأنه يريد أن يلغى كل ما ألف قبله فى تمييز

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٧٠ .

(٢) نقد الشعر ص ١٣ ، ١٤ .

جيد الشعر من رديئه ، أو هو على الأقل لا يعترف بأن أحداً كتب شيئاً يغنى بعض الغناء فى هذا الموضوع ، فلا ثعلب فى « قواعد الشعر » ولا ابن المعتز فى كتاب « البديع » ولا غيرهما من سابقيهما ومعاصريهما قد كتب فيه ما يذكر له بالثناء . بل إنه ليدعى عليهم جميعا الخبط والتخبط ، وكأنه يريد أن يقول إنهم فقدوا الدليل الهادى من كتابات أرسطو ، ولذلك قصروا بل تخبطوا وضلوا الطريق ، ويظهر أن كتاب ابن المعتز كان يؤذيه بأكثر مما آذاه كتاب ثعلب ، لأن ثعلباً من اللغويين الذين كانوا لا يحسنون — باعتراف ابن المعتز نفسه — البحث فى البديع ووجوه البلاغة ، وكان ابن المعتز قد رمى جماعة المتفلسفة بسهام مصمية ، إذ ردّ كثيرا مما يلوون به ألسنتهم ويقولون إنه من أثر البلاغة اليونانية إلى مصادره وأصوله العربية القديمة»[١].

ولعل ذلك ما جعل قدامة يتحاشى التعرض لجمهور ما أتى به فى كتابه من فنون بديع ومن ضروب محسنات ، وحاول أن يبدِّل ويعدِّل فى مصطلحاته التى اقترحها ، وأن يأتى بمصطلحات لضروب من محاسن القول لم يقف عندها ابن المعتز قائلا : «لما كنت آخذا فى استنباط معنى لم يسبق إليه مَنْ يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها ، احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء أخترعها ، وقد فعلت ذلك ، والأسماء لا منازعة فيها إذ كانت علامات فإن قنع بما وضعته ، وإلا فليخترع لها كل من أبى ما وضعته منها ما أحب فليس ينازع فى ذلك»[٢].

« وكأنه يريد أن يأخذ من يد ابن المعتز قصب السبق فى الحديث عن وجوه بلاغة الشعر ، وحتى فى وضعه لها بعض الأسماء التى تخيرها لتدل عليها

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ٧٨ ، ٧٩
(٢) نقد الشعر ص ٢٢ .

دلالة ناطقة . ومن تتمة هذه المعارضة الحادة لابن المعتز أن نجده يصنف رسالة فى الدفاع عن أبى تمام رادّا بها على رسالته التى صور فيها مساويه . وكل ذلك يدل على أن قدامة ألف كتابه « نقد الشعر » محادة لابن المعتز وغيره ممن يجرون فى إثره ضـــد المتفلسفة وما يلوكونه من مقاييس البلاغة عند اليونان »[١] .

ويذكر الدكتور طه حسين : « أن أول ماظهر من تشريع الفلسفة للأدب كتاب « نقد الشعر » لقدامة ، وقد استغل كتابه كل مؤلف جاء بعده دون أن يقول كلمة واحدة يقرّ له فيها بالفضل ،ونحن عندما نقرؤه نحس من أول فصوله أننا بإزاء روح جديدة لاعهد لنا بمثله من قبل »[٢] ويضيف قائلا : « ويمكن المضى فى قراءة ( نقد الشعر ) دون أن نلمح أثرا ما لنظرية ( المحاكاة ) المشهورة والتى هى جوهر كتاب الشعر » .

وإذاً فلا بد من أحد أمرين : فإما أن قدامة لم يطلع على كتاب الشعر لأنه لم يكن ترجم بعد إلى اللغة العربية ، أو أنه قد اطلع على الأصل اليونانى أو على ترجمة سريانية فلم يتيسر له فهمه . على أنه إذا كان قدامة يجهل كتاب الشعر فقد كان على إحاطة تامة بكتاب الخطابة ، وقد فهم منه كل مايمكن أن ينتفع به ، وطبق مافهمه على الشعر العربى »[٣] .

وعلى الرغم من أن الدكتور طه حسين ينكر على قدامة معرفته بكتاب الشعر نراه يثبت له إحاطة تامة بكتاب الخطابة ، ويصرح بأنه قد فهم منه كل مايمكن أن ينتفع به .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ٧٩ .
(٢) مقدمة نقد النثر ١٦ .
(٣) المصدر السابق ١٧ .

أما الدكتور شكرى عياد فيورد تعريف قدامة للشعر : «قول موزون مقفى يدل على معنى »[١] ويعلق عليه بقوله : « [٢]وأول مانلاحظه فى هذا التعريف أنه قد خلا من صفة الشعر الذاتية التى ذكرها أرسطو وهى ( المحاكاة ) ، وهذا الفرق لابد أن يبعد قدامة عن روح كتاب الشعر . وهو يلحق هذا التعريف بتحليل فلسفى للشعر إلى مادة وصورة ، والمادة كما نفهم من تحليل قدامة هى المعانى والأغراض ، والصورة هى نظم الشاعر لتلك المعانى والأغراض. ويبنى قدامة على ذلك رأياً فى صلة الشعر بالأخلاق ؛ فالرفعة والضعة والشرف والخسة صفات للأغراض والمعانى أى للمادة التى ينظم منها الشعر ، ولا شأن لها بصورة الشعر أى صفته الذاتية التى تقاس بها جودته . وإذاً فالشعر لا يحسن أو يقبح بسبب أخلاقى من شرف المعنى أو خسته ، بل بجودة صناعته . وأثر ( الفلسفة الأولى ) فى هذه الفكرة ظاهرة ، ولكننا لا نلمح فيها أثراً مباشراً لكتاب الشعر ، وإذا كان مثل هذا الأثر قد وجد فيغلب أن يكون ذلك فى ناحيتين من بلاغة قدامة : فنون الشعر ، والغلو فى المعانى . فأما فى الفنون فقد ترك قدامة ذكر ( الفخر ) ونظر إلى الرثاء على أنه لون من المديح[٣] ، ولعل ذلك صدى لتقسيم أرسطو الشعر كله إلى محاكاة للأفاضل ومحاكاة للأشرار ، وهو ماعبر عنه ( متى ) بالمديح والهجاء . وأما فى موضوع الغلو الذى يقول فيه قدامة إنه وجد الناس مختلفين فيه مضطربين فى فهم معناه — فإنه بعد أن يصرح بنصرته لمذهب الغلو يقول : « هو ماذهب إليه أهل العلم بالشعر والشعراء قديماً ، وقد بلغنى عن بعضهم أنه قال أحسن الشعر أكذبه ،

---

(١) نقد الشعر ١٥ ص .

(٢) كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ( تحقيق د . شكرى عياد ) ص ٢٣٣ .

(٣) نقد الشعر ١١١ .

وكذا نرى فلاسفة اليونانيين فى الشعر فى مذهب لغتهم[١] . فماذا يعنى بإشارته إلى ( فلاسفة اليونانيين فى الشعر ؟ ) إنه لم ينص على كتاب (الشعر) صراحة، ولكننا لا نعرف الوصف الذى وصفه يصدق على كتاب آخر مما ترجم إلى العربية غير هذا الكتاب — ثم إن قدامة كان معاصرا لمتى بن يونس ، وقد شهد مناظرته مع السيرافى ، فليس بغريب إذاً أن يكون قد قرأ ترجمته لكتاب الشعر، وبخاصة أن فكرة الغلو والتوسط يمكن أن ترد بسهولة إلى كتاب الشعر»[٢] .

والحق أن قدامة أحاط بكتاب ( الشعر ) وكتاب ( الخطابة ) جميعا ، تدل على ذلك المشابهة بين تعريف أرسطو ( للمأساة )[٣] . فقد رآه يضمن تعريفه لها العناصر التى تتكون منها ، ويفصل بعد ذلك الحديث فى كل عنصر من العناصر ، فجرى فى إثره ، وضمن تعريفه للشعر العناصر التى تكونه فى رأيه وهى : اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، وقبل أن يسترسل فى الحديث عنها قال إن الشعر صناعة[٤] ،وهو قول يستمده مباشرة من مقدمات أرسطو فى كتابه ( فن الشعر )[٥] .

ويقول إن لكل صناعة طرفين : أحدهما غاية الجودة ، والآخر غاية الرداءة وبينهما حدود تسمى الوسائط ، ولكل منهما اسم ينزل بحسب قربه من الجيد أو الردىء أو قوفه فى الوسط الذى يقال لما كان فيه : صالح أو متوسط ،

---

(١) نقد الشعر ص ٦٥ .
(٢) كتاب ارسطو طاليس فى الشعر ( تحقيق د . شكرى عياد ) ص ٢٣٤ .
(٣) فن الشعر لأرسطو طاليس للدكتور عبد الرحمن بدوى ( انظر ترجمة بدوى ص١٨، وترجمة متى ص٩٦ ) .
(٤) نقد الشعر ص ١٦ .
(٥) انظر ترجمة متى فى كتاب ( فن الشعر لأرسطو طاليس — للدكتور عبد الرحمن بدوى ) ص ٨٥ وفى مواضع مختلفة من الترجمة .

أو لاجيد ولا ردىء ، فإن سبيل الأوساط فى كل ماله ذلك أن تُحد بسلب الطرفين ، كما يقال مثلا فى الفاتر — الذى هو وسط بين الحار والبارد — أنه لاحار ولا بارد ، والمزّ — الذى هو وسط بين الحلو والحامض — إنه لاحلو ولا حامض »[١] .

ونظرية الحدود الوسطى من النظريات التى شغف بها أرسطو فى حديثه عن الأخلاق.[٢] ويلاحظ قدامة ملاحظتين : أولهما : أن كل المعانى معرضة للشاعر[٣] ، ينظم فيما شاء منها إذ هى مادة عمله ، وثانيتهما : أن مناقضة الشاعر نفسه فى قصيدتين أو كلمتين بحيث يصف شيئاً وصفاً حسناً ، ثم يعود فيذمه ذماً حسناً أيضاً ، غير منكر عليه ولا معيب من فعله ، إذا أحسن المدح والذم، بل لعل فى ذلك مايدل على قوة شاعريته[٤] .

وقدامة فى ذلك يستمد من مضمون كلام أرسطو فى أوائل كتابه ( فن الشعر ) إذ يقول : « إن الشعراء يصورون الناس أعلى من الواقع أو أدنى منه ، فالمادح يرفع ممدوحه فوق واقعه درجات ، والهاجى يهبط به دون واقعه درجات ، أو بعبارة أخرى يحسّن الشعراء مايصفونه أو يقبحونه »[٥]. ولعل قدامة أيضا قد تأثر فى قوله بقبول المناقضة[٦] بما جاء فى صدر كتاب الخطابة من أن الخطابة لايراد بها إصابة الحق ، وإنما يراد بها الإقناع ، ولذلك تستخدم فى إثبات النقيضين[٧] .

---

(١) نقد الشعر ص ١٧ .

(٢) كتاب الخطابة لأرسطو طاليس ( الترجمة العربية القديمة — تحقيق د . عبد الرحمن بدوى — ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٩ ) ص ١٢١ .

(٣) نقد الشعر ص ١٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨

(٥) انظر ترجمة بدوى لكتاب فن الشعر ص ٨ وما بعدها وترجمة متى ص ٨٨ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٢ .

(٦) نقد الشعر ص ٢٠ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٢ .

(٧) كتاب الخطابة ص ٧ ، ٨ .

ونخلص من هذا إلى أن قدامة تأثر فى كتابه بكتابى أرسطو : ( فن الشعر ) و ( الخطابة ) ولعله قد أطلع على الترجمة التى قام بها أبو بشر متى بن يونس القنائى ( المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ) لكتاب فن الشعر .

وبعد هذه المقدمة القصيرة نمضى فى تحسس ألوان البديع التى أضافها قدامة إلى فنون ابن المعتز وهى :

١ — الترصيع :

أول الأنواع البديعية التى أضافها قدامة ، وجعله من نعوت الوزن ، وعرفه بقوله[1] : « هو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به ، أو من جنس واحد فى التصريف ، كما يوجد ذلك فى أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم ، وفى أشعار المحدثين المحسنين منهم » . فما جاء فى أشعار القدماء قول امرىء القيس الكندى :

مِخَشٍّ مِجَشٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً
كتَيْسِ ظِباء الحُلَّبِ العَدَوانِ[2]

فأتى باللفظتين الأوليين مسجوعتين فى تصريف واحد ، وبالتاليتين لهما شبيهتين بهما فى التصريف ، وربما كان السجع ليس فى لفظة لفظة ولكن فى لفظتين لفظتين بالوزن نفسه .

---

(١) نقد الشعر ص ٣٨ .

(٢) المخش : الجرىء الماضى .
المجش : غليظ الصوت .
العدوان : شديد العدو .
التيس : فحل الظباء .
الحلب : نبات ترعاه الظباء فتضمر عليه . والبيت فى الديوان ص ١٧١ :
( مكر مفر مقبل مدبر معا . . . . . . )

ومنه قول أبي صخر الهذلي :

سُـــودٌ ذوائِبُهَا بيضٌ ترَائبُهَا
مَحْضٌ ضرَائِبُهَا صِيغَتْ على الكَرَمِ (١)

وذكر قدامة « أن أكثر الشعراء المصيبين من القدماء والمحدثين قد غزوا هذا المغزى ، ورموا هـذا المرمى ، وإنما يحسن إذا اتفق له في البيت موضع يليق به ، فإنه ليس في كل موضع يحسن ولا على كل حال يصلح ، ولا هو أيضا إذا تواتر واتصل في الأبيات كلها بمحمود ، فإن ذلك إذا كان دل على تعمل وأبان عن تكلف (٢) » .

وذكر الدكتور شوقي ضيف (٣) : « أن قدامة في هذا اللون من التعبير يستمد من أرسطو في كتابه الخطابة ، وحديثه المفصل عن الجمل ذات الأجزاء المتقابلة ، ولعله رفض الإكثار من هذا التصريع ووفرة تقابعه لقول أرسطو إذا كان الكلام مقطعا ليس فيه اتصالات وانفصالات لم يلتذ به » .

ويتحدث قدامة عن نعت القوافي فيقول إنها ينبغي : « أن تكون عذبة الحروف ، سلسة المخرج ، وأن يُقْصَدَ لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها » (٥) . وهو في الجزء الثاني من نعته يشير إلى التصريع في أول القصائد مستمداً ذلك من كلام أصحاب علم العروض .

ولئن أربى قدامة على ابن المعتز بهذا اللون ، فقد أسلفنا أن الجاحظ

(١) نقد الشعر ص ٤٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٦ ، ٤٧
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٣ ، وانظر تلخيص ابن سينا لكتاب الخطابة ص ٢٢٢ وما بعدها .
(٤) نقد الشعر ص ٥١ .

سبق إلى هذا ، وإن سماه السجع والازدواج ، وسماه قدامة الترصيع[1] .

٢ — الغلو :

سماه ابن المعتز ( الإفراط فى الصفة ) وتحدث عنه قدامة فقال : « إن الغلو عندى أجود المذهبين[2] ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغنى عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه ، وكذا يرى فلاسفة اليونانيين فى الشعر على مذهب لغتهم ، ومن أنكر على مُهَلْهِل والنمر وأبى نواس قولهم المقدم ذكره فهو مخطىء ، لأنهم وغيرهم — ممن ذهب إلى الغلو - إنما أرادوا به المبالغة ، وكل فريق إذا أتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل فى باب المعدوم ، فإنما يريد به المثل وبلوغ النهاية فى النعت ، وهذا أحسن من المذهب الآخر[3] » .

فهو يناقش مذهبين فى الشعر أحدهما يؤثر الغلو فيه ، وثانيهما يؤثر الاقتصار على الحد الأوسط ، ورجّح المذهب الأول محتجا بأنه مذهب الفلاسفة اليونانيين فى الشعر[4] ، ولا ريب فى أنه يشير إلى كتاب أرسطو فى الخطابة ، أو على الأقل لما فهمه منه من مثل قوله : « إن الصناعة الشعرية إنما يقصد بها التخييل ، لا التصديق »[5] .

وقوله إن الخطابة معدة للاقناع ، والشعر ليس للاقناع والتصديق ولكن للتخييل.[6] بل أكثر من ذلك نراه يرتضى الإفراط فى بعض أغراض الشعر

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٨٤ ، ٢٩٧ ، ٤٠٨ ، ٢/ ١١٦ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٣ .

(٢) يقصد بالمذهبين : الغلو والاقتصار على الحد الأوسط .

(٣) نقد الشعر ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٤) انظر كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ( تحقيق دكتور شكرى عياد ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ) .

(٥) انظر تلخيص ابن سينا لكتاب الخطابة ( طبعة وزارة التربية والتعليم ) ص ٢٤ .

(٦) المصدر السابق ص ٣ ٢ .

كالمديح والهجاء بينما يطلب الحد الأوسط في الخطابة[١] . ويعلق الدكتور طه حسين على ذلك بقوله : «ويستغل قدامة نظرية أخرى لأرسطو في كثير من الاقتناع بصحتها ، تلك نظرية ( الغلو ) الذى يجيزه أرسطو على ما هو معروف للشعراء في جميع الأحوال ، وللخطباء في أحوال خاصة ، فيعد قدامة ( الغلو ) مما يمتاز به فحول الشعراء ، وينحى على أنصار الاعتدال ومن يرون الاقتصار على الحد الأوسط ، زاعما أنهم ليس لهم أن يطلبوا إلى الشاعر من حيث هو شاعر أن يتوخى الصدق ، بل ولا أن يتقيد بالأخلاق نفسها[٢] ».

٣ — صحة التقسيم :

لاحظ قدامة أن أغراض الشعر كثيرة ، ولكنه سيكتفي ببيان الأغراض المهمة منها : كالمديح والهجاء والمراثى والتشبيه والوصف والنسيب ، ثم ذكر أن هذه الأغراض إنما هى وجوه من جملة معانى الشعر ، أما مايعم تلك المعانى فإنه سيعنى بذكره وبيانه ، وأول ما يعنى به من ذلك « صحة التقسيم » ، « وهى أن يبتدىء الشاعر ، فيضع أقساماً ، فيستوفيها ، ولا يغادر قسما منها[٣] » ومثال ذلك قول نُصَيْب يريد أن يأتى بأقسام جواب المجيب عن الاستخبار :

فقالَ فريقُ القَوْمِ : لا ، وفريقُهم :
نَعَمْ ، وفريقٌ قَالَ : ويْحَكَ مَاندْرِى

فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب — إذا سئل عنه — غير هذه

(١) تلخيص ابن سينا لكتاب الخطابة ص ٢١٩ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٤ .
(٢) مقدمة نقد النثر ص ١٨ .
(٣) نقد الشعر ص ١٤٩ .

الأقسام ، ومثال ذلك أيضاً قول الشَّمَّاخ يصف صلابة سنابك الحمار ، وشدة وطئه على الأرض[١] :

مَــتَى مَا تَقَعْ أَرْسَـاغُهُ مُطْمَـئِنَّةً
عَلَى حَجَرٍ يرفضُّ أَوْ يتدحْرَجُ[٢]

فليس فى أمر الوطء الشديد إلا أن يوجد الذى يوطأ عليه رخواً فيرفض أو صلباً فيُدْفَع .

وقد ذكرنا فى الصفحات السابقة أن الجاحظ نوه بالتقسيم والتفصيل[٣] ، وعلل به استحسان عمر بن الخطاب لبعض شعر زهير وعبدة بن الطبيب . وإن كنا نظن ظناً أن قدامة إنما جلب اصطلاحه من حديث أرسطو فى « الخطابة » عن صور تأليف الكلام بذكر الأقسام ودقة عرضها[٤] .

٤ — صحة المقابلات :

ومن أنواع المعانى وأجناسها « صحة المقابلات » وهى : « أن يضع الشاعر معانى يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة ، فيأتى فى الموافق بما يوافق ، وفى المخالف بما يخالف على الصحة ، أو يشترط شروطا ، ويعدد أحوالا فى أحد المعنيين . فيجب أن يأتى فيما يوافقه بمثل الذى شرطه وعدده ، وفيما يخالفه بأضداد ذلك[٥] » بحيث تتقابل فى وضوح ، كقول بعض الشعراء :

---

(١) ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى ( حققه وشرحه صلاح الدين الهادى — ط . دار المعارف سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م ) ص ٩٢ . ونقد الشعر ص ١٥٠ .

(٢) الرسغ من الدواب الموضع المستدق الذى بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٤٠ .

(٤) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٧ .

(٥) نقد الشعر ص ١٥٢ .

فَوَا عَجباً كيف اتّفقْنَا فَنَاصِحٌ
وَفِىٌّ ومطوىٌّ عَلَى الغِـلّ غَادِرُ

فقد أتى بإزاء كل ما وصفه من نفسه بما يضادّه على الحقيقة ممن عاتبه ، حيث قال بإزاء « ناصح »: « مطوى على الغل » وبإزاء « وفىّ » « غادر » .

ويدخل ذلك عند ابن المعتز فى المطابقة والطباق « ومما لا شك فيه أن قدامة استمدّ هذا المصطلح كما استمدّ سابقه من أرسطو فى الخطابة وحديثه عن تأليف العبارة ، وحرىّ بنا أن نورد نص كلام أرسطو كما جاء عند ابن سينا ، وهو يجرى على هذا النحو :

« الكلام الموصول ربما كان اتصاله أقساماً ويسمى المقسم ، كقولهم : إنى تعجبت من فلان الذى قال كذا وكذا ، أو من فلان الذى عمل كذا وكذا ، فهؤلاء أقسام المتعجب منهم وربما كانت الأقسام إلى التقابل كقولهم: منهم من اشتاق إلى الثروة ، ومنهم من اشتاق إلى اللهو ، وكقولهم : أما العقلاء فأخفقوا وأما الحمقى فأنجحوا . والمتقابلات إذا توافقت أحدثت رونقا لظهور بعضها ببعض »(١) .

وقد علق الدكتور شوقى ضيف على ذلك بقوله : « وكلام أرسطو فى المقابلة أدق من كلام قدامة ، لأنه لاحظ أنها تحمل فى طواياها التقسيم على نحو ماهو واضح فى البيت الذى أنشده قدامة ، وأيضا فإنه لاحظ عقب النص الذى نقلناه أن المتقابلات بعضها أضداد ، وبعضها كالأضداد ، ويقول إن الصيغة المتقابلة تجعل الشىء كالمحسوس المشاهد(٢) » .

---

(١) انظر تلخيص كتاب الخطابة لابن سينا ص ٢٢٨ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٧ .

٥ — صحة التفسير :

جعله قدامة من أنواع المعانى وعرفه بقوله : « هو أن يضع الشاعر معانى يريد أن يذكر أحوالها فى شعره الذى يصنعه ، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها ولا يزيد أو ينقص[١] » . أى أن يذكر الشاعر فى بيت معنيين متقابلين فى إجمال ، ويفسرهما ويستوفى شرحهما إما فى الشطر الثانى المقابل ، وإما فى بيت لاحق . من مثل قول الفرزدق :

لَقَدْ خُنْتَ قوماً لو لَجأْتَ إليهم
طريدَ دمٍ أوْ حامِلاً ثِقْلَ مَغْرَمِ

فلما كان هذا البيت محتاجاً إلى تفسير قال :

لأَلفيْتَ فيهم مُطْعِماً ومُطاعِناً
وراءكَ شَزْراً بالوَشِيجِ المُقَوَّمِ[٢]

ففسر قوله : « حاملا ثقل مغرم » بقوله أنه يلقى فيهم من يعطيه ، وفسر قوله : « طريد دم » بقوله : إنه يلقى فيهم من يطاعن دونه ويحميه .

وقد عاب هذا الاستشهاد ابن رشيق بقوله : « هذا جيد فى معناه ، إلا أنه غريب مريب ، لأنه فسّر الآخر أولا ، والأول آخراً ، فجاء فيه بعض التقصير والاشكال ، ثم استدرك على هذا بأن من العلماء من يرى أن ردّ الأقرب على الأقرب والأبعد على الأبعد أصحّ فى الكلام »[٣] .

ومن أمثلة قدامة لصحة التفسير أيضاً قول سهل بن هارون[٤] :

---

(١) نقد الشعر ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) الشزر : الشدة والصعوبة . الوشيج : الرماح .

(٣) العمدة ٢/٣٥ .

(٤) نقد الشعر ص ١٥٦ .

فَوَا حسْرَتَا حتَّى مَتَى القلْبُ مُوجَعٌ
بِفَقْدِ حَبِيبٍ أو تَعَذُّرِ إفْضالِ

وفسّر ذلك فقال :

فِراقُ خليلٍ مثلُه يُورِثُ الأسَى
وخَلّةُ حُرٍّ لا يقومُ بها مالِي

وواضح أن هذا النعت يتداخل مع النعتين السابقين من صحة المقابلات، وصحة التقسيم ، فكأن قدامة فرع منهما هذا الفرع الجديد .

٦ — التتميم :

من أنواع نعوت المعانى : « وهو أن يذكر الشاعر معنى ولا يدع شيئا يتمم به صحته وجودته إلا أتى به ، إما بقصد المبالغة ، وإما بقصد الاحتياط ، ومن الضرب الأول قول نافع بن خليفة الغنوى[1] :

رجالٌ إذا لم يُقْبلِ الحقّ منهمُ
وَيُعْطَوْهُ عاذُوا بالسُّيوفِ القَوَاطِعِ

فقد تمت جودة المعنى بقوله « ويعطوه » وإلا كان المعنى منقوص الصحة.

وقد أسلفنا أن الأصمعى تنبه إلى هذا اللون البديعى ، وإن لم يقترح له اسمه . وسماه ابن المعتز « الاعتراض » وقد جاءت كلمة التتميم فى تعريفه له إذ قال : « اعتراض كلام فى كلام لم يتمم معناه ، ثم يعود إليه فيتممه فى بيت واحد »[2] . وكأن قدامة أخذ لقب اصطلاحه من تعريفه .

وأما الضرب الثانى من ضربى التتميم فأنشد فيه قدامة قول طرفة :

(١) نقد الشعر ص ١٥٧ .
(٢) البديع ص ٥٩ .

فَسَقَى دِيَارَكِ — غَيْرَ مُفْسِدِهَا —
صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِى (١)

فقوله « غير مفسدها » إتمام لجودة ما قاله ، لأنه لو لم يقل : غير مفسدها لعيب كما عيب ذو الرُّمة فى قوله(٢) :

أَلاَ يا اسْلَمِى يَا دَارَمىٍّ عَلَى البِلَى
وَلاَ زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ

فإن الذى عابه فى هذا القول إنما هو بأن نسب قوله هذا إلى أن فيه إفساداً للدار التى دعا لها ، وهو أن تغرق بكثرة المطر .

ومر بنا أن الجاحظ كان يسمى هذا الضرب « إصابة المقدار » ، وسماه البلاغيون المتأخرون فاصلين له عن التتميم باسم « الاحتراس »(٣) لأن قوله « غير مفسدها » احتراس للديار من الفساد بكثرة ما يسقط فيها من المطر .

٧ — المبالغة :

سماها ثعلب « الإفراط فى الإغراق » وجعلها قدامة فى مرتبة أقل من الغلو الذى يبنى على الإفراط الشديد ، وعرفها بقوله : « هى أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال فى شعر ، لو وقف عليها لأجزأه ذلك فى الغرض الذى قصده ، فلا يقف حتى يزيد فى معنى ماذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد له »(٤) .

وذلك مثل قول عُمَير بن الأيهم التَّغْلبى :

---

(١) نقد الشعر ص ١٥٨ .
(٢) ديوانه ص ٢٩٠ .
(٣) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٤ ، ٨٨ .
(٤) نقد الشعر ص ١٦٠ ، ١٦١ .

وَنُــكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا
وَنُتْبِعُهُ الــكَرَامَــةَ حَيْثُ مَالاَ

فإكرامهم للجار مادام فيهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة ، وإتباعهم إياه الـكرامة حيث كان ، من المبالغة فى الجميل . وهذا الفن يدخل فيما سماه ابن المعتز « الإفراط فى الصفة » وكان الأحرى بقدامة أن يجعلها فرعا من الغلو بدلا من أن يفرد لها عنوانا خاصا . وإن كان الناس على تسمية قدامة لأنها أخف وأعرف كما يقول ابن أبى الأصبع المصرى[(١)] .

وفى حديثنا السالف عن الغلو مايـكفى لبيان أنه استمد فيه وفى المبالغة جميعا من كلام أرسطو فى الخطابة .

٨ — الإشارة :

من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى ، وهى : « أن يـكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليها »[(٢)] . وهو هنا يفسر ما قاله ابن المقفع من أن البلاغة هى الوحى فى الـكلام والإشارة إلى المعنى ، وردد الجاحظ مراراً أنهم يمدحون الإيجاز والـكلام الذى هو كالوحى والإشارة[(٣)] . ومن الإشارة عند قدامة قول امرىء القيس[(٤)] :

فَإِنْ تَهْلِكْ شَنُوءَةُ أَوْ تُبَدَّلْ
فَسِيرِى إِنَّ فِى غَسَّانَ خَالاَ[(٥)]

(١) بديع القرآن ص ٥٤ .
(٢) نقد الشعر ص ١٧٤ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٥٥ .
(٤) ديوانه ص ١٥٨ .
(٥) شنوءة : قبيلة من اليمن .
غسان : اسم ماء كانوا نزلوا عليه فسموا به .

بعزِّهم عززْتِ وإنْ يذِلُّوا
فَــذُلُّهُمُ أنالَكِ ما أنالاَ

فبنية هذا الشعر على أن ألفاظه، مع قصرها، قد أشير بها إلى معان طوال، فمن ذلك قوله: «تهلك أو تبدل» ومنه قوله: «إن في غسان خالا». ومنه ماتحته معان كثيرة وشرح طويل وهو قوله: «أنالك ما أنالا».

٩ — الإرداف :

جعله قدامة من نعوت جودة ائتلاف اللفظ والمعنى، «وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعانى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع»[(١)] كقول عمر بن أبي ربيعة[(٢)] :

بعيدةُ مهْوَى القُرْطِ إمّا لنوْفَلٍ
أبُوها وإمّا عَبْدُ شمْسٍ وهاشِمِ

فالشاعر أراد أن يصف طول جيدها، فلم يذكره بلفظه الخاص به، بل أتى بمعنى دلّ عليه من طول مهوى القرط، وواضح أن بُعْدَ مهواه رِدْف لطول الجيد.

ومنه قول امرىء القيس[(٣)] .

وتُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِراشِهَا
نَئُوم الضُّحَى لم تَنْتَطِقُ عن تفضُّلِ

---

(١) نقد الشعر ص ١٧٨ .

(٢) ديوانه ( بتحقيق بشير يموت . الطبعة الأولى — ط . المطبعة الوطنية — بيروت — ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م ) ص ٢٤٠ .

(٣) ديوانه ص ٤٥ وانظر كتاب البديع ص ١٧٩ .

فالشاعر أراد أن يذكر ترفّه هذه المرأة وأن لها من يكفيها فقال : « نئوم الضحى » وأن فتيت المسك يبقى الى الضحى فوق فراشها ، وكذلك سائر البيت ، أى هى لاتنتطق لتخدم ، ولكنها فى بيتها متفضلة ، ومعنى «عن » فى هذا البيت : « من بعد » .

وقد سبق أن ذكرنا أن الجاحظ لقب هذا النوع « التعريض والكناية » وتابعه فى التسمية ابن المعتز ، أما ثعلب فسماه « لطافة المعنى » وسماه المبرد « الكناية » وجعلها على ثلاثة أوجه كما أسلفنا .

١٠ — التمثيل :

من نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى وهو . « أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر ، وذلك المعنى الآخر والكلام يُنْبِئان عما أراد أن يشير إليه[١] » . مثال ذلك قول الرَّماح بن ميَّادة[٢] :

ألم تكُ فى يُمْنَى يديْكَ جعلتَنى
فلاَ تجعلَنِّى بعدَها فى شِمالِكا
ولو أنَّنِى أذْنبتُ ما كنتُ هالكاً
على خَصْلَةٍ من صالِحاتِ خصالِكا

وواضح أنه كنى باليمين عن تقدُّمه عنده وبالشمال عن تأخره وهبوط منزلته ، وقد أتى الشاعر بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل ، وهذا ضرب من « التعريض والكناية » . والتمثيل عند قدامة يشمل الاستعارة التمثيلية وبعض صور الكناية كما هو واضح من المثال الذى ذكرناه .

---

(١) نقد الشعر ص ١٨١ .

(٢) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢ / ٧٧١ ومابه من مراجع .

١١ — المطابق والمجانس :

يقول قدامة : « وقد يضع الناس من صفات الشعر : المطابق والمجانس ، وهما داخلان فى باب ائتلاف اللفظ والمعنى ، ومعناهما أن تكون فى الشعر معان متغايرة ، قد اشتركت فى لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة [١] » .

ويكاد قدامة أن يجعل هذين النعتين جنساً واحداً، ثم يعود فيخص الأول — وهو ما يشترك فى لفظة واحدة بعينها — باسم « المطابق » ويمثل له بقول الأفوه الأودى [٢] :

وأَقْطَــعُ الهَوْجَلَ مستأنساً
بِهَوْجَــلٍ عَيْرانَةٍ عَنْتَرِيس [٣]

فلفظة ( الهوجل ) فى البيت واحدة قد اشتركت فى معنيين ، الأولى بمعنى الأرض البعيدة الأطراف ، والثانية : بمعنى الناقة الصلبة . والجناس بينهما تام .

ويلاحظ أن قدامة لا يريد بالمطابق معناه عند ابن المعتز ، وإنما يريد به ضرباً من المجانس أو الجناس [٤] ، وهو الجناس الكامل . وقد استعار لقب هذا النوع من ثعلب فى كتابه قواعد الشعر [٥] .

وأما المجانس فهو أن تكون المعانى مشتركة فى ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق . مثل قول النعمان بن بشير لمعاوية بن أبى سفيان :

---

(١) نقد الشعر ص ١٨٥ .
(٢) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١ / ٢٢٣ وما به من مراجع .
(٣) العيرانة : الناقة الصلبة . العنتريس : الناقة الغليظة الوثيقة .
(٤) انظر كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن قيم الجوزية الحنبلى — تحقيق محمد بدر الدين النعسانى — ط. مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٧ هـ) ص ١٤٦ .
(٥) قواعد الشعر ص ٦٤ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٩٠ .

أَلَمْ تبتدرِكُم يومَ بدرٍ سُيُوفُنَا
وليلُكَ عمَّا نابَ قومَكَ نائمُ(٣)

ومضى قدامة ينشد فى الجناس نفسه أكثر الأبيات التى أنشدها ابن المعتز للقدماء فيه ، وقصره فى تعريفه له على جناس الاشتقاق ، كما قصره على ذلك فى أمثلته .

وقد أخذ الآمدى على قدامة بن جعفر مخالفته من تقدمه كابن المعتز — فى وضع الاصطلاحات ، فيقول فى الكلام على « المطابق »(١) : « وهو مقابلة الحرف بضده أو ما يقارب الضد وإنما قيل مطابق لمساواة أحد القسمين صاحبه . وإن تضادا أو اختلفا فى المعنى ، وما علمت أن أحداً فعل هذا غير أبى الفرج ، فإنه وإن كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات ، وكانت الألقاب غير محظورة ، فإنى لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه مثل أبى العباس عبد الله ابن المعتز وغيره ممن تكلم فى هذه الأنواع وألف فيها ، إذ سبقوه إلى اللقب ، وكفوه المؤونة » .

ثم يقول : « وهذا باب ـ أعنى المطابق ـ لقبه أبو الفرج قدامة بن جعفر فى كتابه المؤلف فى نقد الشعر « المتكافىء » وسمى ضربا من المجانس « المطابق » وهو أن تأتى الكلمة مثل الكلمة سواء فى تأليفها واتفاق حروفها ، ويكون معناها مخالفاً(٢) كبيت الأفوه الأودى سالف الذكر .

١٢ — التوشيح :

جعله قدامة من أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ،

---

(١) نقد الشعر ص ١٨٨ .

(٢) الموازنة ١/٢٧١ ومابعدها وانظر النقد المنهجى عند العرب ص١٢٨ .

(٣) الموازنة ١/ ٢٧٤ .

وعرفه بقوله : « هو أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته ، ومعناها متعلقا به ، حتى أن الذى يعرف قافية القصيدة التى منها البيت ، إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته » .(١) ومثال ذلك قول الراعى : (٢)

وإنْ وُزِنَ الحَصَى فَوَزَنْتُ قَوْمى
وَجدتُ حَصَى ضَرِيبَتِهِم رَزِينا(٣)

فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت واستخرج منه لفظ قافيته ، لأنه يعلم أن قوله . « وزن الحصى » سيأتى بعده . « رزين » لعلّتين . إحداهما أن قافية القصيدة توحيه ، والأخرى أن نظام المعنى يقتضيه ، لأن الذى يفاخر برجاحة الحصى يلزمه أن يقول فى حصاه إنه رزين .

والتوشيح عند قدامة هو نفس ما سماه ابن المعتز باسم « رد أعجاز الكلام على ماتقدمها » (٤) وإن توسع قدامة فيه بعض الشىء ، إذ جعله يشمل كل مايشهد للقافية من معانى البيت أو ألفاظه . (٥)

١٣ — الإيغال: من أنواع ائتلاف القافية مع سائر البيت وهو: «أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما ، من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ، ثم يأتى بها لحاجة الشعر فى أن يكون شعراً إليها ، فيزيد بمعناها فى تجويد ماذكره فى البيت » (٦) كقول أمرىء القيس : (٧)

---

(١) نقد الشعر ص ١٩١ .

(٢) ترجمته فى الشعر والشعراء ١/٤١٥ ومابه من مراجع .

(٣) الحصى : جمع الحصاة : العقل والرأى .

الضريبة : الطبيعة والسجية . الرزين : الأصيل الرأى .

(٤) انظر كتاب البديع ص ٤٧ وما بعدها .

(٥) البلاغة تطور وتاريخ ص ٩١ .

(٦) نقد الشعر ص ١٩٢ .

(٧) ديوانه ص ٧٠ .

كَأَنَّ عُيُونَ الوحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا
وَأَرْحُلِنَا الجزْعُ الذِّى لَمْ يُثقَّبِ

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملا قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع ، ثم لما جاء بالقافية أوغل بها فى الوصف وو كّده ، وهو قوله : « الذى لم يثقب » فإن عيون الوحش غير مثقبة ، وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه .

وقد استعار قدامة « الإيغال » من الأصمعى الذى تنبه إليه وإن لم يقترح له اسمه ، ومر بنا فى حديثنا عنه فى الباب الأول ما يوضح ذلك توضيحاً تاماً ، ونفس قدامة استشهد به فيه ونقل كلامه (١) .

* * *

هذه هى فنون البديع التى أضافها قدامة إلى فنون ابن المعتز . ومن هذه المحسنات ما التقى فيها قدامة مع ابن المعتز مع اختلاف فى التسمية الاصطلاحية فقط . فالتتميم والتكافؤ والتوشيح عنده هى عند ابن المعتز على التوالى : الاعتراض ، والطباق ، ورد أعجاز الكلام على ماتقدمها . وهناك محسنان يلتقيان فيهما ويتفقان على تسميتهما وهما : المبالغة والالتفات ، وإن كان قدامة قد خص الأخير بشق واحد من شق « الالتفات » عند ابن المعتز .

وعلى الرغم من أن قدامة كان معاصراً لابن المعتز ، فإنه لم يعرض لكتاب البديع بقليل ولا كثير ، وربما كان إفساده لبعض مصطلحات ابن المعتز يرجع إلى خلاف بينه وبين ابن المعتز . (٢)

وتحدث قدامة عن نعت المعانى (٣) ، ولاحظ أن أغراض الشعر كثيرة

---

(١) نقد الشعر ص١٩٤ .

(٢) انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبى ص ٥٧ ، ٥٨ ، والبيان العربى ص ١٠٦ .

(٣) نقد الشعر ص٦١ وما بعدها .

ولكنه سيكتفي ببيان الأغراض المهمة وهى: المديح والهجاء والمراثى والتشبيه والوصف والنسيب. «والواقع أن إدخاله التشبيه فى أغراض الشعر غريب ولكن إذا عرفنا أن متّى بن يونس أكثر من وضع كلمة يشبهون بدلا من يحاكون فى ترجمته لكتاب الشعر عرفنا من أين جاء قدامة هذا الغلط، وقد مضى مثل متى لايفهم دلالة الكلمة ولا أصلها من المحاكاة عند أرسطو، وكأنما شُبه عليه — كما شُبه على متى — فجعلها غرضاً مستقلا من أغراض الشعر»(١) وتكلم قدامة عن التشبيه فقال: من الأمور المعلومة أن الشيء لايشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه، ولم يقع بينهما ماتغاير البتة اتحدا فصار الاثنان واحدا، فبقى أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق فى أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها، وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ماوقع بين الشيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد»(٢).

ومعنى ذلك أن الشيء لايشبه بغيره من جميع الجهات، إنما يشبه بما شا كله من جهة واحـــدة أوجهات متعددة لأنه لو شاكله مشاكلة كلية لكان إياه.

ويورد على ذلك أمثلة موافقة لهذه القاعدة منها قول يزيد بن عوف العليمى يذكر صوت جرع رجل قراه اللبن:

فَعَبَّ دِخَالاً جَرْعُــهُ مُتَوَاتِرٌ
كَوَقْعِ السَّحَابِ بِالطِّرَافِ المُمَدَّدِ

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٨٣.
(٢) نقد الشعر ص ١٢٢.

فالشاعر شبه صوت جرع اللبن بصوت المطر الواقع على الخباء الذي من أدم .

ويقول : « وقد يقع في التشبيه تصرف إلى وجوه تستحسن ، فمنها : أن تجمع تشبيهات كثيرة في بيت واحد وألفاظ يسيرة[١] ، كما قال امرؤ القيس[٢] .

لَهُ أيْطَلَا ظَبْيٍ وساقَا نعامةٍ
وإرخَاء سِرحانٍ وتقريبُ تَتفُلِ

فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء ، وذلك أن مخرج قوله : له أيطلا ظبي إنما هو على أن له أيطلين كأيطلي ظبي ، وكذا ساقين كساقي نعامة وإرخاء كإرخاء السرحان، وتقريب كتقريب التتفل .

ومنها أن يشبه شيء بأشياء في بيت أو لفظ قصير ، وذلك كما قال امرؤ القيس : [٣]

وتعطو برخصٍ غير شثْنٍ كأنَّهُ
أَساريعُ ظَبْيٍ أَوْمساوِيكُ إسْحَلِ [٤]

ومنها أن يشبه شيء في تصرّف أحواله بأشياء تشبه في تلك الأحوال ، كما قال امرؤ القيس يصف الدروع في حال طيها[٥] :

(١) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٢) ديوانه ص ٥٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٦ .

(٤) تعطو : تتناول . الرخص : اللين الناعم . غير شثن : غير خشنة .
والأساريع : جمع أسروع : دود يكون في البقل والأماكن الندية تشبه به أنامل النساء . ظبي : اسم موضع ، والاسحل : شجرة تدق أغصانها في استواء تشبه الأصابع بها في الدقة والاستواء .

(٥) ديوانه ص ٨٦ .

وَمَشْدُودَةَ السَّكِّ ، مَوْضُونَةً
تَضَاءَلُ فِي الطَّيِّ كَالْمَبْرَدِ

ثم وصفها فى حال النشر فقال :

تَفِيضُ عَلَى المرْءِ أرْدَانُهَا
كَفَيْضِ الأَتِيِّ عَلَى الجَدْجَدِ

ويبدو قدامة فى هـــذا الباب فى صورة الناقد الذى يحبّذ التجديد والخروج من الدائرة التى رسمها القدماء ، من غير أن ينال من أولئك القدماء ومن غير أن يذمّ تشبيهاتهم ومألوفهم فى العبارة .

فيعد من أبواب التصرف فى التشبيه أن يكون الشعراء قد لزموا طريقة واحدة فى تشبيه شىء بشىء ، فيأتى الشاعر فى تشبيهه من غير الطريق التى سار فيها عامة الشعراء[1] .

وقد توسع قدامة فى بيان التشبيه ، وصور أقسامه على عكس ابن المعتز الذى رأيناه يقصر الحديث فيه على إيراد الأمثلة والشواهد . ومر بنا أن ابن طباطبا العلوى فصل الحديث فيه وبين أنواعه ، وأشار إلى أن طريقة العرب فى التشبيه مستمدة من بيئتهم . كما اشترط أن يقـــوم التشبيه على ( الصدق ) لأنه المبدأ الكبير فى نظرته النقدية .[2] « وما كنا ننتظر من قدامة وهو المؤمن بمبدأ الكذب فى الشعر وبالغلو فيه أن يحدد التشبيه بقوله : فأحسن التشبيه هو ماوقع بين الشيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ، ، وسر ذلك أن قدامة إنما يتسامح فى الغلو إذا كان فى المعانى لافى الصور ، وحين يأخذ التشبيه فى

---

(١) نقد الشعر ص ١٢٩ .

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٠٧ .

الافراط ، فقد يتحول إلى استعارة ، وهى — على أنها سر الشعر — يضيق بها قدامة ذرعا ، ولا يستطيع أن يتقبلها إلا إذا حملها محمل التشبيه ، فقول امرىء القيس(١) :

فقُلْتُ لَهُ لمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ
وأَرْدَفَ أَعْجَازاً وناءَ بكَلْكَلِ

معناه أن هـذا الليل فى تطاوله « كالذى يتمطى بصلبه لا أن له صلبا » وهـذا فى حقيقته انـكار لطبيعة الاستعارة ، وقيمة ما فيها من تشخيص ، ولذلك يتخلص منها قدامة تخلص المستثقل البرم بأمرها حين يقول : « فما جرى هذا المجرى مما له مجاز كان أخف وأسهل مما فحش ولم يعرف له مجاز وكان منافرا للعادة بعيدا عما يستعمل الناس مثله » .(٢)

ويقول الدكتور إحسان عباس : « إن هذا التهوين الضمنى من شأن الاستعارة يشير إلى شيئين : أولهما أن المنهج العقلى لا يستلطف مثل هذا التصور الجامح الذى لا يخضع لتحديدات منطقية ، فالاستعارة تحطم كثيراً مما بناه قدامة بصبر وتؤدة . والثانى أن قدامة لو لم يخضع لمنطقة الصارم لقدرنا أيضا أن يقف مثل هذا الموقف نفسه فى بيئة كانت ثائرة على ما يسميه قدامة ( ما فحش ولم يعرف له مجاز ) من أمثال استعارات أبى تمام التى انصب عليه من أجلها أشد هجوم . ولهذا رأينا قدامة هنا يحتكم للعادة ، أى الذوق العام فى قبول الاستعارة ، وليس احتكامه إلى العادة قاصراً على هذا الجانب من الشعر ، بل إنه يتناول شئونا أخرى فى المعانى حتى ليعد مخالفة

(١) ديوانه ص ٤٦ ونقد الشعر ص ٢٠٢ .

(٢) نقد الشعر ص ٢٠٥ وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٠٧ .

العرف عيبا فيقول : « ومن عيوب المعانى مخالفة العرف والاتيان بما ليس فى العادة والطبع »[(١)] .

وتحدث قدامة عن فاحش الاستعارة وسماها « المعاظلة » وجعلها من عيوب اللفظ ثم قال : « وهى التى وصف عمر بن الخطاب زهيراً بمجانبته لها فقال : وكان لا يعاظل بين الكلام[(٢)] » ويقول : « وسألت أحمد بن يحيى عن المعاظلة فقال : مداخلة الشىء فى الشىء يقال : تعاظل الجرادتان ، وعاظل الرجل المرأة : إذا ركب أحدهما الآخر » .

« وإذا كان الأمر كذلك فمحال أن ينكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من بعض أو فيما كان من جنسه ، وبقى النكير إنما هو فى أن يدخل بعضه فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق بـه ، وما أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة » ومثال ذلك قول أوس بن حجر :

وذاتُ هِـدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا
تُصْمِتُ بالمَاءِ تَوْلبًا جَدِعَا

فسمى الصبى : تولبا ، وهو ولد الحمار .

يقول الدكتور شوقى ضيف : « ويظهر أن قدامة لم يفهم فى دقة معنى المعاظله اللغوى ، وهو ركوب الأشياء بعضها بعضاً ، وقد نقلها بعض اللغويين بل نقلها عمر بن الخطاب للدلالة بنفيها على حسن وصف زهير لكلامه وجمال تنضيده واستوائه فقال : إنه لا يعاظل فى كلامه . وكأنما غاب عن قدامة كل ذلك فإذا هو يطلق المعاظلة على فاحش الاستعارة ، كتسمية بعض الشعراء رجل الإنسان حافرا ، وليس هذا بمعاظلة إنما هو بُعْدٌ عيي فى الاستعارة .

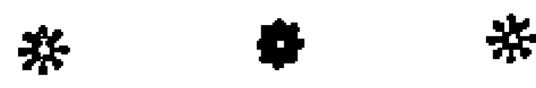
(١) تاريخ النقد الادبى عند العرب ص ٢٠٨ ونقد الشعر ص ٢٢٤ .

(٢) نقد الشعر ص ٢٠١ .

ومن الغريب أن قدامة لم يتكلم عن نعت الجودة فيها ، مع أنها أحد الفنون الخمسة الأساسية للبديع عند ابن المعتز ، وأ كثر أرسطو فى كتابه ( الخطابة ) من الحديث عنها ، ولعله أراد بذلك أن يقلل من أهمية الفنون التى جعلها ابن المعتز أصول البديع وأركانه الأساسية »[١] .

ويقول المرحوم الدكتور مندور : « وبالرجوع إلى كتاب قدامة نجد أنه قد تحدث عن المعاظلة ، ولكنه لم يفهم معناها ، ولا حدد مدلولها ، ولعل ذلك لأن أرسطو لم يتحدث عنها »[٢] . ثم يورد كلام قدامة عنها ويعلق عليه بقوله : « وهذه التعريفات تظهرنا على مبلغ خلط قدامة ، وعدم قدرته على فهم شىء بنفسه أو تحديد معنى لفظ ، فهو يخلط بين ( المعاظلة والنكير ) الذى سمع أنهما من عيوب اللفظ وبين ( الاستعارة القبيحة ) التى تخص المعانى وما يدخلها من مجاز »[٣] .

ويستمر الدكتور مندور فى حملته العنيفة على قدامة فيقول : « ومن الواضح أن اللاحقين لم يأخذوا بخلط قدامة ، بل أخذوا بأقوال الناقد العالم ذى الذوق العربى السليم ابن المعتز ، ثم بأقوال من خلفه من نقاد العرب أمثال الآمدى والجرجانى »[٤] .



ولعل فى كل ما قدمنا مايدل بوضوح على الجهد العقلى الذى بذله قدامة فى تطبيق ما فهمه من مقاييس البلاغة اليونانية عند أرسطو على البلاغة العربية ، مضيفاً إلى ذلك ما تمثله من تلك المقاييس عند الجاحظ وابن المعتز .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٩١ .
(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ١٣٠ — ١٣١ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣١ .
(٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

والأصمعى وثعلب وغيرهم ممن سبقوه إلى النظر فى وجوه البيان العربى ، واستنباط محاسن الكلام فيه ، واستطاع أن يصل الثمانية عشر محسنا التى ذكرها ابن المعتز بثلاثة عشر محسنا هى : الترصيع ، الغلو ، صحة التقسيم ، صحة المقابلات ، صحة التفسير ، التتميم وقد ضمنه ما سماه ابن المعتز بالاعتراض كما أسلفنا ، المبالغة ، الإشارة ، الإرداف ، التمثيل ، المطابق ، التوشيح ، الايغال .

« وكان جهد قدامة – كما يبدو – تطبيقا لنظريات كتاب « الخطابة » لأرسطو ، وتحكيما لقواعد الفلسفة فى الحكم على معانى الشعر العربى ، فكان قدامة أول ناقد فتح فى نقد الشعر العربى باب النظر والفلسفة ، ونظم بعض المباحث البلاغية التى جاء العلماء من بعده فأتموا تنظيمها وأكملوها . ولا شك أن لقدامة أثراً جديداً فى علم البديع الذى ابتدعه ابن المعتز . فقد أضاف إلى محسنات ابن المعتز كثيراً من المحسنات »(٢) .

ومما لا ريب فيه أن قدامة قد احتل – بكتابه نقد الشعر – مكانته بين القدماء . فنرى الذين كتبوا بعده فى البديع يلهجون باسمه ، وفى مقدمتهم أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين ، وكذلك من كتبوا فى عيوب الشعر ووجوه رداءته وفى مقدمتهم المرزبانى فى كتابه « الموشح » .

---

(١) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ( للدكتور بدوى طبانه – الطبعة الأولى – ط . مطبعة مخيمر بالقاهرة سنة ١٩٥٢ ) ص ٦٥ .

## الفصل الرابع

## البرهان فى وجوه البيان (لابن وهب)

نشر الدكتور طه حسين والأستاذ عبد الحميد العبادى فى سنة ١٩٣٢ م رسالة محفوظة بمكتبة الأسكوريال بعنوان « نقد النثر » منسوبة لقدامة ابن جعفر وقد كتب ناسخها فى خاتمتها « كمل ( البيان ) بحمد الله تعالى وحسن عونه » وكأن الاسم الحقيقى للرسالة هو « البيان » لا « نقد النثر » كما جاء فى العنوان المرفق بها .(١)

وكان الدكتور طه حسين قد ألقى فى مؤتمر المستشرقين المنعقد بليدن فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ١٩٣١ ، بحثه « البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر » باللغة الفرنسية وترجمه الأستاذ المرحوم عبد الحميد العبادى ، ونشر تمهيداً لكتاب « نقد النثر » .

وفى هذا البحث تشكك الدكتور طه حسين فى نسبة كتاب « نقد النثر لقدامة بن جعفر بل كاد يقطع فى جزم بأنه لايمكن أن يكون له . بل هو فى الغالب لكاتب شيعى ظاهر التشيع ، قد صنف كتبا عدة فى الفقه وعلوم الدين .(٢)

وهذا أول شك يلقيه أديب عربى كبير على الكتاب ، وإن لم يتنبه إلى النقص الواضح فى نسخة الأسكوريال التى اعتمد عليها هو والأستاذ

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص٩٣

(٢) مقدمة نقد النثر ص ١٩ .

العبادى عندما أخرجا الكتاب ، مع أن مؤلفه ذكر أن البيان على أربعة أوجه : فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها ، ومنه البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكر واللب ، ومنه البيان باللسان ، ومنه البيان بالكتاب وهو الذى يبلغ من بَعُدَ أو غاب »[(١)] . ولم نجد فى الكتاب المنشور باسم ( نقد النثر ) أى أثر للحديث عن البيان الرابع ، وعلى الرغم من ذلك يصرح الدكتور طه حسين والأستاذ العبادى أن المؤلف ضمن الوجه الثالث من أوجه البيان ، الكلام على الوجه الرابع ، وهو البيان بالكتاب[(٢)] ولم يحسا بالنقص الواضح فى الكتاب ، مع أن مؤلفه نبه فى أثنائه عن أمور سيذكرها فيما بعد ، ولم ترد فى النسخة المطبوعة باسم (نقد النثر) . ومن ذلك قوله : وأما الحديث : فهو ما يجرى بين الناس فى مخاطباتهم ومجالسهم ومناقلاتهم وله وجوه كثيرة : فمنها الجد والهزل ، والسخيف والجزل ، والحسن والقبيح والملحون والفصيح ، والخطأ والصواب ، والصدق والكذب والنافع والضار والحق والباطل ، والناقص والتام ، والمردود والمقبول ، والمهم والفضول ، والبليغ والعيى )[(٣)]

ثم جاء الكلام بعد ذلك على الجد والهزل ، والسخيف والجزل ، الحسن والقبيح ، والملحون والفصيح ، والخطأ والصواب ، لكن القول فى الخطأ والصواب لم يتم ، ولم يأت الحديث عن الصدق والكذب[(٤)] والوجوه الأخرى التى ذكرها المؤلف . وقد وردت هذه الوجوه جميعها فى كتاب

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ( لابن وهب — تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى الطبعة الأولى — طبعة مطبعة العانى ببغداد ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م) ص ٦٠

(٢) انظر مقدمة نقد النثر ص ٢٩ وهامش ص ٤٣ من أصل الكتاب .

(٣) البرهان فى وجوه البيان ص ٢٤٦ وانظر نقد النثر ص ١٣٧ .

(٤) أشار هنا إلى حديثه عن الصدق والكذب فى أول الكتاب يقول : ( وأما الصدق والكذب فقد ذكرناهما فيما تقدم من كتابنا وكذلك الحق والباطل . )

البرهان فى وجوه البيان .[١] ومن أمثلة ذلك أيضا : ماجاء فى باب تأليف العبارة[٢] . « وقد ذكر الخليل وغيره فى أوزان الشعر وقوافيه مايغنى من نظر فيه إلا أنا نذكر جملة من ذلك فى باب استخراج المعمّى[٣] تدعو الضرورة إلى ذكر ما فيه » وليس فى النسخة المطبوعة إشارة إلى باب المعمى وذكر العروض والقافية .

ومن ذلك أيضاً ماجاء فى آخر النسخة المطبوعة : « وأما مراتب القول ومراتب المستمعين له ، فقد تقدم القول فيه »[٤] وإذا تصفحنا نقد النثر لم نر اشارة إلى مراتب القول أو إلى مراتب المستمعين . وقد تحدث عنها بالتفصيل فى كتاب البرهان[٥] .

ومع أن الدكتور طه حسين نبه إلى أن كتاب ( نقد النثر ) لايمكن أن يكون لقدامة بن جعفر نرى الاستاذ عبد الحميد العبادى يؤكد أنه له ، ولكنه قبل أن يدلى برأيه فى هذا الموضوع ينقل نصا عن المرحوم العلامة الشيخ محمد محمود الشنقيطى كتب إثر اطلاعه على كتاب ( نقد النثر ) بالأسكوريال وفيه يقول : « كتاب نقد النثر المسمى بكتاب البيان ، مما عنى بتأليفه أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ، وهو كتاب نفيس لانظير له فى فنه ، ويحتاج إليه ، وما وقفت عليه بالمشرق . وقد ألف كتابا آخر سماه ( نقد الشعر ) ولكنه بالنسبة لهذا صغير جدا .[٦] »

ويذكر الأستاذ العبادى بعد إيراد هذا النص أنه ثبت لديه أن الكتاب

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ٢٦٦ — ٣٠٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦٣ .
(٣) يريد بالمعمى شيئا غير اللغز ( انظر كتاب البرهان فى وجوه البيان ص٤٢٧ )
(٤) نقد النثر ص ١٤٧ .
(٥) انظر البرهان فى وجوه البيان ص ٢٥٩ — ٢٦٤ .
(٦) انظر مقدمة نقد النثر ص ٤٢ وقدامة بن جعفر والنقد الادبى ص ١١٧ .

المذكور لا بد أن يكون لقدامة معتمداً على ما جاء على الورقة الأولى منه ، وأخذ يدلل على ذلك بأدلة منها :

أولا : أن الكتاب لامحالة قد ألف فى العراق وفى عصر قدامة ، والدليل القاطع على ذلك أن المؤلف يصف حادثا وقع لابن التسترى وشهده هو بنفسه .(١)

ثانيا : المقارنة الموضوعية بين ( نقد النثر ) و ( نقد الشعر ) ترى تقاربا عجيبا فى كثير من المعانى فضلا عن طريقة التعبير عنها ، مما يرجح أن الكتابين صدرا عن مؤلف واحد . ولم يسلم للمحقق ما أراد ، فاعترضه فى استنباط ما حاول استنباطه أسئلة ثلاثة هى :

أولها : كيف عرف الكتاب بـ ( نقد النثر ) مع أن اسمه الحقيقى ( البيان ) ؟

ثانيها : ليس بين الكتب التى ذكرها المؤرخون لقدامة كتاب من الكتب الأربعة التى ذكرها صاحب ( نقدالنثر ) أنها له . وهى : الحجة والايضاح والتعبد وأسرار القرآن .(٢)

ثالثها : من أبو عبد الله بن أيوب المذكور على الورقة الأولى من النسخة الخطية ؟ وهل له صلة بالكتاب ؟ .

وقد حاول الأستاذ العبادى أن يتخلص من هذه الحقائق الماثلة بين يديه بضروب من الظن ، ليس لها فى الحقيقة ما يؤيدها ، فذهب إلى أن الاسم الحقيقى للكتاب هو من غير شك ( كتاب البيان ) كما جاء بالورقتين

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٤٢ وانظر « نقد النثر » ص ١٠٨ .

(٢) مقدمة نقد النثر ص ٤٧ .

الأولى والأخيرة من نسخة الأسكوريال وأن قدامة وضعه على سبيل المعارضة لكتاب ( البيان والتبيين ) للجاحظ والاستدراك به عليه ، وأن غلبة اسم ( نقد النثر ) عليه إنما ترجع إلى محض المقابلة بينه وبين كتاب ( نقد الشعر ) وإلى أن كلام المؤلف على ( باب المنثور ) هو أطول فصول الكتاب .

وأجاب عن السؤال الثانى : بقوله : بأنا نرى أن الكتب الأربعة المذكورة ، إما أن تكون قد ضاعت وفات المؤرخين ذكرها ، وإما أن تكون فصولا تضمنتها كتب قدامة . وأما أبو عبد الله محمد بن أيوب فخلاصة رأى المستشرقين فيه ما يراه ( درنبورغ ) من أنه كان تلميذا لقدامة .[1] وأنه أخذ عنه مادة الكتاب وتولى صياغتها ، ويصرح العبادى بأن « درنبورغ » لم يستمد رأيه هذا من مصدر قديم وإنما أخذه من ظاهر العبارة الواردة بالورقة الأولى من الكتاب وهى : « كتاب نقد النثر مما عنى به أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادى ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ للشيخ الفقيه المكرم نفعه الله » .

هذا وليس فى الكتاب ـ على الاطلاق ـ مايدل على أن مؤلفه أو محرره أندلسى وأن ابن أيوب هذا فقيه أندلسى انتسخ له الكتاب وأنه من أهل القرن السابع الهجرى على أكثر تقدير .

وبهذا ينتهى الأستاذ العبادى من أسئلته وأجوبته ، ويخرج الكتاب بعد ذلك حاملا اسمى المحققين الجليلين : الأستاذ الدكتور طه حسين والأستاذ المرحوم عبد الحميد العبادى باسم ( نقد النثر ) لقدامة بن جعفر ، وطبع عدة مرات ، وقد قوبل هذا

---

(١) قدمة نقد النثر ص ٤٨ .

الـكتاب فى مصر والعالم العربى بعناية بالغة واهتمام ظاهر ، وأقبل عليه العلماء والأدباء بالدرس، وعملوا على الإفادة منه ، واتخذه كثير من الباحثين والمؤلفين مصدراً من المصادر التى استقوا منها دراستهم ، واعتمدوا عليه فى تآليفهم وبحوثهم ، كـكل الـكتب التى يغتنمون منها فوائد توفر عليهم بعض مايجدون من العناء الذى يجدونه فى استخلاص القواعد والرسوم بجهودهم الشخصية ، إذ وجدوا فى هذه الآثار القديمة بعض الأسس التى يستطيعون أن يشيدوا عليها مايريدون من البناء .[1] وكانت أسباب تلك العناية عدة أمور :

أولها : أن الـكتاب منسوب لعلم من أعلام النقد الأدبى فى العصر العباسى له قدمه الراسخة فى هذا الفن ، قد عرف عصرنا قدامة حين طبع أهم كتبه ( نقد الشعر ) قبل ذلك بزمن غير وجيز فأراد هؤلاء الذين انتفعوا بالـكتاب الأول أن ينتفعوا بـكتابه الثانى الذى ينقد النثر .

ثانيها : أن ( نقد النثر ) الذى برز فى عالم الوجود فى فترة من الفترات التى استوت فيها الدراسات الشعرية ونضجت،و [illegible] النثر يحتل منزلته بين الأدب.

ثالثها : أن الـكتاب نسب تقديمه وتحقيقه وتعليق حواشيه إلى رجلين نابهين بين رجال الأدب ودرسه ونقده ، والتاريخ وفهمه وتحقيقه وهما : الأستاذ الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادى ويكفى أن يوضع على أثر من الآثار اسم هذين الرجلين أو أحدهما ، ليحتل منزلته بين الآثار الأدبية والعلمية ، ويتلقفه الناس ، ويسرعوا إلى فحصه ودرسه والإفادة منه .

وهنا يجب أن نشير إلى أن عمل الدكتور طه حسين اقتصر على تحليل

---

(١) انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبى ص ١١٣ ، ١١٤ .

رسالة الاسكوريال تحليلا موجزاً فى تلك المقدمة التى عنوانها : « تمهيد فى البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر » وترك الاستاذ العبادى بقية العمل الأدبى ، وبذلك يكون الدكتور طه حسين قد وفى لأمانة العلم ، وأخلى نفسه من تلك المسئولية الجسيمة ، وهى مسئولية نسبة الكتاب إلى قدامة .

وبعد ذلك يكتب الاستاذ محمد كرد على يقول : « إن كتاب نقد النثر ليس لقدامة بن جعفر وإنما هو منحول له ، ومن يتأمل عباراته يجدها أشبه بعبارات أهل القرن السادس والسابع ». ثم يقول: « وبلاغته موضع نظر ، فقد رأيناه فى مقدمة ، نقد الشعر ، يدخل على موضوعه مباشرة ، وفى مقدمة نقد النثر أسجاع تنادى بأن الكتابين لكاتبين مختلفين فى الطريقة والأداء »[١] .

وظل الحال على مارأينا إلى أن قيض الله لهذا الأمر الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر ، فكتب مقالا إليه يرجع الفضل فى تنبيه الأذهان ولفت الأنظار إلى كل من الكتاب ومؤلفه على سواء ، صحح فيه خطأ شاع سنين طويلة ورد اعتبار مؤلف طغى على اسمه الزمان . وكان هذا بعد أن اطلع على مخطوطة قديمة لهذا الكتاب بمكتبة تشيستر بيتى بدبلن عاصمة ارلندة . وفى هذا المقال أثبت أمورا أهمها : [٢]

أولا : أن الكتاب المطبوع باسم نقد النثر هو كتاب « البرهان فى وجوه البيان » .

ثانيا : أن مؤلف الكتاب أبو الحسين اسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، وليس قدامة بن جعفر صاحب « نقد الشعر » .

---

(١) انظر مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ( المجلد ٢٣ سنة ١٩٤٨ ) ص ٣٩ ( محفوظة بمكتبة جامعة بيروت العربية بلبنان ) .

(٢) المرجع السابق ( المجلد ٢٤ حـ ١ سنة ١٩٤٩ ) ص ٧٣ وما بعدها ( محفوظة بمكتبة جامعة بيروت العربية ) .

ثالثا : أن الكتاب المطبوع باسم « نقد النثر » أقل من نصف الكتاب الأصلي بكثير .

وجاء بأدلة واضحة للبرهنة على هذه المسائل . ثم كتب الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي بحثا عن « نقد النثر » وشخصية مؤلفه المجهول، أكد فيه أن الكتاب ليس لقدامة بن جعفر ، واعتمد في ذلك على الأدلة التالية : [١]

أولا : لم يذكر أن لقدامة كتابا في هذا الموضوع .

ثانيا : من العسير أن يؤلف كاتب بحثين في موضوع واحد كالنقد ، ثم لا يحيل القارىء في احدهما على الآخر ، مع أن مؤلف « نقد النثر » يحيل على كتبه الأخرى كثيراً .

ثالثا : شك العلماء والباحثين في نسبة الكتاب لقدامة ، وجزم بعضهم جزما يعتمد على الدليل بأن الكتاب ليس له ، كل ذلك ينفي أن يكون الكتاب لقدامة .

رابعا : شخصية قدامة ، شخصية المستقل في آرائه ، أما شخصية صاحب « نقد النثر » فهي شخصية المحتذى لغيره .

خامسا : الاتجاه السياسي والديني لمؤلف « نقد النثر » هو الاتجاه الشيعي .

سادسا : ثقافة قدامة عقلية صبغت بصبغة الأدب ، وثقافة مؤلف « نقد النثر » أدبية فلسفية .

سابعا : منهج قدامة في النقد منهج تفصيلي ، ولكن منهج مـــؤلف

(١) انظر كتاب الإيضاح للقزويني ( طبعة محمد عبد المنعم خفاجي ) ٦/١٦٥وما بعدها.

« نقد النثر » منهج إجمالى خصب إهتم صاحبه فيه بألوان البيان وعناصر البلاغة .

ثامنا : أسلوب قدامة أسلوب مرسل بعيد عن السجع والازدواج ، أما أسلوب مؤلف « نقد النثر » فأسلوب أديب حريص على السجع فإن لم يواته السجع واتاه الازدواج ، والتفاوت بين الأسلوبين دليـــل قوى على أن الـكاتبين لشخصيتين مختلفتين .

وعالج الدكتور بدوى طبانة هذه المسألة فى كتابه ( قدامة بن جعفر والنقد الأدبى ) وأثبت ماذكره الدكتور على حسن عبد القادر ، ورد على ما كتبه الأستاذ العبادى ، وفند ما ذهب إليه من وجوه الشبه بين كتاب قدامة الثابت نسبته إليه ، وبين الـكتاب المزعوم « نقد النثر » (١)

وخطا الموضوع بعد ذلك خطوة رحيبه على يد الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، الذى عرض فى كتابيه « النقد» و « البلاغة تطور وتاريخ » مناقشة السابقين فى هذه القضية وجدا لهم حيالها ، وقرر أن الـكتاب ليس لقدامه ، وإنما هو لمعاصر له . (٢)

ويظل الوضع على ذلك حتى صيف عام ١٩٦١ عندما اتصل الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى بمـكتبة ( تشستر بيتى ) فى دبلن بايرلنده ، فأرسلت لهما النسخة الـكاملة من الـكتاب ، وقاما بتحقيقه مع مقابلته بما طبع منه .

وطبع الـكتاب بمساعدة جامعة بغـــــداد ( بمعرفة مطبعة العانى فى ١ / ١٠ / ١٩٦٧ ) . وقد تبين من هذا التحقيق أن كتاب « نقد النثر »

---

(١) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى ص ١١٣ وما بعدها .

(٢) النقد ص ٥٧ ، والبلاغة تطور وتاريخ ص٩٣ .

الذى شك فيه الباحثون هو كتاب ( البرهان فى وجوه البيان ) وهو فى ٣٤٦ صفحة مع أن المطبوع منه باسم ( نقد النثر ) فى ١٦٤ صفحة ، والنسخة التى قاما بتحقيقها جيدة الخط ، وتاريخ الإنتهاء من كتابتها يوم الجمعة أول شهر ربيع الأول سنة ٦٧٧ هـ . ( ٢٣ يولية ١٢٧٨ م ) . وهى محفوظة بمكتبة تشستربيتى برقم ٣٦٥٨[١] .

هذا بالاضافة إلى أن المرحوم الأستاذ الدكتور حفنى محمد شرف كان قد طلب تصوير نسخة من الكتاب من كلية تشستربيتى فى شهر مارس سنة ١٩٦٦ ثم قام بنسخها وتحقيقها ، وفيها يسجل أن تحقيقه للكتاب كان سابقا للنشرة بغداد[٢] .

وكتاب البرهان فى وجوه البيان خطوة جديدة فى دراسة الأدب وألوانه دراسة علمية منظمة ، وقد وضعه مؤلفه على سبيل المعارضة لكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، والاستدراك به عليه ، على الرغم من تصريحه فى المقدمة بأنه كان مدفوعا إلى تأليفه باقتراح صديق عليه يقول : «[٣] أما بعد : فإنك كنت ذكرت لى وقوفك على كتاب الجاحظ الذى سماه كتاب « البيان والتبيين » وإنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارا منتخلة ،[٤] وخطبا منتخبة ، ولم يأت فيه بوظائف البيان ، ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ، فكان عندك ما وقفت عليه، غير مستحق لهذا الاسم الذى نسب إليه ، وسألتنى أن أذكر لك جملا من أقسام البيان آتية على أكثر أصوله ، محيطة بجماهير فصوله

---

(١) انظر مقدمة كتاب البرهان فى وجوه البيان ص ١٩ .

(٢) البرهان فى وجوه البيان (تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف ـ ط . مطبعة الرسالة سنة ١٩٦٩ ) ص ٤٨ ، ٣٦٤ .

(٣) البرهان فى وجوه البيان ص ٥١ .

(٤) منتخلة : مختارة .

يعرف بها المبتدى معانيه ، ويستغنى بها الناظر فيه ، وأن أختصر ذلك لئلا يطول به الكتاب ، فقد قيل : إن الاطالة أكثر أسباب الملالة ، فتثاقلت عن إجابتك إلى ما سألت لما حذرت منه الحكماء ، ونهت عنه العلماء من التعرض لوضع الكتب ، إذ كانت نتائج الالب ، وكان المتجاسر على تأليفها إنما يبدى صفحة عقله ، ويبين عن مقدار علمه أو جهله » . .

« ثم رأيت حق الصديق عند العلماء فوق حق الشقيق ووجدتهم يجعلون الإخوان من عدد الزمان[1] » ثم يقول . « فلما تذكرت ذلك وتدبرته ، تحملت لك تأليف ما أحببته ، ورسمته ، على علم منى بأن كتابى لا بد أن يقع فى يد أحد رجلين : إما عاقل يعلم أن الصواب قصدى والحق إرادتى ، وإما جاهل أحب الأشياء إليه عيب ذوى الأدب والتسرع إلى تهجينهم وذكر مساوئهم[2] » ويقول : « وقد ذكرت فى كتابى هذا جملا من أقسام البيان ، وفقراً من آداب حكماء أهل هذا اللسان ، لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكنى شرحت فى بعض قولى ما أجملوه ، واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه ، وجمعت فى مواضع منه مافرقوه ، ليخف بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والإيضاح فهمه »[3] .

ومن ذلك يتضح أن صاحب « البرهان » يحمل حملة عنيفة على الجاحظ ، ولكنه ينساق وراءه ويقسم وجوه البيان كما قسمها صاحب « البيان والتبيين » وينقل عنه كثيراً من العبارات والأمثلة .

وبنى المؤلف كتابه على أربعة وجوه للبيان :

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ٥٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٤ .

البيان الأول : بيان الاعتبار[١]

البيان الثانى : بيان الاعتقاد[٢]

البيان الثالث : بيان العبارة[٣]

البيان الرابع : بيان الكتاب[٤] . . . وقد سقط كله من مخطوطة الأسكوريال المطبوعة باسم « نقد النثر » وفى هذا البيان نجد اسم المؤلف الحقيقي واضحا ، يقول فى مطلعه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله حق حمده، باب البيان الرابع ، وهو الكتاب ، قال أبو الحسين اسحق بن إبراهيم ابن سليمان بن وهب الكاتب. قد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا هذا » . . .

هذا هو كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب ويلاحظ عليه تأثره بكتابى ( الخطابة والشعر ) لأرسطو وذلك واضح فى حديثه المفصل عن صيغة الألفاظ فى العربية واشتقاقها ،[٥] وأبنية الأسماء فيها والأفعال[٦] ، وما يدخل فيها من إعلال[٧] واضعاً ذلك بإزاء مافعله أرسطو من خصائص نحوية فى لغته، واقتدى به فى مزج ذلك ببيان طائفة من وجوه القول البلاغية .

ويعلق الدكتور طه حسين على الكتاب بقوله : «[٨] لاجرم أننا هنا بإزاء بيان جديد كل الجدة ، بيان لا يستمد غذاءه من الأدب العربى البحت وخطابة أرسطو وشعره فحسب ، ولكنه يستفيد فى تكوين بنيته من

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ٧٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠١ .
(٣) المصدر السابق ص ١١١ .
(٤) المصدر السابق ص ٣١٣ ،
(٥) المصدر السابق ص ١٢٣ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٩٨ .
(٦) البرهان فى وجوه البيان ص ١٢٨ .
(٧) المصدر السابق ص ١٢٩ .
(٨) مقدمة نقد النثر ص ٢٣ .

منطق أرسطو ، وبخاصة كتابيه ( أنا لوطيقا ) و ( طوبيقا ) [١] . هذا البيان الجديد يقصد فى حقيقة الأمر إلى تكوين الخطيب والشاعر والكاتب ، وذلك بأن يجعل لكل منهم أولا فكرا مستقيما ، ثم لسانا ناطقا يحسن به التعبير عما يجول بخاطره ، ثم هو يهديه بعد ذلك إلى خير أساليب الأداء والإلقاء ، ولسنا بحاجة إلى أن نقول أن حظ هذا البيان ذى الصفة الفلسفية الخالصة ، لم يكن خيراً من حظ نقد الشعر لقدامة ».

ويقول عنه فى كتابه ( من حديث الشعر والنثر ) : « وكتاب قدامة ـ وأنا متحفظ فى نسبته إلى قدامة ـ مؤلف بالضبط على طريقة أرسطاليس فى كتابه الخطابة ، فكما يبدأ رسطاليس فى نقد أصحاب البيان ، ويحاول أن يضع بياناً جديداً ملائماً لحقيقة الأدب ، وطبيعة الفن ، فكذلك « قدامة » يبدأ بنقد كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، ويرى أن هذا الكتاب لا يشفى غلة من يريدون أن يعرفوا نظريات البيان ، ويعد بوضع نظريات جديدة للبيان » [٢] .

وبعد هذه المقدمة ـ التى كان لابد منها ـ لإلقاء الضوء على الكتاب وإثبات صحة نسبته إلى مؤلفه الحقيقى ، نبدأ فى الحديث عن فنون البديع التى عرض لها ابن وهب فى كتابه وهى :

١ — المعارضة :

وهى عنده : « المقابلة بين الكلامين المتساويين فى اللفظ [٣] ، وأصله من معارضة السلعة بالسلعة فى القيمة والمبايعة . وإنما تستعمل المعارضة فى التقية وفى

(١) أى كتابى : ( تحليل القياس ) ( والجدل ) .

(٢) من حديث الشعر والنثر ( للدكتور طه حسين ط . دار المعارف سنة ١٩٦١ ) ص ٧٧ .

(٣) البرهان فى وجوه البيان ص ١١٨ .

مخاطبة من خيف شره ، فيرى بظاهر القول ، ويتخلص فى معناه من الكذب الصراح ، وذلك مثل قول بعضهم ، وقد سأله بعض أهل الدولة العباسية عن قوله فى لبس السواد ، فقال : « هل النور إلا فى السواد ؟ » وأراد نور العين فى سوادها ، فأرضى السائل ولم يكذب»[١] . وهذا نوع من أنواع الكناية .

٢ — التشبيه :

جعله من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبهً منهم فى تشبيه ألطف كان بالشعر أعرف، وكلما كان إلى المعنى أسبق كان بالحذق أليق[٢] . ثم قسمه إلى قسمين :

( أ ) تشبيه حسّى : وهو تشبيه الأشياء فى ظواهرها وألوانها ومقدارها كتشبيه اللون بالخمر ، والقدّ بالغصن[٣] . وكما شبه الله — عز وجل — النساء فى رقة ألوانهن بالياقوت ، وفى نقاء أبشارهن بالبيض . قال تعالى : « كأنهنّ بيض مكنونٌ »[٤] ومنه قول الشاعر :

أيا شبهَ ليلى لا تُرَاعى فإنّنى
لكِ اليومَ من بين الوحوشِ صَدِيقُ
فعيناكِ عيناها ، وجيدُكِ جيدُها
ولكنّ عظم الساق مِنْكِ دقِيقُ

(ب) تشبيه معنوى : وهو تشبيه فى المعانى[٥] . كتشبيههم الشجاع بالأسد ، والجواد بالبحر ، والحسن الوجه بالبدر ، وكما شبه الله - عز وجل -

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ١١٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٠ .
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .
(٤) سورة الصفات ( آية ٤٩ ) .
(٥) البرهان فى وجوه البيان ص ١٣١ .

أعمال الكافرين فى تلاشيها مع ظنهم أنها حاصلة لهم بالسراب الذى إذا دخله الظمآن الذى قد وعد نفسه به لم يجده شيئاً ، وكما شبّه من لا ينتفع بالموعظة بالأصم الذى لا يسمع ما يخاطب به .

ومنه قول النابغة الذبيانى :

فإنّك كالليْلِ الذى هو مُــــدْرِكى
وإنْ خلْتُ أنّ المُنْتأَى عَنْكَ واسِعُ (١)

وقد مر بنا أن الجاحظ أكثر من ذكر التشبيه بنفس معناه الاصطلاحى ، وقسمه المبرد أربعة أنواع أما ثعلب فقد جعله غرضاً من أغراض الشعر وتابعه فى ذلك قدامة بن جعفر .

٣ — اللحن :

عرفه ابن وهب بقوله : « وأما اللحن : فهو التعريض بالشىء من غير تصريح ، أو الكناية عنه بغيره » (٢) ومثّل له بقوله تعالى : ( ولو نَشَاءُ لأريناكَهُمْ فلَعرفْتَهُم بِسِيمَاهُم ، وَلتَعرفنَّهم فى لحْنِ القَوْلِ ) (٣) ، وهذا هو ما سماه المبرد ( الكناية ) وجعلها على ثلاثة أوجه — كما أسلفنا — أما ابن المعتز فسماه ( التعريض ) وذكر قدامة فى نقد الشعر ( الارداف ) وهو ضرب من الكناية .

وذكر ابن وهب أن العرب تستعمله (٤) فى أوقات ومواطن ، فمن ذلك

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٣ .
(٣) سورة محمد ( آية ٣٠ ) .
(٤) يقصد : ( اللحن ) .

ما استعملوه للتعظيم ، أو للتخفيف ، أو للاستحياء ، أو للبقيا ، أو للإنصاف أو للاحتراس .

فأما ما يستعمله من التعريض للاعظام فهو أن يريد مريد تعريف من فوقه قبيحاً إن فعله ، فيعرض له بذكر ذلك من فعل غيره ، ويقبّح له ماظهر منه فيكون قد قبح له ما أتاه من غير أن يواجهه به .

وأما التعريض للتخفيف :[1] فهو أن يكون لك إلى رجل حاجة فتجيئه مسلّماً ولا تذكر حاجتك، فيكون ذلك اقتضاء له وتعريضاً بمرادك منه .

وأما التعريض للاستحياء : فكالكناية عن الحاجة بالنجو[2] والعذرة وبالغائط[3] فكنى عن الحاجة بالمواضع التى تقصد لوضعها فيها ، وكما كنى عن الجماع بالسر ، وعن الذكر بالفرج ، وإنما الفرج ما بين الرجلين ، وكما تقول لمن كذب : ( ليس هذا كما يقال ) .

وأما التعريض للبقيا : فمثل تعريض الله — عز وجل — بأوصاف المنافقين ، وإمساكه عن تسميتهم إبقاء عليهم وتألفاً لهم ، ومثل تعريض الشعراء بالديار والمياه، والجبال ، والأشجار ، بقْيا على ألاّ فهم ، وصيانة لأسرارهم وكتماناً لذكرهم .

والتعريض للانصاف[4] كقوله تعالى :

( وإنّا أو إيّاكُم لعلَى هُدًى ، أوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ )[5]

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ١٣٤ .

(٢) النجو . المكان المرتفع . العذرات : الأفنية .

(٣) الغائط : الموضع الواسع .

(٤) البرهانى فى وجوه البيان ص ١٣٥

(٥) سورة سبا ( آية ٢٤ ) .

ومنه قول حسان بن ثابت فى مناظرته بعض من هجا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

أَتَهْجُوه ولَسْتَ لهُ بِكُفْءٍ
فشرُّكُمَا لخيرِكُمَا الفِداءُ[1]

أما التعريض للاحتراس[2] : فهو ترك مواجهة السفهاء والأنذال بما يكرهون ، وإن كانوا لذلك مستحقين ، خوفاً من بوادرهم وتسرعهم ، وإدخال ذلك عليهم بالتعريض والكلام الليّن ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

( وَلا تسبّوا الذين يدعون من دون الله ، فيسُبّوا اللهَ عدْواً بغير عِلْم )[3] وقال لموسى وهارون فى فرعون :

( فقُولاَ له قوْلاً ليّنا ، لعلّه يتذكَّرُ أَو يخْشَى )[4] .

ويلاحظ أن ابن وهب فصّل القول فى اللحن ، وبين أغراضه فى طائفة من الأشعار ، وصور من الأساليب النثرية .

٤ — الوحى :

وهو عنده :[5] ( الإبانة عما فى النفس بغير المشافهة على أى معنى وقعت من إيماء — وإشارة، ورسالة ، وكتابة ، ولذلك قال الله تعالى :

( وَمَا كان لبشرٍ أن يكلّمهُ اللهُ إلاّ وَحْياً )[6] .

وهذا هو الإشارة عند قدامة ، والوحى والإشارة يقترنان فى بعض كلام

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت ص ٩ .
(٢) البرهان فى وجوه البيان ص ١٣٦ .
(٣) سورة الأنعام ( آية ١٠٨ ) .
(٤) سورة طه ( آية ٤٤ ) .
(٥) البرهان فى وجوه البيان ص ٠٣٩ .
(٦) سورة الشورى آية ( ٥١ ) .

الجاحظ كما فى قوله : « ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذى هو كالوحى والإشارة » وكأن ابن وهب أخذ لمصطلحه الكلمة الأولى ، وأخذ قدامة الكلمة الثانية .

وذكر ابن وهب أن الوحى على وجوه كثيرة : « فمنه الإشارة كقوله تعالى : ( فَخَرَجَ على قومه من المحْراب ، فأَوْحى إليهم أن سبّحُوا بكرةً وعشِيًا )[١] .

ومنه الوحى المسموع من الملَك كقوله تعالى : ( إن هو إلا وحىٌ يوحى علَّمه شديدُ القُوَى )[٢] .

ومنه الوحى فى المنام : وهو الرؤيا الصحيحة . . كقوله تعالى : ( وأوحينا إلى أم موسى أنْ أرْضِيه )[٣] . ومنه « الإلهام »[٤] كقوله تعالى : ( وأوحى ربّك إلى النّحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ومما يعرشون »[٥] أى : ألهمها . ومنه « الكتاب » يقال : ( وحيت الكتاب ) إذا كتبته .

ومن الوحى الإشارة باليد ، والغمز بالحاجب ، والإيماض بالعين .

كقول الشاعر[٦] .

أشَارتْ بطرْفِ العَيْن خيفَةَ أهْلها
إشارةِ محزوُنٍ وَلَمْ تتكلَّمِ
فَـأيْقنتُ أن الطّـرف قد قال : مَرْحَباً
وأهْلاً ، وسهْلاً بالحبيب المُسلِّمِ

(١) سورة مريم ( آية ١١ ) .
(٢) سورة النجم ( آية ٤ ، ٥ )
(٣) سورة القصص ( آية ٧ ) .
(٤) البرهان فى وجوه البيان ص ١٤٠ .
(٥) سورة النحل ( آية ٦٨ ) .
(٦) هو عمر بن أبى ربيعة . انظر ديوانه ص٢٣٧ .

٥ — الاستعارة :

تحدث ابن وهب عنها فقال[١] : « وأما الاستعارة فإنما احتيج إليها فى كلام العرب لأن ألفاظهم أكثر من معانيهم ، وليس هذا فى لسان غير لسانهم ، فهم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ، ربما كانت مفردة له ، وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره ، وربما استعملوا[٢] بعض ذلك فى موضع بعض على التوسع والمجاز . فيقولون إذا سأل الرجلُ الرجل شيئا فبخل به عليه . ( لقد بخَّله فلان ) وهو لم يسأله ليبخل ، إنما سأله ليعطيه ، لكن البخل لما ظهر منه عند مسألته إياه جاز فى توسعهم ومجاز قولهم أن ينسب ذلك إليه » .

ومنه قول الشاعر :

« فلِلْموت ما تَلد الوالدةُ » .

والوالدة إنما تطلب الولد ليعيش لا ليموت ، لكن لما كان مصيره إلى الموت جاز أن يقال : للموت ولدته . ومثله فى القرآن :

( وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينَكَ وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقْراً )[٣] .

وذلك لأنهم كانوا عند تلاوة القرآن قد حجبوا قلوبهم عن فهمه ، وصدفوا بأسماعهم عن تدبّره ، فجاز أن يقال على المجاز والاستعارة : إن الذى تلا ذلك عليهم جعلهم كذلك . والدليل على ما قلناه[٤] ، وأن حقيقة الأمر أنهم هم الفاعلون لذلك دون غيرهم ، قول الله — عز وجل — فى موضع آخر :

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ١٤٢ .

(٢) فى النسخة المطبوعة باسم نقد النثر : ( استعاروا ) : انظر نقد النثر ص ٦٤ .

(٣) سوره الاسراء ( آية ٤٥ ، ٤٦ )

(٤) البرهان فى وجوه البيان ص ١٤٣ .

( وإنى كلَّما دعوتُهم لتَغْفِرَ لهم ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغْشَوا ثيابَهم ، وأصرُّوا واستكبَرُوا استكباراً )(١) .

ويلاحظ أن ابن وهب يقرن الاستعارة بالمجاز ، ويخص العرب بالحاجة إليها فى كلامهم . والاستعارة من فنون البديع التى ظهرت مبكرة فهى عند الجاحظ(٢) . « تسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه » وذكرها المبرد وثعلب وجعلها ابن المعتز أولى فنون البديع الخمسة التى بنى عليها الشطر الأكبر من كتابة .

وتحدث ابن وهب بعد ذلك عن الأمثال اللغز والحذف .

٦ — الصّرف :

عرفه بقوله . « وأما الصّرف فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب ، ومن الواحد إلى الجماعة »(٣) كقوله تعالى . [ حتى إذا كنتم فى الفلك وَجَرَيْنَ بهم بريح طيبة ](٤) .

والصرف عند ابن وهب هو أحد شقى « الالتفات » عند ابن المعتز ، ويظهر أنه أخذ من تعريفه عنوانه ، إذ يقول ابن المعتز . « هو إنصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة » والآية التى استشهد بها ابن وهب هى نفس الآية الكريمة التى استشهد بها ابن المعتز ، وقد أسلفنا أن الأصمعى هو أول من اقترح للالتفات اسمه الاصطلاحى فى البلاغة .

---

(١) سورة نوح ( آية ٧ ) واستغشوا ثيابهم : غطوا بها وجوههم كراهة النظر إليها .
(٢) البيان والتبيين ١٥٢/١ وما بعدها .
(٣) البرهان فى وجوه البيان ص ١٥٢ .
(٤) سورة يونس ( آية ٢٢ ) .

٧ ـ المبالغة :

ذكر أن : « من شأن العرب أن تبالغ فى الوصف والذم ، كما أن من شأنها أن تختصر وتوجز ، وذلك لتوسعها فى الكلام واقتدارها عليه »[(١)] .

وقسم المبالغة إلى قسمين : أحدهما فى اللفظ ، والآخر فى المعنى .

فأما المبالغة فى اللفظ فتجرى مجرى التأكيد ، كقولنا : « رأيت زيدا نفسه » و « هذا هو الحق بعينه » . فتؤكد زيدا بالنفس والحق بالعين وإن كان قولك : « هذا زيد » و « هذا هو الحق » قد أغناك عن ذكر النفس والعين ، ولكن ذلك مبالغة فى البيان . ومنه قول الشاعر :

ألا حبّذا هند وأرضٌ بها هندُ
وهِندُ أتى من دونها النّأْىُ والبُعْدُ(٢)

فذكر البعد بعد النأى — وهما شىء واحد — تأكيداً ومبالغة .

وأما المبالغة فى المعنى(٣) : فإخراج الشىء على أبلغ غايات معانيه ، كقوله تعالى : ( وقالتْ اليهودُ يد اللهِ مغلولةٌ )(٤) : ولربّما قالوا : فأنه قد أقتر فقتر علينا ، فبالغ الله فى تقبيح قولهم وإخراجه على غاية الذّم .

وقد مر بنا أن ثعلبا سمى المبالغة ( الإفراط فىالإغراق) وسماها ابن المعتز « الإفراط فى الصفة » أما قدامة بن جعفر فسماها ( المبالغة ) وجعلها من أنواع نعوت المعانى .

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ١٥٣ .
(٢) انظر الموشح للمرزبانى ص ١٤١ والصناعتين ص ١٠٨ .
(٣) البرهان فى وجوه البيان ص ١٥٤ .
(٤) سورة المائدة ( آية ٦٤ ) .

وبعد ذلك انتقل ابن وهب إلى باب تأليف العبارة(١) وفى هذا الباب صوّر فى إجمال محاسن الشعر فقال : « والذى يسمى به الشعر فائقاً ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنا رائقا . صحة المقابلة ، وحسن النظم ، وجزالة اللفظ ، واعتدال الوزن ، وإصابة التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلّف ، والمشاكلة فى المطابقة ، وأضداد هذه كلّها معيبة تمجّها الآذان ، وتخرج عن وصف البيان »(٢) .

٨ — صحة المقابلة :

مثّل لها بقول الشاعر :

أميل مع الذّمام(٣) على ابن أمّى
وأحمل للصّديق على الشقيق
أفرق بين معرُوفى ومنّى
وأجمع بين مالى والحقُوق

فالشاعر أحسن القسمة فى المقابلة ، ومال مع ينبغى أن يمال معه ، وحمل على مايحسن الحمل عليه ، وفرّق بين ما ينبغى أن يفرقه ، وجمع بين ما ينبغى أن يجمعه . ومن المقابلة القبيحة عنده قول الشاعر(٤) .

أموتُ إذَا ما صدَّ عنِّى بوجهه
ويفْرح قَلْبِي حين يَرْجعُ للوَصْلِ

فجعل ضد الموت فرح القلب ، وضد الصدّ بوجهه الوصل . ولو قال :

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ١٦٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٥ .
(٣) الذمام : هو كل ما تلزمك لائمة إذا ضيعته .
(٤) البرهان فى وجوه ص ١٧٦ .

أموتُ إذا ما صد عنّى بوجهه
وأحيَا إذا مل الصدُودَ وأقْبَلاَ

فجعل ضد الموت الحياة ، وضد الصد بالوجه الإقبال لكان مصيباً .

وقد أدخل ابن المعتز ذلك فى المطابقة والطباق ، واستمد قدامة بن جعفر هذا الفن من أرسطو ، وجعله من أنواع المعانى وأجناسها ، وذلك على نحو ما قدّمنا .

٩ — المطابقة والمشاكلة :

لم يعرّفها ابن وهب ولكنه مثّل لها بقول الشاعر :

نُعَرِّضُ لِلطّعان إذَا الْتَقَيْنَا
وُجُوهاً لا تُعَرَّضُ لِلسِّبَابِ

وقول الآخر فى أحمد بن الخصيب :

سَمُّوه أحمدَ ، فالإسلام يَحْمَدُهُ
والدّهْر كاسْم أبيه مُمْرِعٌ خَصِبُ(١)

وقد سبق أن ذكرنا أن الأصمعى أول من تحدث عن المطابقة والطباق ، وتابعه ابن المعتز وجعلها قدامة ضرباً من الجناس .

ويقول ابن وهب : « ومما ينبغى للشاعر أن يلزمه فيما يقوله من الشعر ألاّ يخرج فى صفة أحد ممن يرغب إليه أو يرهب منه ، أو يهجوه ، أو يمدحه أو يغازله عن المعنى الذى يليق به ويشاكله ، فلا يمدح الكاتب بالشجاعة . ولا الفقيه بالكتابة ، ولا الأمير بغير حسن السياسة ، ولا يخاطب النساء بغير مخاطبتهن . ولكن يمدح كل أحد بصناعته ، وبما فيه من فضيلته ، ويهجوه

(١) ممرع : مخصب .

برذيلته ومذموم خليقته. ويغازل النساء بما يحسن من وصفهن ، ومداعبتهن، والشكوى إليهن ، فإنّ في مفارقته هذا السبيل التي نهجناها، وسلوكه غيرهذه الطريق وضعا للأشياء في غير مواضعها وإذا وضعت الأشياء في غير مواضعها، قصرت عن بلوغ أقصى مواقعها : »[1] فهو يطبق في وضوح نظرية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ونحس هنا صلته الشديده بالجاحظ ، فهو يتحدث عن تطابق اللفظ والمعنى ، حاملا على ماقد يجرى في الشعر من بعض الحشو أو من التضمين وهو تعليق الأبيات بعضها ببعض ، كما يتحدث عن عذوبة اللفظ وثقله ووضع المعانى في مواضعها[2] .

١٠ — الغلو :

يقول ابن وهب : « وللشاعر أن يبالغ وأن يسرف حتى يناسب قوله المحال ويضاهيه، ولا يستحسن السّرفَ والكذب والإحالة فى شىء من فنون القول إلا فى الشعر . وقد ذكر أرسطاليس الشعر فوصفه بأن الكذب فيه أكثر من الصدق ، وذكر أن ذلك جائز فى الصياغة الشعرية »[3] .

فابن وهب يعزو فكرة الغلو عزوا صريحا إلى أرسطو[4] . ومما أسرف فيه الشاعر حتى أخرجه إلى الكذب والمحال ، وهو مع ذلك مستحسن قول أبى نواس[5] :

تغطّيت من دَهْرى بظلّ جناحه
فَعَيْنِى تَرَى دهرى ، وليس يرانِى

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ١٨١ .
(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠١ .
(٣) البرهان فى وجوه البيان ص ١٨٥ .
(٤) انظر كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ( للدكتور شكرى عياد ) هامش ص٢٣٤.
(٥) ديوانه ص ٦٥٠ ، ٦٥١ .

فَلَوْ تسْأَلِ الأيامُ ما اسمى ما دَرتْ[١]
وأيْنَ مكانِى ، ما عرفْنَ مكانى ؟ !

وبعد ذلك خرج ابن وهب من المنظوم إلى الكلام عن المنثور ، وأفرد له الجزء الأخير من كتابه .

ويلاحظ على الكتاب تأثره الشديد بمنطق أرسطو وبلاغته ، وليس أدلّ على ذلك من حديثه عن قسمة العقل فى أول الكتاب ، فيقسمه على طريقة الفلاسفة إلى موهوب ومكسوب[٢] . وكذلك حديثه عن بيان الأشياء بذواتها وهو الاعتبار والذى يقول فيه إن بعضه ظاهر يدرك بالحسّ ولا يفتقر إلى برهان ولا استدلال ، وبعضه باطن لا يدرك إلا بالعقل ، والعقل إنما يدركه بالقياس أو بالخبر ،[٣] ونراه يعقد فصلا للقياس يحلله فيه على طريقة المناطقة . ويقول إنه إما أن يكون فى الحد أو فى الوصف أو فى الاسم . ويفصّل صوره تفصيلا دقيقا . وينهى كلامه فيه بقوله . « هذه جمل فى وجوه الاستدلال والقياس تدل ذا اللب على ما يحتاج إليه ، ومن أراد استيعاب ذلك نظر فى الكتب الموضوعة فى المنطق ، فإنها جعلت عيارا على العقل ، ومقومة لما يخشى زلله ، كما جعل البركار لتقويم الدائرة ، والمسطره لتقويم الخط »[٤] وكأنه يرى تعلم المنطق ومعرفة صور القياس شىء أساسى فى البيان ، وهو يوغل فى ذلك إيغالا شديدا ، حتى كأننا بإزاء مختصر دقيق للقياس الأرسطاليسى[٥] .

ويتّضح هذا الأثر أيضا فى الفصل الذى عقده للشعر ، فقد تناوله فيه بصورة تخالف الصورة المرسومة فى ( نقد الشعر ) إذ لم يعن بتحديده ، ولكنه

---

(١) رواية الديوان : ( . . لما درت . . . . . . ) .
(٢) البرهان فى وجوه البيان ص ٥٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٣ .
(٤) المصدر السابق ص ٨٦ ، ٨٧ .
(٥) انظر البلاغة تطور وتاريخ ٩٢ .

قسمه أقساما . ثم عرف الشاعر بقوله : « والشاعر من شعر يشعر فهو شاعر ، وإنما سمى شاعرا لأنه يشعر من معانى القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره ، . وكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى ».[(١)] وهو فى ذلك يختلف مع قدامة ويتفق مع أرسطو فى عدم الاعتداد بالوزن فى جوهر الشعر »[(٢)].

هذا قليل من كثير أردنا الاستشهاد به لنوضح أثر منطق أرسطو فى الكتاب ، وذلك بالإضافة إلى تأثره بمنهج المتكلمين وحججهم ، وأسلوب الفقهاء وآرائهم ، وبذلك يقف الكتاب إلى جانب كتاب ( نقد الشعر ) الذى كان محاولة لتطبيق المقاييس اليونانية على بلاغة العرب وفنون القول .

يقول الدكتور شوقى ضيف : « وواضح أن المؤلف لم يكتف بالأخذ عن كتابى الخطابة والشعر لأرسطو ، فقد توسع فى الأخذ عن كتابيه : المنطق والجدل ، ومزج ذلك مزجاً واسعاً بعقيدته الشيعية ومباحث المتكلمين ومسائل الفقهاء ، وهو مزج بدا فيه الجفاف واضحا . وبدا كأن البيان العربى عند ابن وهب يريد أن يستعجم . ونفس الوجوه البلاغية التى عرض لها والتى اقتبسها من أرسطو لم يحسن تطبيقها على نحو مارأينا عند قدامة ، وقد اقترح بعض ألقاب جديدة ، ولكن لم يُكْتب لها الشيوع على ألسنة البلاغيين كما كُتب لألقاب قدامة وابن المعتز ويظهر أن البلاغيين ضاقوا به ضيقاً شديداً ، وآية ذلك أننا لانجد له أى ذكر فى كتاباتهم ، بينما نراهم يذكرون قدامة وكتابه ( نقد الشعر ) فى مباحثهم ، وليس من شك فى أن ذلك يرجع إلى أن ابن وهب أوغل فى الاستعارة من التفكير اليونانى ، كما أوغل فى ضغط الكلام ،

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ص ١٦٤ .

(٢) انظر فن الشعر لأرسطاليس ( ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ) ص ٦ .

بحيث نرى فى الكتاب غير قليل من الغموض بل من الصعوبة والاستغلاق، ومن أجل ذلك انصرف البلاغيون عنه وأعرضوا إعراضا »[١] .

ويقول الدكتور بدوى طبانة : « ومؤلف هذا الكتاب عالم ، جمع إلى علمه بالأدب وروايته علمه بالتأويل وبالفقه وأصول التشريع والمنطق والفلسفة اليونانية ، وهذه المعارف تبدو بوضوح فى كتابه الذى يفلسف الأدب ، ويحصى أقسامه ، ويحدد كل قسم منها تحديداً منطقيا على وجه سليم من الناحية المنطقية ، ومن حيث التبويب واستيفاء الأقسام ، مما لا نكاد نرى له نظيرا فى كتابة الجاحظ ، ونستطيع أن نجمل إفادته أو احتذاءه فى المادة ، وإن خالفه فى المنهج ، فعقليته عقلية علمية فلسفية ، أما الجاحظ فإن الناحية الأدبية هى أبرز ما يلحظ فى كتابته ، ويغلب على تأليفه »[٢] .

والجدير بالذكر أن الألوان البديعية التى وجدنا فى كتابه لم يسمها باسم البديع ، ولم يحدد لها مكانا فى الكتاب ، ولكننا عثرنا عليها مبعثرة فى ثنايا حديثه عن المسائل البلاغية التى تعرض لها . وهذه الألوان هى : المعارضة ، والتشبيه ، واللحن ، والوحى ، والاستعارة ، والصرف ، والمبالغة ، وصحة المقابلة ، والمطابقة والمشاكلة، والغلو .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) البيان العربى ص ٨٢ .

# الفصل الخامس

## الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي

مؤلف هذا الكتاب أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى[1] ( المتوفى سنة ٣٧١ للهجرة) كان كاتبا شاعراً وأديبا ناقداً على اتساع تام فى علم الشعر ومعانيه وإليه انتهت رواية الشعر القديم والأخبار فى آخر عمره بالبصرة ، وقد أخذ النحو واللغة عن أعلامهما فى عصره من أمثال على بن سليمان الأخفش ، وأبى اسحق الزجاج ، وأبى بكر بن دريد وأبى بكر بن السراج ، وكان فى البصرة كاتبا للقضاة من بنى عبد الواحد فى خلافة المقتدر بالله .

وقد ترجم له ابن النديم فقال : « مليح التصنيف جيد التأليف ممتعاط مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب »[2] . وذكر له عشرة كتب وأوصلها ياقوت الحموى إلى ثلاثة عشر كتابا .

ومعظم هذه الكتب فى الموازنة بين الشعراء والنقد ومعانى الشعر واللغة والسرقات ، ومنها:[3] كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وكتاب تفضيل شعر امرىء القيس على الجاهليين وكتاب مافى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ ، وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام ، وكتاب معانى شعر البحترى ، وكتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء ، وكتاب فرق ما بين

---

(١) راجع فى ترجمة الآمدى معجم الأدباء لياقوت ٨/ ٧٥ وروضات الجنات ص ٢١٩ وأنباه الرواة ١/ ٢٨ومابه من مراجع .

(٢) الفهرست ص ١٥٥ .

(٣) انظر النقد المنهجى عند العرب ص ١١١ ، وفى تاريخ البلاغة العربية ص١٥٣ ، ١٥٤ ، وتاريخ النقد الأدبى عند العرب ( للدكتور إحسان عباس ) ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

الخاص والمشترك من معانى الشعر ، الذى عالج فيه المعانى التى تشترك العرب فيها ولا ينسب مستعملها إلى السرقة ، والمعانى الخاصة التى ابتدعها الشعراء وتفردوا بها وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب « نقد الشعر » وكتاب الحروف من الأصول فى الأضداد ، وكتاب فعلت وأفعلت الذى يقول عنه ياقوت : « غاية لم يصنف مثله » وديوان شعره .

وكتاب الموازنة بين الطائيين : أبى تمام حبيب بن أوس ( ٢٣١ هـ ) وأبى عبادة البحترى (٢٨٤ هـ) هو أهم كتب الآمدى ، وأهميته تأتى من حيث أنه نموذج من نماذج النقد الأدبى فى القرن الرابع ، نجد فى ثناياه عرضاً للبلاغة وآراء جيدة فى فنونها وفى ألقابها ، أوردها وهو يقيس بها شعر الشاعرين الكبيرين ، ويوازن بينهما فى الإجادة والإبداع ،

« وحين يبدأ الآمدى « موازنته » بين أبى تمام والبحترى يؤثر أن يقف موقف المحايد من أصل المشكلة كما تصورها معاصروه ، وهو أن أحد الشاعرين يعنى بصحة السبك ورونق العبارة بينما يعنى الآخر بالصنعة فى المعانى والغوص على الأفكار ، فيكتفى ناقدنا بأن يحيل القارىء على ذوقه فى اختيار أحد المذهبين ، ثم يمضى إلى خطة رسمها لبيان أخطاء كل من الشاعرين وسرقاته ، ثم الموازنة بين ماجاءا به فى أغراض الشعر المعروفة من الوقوف على الديار وذكر تعفية الزمان لها والبكاء عليها [1] ، وهو فى بيان الأخطاء شديد العناية بالناحية اللغوية ، كثير الاحتكام إلى الشعر القديم ، يكاد يجعل المعانى — كالألفاظ — حفظا ورواية عن العرب ، فإذا كان الشعراء الأقدمون قد تعودوا أن يصفوا مرورهم على ديار الأحبة فيجعلوا ذلك وقوفا عندها أو تعريجا عليها فى أثناء سفرهم ، فلا يسوغ للشاعر المحدث أن يقصد إلى دار

---

(١) الموازنة ١/٦ ، ٧ وانظر كتاب ارسطوطاليس فى الشعر ( تحقيق الدكتور شكرى عياد ) ص ٢٢٩

محبو بته قصداً ، وإذا كان الشعراء الجاهليون قد وصفوا ناقتهم عند الوقوف بشدة النشاط ، فلا ينبغي أن يصورها الشاعر المحدث وقد أتعبها السير وقصر خطواتها الأين والكلال ، والآمدى هنا يسلك مسلك العلوم اللغوية فيجعل معانى الأقدمين أصولا تعتمد ويقاس عليها » (١)

ويمضى الآمدى بعد ذلك فينقد فنون البديع عند أبى تمام ، مبتدئاً بعرض طائفة من استعاراته القبيحة ، وهذه الفنون هى :

١ — الاستعارة :

لم يعرف الآمدى الاستعارة، ولكنه بدأ يعرض لما فى شعر أبى تمام من مرذول الألفاظ وقبيح الاستعارات ، وأورد قول أبى تمام : (٢)

يَا دَهْر قوِّمْ من أَخْدَعَيْك فَقَدْ
أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ من خُرُقِك

فأخذ عليه الآمدى غثاثة الألفاظ ، وجعله للدهر اخدعا ، ويتساءل أى ضرورة دعته إلى الأخدعين ؟ وقد كان يمكنه أن يقول « من اعوجاجك » أو « قوم معوج صنعك » أو « يادهر أحسن بنا الصنيع » لأن الأخرق هو الذى لا يحسن العمل ، وضده الصنع . (٣)

ومن الاستعارة القبيحة عنده قول أبى تمام(٤) :

فَضَرَبْتَ الشِّتَاءَ فِى أَخْدَعَيْهِ
ضَرْبةً غَادَرَتْه عَوْداً رَكُوبَا

(١) الموازنة ١ / ٢٠٤ .
(٢) ديوانه ٢/ ٤٠٥ وانظر الموازنة ١/ ٢٤٥، والأجدع : العرق البارز فى صفحة العنق ، الخرق : الحمق .
(٣) الموازنة ١/ ٢٥٥ .
(٤) ديوانه ١/ ١٦٦ ، والعود : المسن من الإبل .

وهذا البيت ذكره ابن المعتز من بين أمثلة الاستعارة المعيبة [١]، وربما كان ابن المعتز هو الذى حمل لأول مرة على تشخيص أبى تمام ومبالغاته فيه إذ رآه يكثر من الاستعارات المكنية ويغرب فيها إغرابا لم يعرف لشاعر من قبله . وبذلك وجه نقاد أبى تمام إلى هذا الجانب فى شعره [٢] .

وعلى الرغم من أن الآمدى قد ذكر بيت أبى تمام السابق ضمن أمثلة الاستعارة القبيحة إلا أننا نراه يقول : « فأما قوله : ( فضربت الشتاء فى أخدعيه ) فإن ذكر الأخدعين ـ على قبحهما ـ أسوغ لأنه قال : ( ضربة غادرته عوداً ركوباً ) وذلك أن العود المسن من الإبل يضرب على صفحتى عنقه فيذل ، فقربت الاستعارة هنا من الصواب قليلا » .

والبيت ـ بدون شك ـ طريف جداً ، إذ جعل أبو تمام الشتاء بوعوثة ثلوجه فرساً جامحاً ، وجعل انتصار أبى سعيد الثغرى فيه كأنه ضربة سددت إليه ، فقضت على جموحه وشراسته ، وجعلته سهل القياد ذلولا ، ولكن الآمدى لا يعجب بالبيت لأن فيه الإستعارة المكنية ، التى يرى فيها خروجاً على عمود الشعر العربى. وإذا رجعنا إلى البيت فى الديوان ، وجدنا معه أبياتاً رائعة تكمل صورة هذا الإنتصار الذى رفع به أبو سعيد رأس الدولة العباسية فى صراعها مع دولة الروم الشرقية ، وهى تجرى على هذا النمط البديع [٣] .

لقد انْصَرَمْتَ والشّتاء له وَجْـ
ـهٌ يراه الكماةُ جَهْماً قَطُوبَا [٤]

طَاعِناً منْحَـرَ الشَّمَالِ مُتيحا
لبِلَادِ العدوِّ موتاً جنوبَا

---

(١) البديع ص ٢٤ .

(٢) انظر ترجمة أبى تمام فى كتاب الموشح للمرزبانى ص ٤٦٤ وما به من مراجع .

(٣) ديوان أبى تمام ١/١٦٥ وانظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٣٧، ٢٣٨ .

(٤) انصمت : رجعت مسرعا ، الجهم القطوب : العبوس .

فِى لَيَالٍ تكاد تُبقِى بخدِّ الشَّمـ
ـسِ من رِيحها البَلِيل شحوبا
فضربتَ الشتاء فِى أخْـدَعيْهِ
ضربةً غادرتْهُ عَوْداً ركُوبا
لَوْ أصَخْنَا من بعدها لسمعنا
لِقلوبِ الأيَّام مِنْك وجيبا (١)

وهى قطعة بديعة ، تصور أعداء أبى سعيد فى الشمال ومعهم الثلوج ، وهو يقتحم عليهم من الجنوب معاقلهم فيحطمها حطما .

ومن قبيح الاستعارة عنده أيضاً قول أبى تمام يرثى غُلاماً (٢) :

أنْزَلَتْهُ الأيامُ عن ظَهْرِها مِنْ
بعد إثْبَاتِ رِجْلِهِ فى الرِّكابِ

فأخذ الآمدى عليه جعله للأيام ظهراً يُركب .

وقوله (٣) :

تَحَمَّلْتُ ما لو حُمِّل الدَّهر شَطْرَهُ
لَفَكَّرَ دَهْراً أىُّ عِبْأَيْهِ أثْقَلُ

وقد علق الآمدى على هذا البيت بقوله : «فجعل للدهر عقلا ، وجعله مفكرا فى أى العبأين أثقل ، وما معنى أبعد من الصواب من هذه الاستعارة ، وكان

(١) أصخنا : أصغينا ، والوجيب : الخفقان والارتجاف .

(٢) ديوانه ٤/٦٤ والموازنة ١/٢٤٩ .

(٣) ديوانه ١/٧٤ والموازنة ١/٢٠٥ .

الأشبه والأليق بهذا المعنى لما قال : ( تحملت مالو حمل الدهر شطره ) أن يقول : لتضعضع أو لانهدّ ، أو لأمن الناس صروفه ونوازله ، ونحو هذا مما يعتمده أهل المعانى فى البلاغة والافراط » [1] ثم يقول : « وإنما رأى أبو تمام أشياء يسيرة من بعيد الاستعارات متفرقة فى أشعار القدماء ، لاتنتهى فى البعد إلى هذه المنزلة ، فاحتذاها وأحب الابداع والإغراب بإيراد أمثالها ، فاحتطب واستكثر منها » [2] .

ثم أراد أن يفهمنا بأن استعارات أبى تمام خارجة عما نهجه العرب فقال : « وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه فى بعض أحواله أو كان سببا من أسبابه » . [3] ودافع عن صورة الليل فى قول امرىء القيس :

فقلتُ له لمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ
وأرْدَفَ أعْجازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

فقال : وقد عاب امرأ القيس بهذا البيت من لم يعرف موضوعات المعانى ولا المجازات وهو فى غاية الحسن والجودة والصحة ، لأنه قصد وصف أحوال الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه ، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً ، وهذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته . وذلك أشد مايكون على من يراعيه ويترقب تصرمه ؛ فلما جعل له وسطا يمتد ، وأعجازاً مرادفة للوسط ، وصدراً متثاقلا فى نهوضه ،

(١) الموازنة ١/٢٥٥ .
(٢) المصدر السابق ١/٢٥٦ .
(٣) المصدر السابق ١/٢٥٠ وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص١٦٩ .

حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده لأن تمطى وتمدّد بمنزلة واحدة ، وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه » . وهذه فى رأيه أقرب الاستعارات من الحقيقة لشدة ملاءمة معناها لمعنى ما استعيرت له .

ونجد الدكتور مندور يلتمس العذر للآمدى فى حديثه عن الاستعارة فيقول[1] . « الواقع أن الحد بين الاستعارة الجميلة والاستعارة القبيحة دقيق ، وابن المعتز نفسه لم يتعد فى كتابه تعريفها بقوله : « هى استعارة الكلمة لشىء لم يعرف بها من شىء قد عرف بها » . ثم أورد أمثلة للاستعارات الحسنة ، وأمثلة للقبيحة ، دون أن يحللها أو يظهر وجه قبحها أو جمالها ، ثم جاء الآمدى من بعده فأشار إلى أن « للاستعارة حداً تصلح فيه فإذا جاوزته فسدت وقبحت » .[2]

وبعد ذلك بأسطر يقول : « فإن حدود الاستعارة معلومة »[3] ولكننا لا ندرى من علم بتلك الحدود ، وكل ما نجده فى كتابه لا يعدو الإشارات العامة » .

« وفى الحق أن مشكلة كهذه لا يمكن أن توضع لها قواعد ، ولا أدل على ذلك من أنه على الرغم من محاولات علماء البيان لا يزال المرجع النهائى حتى اليوم هو الذوق الذى طال مرانه بالنظر فى أقوال الشعراء المجيدين ، وفى نقد النقاد الصادقى الذوق لهؤلاء الشعراء نقداً موضعياً ، ونحن إذا استطعنا أن نعلل مانراه من جمال أو عيب فى هذا البيت أو ذاك ، فإننا لا نستطيع أن نضع قواعد عامة ، لأن العبرة بموضع اللفظ من المعنى المعبر عنه

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ١٣٣ وانظر كتاب البديع ص ٢ .
(٢) الموازنة ١/٢٥٩ .
(٣) المصدر السابق ١/٢٦٠ .

وقصد الشاعر . ولهذا كان نقد رجل كالآمدى أجـــدى فى تعريفنا بالجمال والقبح فى الاستعارة من كثير من مجلدات البيانيين ، فهو تدريب للذوق وتبصير بمواضعه » ويقول الدكتور شوقى ضيف : « والآمـدى مخطىء فى هذه القاعدة التى وضعها للاستعارة ، ذلك أنه أدخل فى حيز الاستعارة ماسماه العرب بالاستعارة المكنية ، وكان أرسطو يسميه ( وضع الشىء تحت العين ) أى بث الحياة والحركة فيه ، وتسميه البلاغة الغربية الحديثة باسم ( التشخيص ) وهو ينفصل عن الاستعارة القائمة على التشبيه ، إذ هو جَعْلٌ وخلْقٌ وتجسيد ونَقْلٌ لعناصر الطبيعة وللمعانى من عالمها إلى العالم الحى المتحرك ، ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن أبا تمام صاحب مذهب جديد ، وأن من حقه أن يخرج على التقاليد السابقة فى الاستعارة ، وإذا كان القدماء لم يكثروا مثله من التشخيص فمن حقه ن يكثر كما تشاء له ملكته التصويرية »[1] .

وكان يحسن بالآمدى وأمثاله من أصحاب البلاغة العربية أن يخضعوا لهذا المذهب الجديد ، وأن يعرفوا أن هذا نوع آخر فى الاستعارة ، ليس هو الاستعارة المألوفة . ومهما يـكن فإن الآمدى يعد المسئول — إلى حد ما بعد ابن المعتز — عن إقحام هـذا الجانب التصويرى من جوانب الشعر فى باب الاستعارة ، إذ تبعه البلاغيون يدخلونه فيهـا غير ملاحظين أنه لا يقوم على تشبيه ، إنما يقوم على تجسيم وتشخيص للمعانى ولعناصر الطبيعة .

« والواقع أن كل النقد الذى وجـــه إلى أبى تمـام سواء فى كتاب ( الموازنة ) أم فى غيره إنما يقوم على قاعدتين : الأولى : أن أبا تمام يخالف قواعد اللغة لأنه متعمق فى المعانى ، فيضطره هـذا التعمق إلى أن يحمّل اللغة أكثر مما تطيق ، ولا يجوز للمحدثين أن يتصرفوا فى اللغة . والقاعدة الثانية

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

التى كان النقاد يصدرون عنها فى نقد أبى تمام ، أنه كان يأتى بأشياء لم تألفها العرب فى شعرها »(١) .

« وجدير بالذكر أن المذهب الذى ذهب إليه الآمدى فى الاحتكام إلى طريقة العرب ، يذكرنا بالمنهج الذى اختاره ابن طباطبا فى « عيار الشعر » حين حدد طريقة العرب فى التشبيه ، إلا أن الآمدى أربى عليه وكمّل عمله ، حين اهتم بالاستعارة ؛ وبذلك التقت جهود ناقدين كبيرين على ضرورة مقاربة الحقيقة أو ما سماه ابن طباطبا الصدق فى التشبيه ، ولهذا نفسه اتفق الناقدان على رفض قول من قال : « أعذب الشعر أكذبه » فقال الآمدى معلقاً على أبيات للبحترى : « وقد كان قوم من الرواة يقولون أجود الشعر أكذبه ، ولا والله ماأجوده إلا أصدقه إذا كان له من يلخصه هذا التلخيص ويورده هذا الإيراد على حقيقة الباب(٢) .

ويلاحظ على أقوال الآمدى فى الاستعارة ، أنه متأثر إلى حد كبير بابن المعتز فأخذ عنه معظم الأمثلة التى أوردها للاستعارة فى كتابه «البديع » وليس من شك فى أنه تأثر برسالته فى أبى تمام التى اقتبس المرزبانى كثيراً منها فى موشحه(٣) .

٢ — التجنيس :

« عرض الآمدى لبعض جناسات أبى تمام التى فاته التوفيق فيها غير ملاحظ ما قلناه من أنه صاحب مذهب جديد كان يقوم فى بعض جوانبه على الإكثار من الجناس إلى حد الافراط ، فإذا أخطأ فى بعض الأمثلة ، أو قل

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٠٥ .
(٢) الموازنة ٢/ ٥٨ وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٧٠ .
(٣) انظر الموشح للمرزبانى ص ٤٧٠ وما بعدها ، وتاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١١٨ .

بعبارة أدق أخطأه التوفيق فإن ذلك ينبغى ألا يُتَّخذ وسيلة للغض من عمله ومذهبه. وذكر أن ابن المعتز عابه ببعض جناساته ، ولكنه لم يذكر أنه نوّه عنده بجناسات وفق فيها توفيقاً بعيداً »[١] . وبذلك يكون ابن المعتز هو الذى فتح الباب أمام الآمدى للأخذ على أبى تمام فى بعض جناساته . . .

يقول الآمدى : « ورأى أبو تمام أيضاً المجانس من الألفاظ متفرقاً فى أشعار الأوائل ، وهو ما اشتق بعضه من بعض[٢] نحو قول امرىء القيس[٣] :

ولكنَّنى[٤] أسْعَى لِمَجْدٍ مؤثَّلٍ
وَقَدْ يُدرِكُ المجدَ المؤثَّل أمْثَالِى

ثم أورد أمثلة لما وقع من الجناس فى أشعار الأوائل من أمثال القطامى ، وذى الرمة ، ومسكين الدارمى ، وحيّان بن ربيعة الطائى ، والنعمان بن بشير وجرير ، والفرزدق ، وجندل بن الراعى ، وعقّب على ذلك بقوله : « ومثل هـذا فى أشعار موجود ، لكن إنما يأتى منه فى القصيدة الواحدة البيت والبيتان ، على حسب ما يتفق للشاعر ، ويحضر فى خاطره ، وفى الأكثر لا يعتمده ، وربما خلا ديوان الشاعر المكثر منه ، فلا ترى فيه لفظة واحدة »[٥] .

ولكن أبا تمام اعتمده ، وجعله غرضه ، وبنى أكثر شعره عليه فلو كان قلّل منه واقتصر على مثل قوله :

---

(١) الموازنة ١/٢٦٩ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣١ وكتاب البديع ص ٢٩، ٣٥ .
(٢) الموازنة ١/ ٢٦٥ .
(٣) ديوانه ص ١٤٥ .
(٤) فى الديوان : ( ولكنما ) .
(٥) الموازنة ١/٢٦٧ .

يا ربع لو ربعوا على ابن هموم(١)

. . . . . .

وقوله :

أرامة كنت مألف كلّ ريم(٢)

. . . . . .

وقوله :

يا بعد غاية دمع العين ان بعـــدوا(٣)

. . . . . . . :

وأشباه هذا من الألفاظ المتجانسة المستعذبة اللائقة بالمعنى ـ لكان قد أتى على الغرض ، وتخلص من الهجنة والعيب . إلا أن الطائى استفرغ فيه ، وجد فى طلبه ، واستكثر منه وجعله غرضه ، فكانت إساءته فيه أكثر من إحسانه ، وصوابه أقل من خطئه . (٤)

٣ — المطابق :

عقد الآمدى فصلا تكلم فيه عما يستكره لأبى تمام الطائى من المطابق ، قدم له بمقدمة عرض فيها بالتعريف والتمثيل لهذا الفن فقال : « ورأى الطائى الطباق فى أشعار العرب ، وهو أكثر وأوجد فى كلامها من التجنيس ، وهو : مقابلة الحرف بضده أو مايقارب الضد ، وإنما قيل ( مطابق ) لمساواة أحد

(١) ديوانه ٣/ ٢٦١ وعجزه : « مستسلم لجوى الفراق سقيم » .
(٢) ديوانه ٣/ ١٦٠ وعجزه . « لواستمعت بالأنس القديم » ورامة : اسم موضع .
(٣) ديوانه ٢/ ١٠ وعجزه . « هى الصبابة طول الدهر والسهد » .
(٤) الموازنة ١/ ٢٧١ .

القسمين صاحبه ، وإن تضادا أو اختلفا فى المعنى . ألا ترى إلى قولهم فى أحد المعنيين ـ إذا لم يشاكل صاحبه : ( ليس هذا طبق هذا ) وقولهم فى المثل : (وافق شن طبقه) ، والطبق للشىء إنما قيل له طبق لمساواته إياه فى المقدار إذا جعل عليه ، أو غطى به ، وإن اختلف الجنسان ، وقال الله عز وجل : (لتركبن طبقا عن طبق»[1] أى حالا بعد حال ، ولم يرد تساويهما فى تمثيل المعنى ، وإنما أراد عز وجل ـ وهو أعلم ـ تساويهما فيكم ، وتغييرهما إياكم بمرورها عليكم » .[2]

ومنه قول العباس بن عبد المطلب : « إذا انقضى عالم بدا طبق » أى جاءت حال أخرى تتلو الحال الأولى ،ومنه طباق الخيل ، يقال : طابق الفرس، إذا وقعت قوائم رجليه فى موضع قوائم يديه فى المشى أو العدو . وكذلك الكلاب . قال الجعدى :

طباق الكلاب يطأن الهراسا[3]

فهذه حقيقة الطباق ، وإنما هو مقابلة الشىء بمثل الذى هو على قدره ، فسموا المتضادين ـ إذا تقابلا ـ متطابقين . ومنه قول زهير :[4]

لَيْثٌ بِعثَّر يصطَادُ الرِّجَالَ إذا
مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صدقَا

فطابق بين قوله ( كذب )وبين قوله (صدق ) .

وبعد أن عرف الآمدى المطابق أو الطباق انتقل للكلام عنه فى شعر أبى

(١) سورة الانشقاق ( آية ١٩ ) .
(٢) الموازنة ١/٢٧١ .
(٣) الهراس . شوك كأنه الحسك .
(٤) انظر شعر زهير بن أبى سلمى ( صنعة الأعلم الشنتمرى — تحقيق الدكتور فخر الدين قباوه — ط . المطبعة العربية — بسوريا ١٩٧٠ ) ص٧٢ .

تمام فقال : [١]« فلو اقتصر الطائى على ما اتفق له فى هذا الفن من حلو الألفاظ وصحيح المعنى» نحو قوله . [٢]

قَد يُنعم الله بالبلْوى وإن عَظُمتْ
ويَبْتلى الله بعض القَوْم بالنِّعمِ

وأشباه هذا من جيد أبياته ، ثم تجنب مثل قوله : [٣]

قَدْ لانَ أكثرُ ما تريد ، وبعضُهُ
خَشِنٌ ، وإنى بالنّجاح لَوَاثِقُ

ونحو هذا مما يكثر ، إن ذكرته ذهب عظيم شعره وسقط ، وأكثر ماعيب عليه منه . [٤]

ثم يتلوم الآمدى قدامة لمخالفته ابن المعتز فى تسمية الطباق باسم « المتكافىء » وتسميته الجناس الكامل حين تستخدم كلمة واحدة بمعنيين باسم المطابق ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك فى أثناء حديثنا عن قدامة .

هذه هى فنون البديع التى عرض لها الآمدى فى موازنته، والواقع أن الكتاب فى جملته دفاع عن البحترى ، وعن البلاغة على نحو ما كان يتصورها المحافظون من الرواة واللغويين .

ومما لاشك فيه أن الآمدى قد تأثر بابن المعتز ، وهو لايذكره فى كتابه

---

(١) الموازنة ١/٢٧٣ .
(٢) ديوانه ٣/٢٨٠ .
(٣) المصدر السابق ٢/٤٥٢ .
(٤) الموازنة ١/٢٧٤ .

إلا ويردفه بصفات تدل على عظيم ثقته بأقواله ، ومن ذلك قوله على لسان صاحب البحترى : فأما ماعبتم به البحترى من قوله :(١)

يُخْفِى الزُّجاجةَ لونُها فكأنَّها
فِى الكَفِّ قائمة بغيْرِ إناءِ

فما زال الرواة وشيوخ أهل العلم والأدب يستحسنون هذا البيت ، ويستجيدونه له ، وذكره عبد الله بن المعتز — وقد علمتم فضله وعلمه بالشعر — فى باب ما ختاره من التشبيه فى كتابه الذى نسبه إلى البديع » (٢)

ومن الواضح أنه قد أخذ فى حديثه عن البديع بأقوال ابن المعتز ، فتكلم عن الاستعارة ، والتجنيس والمطابق ، وهذه هى أهم الخصائص التى ميز بها ابن المعتز مذهب البديع كما رأينا فى حديثنا عنه .

بل إنه لم يأخذ عنه مجرد الاصطلاحات ، أو حصر المميزات فحسب ، وإنما أخذ أيضاً أساس نقده ذاته، والأدلة على ذلك كثيرة كقوله فى أبى تمام : « وأنا أذكر فى هذا الجزء الرّذل من ألفاظه ، والسّاقط من معانيه ، والقبيح من استعاراته ، والمستكره المتعقّد من نسجه ونظمه ، على مارأيت فى أشعار المتأخرين ، يتذاكرونه وينعونه عليه ويعيبونه به ، وعلى أنى وجدت لبعض ذلك نظائر فى أشعار المتقدمين ، فعلمت أنه بذلك اغتر ، وعليه فى العذر اعتمد طلباً منه للاغراب والإبداع ، وميلا إلى وحشىّ المعانى والألفاظ . وإنما كان يندر من هذه الأنواع المستكرهة على لسان الشاعر المحسن البيت الواحد والبيتان فيتجاوز له عنه ، فإن الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة

(١) الموازنة ١/ ٣١ وانظر ديوان البحترى ( ط . دار المعارف ١٩٦٣ ) ١/ ٧ .
(٢) انظر البديع ص ٧٣ .

سائر شعره ، وبالإبداع جميع فنونه »(١) وهذه الآراء قد أوردها كلها أو معظمها ابن المعتز فى الصفحة الأولى من كتابه « البديع » إذ نبه إلى أن أبا تمام قد اتخذ مما ورد فى بعض أشعار السابقين من استعارة ومطابق وتجنيس مذهبا غلا فيه ، وتصنّعه تصنعاً ، بل هو يقيسه بصالح بن عبد القدوس ، وكل هذا لا يترك مجالا للشك فى عظم تأثير ابن المعتز فى الآمدى فيما يختص بالبديع .

وإذا كان الآمدى لم يذكر إلا أنواعاً قليلة من البديع فليس معنى ذلك أنه لا يعرف غيرها ، ولكن هذه الأنواع التى أوردها فى كتابه هى الأنواع التى وردت فى شعر أبى تمام الذى تعرّض له الآمدى فى كتابه الموازنة ، والتى استشهد بها .

وليس من شك فى أن لكتاب الموازنة قيمة عظيمة ، ليست فى الجانب البلاغى النظرى ، ومقدار جهود الآمدى فيه إضافة أو توسعاً ، ولا فى الفنون البديعية التى ذكرها ، وإنما قيمته فى جانبه البلاغى التطبيقى ، وهذا الجانب ذو أهمية بالغة ، ذلك أننا لا نواجه هنا عالما بلاغيا يحاول تعقيد ألوان الجمال اللغوى ، أو بيان مساوىء الأسلوب ، وإنما نحن بإزاء عالم يتصدى لنصوص شعرية معينة ، فيطبق عليها ما استقر عليه التطور البلاغى من قوانين ، من أجل ذلك نلحظ عنده قلة التعريفات إلا فيما أشرنا إليه من تعريفه « المطابق أو الطباق » بقوله : « وهو مقابلة الحرف بضده ، أو ما يقارب الضد » .

وتلك سمة من سمات التطور العلمى عند العرب فى أغلب ما قدّموا لنا من علوم . يعيشون مع النصوص الحية يدرسونها ويحللونها ، وهو طور مهّد

---

(١) الموازنة ١/٢٤٣ وانظر كتاب أرسطاطاليس فى الشعر ( تحقيق الدكتور شكرى عياد ص ٢٧٩ .

المراحل التالية ، التى توفرت على إفراد كتب هامة بوضع القواعد . ولكن هذه الفترة التى ينتمى إليها الآمدى أكثر خصبا وحياة من مرحلة التعقيد ، لأنها كما قلنا تحصر نفسها فى النص الحى ، وترتبط به ، على عكس ما نعرفه بعد ذلك حين وصلت البلاغة إلى مرحلة التعقيد الجامد .

ولما كان موضوع كتاب الآمدى على ما بيناه ، فإنه لم يعمد إلى حصر الأنواع البلاغية ، وإنما ذكر منها ما اتصل بالنصوص التى أوردها فقط ، وهذا الذى أورده — من فنون البديع — ليس فيه جديد ، وانما هو متابع فيه ماسبقه ، ويمكن حصره فيما يأتى : الاستعارة ، التجنيس ، المطابق .

# الفصل السادس

## صناعة الشعر لأبي أحمد العسكري

مؤلف هذا الكتاب أبو أحمد [1] الحسن بن عبدالله بن سعيد بن زيد ابن حكيم العسكري ، ونسبته إلى «عسكر مكرم» من كور الأهواز بين البصرة وفارس . ولد سنة ٢٩٣ وتوفى سنة ٣٨٢ للهجرة .

وكان أبو أحمد عالماً فاضلا ، راوية متقنا ، تتلمذ على يد طبقة من العلماء منهم : أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ، وأبو القاسم البغوي ، وأبو داود السجستاني ، ونفطويه ، وأبو جعفر بن زهير ، وأكثر عنهم ، وبالغ في الكتابة ، وبقي حتى علا به السن ، واشتهر في الآفاق بالدرايه والاتقان ، وانتهت إليه رياسة التحديث والإملاء للآداب والتدريس بقُطر خوزستان ، ورحل إليه الأجلاء للأخذ عنه ، والقراءة عليه.[2] وكان يملي بعسكر مكرم وتستر ومدن ناحيته ، مايختاره من عالي روايته عن متقدمي شيوخه .

فروى عنه أبو عباد الصائغ التستري ، وذو النون بن محمد ، والحسين بن أحمد الجهرمي ، وابن العطار الشروطي الأصبهاني ، وأبو بكر أحمد بن محمد بن جعفر الأصبهاني ، المعروف باليزدي ، وأبو الحسين علي بن أحمد بن الحسن البصري المعروف بالنعيمي الفقيه الحافظ . وأبو الحسين محمد بن الحسن بن أحمد الأهوازي ،

---

(١) انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت ٨ / ٢٣٣ وما بعدها ، ومقدمة كتاب المصون في الأدب ( تحقيق عبد السلام هارون . ط . مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠ ) والأنساب للسمعاني ص ٣٩٠ وأنباه الرواة ١/ ٣١٠ — ٣١٢ .

(٢) معجم الأدباء ٨/ ٢٣٦ — ٢٣٧ .

وأبو سعد أحمد بن محمد بن عبدالله بن الخليل المالينى شيخا أبى بكر الخطيب الحافظ البغدادى ، وكذلك القاضى أبو بكر بن الباقلانى المتكلم بالعراق ، وخلق سواهم لا يحصون كثرة[١].

وأخص تلاميذه فى الأدب والنقد أبو هلال العسكرى ، والمتصفح لكتاب أبى هلال « ديوان المعانى »[٢] يلمح رواية واسعة لأبى هلال عن شيخه أبى أحمد الذى يروى عن شيخه أبى بكر الصولى ، وكذا يجد هذا متصفح أوائل كتاب « الصناعتين » لأبى هلال .

أما مؤلفاته فهى :[٣] كتاب صناعة الشعر ، كتاب الحكم والأمثال ، كتاب راحة الأرواح ، كتاب الزواجر والمواعظ ، كتاب تصحيح الوجوه والنظائر ، كتاب المختلف والمؤتلف فى مشتبه أسماء الرجال ، ما لحن فيه الخواص من العلماء ، الورقة وذكره أبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى .[٤] وكتاب المصون فى الأدب .

وجدير بالذكر أننا لم نعثر على كتاب « صناعة الشعر » لأبى أحمد العسكرى الذى أشار إليه ياقوت فى معجمه ، ويغلب على الظن أن فنون البديع المجهولة النسبة عند أبى هلال العسكرى قد جلب مصطلحاتها من رسالة خاله أبى أحمد فى صناعة الشعر ، ويؤكد هذا الظن أننا نجد الباقلانى يذكرها جميعاً — على هدى تلك الرسالة — ماعدا جمع المؤتلف والمختلف ، وذكر فى بعضها صراحة

(١) معجم الأدباء ٨ / ٢٣٧ وما بعدها .
(٢) نشرته مكتبة القدسى بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .
(٣) معجم الأدباء ٨ / ٢٣٦ ومقدمة كتاب المصون فى الأدب ص : و .
(٤) ديوان المعانى ١ / ٢٨ .

أنه ينقل عن أبى أحمد العسكرى ،(١) مما يدل على أن أبا هلال نقلها جميعاً عنه ، وقد ردّد اسمه مراراً فى كتابه .

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن ننبه على ما سبق أن ذكرناه وهو أن الباقلانى أحد الذين رووا عن أبى أحمد العسكرى .

أما فنون البديع الجديدة عند أبى أحمد العسكرى فهى :

١ ــ المماثلة :

وهى ضرب من الاستعارة ، سماه قدامة التمثيل ، ومعناها « أن يقصد الإشارة إلى معنى ، فيضع ألفاظا تدل عليه ، وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذى قصد الإشارة إليه »(٢). ونظيره من المنثور : أن يزيد بن الوليد بلغه أن مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته ، فكتب إليه : « أما بعد ، بلغنى أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام » .

يقول عبد القاهر الجرجانى : «وذكر أبو أحمد العسكرى أن هذا النحو من الكلام يسمى المماثلة ، وهذه التسمية توهم أنه شىء غير المراد بالمثل والتمثيل وليس الأمر كذلك »(٣) ومن المماثلة عند أبى أحمد قوله تعالى : (وثيابك فطهر )(٤) .. قال الأصمعى : أراد البدن . ويلاحظ من الآية الكريمة أن

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى (تحقيق السيد أحمد صقر ط. دار المعارف ١٩٦٣) ص ٧٥ ومابعدها.
(٢) إعجاز القرآن ص ٧٨ وانظر الصناعتين ص ٣٥٣ .
(٣) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى (تحقيق هـ . ريتر ط . استانبول ١٩٥٤) ص ١٠٠ .
(٤) سورة المدثر ( آية ٤ ) .

أبا أحمد كان يوسع معنى المماثلة لتشمل بعض صور الكناية المعروفة باسم الكناية عن صفة.(١)

٢ — التذييل :

عده أبو أحمد من فنون البديع ، وقد ألحقه المتأخرون بباب الإطناب في علم المعاني . وهو ضرب من التأكيد ، ضد الإشارة والتعريض ، وقد استمد الباقلاني وأبو هلال — هذا الفن — من أبي أحمد العسكري واستشهدا عليه بقول بعض الشعراء :(٢)

فدَعوا نزالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ
وعلامَ أركبُهُ إذا لم أنزلِ ؟

٣ — الاستطراد :

ذكر أبو هلال (٣) العسكري الاستطراد دون أن يصرح باسم خاله بينما يقول الباقلاني(٤) : « وباب من البديع يسمى الاستطراد ، فمن ذلك ما كتب إليّ الحسن بن عبد الله قال : أنشدني أبو بكر بن دُرَيْد ، قال : أنشدنا أبو حاتم ، عن أبي عبيدة لحسان بن ثابت ، رضي الله عنه(٥) :

إن كنتِ كاذِبة الذّي حدّثْتِني
فنجوتِ مَنْجَى الحارث بن هشام

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٣ .

(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٠٢ ، ١٠٣ والصناعتين ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٣) الصناعتين ص ٣٩٨ .

(٤) إعجاز القرآن ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) ديوانه ص ٢١٥ .

ترك الأحبَّة أن يقاتل دونهم
ونجا براس طمرّةٍ ولجام[1]

ونفس المثال أول أمثلة أبى هلال الشعرية لهذا الفن من فنون البديع .

ويقول الباقلانى : « وفيما كتب إلىّ الحسن بن عبد الله قال : أخبرنى محمد بن يحيى قال : حدثنى محمد بن على الأنبارى قال : سمعت البحترى يقول : أنشدنى أبو تمام لنفسه :

وَسابِحٍ هَطِلِ التَّعْدَاء هتَّانِ
على الجِراءِ أمينٍ غيرِ خوّانِ
أَظْمَى الفصوص ولم تَظْمَأْ قوائمه
فَخَلِّ عينيك فى ريّان ظمآن
فلو تَرَاهُ مُشيحاً والحصى زيم
بين السنابك من مثنى ووُحْدَانِ
أيقنت - إن لم تَثَبَّتْ - أنَّ حافره
من صخر تَدْمُرَ أو من وجه عثمان

ثم قال لى : ما هذا من الشعر ؟ قلت : لا أدرى ، قال : هذا المستطرد ، أو قال : الاستطراد . قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يُرَى أنه يصف الفرس ويريد هجاء عثمان[2] .

والاستطراد هو ما سماه ابن المعتز « حسن الخروج من معنى إلى معنى » .

---

(١) الطمر : الفرس الجواد ، والأنثى طمرة .

(٢) إعجاز القرآن ص١٠٥ وانظر أخبار أبى تمام للصولى — تحقيق خليل محمود عساكر وآخرين ( نشر المكتب التجارى ببيروت ) ص ٦٨، ٦٩ والصناعتين ص ٣٩٩ وديوان المعانى ١/١٩٨ وديوان أبى تمام ٤/٤٣٤ .

٤ — جمع المؤتلف والمختلف :

وهو أن يجمع فى كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو متفقة . وهذا الفن لم يذكره الباقلانى فى كتابه ، أما أبو هلال العسكرى فيصرّح باسم خاله فيه مستشهداً له بمثال من النثر يصوّره ، يقول: « ومثاله من النثر ما كتب به الشيخ أبو أحمد : فلو عاش حتى يرى ما مُنينا به من وغْد حقير ، نقير ، نَذل ، رَذْل غثّ ، رَثّ لئيم ، زنيم ، أشحّ من كلب ، وأذلّ من نقَد ، وأجهلَ من بغْل ، سريع إلى الشر ، بطيء عن الخير ، مغلول عن الحمد ، مكتوف عن البذل ، جواد بشتم الأعراض ، سخىّ بضرب الأبشار ، لجوج ، حقود ، خرق ، نَزِق ، عسِر ، نَكِد ، شَكِس ، شَرِس ، دَعِىّ ، زنيم ، يعتزى إلى أنباطِ سُقَّاط ، أهل لؤم أعراق ، ورقة أخلاق ، وينتمى إلى أخبث البقاع تراباً ، وأمرّها شراباً ، وأكمدها ثياباً ، فهو كما قال الله تعالى : « والذى خَبُثَ لا يخْرُجُ إلّا نَكِدا »[١] .

ومثاله من المنظوم قول امرىء القيس[٢] :

سَمَاحة ذَا وبِرّ ذا ووفاء ذا
ونائل ذا إذا صَحاَ وإذَا سَكِرْ

٥ — السلب والإيجاب :

هذا الفن ذكره الباقلانى[٣] ، وأبو هلال العسكرى ، وأربى الثانى على الأول بتعريفه وتفصيل القول فيه ، ومثاله من النثر قول رجل ليزيد بن المهلب : « قد عَظُم قدرُك من أن يُستعان بك ، أو يستعانَ عليك ،

---

(١) الصناعتين ص ٤٠١ .

(٢) ديوانه ١٠١ .

(٣) إعجاز القرآن ص ٩٨ .

ولست تفعل شيئاً من المعروف ، إلا وأنت أكبر منه ، وهو أصغر منك ، وليس العَجَب من أن تفعل ، وإنما العجبُ من ألا تفعل . وقول الشّعبىّ للحجّاج : لا تعجب من المخطىء كيف أخطـــأ ، واعجب من المصيب كيف أصاب[١] » .

يقول أبو هلال : « وأخبرنا أبو أحمد ، قال : حدّثنا ابن الأنبارى ، قال : حدّثنا أبى عن بعض أصحابه عن العتبى ، قال : قيل لبعض العلماء : إن صاحبنا مات وترك عشرة آلاف ، فقال : أما العشرة آلاف فلا تترك صاحبكم »[٢] .

واستشهد أبو هلال بنفس البيت الذى مثل به الباقلانى ، وهو قول السموءل :

وَنُنْــكِـر إن شئْنَا على النّاس قولَهم
ولاَ يُنْــكرون القول حين نقول

وهذا هو ضرب من الطباق .

٦ — الاستثناء :

سماه ابن المعتز تأكيد المدح بما يشبه الذّم ، وذكره الباقلانى[٣] ، أما أبو هلال فقد بين معناه ، وجعله على ضربين ، ومثل له بما مثل به الباقلانى . يقول : « ومثال الضرب الأول ، كما أخبرنا أبو أحمد ، قال : أخبرنى أبو عمر الزاهد قال : قال أبو العباس : قال ابن سلام ، لجندل بن جابر الفزّارى[٤] :

---

(١) الصناعتين ٤٠٥ .

(٢) المصدر السابق : الموضع نفسه

(٣) إعجاز القرآن ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٤) الشعر للنابغة الجعدى . انظر إعجاز القرآن ص ١٠٧ والشعر والشعراء ١/٢٩٣ ، والصناعتين ص ٤٠٨ .

فَتىً كَمُلَتْ أخلاقُه غير أنّه
جوادٌ فما يُبْقِي من المالِ باقياَ
فَتىً تمّ فيه ما يسرُّ صديقه
عَلى أنّ فيه ما يسوء الأعادِياَ

فقال هذا استثناء ، فتبين هذا الاستثناء لهم . والضّرب الآخر عند أبى هلال هو : « استقصاء المعنى والتحرّز من دخول النقّصان فيه » مثل قول طرفة :

فسقى ديارك — غير مفسدها —
صوْب الربيع وديمةٌ تهْمى

٧ — التعطف :

ذكره الباقلانى[1] ، وعرفّه أبو هلال العسكرى بقوله : « هو أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف » ومثل له بأمثلة كثيرة من بينها ما مثّل به الباقلانى . وهو الجناس التام ، ومما يؤكدّ أنّ أبا هلال أخذ هذا الفن عن خاله قوله : « وممّا يدخل فى التعطف ما أنشدنا أبو أحمد ، قال : أَنشدَنا أبو عبد الله المفجع ، قال : أنشدنا أبو العباس ثعلب :

أَتعْرف أَطلالاً شَجوْنَكَ بِالْخَالِ
وعيش ليالٍ كان فِى الزّمن الخاَلِى

الخال : موضع . والخالى : من الخلْوة »[2] فاللفظ مكرر والمعنى مختلف .

* * *

(١) إعجاز القرآن ص ٩٨ .
(٢) انظر الصناعتين ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .

هذه هى فنون البديع عند أبى أحمد العسكرى ، وقد تمكنا من التعرف عليها من كتابى : « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ، و « إعجاز القرآن » للباقلانى ، وذلك لأن كتاب « صناعة الشعر » لأبى أحمد ما زال فى عالم الكتب المفقودة حتى الآن .

ولا غرو فى ذلك فالباقلانى أحد الذين رووا عن أبى أحمد ، أما أبو هلال فمن أخص تلاميذه .

* * *

# الفصل السابع

## الصناعتين (لأبي هلال العسكرى)

مصنّف هذا الكتاب أبو هلال الحسن[1] بن عبد الله بن سهل العسكرى (المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة)، وهو يريد بالصناعتين، صناعتى الكتابة والشعر، وهو من أدباء القرن الرابع، عاصر قدامة وعاش بعده ما يقرب من نصف قرن.

وقد استهل كتابه بمقدمة نوّه فيها بمعرفة علم البلاغة[2]، وأنه ضرورى لفهم إعجاز القرآن الكريم، والتمييز بين جيد الكلام ورديئه، ولوقوف الكاتب والشاعر على ما ينبغى استخدامه من أساليب اللغة وألفاظها الجيدة البليغة، ويذكر كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، ويثنى عليه بقوله: «إنه لعمرى كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقَر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء وما نبّه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة»[3]. ثم لا يلبث أن يقول: «إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه، ومنتشرة فى أثنائه، فهى ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح

(١) راجع فى ترجمته معجم الأدباء لياقوت ٨/٢٥٨ وبغية الوعاة ص ٢٢١، ومقدمة كتابه التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء (تحقيق الدكتورة عزة حسن — ط. مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٩٦٩).

(٢) الصناعتين ص ١.

(٣) المصدر السابق ص ٥.

الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يُحتاج إليه فى صنعة الكلام : نثره ونظمه ؛ ويستعمل فى محلوله ومعقوده ، من غير تقصير وإخلال ، وإسهاب وإهذار ».

ويتضح من ذلك أن العسكرى ألف كتاب « الصناعتين » ليسد النقص فى كتاب الجاحظ ، وليكشف عن الحدود والاقسام لوجوه البيان ، ولا يلبث أن يصرح بأنه لم يؤلف كتابه على طريقة المتكلمين ، وإنما ألفه على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتّاب[1] ، ولعلّه يريد كثرة ماساقه من الأمثلة والشواهد ، على طريقة ابن المعتز ، فقد مضى مثله يكثر من الأمثلة والنصوص من القرآن والحديث وكلام الصحابة والعرب وأشعار المتقدمين والمحدثين[2] .

ولأبى هلال العسكرى نوعان[3] من الأساتذة — الذين تتلمذ عليهم — جلس إلى كل منهما وأفاد من كليهما علما وعقلا ، وأخذ عنهما هذا التراث الحافل الذى خلفه ، والعلم الذى ألفه .

أما النوع الأول : فأساتذة من اللون المعروف باسم الشيوخ جلس بين أيديهم وتلقى عنهم ماوسعت صدورهم من ألوان العلوم ، وأنصت إلى حديثهم ، وناقشهم فيما وعى عنهم ، وأول هؤلاء علم أعلام « عسكر مكرم » الحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى المكنى بأبى أحمد . ويكاد يكون هذا الرجل هو الأستاذ الأوحد لأبى هلال ، وصاحب الأثر البعيد فى تكوينه ، مع اختلافه

(١) الصناعتين ص ٩ .
(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤١ .
(٣) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ص ٣١ ، ٣٢ .

الرجلين فى منحى التفكير اختلافا تمليه الطبيعة التى تباين بين الأشخاص ، وإن تظاهرت على تكوينها عوامل واحدة .

وكانت هنالك صلة وثقى بين الرجلين ، اتحاد فى المكان ، واتحاد فى الزمان ، وتقارب فى الفكر ، وأستاذية وتلمذة ، ثم قرابة قريبة ، مما جعل القدامى يخلطون بينهما ، ويتجشمون كثيراً من الجهد فى تمييز أحدهما من الآخر ، وقد سجل ياقوت هذا الخلط بين الرجلين فى معجمه ، إذ أورد فى ترجمة أبى هلال ما نصه : « وكان لأبى أحمد تلميذ وافق اسمه اسمه ، واسم أبيه اسم أبيه ، وهو عسكرى أيضا ، فربما اشتبه ذكره بذكره ، وإذا قيل الحسن بن عبد الله العسكرى الأديب فهو أبو هلال » .(١)

أما النوع الثانى من الأساتذة فهم أكثر أولئك الذين تقدموا أبا هلال من العلماء والأدباء والنقاد الذين تتلمذ العسكرى على آثارهم ، وأخذ عنهم صفوة ما فيها .

ثقافته ومنابع بلاغته :

كان أبو هلال العسكرى كما كان أستاذه أبو أحمد أديباً — يجيد فنى المنظوم والمنثور ، جامعا للجيد من مأثورهما عن ملوك القول ، يعرف اللغة ، ويعرف دقائق النحو ، ويعرف أنساب العرب ووقائعهم وأيامهم ، وأحوالهم العامة ، آخذا من كل فن بطرف كما يقول ابن خلدون.(٢)

وقرأ أبو هلال « طبقات الشعراء » لابن سلام و « البيان والتبيين » للجاحظ . و « الشعر والشعراء » لابن قتيبة . و « البديع » لابن المعتز و « نقد

(١) معجم الأدباء لياقوت ٨/ ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ص ٣٧ .

الشعر » لقدامة بن جعفر و « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » للآمدى و « الوساطة بين المتنبى وخصومه » للجرجانى ، ولاشك أن هذه هى أم الكتب التى تتصل بفنون الأدب شعره ونثره وتحللها وتنقدها ، وتضع لها الأصول وتستمد لها القواعد .

وقد قرأها أبو هلال قراءة فحص وإمعان ، واستطاع بنفاذ بصيرته أن يعى خير مافيها ، وأن ينقد منها ماهو عيب سواء كان عيبه فى المنهج الذى سلكه المؤلفون أو فى الموضوع الذى عرضواله . (١)

وقد استطاع أبو هلال أن يعرض لنا زبدة هذه الكتب فى كتابه « الصناعتين » حتى إنه ليجعلنا نكاد نستغنى عنها جميعا .

آثاره :

زود أبو هلال العسكرى المكتبة العربية بنتاج رائع يدل على خصب وتمكن، وسعة ثقافة وتوفر على العلم وتحصيله، ثم على التدوين والتأليف عن فهم وبصيرة ، وتفيض كتب الطبقات بذكر آثار أبى هلال التى تدل على باع طويل وعلم أصيل ، بل إن هذه الكتب تكاد تقف تعريفها بأبى هلال على ذكر آثاره ومصنفاته ، وشىء من شعره العذب فى شكوى الزمان ، وتنكر الخلان. وقد ترك لنا أكثر من عشرين مؤلفا فى الأدب والتفسير والشعر (٢). منها : (٣) كتاب ديوان المعانى وهو من أحسن كتب المختارات

---

(١) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ص ٧٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) معجم الأدباء ٨/٢٦٣ ، ٢٦٤ .

الشعرية ، وكتاب جمهرة الأمثال ، كتاب معانى الأدب ، كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة ، كتاب التبصرة ، كتاب شرح الحماسة ، كتاب الدرهم والدينار ، كتاب المحاسن فى تفسير القرآن خمس مجلدات ، كتاب العمدة ، فضل العطاء على العسر ، كتاب ماتلحن فيه الخاصة ، كتاب أعلام المعانى فى معانى الشعر ، كتاب الأوائل ، كتاب ديوان شعره ، كتاب الفرق بين المعانى ، كتاب نوادر الواحد والجمع ، وكتاب سماه بالتلخيص ، وكتاب الصناعتين ، صناعتى النظم والنثر . (١)

على أن ما يهمنا من آثار العسكرى هو كتابه « الصناعتين » الذى تحدث فيه عن البديع ، فقد كان منصرفا إلى مضاعفة أقسام البديع الذى فتن به معاصروه ، وقبل أن نتناول الحديث عن فنون البديع يجب أن نلقى الضوء على كتاب الصناعتين . فقد جعله أبو هلال فى عشرة أبواب :

الباب الأول : فى الإبانة عن موضوع البلاغة فى أصل اللغة وما يجرى معه من تصرف لفظها ، وذكر حدودها ، وما جاء فيها من أقوال السابقين.

الباب الثانى : فى تمييز الكلام جيده من رديئه ، ومحموده من مذمومه .

وهو فى البابين جميعا يستمد فى وضوح من الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » .

الباب الثالث : فى معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ ، وفيه يفيض فيما يحتاج الكاتب إلى امتثاله فى مكاتباته المختلفة .

---

(١) معجم الأدباء ٨/٢٦٠ وانظر مقدمة ديوان المعانى ص ٣ ، ٤ .

الباب الرابع : فى البيان عن حسن النظم وجودة الرصف ، وقد استمد فيه من الجاحظ .

الباب الخامس : فى ذكر الإيجاز والإطناب ،وقد استضاء فيه بالرمانى ، فقسم الايجاز إلى : إيجاز قصر، وإيجاز حذف . وتحدث عن الإطناب وجعل بينه وبين الإيجاز المساواة وربما كان متأثرا فى ذكرها بقدامة بن جعفر (١)

الباب السادس : جعله للسرقات الشعرية ، وهو فى فصلين : الأول فى حسن الأخذ ، والثانى فى قبحه.

الباب السابع : عقد أبو هلال هذا الباب من كتابه للتشبيه ، وهو فيه يستمد فى وضوح من الرمانى فعرفه بقوله : « هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ، ناب منابه أو لم ينب ، وقد جاء فى الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه » (٢)

وقد استمد أبو هلال فى هذا التعريف من الرمانى الذى عرف التشبيه بقوله : «هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل »(٣) ومثّل له بما مثّل به الرمانى وهو قوله : « زيد شديد كالأسد » .

وجعل أبو هلال ــ مهتديا بالرمانى ــ التشبيه على أربعة أوجه :(٤) أولها : إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وثانيها: إخراج مالم تجربه العادة

(١) نقد الشعر ص ١٧١ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤١ .
(٢) الصناعتين ص ٢٣٩ .
(٣) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٤ .
(٤) الصناعتين ص ٢٤٠ وما بعدها .

إلى ماجرت به العادة. وثالثها : إخراج مالا يعرف بالبديهة إلى مايعرف بها ، ورابعها : إخراج مالا قوة له فى الصفة الى ما له قوة فيها وساق فى ثنايا ذلك طائفة من الآيات القرآنية التى استشهد بها الرمانى . واستمد أيضا فى الباب من ابن طباطبا وما ذكره من وجوه التشبيه إذ جعلها إما تشبيه شىء بشىء صورة وهيئة ، أو لونا ، أو لونا وصورة أو حركة ، مما عرضنا له فى حديثنا عن ابن طباطبا عرضا مفصلا . (١)

وذكر أبو هلال أن التشبيه قد يكون بغير أداة التشبيه ، كقول امرىء القيس . (٢)

لَهُ أيْطلاَ ظبْىٍ وساقَا نعامَـــةٍ

وإرخاء سرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ

وهذا إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام ، لأن الفرس لا يكون له أيطلا ظبى ، ولا ساقا نعامة ، ولا غيره مما ذكر ، وإنما المعنى له أيطلان كأيطلى ظبى ، وساقان كساقى نعامة ، وهذا فى رأيه من بديع التشبيه ، لأنه شبه أربعة أشياء بأربعة أشياء فى بيت واحد ، ثم تحدث عن قبح التشبيه وعيوبه فقال : « والتشبيه يقبح إذا كان على خلاف ما وصفناه ، من إخراج الظاهر فيه إلى الخافى ، والمكشوف إلى المستور ، والكبير إلى الصغير » (٣) وقد دلل على ذلك بالأمثلة والشواهد . ويتضح من ذلك أن أبا هلال لم يدخل التشبيه ضمن فنون البديع ، ولكنه أفرد له بابا مستقلا .

الباب الثامن: فى ذكر السجع والازدواج .

---

(١) الصناعتين ص ٢٤٥ وعيار الشعر ص ١٧ والبلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٢ .

(٢) ديوانه ص ٥٥ وانظر الصناعتين ص ٢٤٩ .

(٣) الصناعتين ص ٢٥٧ .

الباب التاسع : فى شرح البديع ، وجعله خمسة وثلاثين فصلا خص كل فصل منها بلون من ألوان البديع .

الباب العاشر : تحدث فيه عن حسن المبادىء والمقاطع ، وجودة القوافى ودقة الخروج من النسيب إلى المديح . وهو فى ذلك يستضىء بما كتبه ابن طباطبا فى كتابه « عيار الشعر » .

* * *

ويعلق الدكتور شكرى عياد على كتاب الصناعتين فيقول : « وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى مثل آخر من هذا الجمع غير الموفق بين التيارين : ( التيار العربى الذوقى الجزئى ، والتيار اليونانى الفلسفى التقنينى ) ، فأبو هلال يأخذ عن قدامة كثيرا ، وربما صرح بذكر اسمه كما فعل فى حديثه عن المطابقة ، وصحة التقسيم ، وصحة التفسير ولكنه فى أكثر الأحيان ينقل عنه دون أن يشير إليه ، فهو يأخذ عنه رأيه فى أن المديح الجيد إنما يكون بإثبات الفضائل النفسية للممدوح ، وأن الهجاء الجيد إنما يكون بسلبها عنه ، وأن الفخر والرثاء ليسا إلا نوعين من المديح ، كما يأخذ عنه أكثر ( النعوت ) التى جاء بها للمعانى أو الألفاظ ، أو لائتلافهما ليدخلها فى جنس البديع ، فمن ذلك : الإشارة ، والارداف ، والمبالغة ، والالتفات ، والتوشيح ، والايغال [1] » .

ويضيف : [2] « على أننا لا نستطيع القول بأن كتاب « الصناعتين » يحمل شيئاً من طابع التفكير اليونانى فيما عدا الولع بالتعريف والتقسيم ، وليس كتاب الصناعتين فى ذلك إلا كأكثر الكتب التى نزعت إلى الروح العلمية فى ذلك العصر فى البلاغة وغيرها . ولسنا نجد فى كتاب الصناعتين محاولة مستوعبة

---

(١) كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ( تحقيق وترجمة الدكتور شكرى عياد ) ص ٢٣٨ .
(٢) المصدر السابق : الموضع نفسه .

منتظمة لفهم الصناعة الشعرية وتقرير قوانينها كتلك التي نجدها عند قدامة . وكذلك لا نجد عند أبى هلال رأيا ذوقيا واضحا فى البلاغة كذلك الذى نجده عند الآمدى والجرجانى ، وإن كنا نراه يجرى فى تيار النقد العربى التقليدى إلى أبعد مما ذهب إليه الآمدى من ( تأصيل ) المعانى التى وردت فى الشعر القديم ، فنراه فى باب التشبيه يحصى معانى التشبيه إحصاء وكأنه يرى ألا يخرج التشبيه عن هذا النطاق » .

والحق أن أبا هلال من أقل النقاد العرب أصالة . فهو إلى كثرة نقله — ينقل عن ابن المعتز وقدامة وربما نقل فقرا طويلة عن الجاحظ — يقف موقفا متناقضا من تلك الفكرة التى شغلت النقاد فى عصره ، والتى تركزت حولها الخصومة بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى ، وهى مشكلة اللفظ والمعنى . فيقول مرة — متأثرا بالجاحظ : [(١)] وليس الشأن فى إيراد المعانى، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى : وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ماوصفنا من نعوته التى تقدمت » [(٢)]. ثم يقول فى موضع آخر : إن الكلام ألفاظ يشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعد على إصابة المعانى ، ولأن المعانى تحل من

---

(١) انظر الحيوان ٣/١٣١ : «وذهب الشيخ إلى استحسان المعانى، والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والقروى والبدوى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك » .

(٢) الصناعتين ص ٥٧ ، ٥٨ وانظر كتاب أرسطوطاليس فى الشعر (تحقيق د.شكرى عياد ) ص ٢٣٩ .

الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة . ومن عرف تركيب المعانى واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ، ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ماتهيأ له فى الأولى ، ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى ، فحولها إلى اللسان العربى ، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لاصابة المعنى ، وتصحيح اللفظ ، والمعرفة بوجوه الاستعمال » . (١) فهو يقرر مرة أنه « ليس الشأن فى إيراد المعانى » ويقرر مرة أخرى « أن المدار على إصابة المعنى » .

ويمضى الدكتور شكرى عياد فى هجومه على كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ، وينتهى إلى أن هذا الكتاب — من وجهة نظر التيار العربى فى نقد الشعر — لا يمثل تقدما أساسيا بعد بديع ابن المعتز ، وموازنة الآمدى ، ووساطة الجرجانى . ومن وجهة نظر التيار اليونانى لا يمثل محاولة مطردة لبناء نظرية منتظمة فى الشعر بعد كتاب قدامة ، وإنما يلتقى التياران جميعاً ، وإنما يطردان ويمتزجان عند عبد القاهر الجرجانى (٢) .

* * *

فنون البديع عند العسكرى :

جعل أبو هلال العسكرى الباب التاسع من كتابه لفنون البديع ، وقسمه إلى خمسة وثلاثين فصلا خص كلا منها بلون من ألوان البديع ، ويقول إنه زاد فيها على ما أورده سابقوه ستة فنون (٣) وكأنه يلتقى معهم فى تسعة

(١) الصناعتين ص ٦٩ .
(٢) كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ( د . شكرى عياد ) ص ٢٣٩ .
(٣) الصناعتين ص ٢٦٧ .

وعشرين فنا ، وصرح باسم ابن المعتز وقدامة بن جعفر فى غير موضع من كتابه ، وهو يلتقى بأولها فى الفنون التالية : الاستعارة ، والتطبيق أو الطباق ، التجنيس أو الجناس ، الكناية والتعريض ، رد الأعجاز على الصدور ، الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، تجاهل العارف ، والمذهب الكلامى . وكأن المصطلحات التى يتطابق فيها مع ابن المعتز عشرة فقط . والتقى بقدامة فى المصطلحات الآتية : المقابلة ، صحة التقسيم ، صحة التفسير ، الإشارة ، الأرداف والتوابع ، الغلو ، المبالغة ، العكس والتبديل ، الترصيع ، الإيغال ، التوشيح ، التكميل والتتميم . وهى إثنا عشر مصطلحا تضاف إلى مصطلحات ابن المعتز السابقة فيبقى ثلاثة عشر مصطلحا أو فنا ، يقول إنه وضع منها ستة فتبقى هناك سبعة مصطلحات مجهولة النسبة .(١)

أما الستة التى وضعها فهى : التشطير ، والمجاورة ، والتطريز ، والمضاعف ، والاستشهاد ، والتلطف ، والسبعة المسبوقة هى : المماثلة ، التذييل ، الاستطراد ، جمع المؤتلف والمختلف ، السلب والإيجاب ، الاستثناء ، التعطف ، وقد جلب أبو هلال هذه المصطلحات السبعة من رسالة خاله أبى أحمد فى صناعة الشعر ، وهى جميعا موجودة عند خاله على نحو ما رأينا فى الفصل السابق .

وقد ردد أبو هلال اسم خاله مرارا فى كتابه .(٢) ونبدأ فى عرض ألوان البديع عنده :

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٢ .

(٢) انظر الصناعتين ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٦١ ، ٨٦ ، ١٠١ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٨٦ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧٠ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٨ .

١ — الاستعارة :

عرف الاستعارة وبين أغراضها فقال : [١] « هى نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى ، وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذى يبرز فيه ، وهذه الأوصاف موجودة فى الاستعارة المصيبة ، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن مالا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا » .

فنراه قد تأثر بابن المعتز فى تعريفه للاستعارة ، وأربى عليه تبيين أغراضها التى يتوخاها المستعير ، وبين فضلها على الحقيقة ، وإذا كان ابن المعتز قد جعلها أول فنون البديع الخمسة الأساسية التى بنى عليها الشطر الأكبر من كتابه فقد جعلها أبو هلال أول فنون البديع عنده .

ثم تكلم عن الاستعارة التى وردت فى كلام العرب [٢] ، والنبى عليه السلام والصحابة والأعراب ، وفى أشعار المتقدمين . [٣] وهو فى كل ذلك إنما يتابع ابن المعتز ، وقد فطن العسكرى إلى أن التشبيه ليس من البديع فجعله بابا مستقلا من أبواب البلاغة ، وجعل الاستعارة أول أبواب البديع مع قرب أحدهما من الآخر ، ومع أنه بعض الاستعارات تشبيها ، وبعض التشبيهات استعارة . والاستعارة منتزعها التشبيه لا محالة ، بالاجماع الذى لا يجحد ولا ينقده عقل ولا ذوق ولا اطلاع [٤] .

وقد تحدث أرسطو عن الاستعارة فى أكثر من موضع فى كتابه الخطابة ،

---

(١) الصناعتين ص ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٥ ومابعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٢ .

(٤) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ص ١٩٥ .

كما أنه يحيل على ما قاله عنها فى كتاب الشعر فيقول : « التشبيه استعارة » وذلك أنه قليل الاختلاف عنها ، فعندما يقول الشاعر عن رجل : « انطلق الأسد » يكون تشبيها ، وأما عندما يقول : « انطلق هذا الأسد » فيكون هذا استعارة »[1] .

وكلام أرسطو مع هذا هو أساس ماعرف فى البلاغة الاصطلاحية ، فالاستعارة أصلها التشبيه أو كما يقول علماء البلاغة العربية : الاستعارة مجاز علاقته المشابهة .

ونلاحظ أن أبا هلال عنون هذا الفصل « الاستعارة والمجاز » ولم يعرض للمجاز بتحديد كما عرض للاستعارة ، ولم يدر فى كلامه حديث عن المجاز إلا قوله : « ولا بد لكل استعارة ومجاز من حقيقة ، وهى أصل الدلالة على المعنى فى اللغة[2] » كقول امرىء القيس[3] :

وقَدْ أَغْتَدِى والطَّيْرُ فِى وُكُنَاتِهَا
بِمُنجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابِدِ هَيْكَلِ[4]

والحقيقة ( مانع الأوابد) من الذهاب والإفلات ، والاستعارة أبلغ ، لأن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف ، لأنك تشاهد ما فى القيد من المنع فلست تشك فيه بعد ذلك.

---

(١) انظر كتاب الخطابة لأرسطو (الترجمة العربية القديمة للدكتور عبدالرحمن بدوى) ص١٩٥ ومابعدها. وانظر أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ص ١٩٤، ١٩٥ والنقد المنهجى عند العرب ص ٤٠ .

(٢) الصناعتين ص ٢٧٠ .

(٣) ديوانه ص ٥١ .

(٤) الوكنات: المواضع التى تأوى إليها الطير فى رءوس الجبال ، المنجرد : الفرس قصير الشعر. الأوابد : الوحوش ، الهيكل : الفرس الفخم المشرف .

ويفهم من صنيع أبى هلال العسكرى أن الاستعارة والمجاز عنده كلمتان مترادفتان . وذكر العسكرى أنه لا بد من معنى مشترك بين المستعار والمستعار منه ، والمعنى المشترك بين ( قيد الأوابد ) ( ومانع الأوابد ) هو الحبس وعدم الإفلات[1] .

٢ — المطابقة :

يصرح أبو هلال العسكرى بأن الناس قد أجمعوا على أن المطابقة[2] فى الكلام هى الجمع بين الشىء وضده فى جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من أبيات القصيدة ، مثل الجمع بين البياض والسواد ، والليل والنهار ، والحر والبرد . ثم تعرض لخروج قدامة على هذا الإجماع عندما قال : « المطابقة إيراد لفظتين متشابهتين فى البناء والصيغة مختلفتين فى المعنى » وسمى الجناس الأول التكافؤ ، وأهل الصنعة يسمون النوع الذى سماه المطابقة — التعطف — وهو أن يذكر اللفظ ثم يكرره ، والمعنى مختلف[3] .

وعرف أبو هلال الطباق فى اللغة بقوله : « الجمع بين الشيئين ؛ يقولون : طابق فلان بين ثوبين ، ثم استعمل فى غير ذلك ، فقيل : طابق البعير فى سيره ، إذا وضع رجله موضع يده ، وهو راجع إلى الجمع بين الشيئين كقول الجعدى :

وخيلٍ تطابق بالدّارعين
طباقَ الكلابِ يطان الهراسا

(١) الصناعتين ص ٢١٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٧ .
(٣) سنراه فى موضعه .

وفى القرآن الكريم ( سبع سماوات طباقاً )[1] أى بعضهم فوق بعض ، كأنه شبه بالطبق يجعل فوق الإناء . ثم يستمر فى إيراد الأمثلة والشواهد على طريقته .

٣ — التجنيس

عرفه بتعريف ابن المعتز ، وهو : أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها فى تأليف حروفها على حسب ما ألف الأصمعى كتاب الأجناس »[2] وعرض لقسميه اللذين عرض لهما ابن المعتز وهما :

أ — ما تكون الكلمة فيه تجانس الأخرى لفظا واشتقاق معنى ،ومثل له بما مثل به ابن المعتز وهو قول الشاعر :

يوماً خلجْتَ على الخليج نفوسَهم
عصبًا وأنت لمثلهـــا مُستامُ

خلجت : أى جذبت ، والخليج : بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير ، فهاتان اللفظتان متفقتان فى الصيغة ، واشتقان المعنى والبناء .

ب — ما تكون الكلمة فيه مجانسة للأخرى فى تأليف الحروف دون المعنى كقول مسلم بن الوليد :

« فارفقْ به إن لوْمَ العاشقِ اللومُ »

ثم علق على هذا القسم بقوله : « وشرط بعض الأدباء من هذا الشرط فى التجنيس ، وخالفه فى الأمثلة فقال : وممن جنس تجنيسين فى بيت زهير فى قوله :

---

(١) سورة الملك ( آية ٣ ) .

(٢) الصناعتين ص ٣٢١ .

بعزمة مأمورٍ مُطيعٍ وآمرٍ
مُطاعٍ فلا يُلفى لحَزمهم مِثلُ[1]

وليس المأمور والآمر والمطيع والمطاع من التجنيس ، لأن الاختلاف بين هذه الكلمات لأجل أن بعضها فاعل ، وبعضها مفعول به ، وأصلها إنما هو الأمر والطاعة ، وكتاب الأجناس الذى جعلوه لهذا الباب مثالا ، إنما يصف على هذه السبيل ، ويكون المطيع مع المستطيع ، والآمر مع الأمير تجنيسا ».

ثم يمضى فى سرد أمثلة أخرى للتدليل على خطأ هذا البعض إلى أن يقول : « ليس فى هذه الألفاظ تجنيس ، وإنما اختلفت هذه الكلم للتصريف » [2]

وقد ذكر أقساما أخرى للتجنيس لم يذكرها ابن المعتز ولم يتعرض لها ، فنراه يقول :

« ومن التجنيس ضرب [3] آخر ، وهو أن تأتى بكلمتين متجانستى الحروف إلا أن فى حروفها تقديما وتأخيرا كقول أبى تمام : [4]

بيضُ الصفائح لاسُود الصحائف فى
متونهنّ جلاءُ الشك والرِّيَبِ

ثم قال : ومن التجنيس نوع آخر يخالف ماتقدم بزيادة حرف أو نقصانه كقوله تعالى : ( وهم يَنهَوْنَ عنه وينأَوْن عنه )[5] . وقوله : ( ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرَحُون )[6] .

---

(١) شعر زهير بن أبى سلمى ص ٣٥ .
(٢) الصناعتين ص ٣٢٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٣١ .
(٤) ديوانه ١/٤٠ .
(٥) سورة الأنعام ( آية ٢٦ ) .
(٦) سورة غافر ( آية ٧٥ ) .

فما كان على حذو بيت أبى تمام قد عرف فيما بعد بجناس القلب ، وما كان على غرار الآية الأولى قد عرف بالمضارع ، وما كان على نحو الثانية قد عرف باللاحق.[1] ثم ختم أبو هلال هذا الفصل بذكر المعيب من التجنيس .

٤ ـ المقابلة :

عرفها بقوله : ( هى إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله فى المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة فأماما كان منها فى المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل ومثاله قوله تعالى »[2] : (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)[4] فخواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلة لظلمهم .

وأما ما كان منها بالألفاظ فمثل قول عدى بن الرقاع :

ولقد ثنيتُ يد الفتاةِ وِسادةً

لِى جاعلا إحدى يدىّ وسادَها

وقد حذا أبو هلال حذو قدامة فى حديثه عن المقابلة . ومما هو جدير بالذكرها أنها من الفنون التى اتفق معه فيها .

ثم تحدث عن فساد المقابلة فقال : « أن تذكر معنى تقتضى الحال ذكرها بموافقة أو مخالفة ، فيؤتى بما لا يوافق ولا يخالف ، مثل أن يقال : فلان شديد البأس ، نقى الثغر ، أو جواد الكف ، أبيض الثوب ، أو تقول : ماصاحبت خيّراً ، ولا فاسقاً ، وما جاءنى أحمر ولا أسمر . ووجه الكلام أن تقول :

---

(١) الصيغ البديعى فى اللغة العربية ص ١٦٥ .

(٢) الصناعتين ص ٣٣٧ .

(٣) سورة النمل (آية ٥٢) .

ماجاءنى أحمر ولا أسود، وما صاحبت خيراً ولا شريراً، وفلان شديد البأس عظيم النكاية ، وجواد الكف كثير العرف وما يجرى مع ذلك ، لأن السمرة لاتخالف السواد غاية المخالفة، ونقاء الثغر لا يخالف شدة البأس ولا يوافقه ، فاعلم ذلك وقس عليه )(١) .

٥ — صحة التقسيم :

وهو من الألوان التى التقى فيها بقدامة ، وعرفه بقوله : ( التقسيم الصحيح (٢) : أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه ) ومن ذلك قوله تعالى : ( هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ) (٣) وهذا أحسن تقسيم لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع، ليس فيهم ثالث . ثم تحدث عن التقسيم المعيب (٤) وهو فى كل ذلك يتابع قدامة بن جعفر فى هذا المصطلح واستشهد بالبيت الذى استشهد به قدامة .

٦ — صحة التفسير :

عرفه بتعريف قدامة، (٥) وهو أن يورد معانى فيحتاج إلى شرح أحوالها، فإذا شرحت تأتى فى الشرح بتلك المعانى من غير عدول عنها أو زيادة تزاد فيها، كقوله تعالى: (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ) (٦) فجعل السكون لليل ، وابتغاء الفضل للنهار فهو فى غاية الحسن ونهاية التمام . ثم استشهد بقول الفرزدق الذى استشهد به قدامة ، وبعد أن

(١) الصناعتين ص ٢٣٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٤١ .
(٣) سورة الرعد ( آية ١٢ ) .
(٤) الصناعتين ص ٣٤٢ .
(٥) المصدر السابق ص ٣٤٥ .
(٦) سورة القصص ( آية ٧٣ ) .

ذكر كثيراً من الأمثلة والشواهد على صحة التفسير تحدث عن عيوب هذا الباب كعادته.

٧ — الإشارة:

عرفها بقوله: «أن يكون اللفظ القليل مشاراً به إلى معان كثيرة، بإيماء إليها ولمحة تدلّ عليها[١]» وذلك كقوله تعالى: (إذ يغشى السدرة ما يغشى)[٢] وقول الناس: (لو رأيت علياً بين الصفين)، فيه حذف وإشارة إلى معان كثيرة.

وهو لم يزد على ما أورده قدامة فى حديثه عن الإشارة شيئاً.

٨ — الارداف والتوابع:

عرفها بقوله: (أن المتكلم يريد الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه، والخاص به، ويأتى بلفظ هو ردفه وتابع له، فيجعله عبارة عن المعنى الذى أراده)[٣] وذلك مثل قوله تعالى: (فِيهِنّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)[٤].

وقصور الطرف فى الأصل موضوعة للعفاف على جهة التوابع والأرداف، وذلك أن المرأة إذا عفت قصرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطرف ردفا للعفاف، والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف.

وأبو هلال لم يزد على ما أورده قدامة فى هذا الفصل إلا أنه أضاف كلمة «التوابع» إلى الأرداف، ثم عرفهما بتعريف قدامة، مقتبساً منه بعض

---

(١) الصناعتين ص، ٣٤٨.

(٢) سورة النجم (آية ١٦).

(٣) الصناعتين ص ٣٥٠.

(٤) سورة الرحمن (آية ٥٦).

أمثلته . وهذا اللون من ألوان البديع هو ما عرف عند المتأخرين باسم « الكناية » .

٩— المماثلة :

هذا المصطلح من المصطلحات التى نقلها أبو هلال من رسالة خاله أبى أحمد فى صناعة الشعر ، وعرفها بقوله : « أن يريد المتكلم العبارة عن معنى ، فيأتى بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر ، إلا أنه ينبىء إذا أورده عن المعنى الذى أراده »(١) كقولهم : « فلان نقى الثوب » يريدون به أنه لاعيب فيه . وليس موضوع نقاء الثوب البراء من العيوب ، وإنما استعمل فيه تمثيلا. ومثاله من المنظوم قول امرىء القيس(٢) :

ثِيَابُ بنى عوف طهارى نقيّةٌ
وأوجههم عند المشاهد غُرّانُ(٣)

وكقول النبى صلى الله عليه وسلم : ( إياكم وخضراء الدمن ) أراد المرأة الحسناء فى منبت السوء ، فأتى بغير اللفظ الموضوع لها تمثيلا .(٤) (وقد مرّ بنا أن قدامة كان يسميها (التمثيل) ... وهى ضرب من الاستعارة ، ووسع أبو أحمد معناها لتشمل بعض صور الكناية المعروفة باسم الكناية عن صفة ، وتابعه فى ذلك أبو هلال .

١٠ ـ الغلو :

وهـــو عنده : « تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها(٥) » . كقوله تعالى :

(١) الصناعتين ص ٣٥٣ .
(٢) ديوانه ص ١٦٩ .
(٣) غران : جمع أغر ، وهو الأبيض .
(٤) الصناعتين ص ٣٥٥ .
(٥) المصدر السابق ص / ٣٥ .

( وبلغت القلوب الحناجر [١] ) ، ثم ذكر من عيوب هذا الباب : « أن يخرج فيه إلى المحال ، ويشوبه بسوء الاستعارة وقبيح العبارة [٢] ». ومن ذلك قول أبى نواس فى الخمر :

توهَّمتُها فى كأسها فكأنما
توهَّمت شيئاً ليس يُدْرَكُ بالعقلِ
وصفراء أبْقَى الدَّهرُ مكنون رَوْحها
وقَدْ ماتَ من مخبورها جوهر الكل
فما يرتقى التكييف منها إلى مدى
تحدّ به إلاّ ومن قبله قبل [٣]

فجعلها لا تدرك بالعقل ، وجعلها لا أول لها ، وقوله : ( جوهر الكل ) و ( التكييف ) فى غاية التكلف ، ونهاية التعسف ، ومثل هذا من الكلام مردود ، لا يشتغل بالاحتجاج عنه له ، والتحسين لأمره ، وهو بترك التداول أولى إلا على وجه التعجب منه ومن قائله.

١١ — المبالغة :

أما المبالغة فقد حدها بقوله [٤] ( هى أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر فى العبارة عنه على أدنى منازله ، وأقرب مراتبه ) ومثاله من القرآن قوله تعالى : (يوم ترونها تذْهَلُ كل مرضعةٍ عما أرضعتْ ، وتضع

(١) سورة الأحزاب ( آية ١٠ ).
(٢) الصناعتين ص ٣٦٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٦٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٦٥ .

كلّ ذاتِ حملٍ حَمْلَها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) [١] .
ولو قال : تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بيانا حسنا وبلاغة كاملة ، وإنما خص المرضعة للمبالغة ، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته إليها ، وأشغف به لقربه منها ولزومها له ، لا يفارقها ليلا ولا نهارا ، وعلى حسب القرب تكون المحبة والإلف .

ثم مضى يسوق أمثلة من القرآن الكريم والشعر إلى أن قال : « ومن المبالغة نوع آخر : وهو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عليها أجزأته فى غرضه منها ، فيجاوز ذلك حتى يزيد فى المعنى زيادة تؤكده ، ويلحق به لاحقة تؤيده » [٢] كقول عمير بن الأيهم التغلبى .

ونُكرمُ جارَنا مادامَ فينا
ونُتْبِعه الكرامةَ حيثُ مالا

ويلاحظ أن كلام أبى هلال عن النوع الآخر الذى ذكره هو نفس تعريف قدامة للمبالغة واستشهد ببيت التغلبى متابعا فى ذلك قدامة [٣] .

وقد مرّ بنا أن قدامة جعلها فى مرتبة أقل من الغلو الذى يبنى على الإفراط الشديد . وكعادة أبى هلال فقد ختم هذا الفصل بذكر عيوب المبالغة .

١٢ — الكناية والتعريض :

حدها بقوله (هو أن يكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرّح ، على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء) [٤] ، ومنه وقوله تعالى :

(١) سورة الحج ( آية ٢ ) .
(٢) الصناعتين ص ٣٦٥ .
(٣) انظر نقد الشعر ص ١٦١ .
(٤) الصناعتين ص ٣٦٨ .

( أوْ جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساء )[1] .

فالغائط كناية عن الحاجة ، وملامسة النساء كناية عن الجماع .

وقد حذا أبو هلال فى هذا اللون حذو ابن المعتز ، وذكر جميع الأبيات التى استشهد بها ابن المعتز ، إلا أنه قد أربى عليه بالتعريف .

ثم قال العسكرى : « ومن التعريض الجيد ما كتب به عمرو بن مسعدة إلى المأمون : أما بعد ، فقد استشفع بى فلان إلى أمير المؤمنين ، ليتطول عليه فى إلحاقه بنظَرائه من المرتزقين فيما يرتزقون ، فأعلمتُه أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفع بهم ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام . فوقع فى كتابه : قد عرفنا تصريحك له ، وتعريضك بنفسك وأجبناك إليهما ، وأوقفناك عليهما »[2] . ثم ختم أبو هلال هذا الفصل بما عيب من الكناية .

وقد مرّ بنا أن ابن المعتز[3] لم يفرق بين أمثلة الكناية وأمثلة التعريض فدلنا صنيعه على أنهما مترادفان ، أما أبو هلال فصنيعه فى التعريف يدل على أنهما مترادفان ، ولكن طريقة إيراده للأمثلة والتنبيه على أن هذا كناية وذاك تعريض يدل على أنه يفرق بينهما ، وإذا كان هذا هو الظاهر من صنيعه فما هو الفرق بين الكناية والإرداف الذى ذكره سابقا ؟ ويبدو أنه أراد من الكناية معناها اللغوى بدليل تمثيله بالآية السابقة، أما الارداف فينطبق على ما خصه المتأخرون بأسم الكناية[4] .

ولعلنا نلاحظ الخلط الذى وقع فيه العسكرى فى حديثه عن الكناية والتعريض .

---

(١) سورة النساء ( آية ٤٣ ) ، وسورة المائدة ( آية ٦ ) .
(٢) الصناعتين ص ٣٦٨ .
(٣) البديع ص ٦٤ .
(٤) انظر الصبغ البديعى ص ١٦٨ .

ويقول الدكتور بدوى طبانة[1] : « أما الكناية فإن العسكرى قد عقد بابين من البديع سمى أو لهما « المماثلة » وسمى الآخر « الكناية والتعريض » وما أورده فى تعريف المماثلة ينطبق على ما حد به المتأخرون الكناية » ثم ذكر تعريف العسكرى للمماثلة ، وعاق على ذلك بقوله : «ولعلك رأيت الخلط بين المماثلة والكناية والتعريض عند العسكرى[2] » وقد فطن إلى ذلك ضياء الدين بن الأثير وحاول أن يفصل بين الكناية والتعريض .

١٣ — العكس :

وقد عرفه بقوله : ( أن تعكس الكلام فتجعل فى الجزء الأخير منه ما جعلته فى الجزء الأول ، وبعضهم يسميه التبديل [3] كقوله تعالى : ( يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى)[4] ومثاله من المنظوم قول بعض المحدثين :

لسانى كتوم لأسراركمْ
ودمعى نَمُوم لسرّى مُذِيعُ
فلولا دموعى كتمتُ الهوَى
ولولا الهوى لم تكنْ لى دموعُ

وختم أبو هلال هذا الفصل بقوله : والعكس أيضا من وجه آخر ،وهو أن يذكر المعنى ثم يعكسه إيراد خلاف ، كقول الصاحب :

---

(١) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١٩٨ .
(٣) الصناعتين ص ٢٧١ .
(٤) سورة يونس ( آية ٣١ ) وسورة الروم ( آية ١٩ ) .

* وتسمى شمس المعالى وهو كسوفها *[1]

وهذا الفن من الفنون التى التقى فيها أبو هلال العسكرى مع قدامة بن جعفـــــر[2] .

١٤ — التذييل :

بين أبو هلال مكانة التذييل ، وموقعه فى الـكلام فقال : « وللتذييل فى الـكلام موقع جليل، ومـكان شريف خطير ، لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتضاحا، وقال بعض البلغاء : للبلاغة ثلاثة مواضع: الإشارة، والتذييل، والمساواة، وقد شرحنا الإشارة والمساواة فيما تقدم .

أما التذييل : فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه ، ويتوكد عند من فهمه ، وهو ضد الإشارة والتعريض ، وينبغى أن يستعمل فى المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ،لأن تلك المواطن تجمع البطىء الفهم ، والبعيد الذهن ، والثاقب القريحة ، والجيد الخاطر ، فإذا تـكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكّد عند الذهن اللقن، وصحّ للـكليل البليد»[3]

ومثّل له بقوله تعالى : ( ذلك جزيْناَهُمْ بمـا كفروا ، وهل تُجَازِى إلا الـكَفُور )[4] . ومعناه وهل يجازى بمثل هـذا الجزاء إلا الـكفور . فنحن نراه يجعل مواطن التذييل عـــــين مواطن الاسهاب والاطناب ، وما ذلك إلا لأن التذييل نوع من أنواعه .[5] .

---

(١) الصناعتين ص ٣٧٢ .

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١١١ ، ١٤٢ وجواهر الألفاظ ص ٣ ومابعدها ، وسر الفصاحة ص٢٣٩ .

(٣) الصناعتين ص ٣٧٣.

(٤) سورة سبأ ( آية ١٧ )

(٥) انظر الصبغ البديعى ص ١٦٩ .

ومما هو جدير بالذكر أن أبا هلال قد جلب هذا المصطلح من خاله أبى أحمد ، واستشهد له بنفس البيت الذى استشهد به الباقلانى وهو قول بعض الشعراء :

فدَعَوْا نَزَالِ فكنتُ أَوَّلَ نَازِلٍ
وعلامَ أركبهُ إذا لم أنزلِ[1] ؟

١٥ — الترصيع :

وهو من الألوان التى التقى فيها بقدامة بن جعفر ، وتأثر به فى تعريفه فقال : « هو أن يكون حشو البيت مسجوعا » وزاد عليه ببيان مأخذه من اللغة فقال : « وأصله من قولهم : رصعت العقد إذا فصلته » ثم مثل له بأمثلة عديدة من شعر الأقدمين والمحدثين ومن بينها البيت الذى استشهد به قدامة ، وعقب ذلك بأمثلة للمعيب المسترذل كعادته .

١٦ — الإيغال :

عرفه بقوله : « هو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا ، وأصل الكلمة من قولهم : أوغل فى الأمر إذا أبعد الذهاب فيه »[2]

ويبدو من هذا التعريف تأثره الشديد بقدامة حتى لقد استشهد بالأبيات التى ذكرها قدامة، وقد مر بنا أن قدامة قد استعار هذا المصطلح من الأصمعى.

ونرى أبا هلال يفرق بين الإيغال والتتميم فيقول : « ويدخل أكثر هذا الباب فى التتميم ، وإنما يسمى إيغالا إذا وقع فى الفواصل والمقاطع »[3] .

---

(١) الصناعتين ص ٣٧٤ وانظر إعجاز القرآن ص ١٠٣ .

(٢) الصناعتين ص ٣٨٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٨١ .

١٧ — التوشيح :

وهو من الألون البديعية التى التقى فيها أبو هلال مع قدامة بن جعفر ، وتحدث عنه فقال : [١] « سمى هذا النوع التوشيح ، وهذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى ، ولو سمى تبيينا لكان أقرب ، وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبىء عن مقطعه ، وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه حتى لو سمعت شعرا ، أو عرفت رواية ، ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه » . وهذا هو نفس التعريف الذى ذكره قدامة ، واستشهد العسكرى بيت « الراعى » الذى استشهد به قدامة .

إلا أننا نرى أبا هلال يضيف قائلا : « وضرب منه آخر : وهو أن يعرف السامع مقطع الكلام وإن لم يجد ذكره فيما تقدم ، كقوله تعالى : ( ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون [٢] فإذا وقف على قوله . ( لننظر ) مع ما تقدم من قوله تعالى : ( جعلناكم خلائف فى الأرض ) علم أن بعده ( تعملون ) لأن المعنى يقتضيه » .

١٨ — رد الأعجاز على الصدور .

من الألوان التى تأثر فيها العسكرى بابن المعتز ، وتحدث عنه فقال : [٣] « أول ماينبغى أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظا تقتضى جوابا فالمرضىُّ أن تأتى بتلك الألفاظ بالجواب ، ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو فى معناها كقوله تعالى . ( وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها [٤] ) . ثم بين موقعه من البلاغة فقال : « وهذا يدلك على أن لرد الأعجاز على الصدور موقعا جليلا من البلاغة ، وله

(١) الصناعتين ص ٣٨٢ .
(٢) سورة يونس ( آية ١٤ ) .
(٣) الصناعتين ص ٣٨٥ .
(٤) سورة الشورى ( آية ٤٠ ) .

فى المنظوم خاصة محلا خطيرا » . وقسمه إلى الأقسام الثلاثة التى قسمها ابن المعتز، إلا أن العسكرى أضاف له قسما رابعا وهو مايقع فى حشو النصفين،[(١)] كقول النمر :

يَوَدّ الفتى طول السلامة والغـنى
فكيف ترى طول السلّامة تفعل

وفى نهاية الفصل تحدث عن المعيب منه كعادته .

١٩ — التتميم والتكميل :

التقى بقدامة فى هذا الفن وعرفه بقوله .[(٢)] « هو أن توفى المعنى حظه من الجودة ، وتعطيه نصيبة من الصحة ، ثم لاتغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده ، أو لفظا يكون فيه توكيده إلا تذكره » كقوله تعالى. (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة)[(٣)] فبقوله تعالى ( وهو مؤمن) تم المعنى. واستشهد أبو هلال بالأبيات التى استشهد بها قدامة، إلا أن مازاده عليه هو وضعه كلمة التكميل بجوار التتميم ، ثم ذكر أن مدار البلاغة إنما هو على تحسين اللفظ وتجميل الصورة .

٢٠ - الالتفات .

جعله أبو هلال على ضربين . الأول منهما . (أن يفرغ المتكلم من المعنى ، فاذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به)[(٤)] ومثال ذلك قول جرير:

---

(١) الصناعتين ص ٣٨٨ .
(٢) الصناعتين ص ٣٨٩ .
(٣) سورة النحل ( آية ٩٧ ) .
(٤) الصناعتين ص ٣٩٢ .

أتنسَى إذْ تودّعُنَا سُلَيْمَى
بعود بشَامَـــةٍ سُـقِى البَشَامُ

فالشاعر مقبل على شعره ، ثم التفت إلى شجر البشام فدعا له .

والضرب الآخر . وهو أن يكون الشاعر آخذا فى معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن أن رادا يرد قوله ، أو سائلا يسأله عن سببه ، فيعود راجعاً إلى ماقدمه ، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه ،أو يزيل الشك عنه ».. ومثاله قول المعطل الهذلى .

تبين صُلاةُ الحرب منَّا ومنهم
إذا ما التقينا والمســالمُ بادِنُ[1]

فقوله . ( والمسالم بادن ) رجوع من المعنى الذى قدمه ، حتى بين أن علامة صُلاة الحرب من غيرهم أن المسالم بادن والمحارب ضامر .

والنوع الأول استقاه العسكرى من ابن المعتز — الذى أخذه بدوره عن الأصمعى — أما النوع الثانى . فهو نفس تعريف قدامة للالتفات وقد مثل له بما مثل به قدامة .

٢١ — الاعتراض :

عرفه بما عرفه به ابن المعتز وهو . « اعتراض كلام فى كلام لم يتم معناه، ثم يرجع إليه فيتمه »[2] واستشهد عليه ببيت ( كثير عزة )[3] الذى استشهد به ابن المعتز .

(١) تبين : تستبين . صلاة الحرب : الذين يصلونها .
(٢) الصناعتين ص ٣٩٤ وانظر كتاب البديع ص ٥٩ .
(٣) ( لو أن الباخلين وأنت منهم .. .... ) .

٢٢ — الرجوع :

تأثر فى هذا الفن أيضا بابن المعتز ، وعرفه بنفس تعريفه « وهو أن يقول الشاعر شيئا ثم يرجع عنه »[١] واستشهد بالأبيات التى استشهد بها ابن المعتز، إلا أنه زاد عليه فى ذكر المذموم منه .

٢٣ — تجاهل العارف ومزج الشك باليقين :

وهذا هو ما سماه ابن المعتز ( تجاهل العارف ) وعرفه العسكرى بقوله : « هو إخراج ما يعرف صحته مُخرج ما يُشَكُّ فيه ليزيد بذلك تأكيداً »[٢] ومثاله قول ذى الرمة[٣] :

أيا ظبية الوعْســاء بين جُلاَجِلٍ
وبين النقّاء أأنت أم أمُّ سالم

٢٤ — الاستطراد :

عرفه بقوله . « وهو أن يأخذ المتكلم فى معنى ، فبينما يمر فيه يأخذ فى معنى آخر ، وقد جعل الأول سببا إليه »[٤] . كقوله تعالى ( ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت )[٥] فبينما يدل الله سبحانه على نفسه بإنزال الغيث واهتزاز الأرض بعد خشوعها قال: ( إن الذى أحياها لمحيي الموتى ). فأخبر عن قدرته على إعادة الموتى بعد إفنائها ، وإحيائها بعد إرجائها ، وقد جعل ماتقدم من ذكر الغيث والنبات دليلا عليه ، ولم يكن

---

(١) الصناعتين ص ٣٩٥ وانظر كتاب البديع ص ٦٠ .
(٢) الصناعتين ص ٣٩٦ .
(٣) ديوانه ص ٧٠٠ ، والوعساء : الرابية من الرمل . جلاجل : جبل.
(٤) الصناعتين ص ٣٩٨ .
(٥) سورة فصلت ( آية ٣٩ ) .

فى تقدير السامع لأول الكلام ، إلا أنه يريد الدلالة على نفسه بذكر المطر ، دون الدلالة على الإعادة ، فاستوفى المعنيين جميعا » .

والاستطراد من الفنون التى نقلها أبو هلال عن خاله دون التصريح باسمه ، وهو نفس ماسماه ابن المعتز بحسن الخروج من معنى إلى معنى ، وقد ذكر ذلك أبو هلال فقال : « وهذا الباب يقرب من باب حسن الخروج » (١)

ثم جعل منه ضربا آخر : « وهو أن يجىء بكلام يظن أنه يبدأ فيه بزهد وهو يريد غير ذلك كقول الشاعر :

يا من تشاغل بالطَّلَلْ
أقْصِرْ فقد قَرُبَ الأجل
واصِلْ غبوقك بالصَّبو
حِ وعَدِّ عن وصف المَلَلْ

٢٥ — جمع المؤتلف والمختلف :

وقد حدّه بقوله : « هو أن يجمع فى كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو متفقة »(٢) كقوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطُّوفَانَ والجراد والقُمَّل والضّفادِع والدّم آياتٍ مفصَّلات »(٣) وكقوله : ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القُرْبى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى(٤) ) .

---

(١) الصناعتين ص ٤٠٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٠١ .
(٣) سورة الأعراف ( آية ١٣٣ ).
(٤) سورة النحل ( آية ٩٠ ) .

ونراه هنا يصرح باسم خاله مستشهداً له بمثال من النثر يصوره ، يدل دلالة قاطعة على أنه نقله عنه . ومثاله من المنظوم قول أبي تمام: [١]

ربّ خفضٍ تحت السّرى وغناء
من عناء ونضرةٍ من شحوب

وقوله : [٢]

في مطلب أو مهرب أو رغبـــة
أو رهْبة أو موكِب أو فَيْلَق

٢٦ — السلب والإيجاب :

هذا الفن من الفنون التي نقلها أبو هلال عن خاله أبي أحمد ، وعرفه بقوله. «هو أن تبني الكلام على نفي الشيء من جهة وإثباته من جهة أخرى، أو الأمر به في جهة ، والنهي عنه في جهة ومايجري مجرى ذلك » [٣] كقوله تعالى . ( ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ) [٤] واستشهد بنفس البيت الذي مثل به الباقلاني وبالتالي الذي مثل به خاله [٥] .

ومنه قول الشاعر .

هي الدّرّ منثوراً إذا ما تكلّمت
وكالدّرّ منظوماً إذا لم تكلّم
تعبّدُ أحرار القلوب بدلّهـــــا
وتملأ عين النّاظر المتوسّم

---

(١) ديوانه ١/١١٩ .
(٢) المصدر السابق ٢/٤١٧ والصناعتين ٤٠٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٠٥ .
(٤) سورة الإسراء ( آية ٢٣ ) .
(٥) إعجاز القرآن ص ٩٨.

٢٧ — الاستثناء :

جعله أبو هلال على ضربين :[١] الأول : « هو أن تأتى معنى تريد توكيده ، والزيادة فيه فتستثنى بغيره ، فتكون الزيادة التى قصدتها ، والتوكيد الذى توخيته فى استثنائك » ، أما الضرب الآخر : « فهو استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان فيه » وقد أخذ أبو هلال هذا الفن عن خاله ، ونراه يصرح باسمه فيه . وقد مر بنا أن ابن المعتز كان يسميه تأكيد المدح بما يشبه الذم .

٢٨ — المذهب الكلامى :

فى هذا الفصل ينقل أبو هلال عن ابن المعتز فيقول : « جعله عبد الله ابن المعتز الباب الخامس من البديع ، وقال : « ما أعلم أنى وجدت شيئا منه فى القرآن ، وهو ينسب إلى التكلف فنسبه إلى التكلف وجعله من البديع » [٢] ومثل له بما مثل به ابن المعتز .[٣]

٢٩ — التشطير :

وهو من الفنون الستة التى ذكر أبو هلال أنه أول من استنبطها ولقبها بألقابها ، وقد عرفه بقوله : « هو أن يتوازن المصراعان والجزءان ، وتتعادل أقسامهما ، مع قيام كل واحد منهما بنفسه ، واستغنائه عن صاحبه » .[٤] ومثاله من النثر قول بعضهم : ( من عتب على الزمان طالت معتبته ، ومن رضى عن الزمان طابت معيشته ) ومن المنظوم قول ذى الرمة :[٥]

---

(١) الصناعتين ص ٤٠٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٠ .

(٣) انظر كتاب البديع ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) الصناعتين ص ٤١١ .

(٥) ديوانه ص ٤ .

استحدثَ الركبُ عن أشياعهم خبراً
أم راجع القلبَ من أطرابـه طربُ ؟

والتشطير الذى ذكره أبو هلال مأخوذ من قول ثعلب : « أبلغ الشعر ما اعتدل شطراه وتكافأت حاشيتاه » .[1] ويريد به أن يستغنى كل مصراع عن صاحبه فى معناه مثل قول زهير :[2]

ومَنْ يغترب يحسبْ عدوًّا صديقَهُ
ومن لا يكرِّمْ نفسه لا يكرَّمِ

٣٠ — المجاورة :

هى ثانى الفنون التى استنبطها ، وعرفها بقوله : « تردد لفظتين فى البيت، ووقوع كل واحدة منهما بجنب الأخرى أو قريبا منها ، من غير أن تكون إحداهما لغواً لا يحتاج إليها[3] وذلك كقول علقمة[4] :

ومطعم الغُنْم يوم الغنم مُطْعِمُهُ
أنَّى توجَّهَ والمحـروم محرومُ

فقوله : ( الغنم يوم الغنم ) مجاورة ، و ( المحروم محروم ) مثله . وهذا الفن قريب مما سماه قدامة باسم ( المطابق ) وسماه خاله أبو أحمـد باسم ( التعطف )[5] .

٣١ — الاستشهاد والاحتجاج :

ذكر العسكرى : «أن هذا الجنس كثير فى كلام القدماء والمحدثين ، وهو

(١) قواعد الشعر ص ٧٠ .
(٢) شعر زهير بن أبى سلمى ص ٢٤ .
(٣) الصناعتين ص ٤١٣ .
(٤) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١/٢١٨ ومابه من مراجع .
(٥) إعجاز القران ص ٩٨ .

أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر ، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى ، وهو أن تأتى بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول ، والحجة على صحته[1] » ومنه قول الشاعر :

إنما يَعْشَقُ المنايَا من الأقـــ
ـــوام من كان عاشقاً للمعالى

وكذلك الرِّماح أوَّل ما يكـ
ـسر منهنّ فى الحروب العوالى

وهذا هو ثالث فنون البديع التى استنبطها أبو هلال ، وجميع ما استشهد به على هذا الفن موزع بين ماعرف بحسن التعليل والتشبيه الضمنى والمذهب الكلامى ، إلا أنه قد نبه على التشبيه فقط فقال : « وتدخل أكثر هذه الأمثلة فى التشبيه أيضا »[2]. وكان حريا بأبى هلال أن يدخل هذا النوع فيما سماه ابن المعتز ( بالمذهب الكلامى ) إذ هو ضرب من البرهنة والتدليل .

٣٢ — التعطف :

نقله أبو هلال عن خاله . وعرفه بقوله : « هو أن تذكر اللفظ ثم تكرره ، والمعنى مختلف[3] ومثّل له ببيت الأفوه الأودى :

وأَقْطَـعُ الهوْجَلَ مُسْتَأْنساً
بِهَـوجلٍ عَيْرَانَةٍ عنتريس

وقد مر بنا أن قدامة كان يسمى هذا النوع ( بالمطابق ) وجعله من باب ائتلاف اللفظ والمعنى[4] . ومثل له بنفس بيت الأفوه الأودى ، وسبق أن

(١) الصناعتين ص ٤١٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٤١٩ .
(٣) الصناعتين ص ٤٢٠ .
(٤) نقد الشعر ص ١٨٥ .

ذكرنا بأن هذا هو الجناس التام . وقد ذكره ابن المعتز . وينهى أبو هلال حديثه عن ( التعطف ) بقوله :(١) لم أجد منه شيئاً فى القرآن إلا قوله تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ) .(٢)

٣٣ — المضاعفة :

هى الفن الرابع من فنون البديع التى استنبطها أبو هلال ، وقد جعلها على أربعة أنواع :

الأول : «أن يتضمن الكلام معنيين : معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه »(٣) كقوله تعالى :

( ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنتَ تُسمع الصُّمَّ ولو كانوا لايعقلون، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تَهْدِى العُمى ولو كانوا لا يُبْصِرُون)(٤) فالمعنى المصرح به فى هذا الكلام أنه لايقدر أن يهدى من عمى عن الآيات، وصم عن الكلم البينات، بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها. والمعنى المشار إليه أنه فضل السمع على البصر ، لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط . ومثاله من المنظوم قول الأخطل :(٥)

قومٌ إذا استنْبح الأضيافُ كلبهمُ
قالُوا لأُمِّهم بُولى على النَّار

فأخبر عن إطفاء النار ، فدل به على بخلهم ، وأشار إلى مهانتهم ، ومهانة أمهم عندهم .

---

(١) الصناعتين ص ٤٢٢ .
(٢) سورة الروم ( آية ٥٥ ) .
(٣) الصناعتين ص ٤٢٣ .
(٤) سورة يونس ( آية ٤٢ ، ٤٣ ).
(٥) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١/ ٤٨٣.

وواضح أن هذا النوع يدخل فى الكناية التى سبق أن تحدث عنها، ويمكن أن يدخل أيضا فى الإشارة وفى الأرداف والتوابع .

الثانى : أن تورد الاسم الواحد على وجهين ، وتضمنه معنيين كل واحد منهما معنى كقول بعضهم :[1]

أَفْدِى الذى زارنى والسَّيف يَخْفُرُه
ولحظ عينيه أَمْضَى من مَضَاربه
فما خلعت نجادى فى العناق له
حتّى لبستُ نجاداً من ذوائبه

فجعل فى السيف معنيين : أحدهما أن يخفره ، والآخر أن لحظه أمضى من مضاربه .

الثالث : لم يعرّف أبو هلال هذا النوع، ولكنه مثّل له بقول ابن الرومى :

بجهلٍ كجهل السَّيْفِ والسّيف مُنْتَضَىً
وحلم كحلم السيفِ والسَّيْف مُغْمَدُ

الرابع : مثّل له بقول مسلم :

وخالٍ كخال البَدْر فى وَجْهِ مثله
لقينا المُنَى فيه فحاجـزنا البَذْلُ

وكان أبو هلال فى غنى عن ذكر كل هذه الأنواع لأنها تدخل فى الأنواع التى سماها .

٣٤ — التطريز :

هو الفن الخامس الذى استنبطه أبو هلال ، وقد حده بقوله : « هو أن

(١) الصناعتين ٤٢٢ .

يقع فى أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن ، فيكون فيها كالطراز فى الثوب »[١] . وذكر أن هذا النوع قليل فى الشعر .

ومنه قول أبى تمام :[٢]

أعوام وَصْل كاد يُنْسِى طولُها
ذِكْرُ النَّوَى فكأنَّها أيّامُ
ثمّ انبرتْ أيّام هَجْرٍ أرْدَفَتْ
بِجَوىً أسىً فكأنَّها أعوامُ
ثمّ انقضتْ تلك السّنون وأهلُها
فكأنّها وكأنّهم أحلامُ

ولعل « التطريز » هو النوع الوحيد الذى يمكن قبوله من الأنواع الستة التى ابتكرها أبو هلال العسكرى .

٣٥ — التلطف :

هو الفصل الأخير من فصول البديع عند أبى هلال ، وهو من ابتكاره أيضا وقد عرفه بقوله : « هو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجّنه والمعنى الهجين حتى تحسنه ، وقد ذكرت طرفا منه فى أول الكتاب إلا أنى لم أسمه هنالك بهذا الاسم فيشتهر به ، ويكون بابا برأسه كإخوانه من أبواب الصنعة »[٣] .

ومثل لذلك بقول ابن الرومى[٤] فى مدح البخل وعذر البخيل :

لا تَلُمْ المـرءَ على بُخْلِه
ولُمْهُ يا صاحِ على بَذْلِه

(١) الصناعتين ص ٤٢٥ .
(٢) ديوانه ٣/١٥١ ، ١٥٢ .
(٣) الصناعتين ص ٤٢٧ .
(٤) ترجمته فى الموشح للمرزبانى ص ٥٤٥ وما به من مراجع .

لا عَجَبَ بالبُخْلِ مَنْ ذِى حِجىً
يُكْرِم ما يكرم من أجْلِهِ

وهذا هو ضرب من حسن التعليل ، وكان حريا أن يقرنه إلى المذهب الكلامى .

* * *

ثم عقب أبو هلال بعد ذلك على الألوان البديعية التى ذكرها فقال : « وقد فرغنا من شرح أبواب البديع، وتبيين وجوهها ، وإيضاح طرقها والزيادة التى زدنا فيها ستة فصول ، وأبرزناها فى قوالبها من الألفاظ من غير إخلال ولا إهذار . وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عمل فى معناها قبلها ، فمثل بينها وبينه فإنك تقضى لها عليه ، ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه »(١).

وبعد أن فرغ من كلامه هذا قال : « وقد عرض لى بعد نظم هذه الأنواع ، نوع آخر لم يذكره أحد وسميته : ( المشتق ) وهو على وجهين : فوجه منهما أن يشتق اللفظ من اللفظ ، والآخر أن يشتق المعنى من اللفظ . فاشتقاق اللفظ من اللفظ ، هو مثل قول الشاعر فى رجل يقال له ينخاب :

* وكيف ينجح من نصف اسمه خابا *(٢).

واشتقاق المعنى من اللفظ مثل قول أبى العتاهية :

خُلِقت لحية موسى باسمه
وبهارون إذا ما قلبا

* * *

(١) الصناعتين ص ٤٢٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٣٠ .

تلك هى فنون البديع التى عرض لها أبو هلال فى كتابه « الصناعتين » وهى عنده كما رأينا ستة وثلاثون فنا ، ويقول إنه زاد فيها على ما أورده سابقوه ستة فنون ، وقد صرح باسم ابن المعتز وقدامة فى غير موضع ، ورأينا كيف تأثر بهما كما رأينا كيف كان ينقل عن خاله أبى أحمد ، الذى ردد اسمه مراراً فى كتابه ، ولكنه لم يصرح بأنه نقل عنه بعض الألوان البديعية ، وكان حريا به أن ينص صراحة على نقل الفنون السبعة عن خاله حتى يعفينا من تعقبه وتتبعه .

هذا هو جهد العسكرى فى البديع الذى زهى به وتاه على هذا الوجه الذى يقول فيه : « قد فرغنا من شرح أبواب البديع ، وتبيين وجوهها ، وإيضاح . . . »

ولا شك أن الجديد فى صنيع أبى هلال هذا هو أنه سرد لنا فى كتابه ستة وثلاثين فنا من فنون البديع لم يجعل من بينها التشبيه — أحد فروع علم البيان — على الرغم من أن ابن المعتز قد عده من البديع ، كما لم يجعل من بينها مقاطع الكلام ومباديه وقد ضمها ابن المعتز إلى البديع . وكذلك لم يكن من بينها السجع والازدواج وقد عرض قدامة للسجع فى أثناء حديثه عن الترصيع .

على أن هـــذه المحسنات لم تبق فى اصطلاحات المتأخرين كما وضعها العسكرى وسابقوه ، بل إن بعضها نقل إلى علمى البلاغة [1] : البيان والمعانى فالاستعارة والتشبيه والكناية احتلت أمكنتها من علم البيان ، بل أصبحت أظهر شىء فى هذا العلم ، بعد تنظيم أبوابه وجمع أطرافه ، والتذييل والتتميم والتكميل والاعتراض جعلت ضروبا من الاطناب الذى احتل مكانه من مباحث علم المعانى ، ولا يعاب العسكرى على هذا ، فله ولمن تقدمه فضل السبق والإضافة ، ولمن جاء بعده التصنيف والتقسيم ، ووضع كل شىء موضعه

(١) انظر أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ص ٢٢٠ .

ولكنه هو الذى راد الطريق ويسر السبيل ، سبيل الافتنان فى الصناعة ، كما أنه لم يقسم هذه الفنون البديعية إلى محسنات لفظية ، ومحسنات معنوية ، وقد فعل ذلك من جاء بعده من المتأخرين .

وأبو هلال من مدرسة الكلاميين — ولا شك — وإن صرح بأنه لم ينهج نهجهم ، ولم يذهب مذهبهم ، فليس ذلك إلا ليخفى هذه الحقيقة حين رأى هذه الحملات القوية على مذهبهم فى نقد الأدب نقدا يعتمد على معرفة الحدود وجودة التقسيم ،وأسلوب المناقشة والجدل .

وهو يخفى إعجابه برجال الصنعة ، والمقياس الذى يقيس به الشعراء والأدباء هو إحكامهم لها ،واقتدارهم على الإفادة من مذهب البديع ، واستخدام محسناته فى ضروب الكلام ، ونرى ذلك بوضوح من خلال أمثلته على التجنيس ، ففيها التكلف الممقوت ، وفيها السجع المصنوع ، أوردها مورد الاستشهاد وخلطها بغيرها من الجناس المستحسن والسجع المقبول، ومن ذلك عباراته : «وقد هشّمتك هاشم وأمّتك أمية ، وجمحت بك جمح ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصىّ »[1] فأى صنعة بعد هذا !!

وعلى الرغم من ذلك فهو أحد أولئك الذين وضعوا اللبنات الأولى فى علم البلاغة ،وكتابه «الصناعتين» حسن التبويب حافل بالأمثلة والشواهد ، سهل المأخذ للدارس ، ويحتل البديع فيه أكثر من ثلثه ، ولكنه — فى الواقع — صورة عجيبة لعدم الاستقلال بأى رأى ذاتى[2] وليس لأبى هلال فيه إلا تنسيق المادة وترتيبها فى فصول والاستكثار من الأمثلة ، ولقد ينخدع القارىء بالكتاب لأول وهلة لأن المؤلف لم يشر من مصادره فى المقدمة إلا

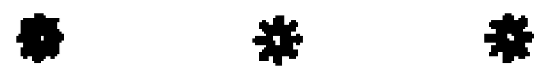
---

(١) الصناعتين ص ٣٢٣ وانظر أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ص ١١٩ .

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٣٥٥ .

إلى « البيان والتبيين » للجاحظ ، ولا يذكر فى درج الفصول سوى قدامة ، وذكر خاله أبا أحمد مرارا .

وليس من شك فى أن الكتاب يعد من الكتب التى عالجت الأدب ، ووضعت لأركانه حدودا ، ومقاييس أخذها غيره من الذين نسبت البلاغة إليهم ، واتخذوا بحوثه نواة لدراستهم ، وأصلا لتفريعاتهم ، وحسبنا أن نقول أن أبا هلال رجل من الذين رادوا الطريق ، وذللوا وعره ، وأنه أحسن استخدام طريقتى ابن المعتز وقدامة وأحكم التوفيق بينهما .



# الباب الثالث

## من الباقلانى إلى أسامة بن منقذ

# الفصل الأول

## عرض عام

لقد خمد نشاط المتفلسفة بعد كتابي قدامة بن جعفر ، وابن وهب ، أو بمعنى آخر إن هذه البيئة — وأقصد بيئة المتفلسفة — قد غابت عن المسرح البلاغي ، بينما ظل نشاط المتكلمين يؤتي ثماره ، ذلك أنهم بحثوا مباحث واسعة في إعجاز القرآن ، وقد ساعدهم على ذلك دقة تفكيرهم ، وتعمقهم من قديم في مباحث البلاغة ، هذا فضلا عن حذقهم لعلم الكلام .

فألف الباقلاني ( المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ) كتابه « إعجاز القرآن » للكشف عما في القرآن الكريم من إعجاز دون الرد على مطاعن الملاحدة عليه لأن بعض أهل الأدب قد سبقوه إلى ذلك فكفوا ، وأتى المتكلمون على ما وقع إليهم فشفوا [1] . وتحدث عن وجوه البديع ليرى هل يمكن تعليل الإعجاز بها أو لا يمكن . وسنخص هذا الكتاب بفضل بيان في الفصل الثاني من هذا الباب .

وظل للنقاد نشاطهم البلاغي في القرن الخامس الهجري ، فعني بعضهم بدرس صناعة الشعر وصناعة النثر وبيان ما يجري فيهما من صور البيان والبديع ، وهو درس لا يقصد به إلى بيان إعجاز القرآن ، ولا إلى نقد مقارن بين الشعراء ولا إلى تطبيق نظريات أرسطو والفكر اليوناني على البلاغة العربية ، وخير ما يمثل ذلك كتاب « العمدة » في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ) .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٢٦ .

وكان لبيئة الأدباء أكبر الأثر . فقد مضى ابن سنان الخفاجى ( المتوفى سنة ٤٦٦ هـ ) . يدرس فصاحة الكلام فى كتابه « سر الفصاحة » درسا منهجيا دقيقا . . ويمتد نشاط هذه البيئة فى القرن السادس الهجرى فيؤلف أسامة بن منقذ ( المتوفى سنة ٥٨٤ هـ ) كتابه « البديع فى نقد الشعر » وسنخص كل كتاب من الكتب الثلاثة بفضل بيان .

وجاء عبد القاهر الجرجانى[1] ( المتوفى سنة ٤٧١ هـ ) ، وكان فقيها شافعيا ومتكلما أشعريا ، واستطاع أن يضع نظريتى علمى المعانى والبيان وضعا دقيقا ، أما النظرية الأولى فخص بعرضها وتفصيلها كتابه « دلائل الإعجاز » وأما النظرية الثانية فخص بها وبمباحثها كتابه « أسرار البلاغة » وينبغى أن نلاحظ منذ أول الأمر أن قسمة البلاغة إلى علوم ثلاثة ، هى : المعانى والبيان والبديع ، لم تكن قد استقرت حتى عصر عبد القاهر.[2] ومن يرجع إلى مطالع كلامه فى دلائل الاعجاز يجده يسمى مباحثه فيه مباحث بيانية إذ يقول[3]: « إنك لا ترى علما أرسخ أصلا وأبسق[4] فرعا ، وأحلى جنى ، وأعذب وردا ، وأكرم نتاجا ، وأنور سراجا من علم البيان » . وحقا إنه عرض فيه للمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه ، ولكنه إنما جاء بها فى ثنايا تفسيره لنظرية النظم التى أدار عليها الكتاب واستخرج منها شُعب علم المعانى . وتقترن بكلمة البيان فى الكتاب كلمتا الفصاحة والبلاغة.[5] وكأنها جميعا ذات

---

(١) انظر فى حياة عبد القاهر روضات الجنات ١٤٣ وأنباه الرواه ٢/ ١٨٨ وما به من مراجع .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦٠ .

(٣) دلائل الإعجاز ( تصحيح أحمد مصطفى المراغى ـ ط . المطبعة العربية . الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ ) ص ٤ .

(٤) أبسق : أطول .

(٥) دلائل الإعجاز ص ٣٠ ، ٣٨ وفى مواضع مختلفة .

دلالة واحدة . ونفس كتابه الثانى سماه « أسرار البلاغة » وهو خالص لمباحث البيان وللونين من البديع اللفظى هما الجناس والسجع ، ونراه يقول فى فواتحه : « وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع »[1] وكأنه يعد الاستعارة مقتديا بابن المعتز من مباحث البديع .

وواضح من ذلك أن عبد القاهر كان يرى أن علوم البلاغة علم واحد تتشعب مباحثه ، وسمى فى الدلائل علم المعانى باسم « النظم » وهو اصطلاح كان يشيع فى بيئة الأشاعرة الذين كانوا يعللون إعجاز القرآن بنظمه .

ويستهل عبد القاهر كتابه الدلائل بفصل[2] عقده لتحقيق القول فى البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة ذهب فيه إلى أن هذه الأوصاف لا ترجع إلى اللفظ ، وإنما ترجع إلى النظم وكيفيات الصياغة وخصائصها ، ومن ثم ذهب إلى أن اللفظة من حيث هى لفظة لا وزن لها فى فصاحة أو فى بيان أو بلاغة ، يقول : « وهل تجد أحداً يقول هذه الكلمة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها »[3] ويبسط الكلام فى ذلك منتهيا إلى قوله : « قد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر »[4] ويمثل لذلك بأمثلة يثبت بها أن

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦١ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٠ ومابعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٣٩، ٣٢.

(٤) المصدر السابق ص ٣٣ .

اللفظة ليس لها صفة أدبية ذاتية ، بحيث يمكن أن نصفها بوصف الفصاحة والبلاغة ، ويمضى طويلا فى تفسير النظم ، ثم يعود إلى المسألة معلنا النكير على من يرد البلاغة والفصاحة إلى المعانى قائلا[١] : «واعلم أن الداء الدوى والذى أعيا أمره فى هذا الباب غلط من قدّم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى، يقول : ما فى اللفظ لولا المعنى وهل الكلام إلا بمعناه . فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر ، فإن مال إلى اللفظ شيئا ورأى أن ينحله بعض الفضيلة لم يعرف غير الاستعارة» . ثم يقول واعلم أنك لست تنظر فى كتاب صنف فى شأن البلاغه ، وكلام جاء عن القدماء إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب ،ورأيتهم يتشددون فى إنكاره وعيبه والعيب به ، وإذا نظرت فى كتب الجاحظ وجدته يبلغ فى ذلك كل مبلغ ويتشدد غاية التشدد وقد انتهى فى ذلك إلى أن جعل العلم بالمعانى مشتركا وسوى فيه بين الخاصة والعامة »[٢] وينقل عنه فى ذلك كلاما منه قوله : «المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير»[٣] .

وعبد القاهر بذلك ينكر أن للمعانى مزية فى البلاغة ، كما أنكر ذلك بالقياس إلى الألفاظ من حيث هى ألفاظ فى مستهل كتابه ، فالمعول إنما هو على النظم والأسلوب والصياغة كما يدل كلام الجاحظ .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٦٤ و نظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٦٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، والحيوان ٣/١٣١ . وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٤٢٣ ، ٤٠٤ .

وقد أستأداه الأمر بعد ذلك أن يبين فيم يكون جمال الأسلوب وبلاغته، ولهذا راح يدرس « الجملة » فى حالتى انفرادها واتصالها بغيرها . ولإيمانه بأن مزية النظم إنما تكون بمراعاة قواعد النحو ، نراه يعرض بالكلام لأهمية حروف العطف ، وللتقديم والتأخير وأوجهه وأسبابه ، وللحذف ، كحذف المبتدأ أو المفعول به ، أو حذف الواو من الجملة الحالية ، وأسباب الحسن فى حذفها حيناً وذكرها حينا آخر .

كذلك يضطره الجرى وراء مواطن نظم الكلام أو الأسلوب إلى البحث فى قيمة الإيجاز والإطناب ، والفصل والوصل، والقصر وطرقه والفروق المعنوية بينها ، والتغييرات التى تحدثها متعلقات الفعل فى معنى جزءى الجملة ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وفروق الخبر ، ومجيئه بالألف واللام ، وما لكل ذلك من أثر فى بلاغة الأسلوب وروعته.(١)

وعبد القاهر بكل هذه الموضوعات التى بحثها بقصد الوصول إلى معرفة العناصر التى يستدل بها على بلاغة نظم الكلام ، أو على بلاغة الأسلوب يكون قد وضع الأساس الأول لعلم المعانى .

وعلى نحو ما وضع عبد القاهرة نظرية المعانى ، وضع أيضاً نظرية البيان لأول مرة فى تاريخ العربية ، وحقا إن كل الفصول التى بحثها سبقه إليها البلاغيون بالبحث ، ولكنهم لم يحرروها ولم يبحثوا دقائقها على نحو ما بحثها وحررها عبد القاهر فى كتابه « أسرار البلاغة » فقد ميز أقسامها وفروعها وحلل أمثلتها تحليلا بارعاً(٢) .

و « أسرار البلاغة » هو الكتاب الذى وضع فيه عبد القاهر نظرية

---

(١) فى تاريخ البلاغة العربية ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٩٠ .

« علم البيان » بقواعده ومباحثه ، وشعبه وتفريعاته الكثيرة ، والحق يقال إنه كتاب فريد فى بابه ، فهو بحث فى البيان العربى ، يدل على غزارة علم صاحبه وسلامة ذوقه ، وعقليته الجبارة المبتكرة . وهو باستثناء ما ورد فيه عن بعض فنون البديع من جناس وسجع — بحث أصيل عميق فى أصول علم البيان من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة .

ويستهل عبد القاهر الكتاب بالحديث عن الجناس والسجع محاولا أن يثبت أن الجمال فيهما لا يرجع إلى جرْس الحروف وظاهر الوضع اللغوى ، وإنما يرجع إلى مسائل معنوية من شأنها أن ترْضى العقل ، وبمقدار هذا الرضا يكون جمال الجناس ، ومن هنا كنّا لا نُعْجَبُ بجناس أبى تمام فى قوله يمدح الحسن بن وهب :

ذَهَبتْ بمذْهَبِهِ السّماحةُ فالتوتْ
فيه الظّنون أَمَذْهَبٌ أم مُذْهبُ(١)

إذ أعاد كلمة مذهب مضمومة الميم ، فبدا تكلفه واضحا ، وبون بعيد بين هذه الجناس التام وجناس بعض الشعراء فى قوله :

ناظِراه فيما جـــنى ناظِراهُ
أَوْ دعانى أَمُتْ بما أودعانى

ونراه يعلق على هذا البيت تعليقه عليه فى دلائل الإعجاز إذ يقول(٢) : « إن الشاعر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فجمال الجناس يرجع إلى

---

(١) أسرار البلاغة ص ٦ وديوان أبى تمام ١ /١٢٩ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٩١ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٨ وانظر دلائل الاعجاز ص ٣٣٢.

هذا الخداع اللغوى الذى جعلنا الشاعر فيه نظن أن معنى الكلمة الثانية هو معنى الكلمة الأولى . وسرعان ما تتنبه إلى أنها غيرها وأنها تعطينا شيئاً جديدا ، وكأنها عطية غير مرتقبة ، وكل هذا يرجع إلى المعنى النفسى لا إلى صوت الحروف الحسى[1] ، ولم يقف فى كتابه دلائل الإعجاز إلا عند هذا الجناس التام ، أماهنا[2] فإنه وقف أيضاً عند الجناس الناقص فى مثل قول أبى تمام فى وصف بسالة بعض الجيوش[3] :

يمدُّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ
تصولُ بأسْيافٍ قواضٍ قواضب

وصور فى تعليقه عليه أن حسن هذا الجناس يرجع أيضاإلى المعنى النفسى، ذلك أن السامع يتوهم قبل أن يرد عليه الحرف الأخير فى كلمتى « عواصم » و « قواضب » أنهما نفس الكلمتين اللتين مضتا ، حتى إذا وعاها سمعه انصرف عنه ذلك التوهم ، وحصلت له فائدة جديدة بعد اليأس منها . ومن أجل ذلك حسن الجناس لما تضمن من هذه المفاجأة ومن هذا الخداع ، على أنه ينبغى ألا يكثر منه الشاعر حتى لايجنى عليه إكثاره فيخرج عن صوره التى يرضاها العقل إلى صور متكلفة مستكرهة[4] .

ويقف من السجع موقفه من الجناس ومثّل بأمثلة من الشعر والنثر منها قول القائل : « اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجداً ، فلا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال » (٥) ويطلب عدم التوّسع فى استخدامه حتى لا يؤول ذلك إلى

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٩١ .
(٢) أسرار البلاغة ص ١٨ .
(٣) ديوانه ١/٢٠٦ :
(٤) أسرار البلاغة ص ١٨ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٩٢ .
(٥) أسرار البلاغة ص ١٢ .

أن تُعْكس أغراض الكلام ، فتصبح المعانى خَدَماً للألفاظ ، وتصبح الألفاظ حَلْياً ووشياً خالصاً يغمر المعانى حتى لا تكاد تتضح ، وينوّه بأسلوب الجاحظ وأنه لم يكن فى مقدمات كتبه يعمد إلى السجع خشية أن يجور على معانيه . ويقول إن الكاتب ينبغى ألا يجلبه إلى كتابته . وما عليه إلا أن يرسل المعانى على سجيتها ، ويدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها[1] .

وعلى ذلك فالجناس أو السجع عند عبد القاهر لا يكتسب صفة القبول أو الحسن حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحـــوه ، أى أن المعنى هـو الذى يقود الكاتب نحو الجناس والسجع ، لا أن يقود هو المعنى إليهما .

وعرض عبد القاهر للطباق[2] وأشار إليه غير مرة فى كتابه ، كما عرض لما سماه البلاغيون بعده باسم « حسن التعليل » .

هذه هى فنون البديع التى عرض لها عبد القاهر ... ولعلنا نلاحظ أنه هو الذى وضع نظريتى « علم المعانى » و « علم البيان » واعتبر بذلك أول مؤسس لهذين العلمين ، إلا أنه لم يتوسع فى البديع توسعه فى مباحث المعانى والبيان .

وإذا كان قد عرض فى « أسرار البلاغة » للجناس والسجع والطباق وحسن التعليل فإن حديثه عنها لم يكن مقصودا لذاته ،وإنما جاء الحديث فى معرض الاستدلال على نظريته القائلة بأن الألفاظ ليست لها مزية فى الكلام من حيث هى ألفاظ ، وإنما المزية تأتى دائما من قبل الأساليب أو التراكيب

---

(١) أسرار البلاغة ص١٣ ، ١٤ .

(٢) المصدر السابق ص٢٠ .

وصور نظمها وتأليفها ، ذلك لأن الألفاظ لاتفيد حتى تؤلف نوعا خاصا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب .

وبذلك جاءت آراء عبد القاهر مغايرة لنظريات البلاغة السائدة ، واختلفت معاييره مع أنماط الأدب السائدة وقتذاك ، والتى كان عمادها علم البديع والاهتمام بالمحسنات اللفظية والاهتمام بالديباجة دون الاهتمام بالمعنى والفكرة .

وليس من شك فى أن عبد القاهر قد انتفع انتفاعا كاملا بجهود رجال كالجاحظ والآمدى الجرجانى ، ممن يشير إليهم فى غير موضع من كتابيه ، كما أن فى كتابيه أدلة ترجح ، بل تقطع بأنه تأثر بعمل الفلاسفة فى كتابى الشعر والخطابة ، فقد تحدث عن « التخييل »[1] حديث من اطلع على أقوال الفلاسفة فيه ، ويردف ذلك بقوله : « وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة[2] » وكذلك ترى من تشبيهه عمل الشاعر أو البليغ بالمصور غير مرة ، ما يجعلنا نميل إلى القول بأنه وقف على ماجاء فى ترجمة كتاب الشعر أو تلخيصه من مقارنة ثابتة للشعر بالتصوير[3] .

ذلك هو قليل من كثير عن عبد القاهر الجرجانى الذى ازدهرت البلاغة العربية على يديه فى القرن الخامس الهجرى ، فقد رسم حدودها وأبعادها وأقام على الطريق معالمها . وبث فيها من فكره الخصب ما أثراها وأضاء جوانبها فقد كان له حس مرهف وبصيرة نافذة استطاع بهما — على الرغم من محاولته وضع القوانين لنظريتى المعانى والبيان — أن يجعل منهما بنيتين حيتين تخلوان

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٤٥ وانظر كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ( للدكتور شكرى عياد ص ٢٤١ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٣١٤ وانظر كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ص ٢٤١ .

خلوا تاما من جفاف النظريات وقواعد العلوم ، بل لكأنهما روضان مونقان يرقان بالنضرة والعطر والضياء .

وقد وضح لنا أنه لم يحاول وضع نظرية فى علم البديع ، وإن كان قد فصَّل القول فى أسرار البلاغة عن الجناس والسجع وحسن التعليل وأشار غير مرة إلى الطباق ، ولكنه لم يحاول وضع نظرية عامة له ، ولو صنع لأعفى أصحاب البديع من توزع مباحثهم فيه توزعا حال بينه وبين أن تصبح له نظرية متشابكة على نحو نظريتى المعانى والبيان .

وجاء جار الله محمود[1] بن عمر الزمخشرى ( المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ) ، وكان كاتبا شاعرا ، تتلمذ على أكابر علماء عصره فى شتى علوم اللغة والنحو والأدب والتفسير والحديث والفقه والأصول والكلام. وكان معتزلى المذهب مجاهرا به وله مصنفات جليلة بجانب « الكشاف » من أهمها « المفصل » فى النحو ، وقد عُنى به من جاءوا بعده فشرحوه مرارا ، ومن أهم شروحه شرح ابن يعيش ، ومنها كتاب « الفائق فى غريب الحديث » ومعجمه « أساس البلاغة » مشهور ، وكتابه « أطواق الذهب » مطبوع ومعروف ، وهو صورة تقترب من صورة المقامات ، لأساليبه الأنيقة ، أما ديوانه فلم ينشر حتى الآن (٢) .

ونال شهرة مدوية فى العالم الإسلامى منذ عصره بسبب تفسيره « الكشاف » إذ استطاع أن يقدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن ، تعينه فى ذلك بصيرة

---

(١) انظر فى ترجمة الزمخشرى الأنساب للسمعانى الورقة ٢٧٧ وبغية الوعاة ص ٣٨٨ ووفيات الأعيان ٤/٢٥٤ ومقدمة كتاب الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ( نشر دار الكتاب العربى ببيروت ) سنة ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٢١٩ .

نافذة تتغلغل فى مسالك التنزيل ، وتكشف عن خفاياه ودقائقه ، كما يعينه ذوق أدبى مرهف ، يقيس الجمال البلاغى قياساً دقيقاً وما يطوى فيه من كمال وجلال، وهو من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق فى تاريخ التفسير ، بل لقد فاق الأوائل والأواخر ، حتى نرى أهـــل السنة يشيدون به وبتفسيره ، على الرغم من اعتزاله ، ومخالفتهم له فى عقيدته الاعتزالية. وحقا تعقبه ابن المنير قاضى الاسكندرية المالكى (المتوفى سنة ٦٨٣هـ) يرد عليه ما أقحمه فى التفسير من مسائل الاعتزال وشعبه(١) .

وجدير بالذكر أن اهتمام المعتزلة بتفسير الإعجاز البلاغى للقرآن اهتمام قديم ، فقد كتب فيه من رجالهم قبل الزمخشرى ، الجاحظ والرومانى ، وعبد الجبار المعتزلى وغيرهم .

أما الزمخشرى فقد أقبل على الدراسات البلاغية يعب منها وينهل ، ولم يلبث أن وجد خير منهل له كتابات عبد القاهر الجرجانى فى (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) فدرسها حتى تمثلها تمثلا منقطع النظير ، وهو تمثل جعله يؤمن بأن المعرفة بالبلاغة وأنماطها وأساليبها لاتكشف فقط عن وجوه الإعجاز البلاغى . فى القرآن ، بل تكشف أيضا عن خفايا معانيه وخبيئتها وذخائرها المكنونة .. يقول فى مقدمة الكشاف: « إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح ، من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم . . . فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ والواعظ وإن كان من

(١) طبع هذا الرد على هامش الكشاف .

الحسن البصرى أوعظ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن : وهما علم المعانى وعلم البيان، وتمهل فى ارتيادهما آونة، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة » .(١)

وواضح أنه يجعل علمى المعانى والبيان أهم عُدة لمن يريد أن يفسر القرآن إذ بدونهما لا يتأتى له الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن وفهم مرامى معانيه. على ذلك فالتفسير عند الزمخشرى ليس قاصراً على معرفة معانى القرآن فحسب، وإنما هو أيضا بيان لأسرار إعجازه، بل إن معرفة معانيه لا تتكشف له على حقيقتها إلا إذا كان متمرسا بأساليب البيان، بصيرا بكل دقائقها ومعانيها.

والواقع أن من يمعن النظر فى كشاف الزمخشرى يخرج بحقيقتين : إحداهما أنه استوعب كل ما كتبه عبد القاهر فى كتابيه « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » وتشبع بروحه واتجاهه البلاغى، وردد كثيرا من كلامه. والحقيقة الثانية : أن الكشاف يعد خير تطبيق على كل ما اهتدى إليه عبد القاهر من قواعد المعانى والبيان. فقد اتخذ الزمخشرى من آى الذكر الحكيم أمثلة وشواهد يوضح بها كل قواعد عبدالقاهر البلاغية سواء ما اتصل منها بعلم المعانى أو علم البيان، وقد ساعده على ذلك حسه المرهف وعقله الثاقب.

وإذا كان عبد القاهر هو مؤسس علم المعانى، وعلم البيان، وهو من استنبط من جزئيات كل علم منهما الكثير من قواعده، فإن الزمخشرى هو

---

(١) مقدمة الكشاف ١/ن .

من أكمل هذه القواعد بالإضافات الجديدة التي وفق إليها ، وجاءت مفرقة فى تضاعيف تفسيره « الكشاف » .

وجدير بالذكر أن المتكلمين فى القرن الخامس من الباقلانى إلى عبد القاهر ينحُّون البديع عن مباحث أسرار البلاغة فى الذكر الحكيم ، وقد رأينا عبد القاهر يكتشف نظرية المعانى ، ويضع نظرية البيان بمنشا بكاتها الكثيرة ، وعرض فى تضاعيفها للسجع والجناس وحسن التعليل والطباق ، ولكنه لم يُعنَ بعد ذلك بتفصيل القول فى ألوان البديع ، إذ كان يرى — كما رأى المتكلمون من قبله — أنه لا يدخل فى قضية الإعجاز القرآنى ، لأن كثيرا من ألوانه مستحدث وما جاء منه فى القرآن إنما جاء دون تأت له وتكلف. ومضى الزمخشرى على هذا الهدى لا يعنى بما جاء فى الآيات الكريمة من بديع إلا عرضا . ونرى السيد الجرجانى ينقل عنه أنه لم يكن يعد البديع علما مستقلا من علوم البلاغة ، إنما كان يعده ذيلا لها وتقمة تُحملُ عليها .[1]

وكانت هذه النظرة إلى البديع عنده سببا فى أن لا يطيل النظر فى ألوانه القرآنية ، وأن لا يلم بها إلا فى الحين البعيد بعد الحين ، وإذا ألم بها مسها فى خفة كإشارته الى الطباق فى تفسير قوله تعالى : ( ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون )[2] . إذ قال : إنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له »[3] . ونراه يعرض للمشاكلة فى آيات كثيرة ، من ذلك آية البقرة : ( ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها )[4] .

---

(١) شرح المفتاح للسيد الشريف الجرجانى ( نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية برقم ٢٠ بلاغة ) الورقة الثانية ، وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٢٣ ، ٢٦٥

(٢) سورة البقرة ( آية ١٣ ) .

(٣) الكشاف ١/ ٦٥

(٤) سوره البقرة ( آية ٢٦ ) .

يقول : «يجوز أن تقع هذه العبارة فى كلام الكفرة فقالوا: أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ، فجاءت على سبيل المقابلة . وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع ، وطراز عجيب ، منه قول أبى تمام: (١)

من مبلغ أفناء يعْرب كلّهـــا
أنّى ابتنيت الجـــار قبل المنزل ؟

وشهد رجل عند شريح فقال : إنك لسبط الشهادة . فقال الرجل : إنها لم تجعد عنى . فقال : لله بلادك ، وقبل شهادته . فالذى سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة .

ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، وسبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها . ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه »(٢) .

ويقول تعليقاً على آية سبأ(٣) : ( فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أُكُلٍ خمْطٍ وأثْل وشىء من سدْر قليل ) (٤) (تسمية البدل جنّتين لأجل المشاكلة وفيه ضرب من التهكّم )(٥) .

ومن الفنون البديعية التى عرض لها كثيراً فى تفسيره « اللف والنشر » ففى آية البقرة : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك

(١) ديوانه ٣/٤٩ .
(٢) الكشاف ١/١١٣ .
(٣) سورة سبأ ( آية ١٦ ) .
(٤) كأنه قيل . وبدلناهم جنتين ذواتى أكل بشع . الأكل : الثمر . الخمط : شجر الأراك ، وهو والأثل والسدر من أشجار البادية التى لا تثمر .
(٥) الكشاف ٣/٥٧٦ .

أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ) (١) يقول : « المعنى وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى :لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يردُّ إلى كل فريق قوله، وأمناً من الإلباس لما عُلم من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه » (٢) ويقول تعليقا على آية الصيام فى سورة البقرة :

( فمن شهد منكم الشّهر فَلْيَصُمْهُ ومن كان مريضاً أو على سفر فعدَّة من أيّام أُخر يريد الله بكم اليُسْر ولا يريد بكم العُسْر ولتُكْملوا العدّة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ) (٣). قوله ( ولتكملوا ) علة الأمر بمراعاة العدّة و ( لتكبروا ) علة ما عُلم من كيفية القضاء والخروج عن عُهْدة الفِطْر ( ولعلكم تشكرون ) علّة الترخيص والتّيسير ، وهذا نوع من اللّف لطيف المسلك لا يكاد يهتدى إلى تبيّنه إلا النقاب المحدث ( صادق الحدث ) من علماء البيان )(٤) .

ويقول تعليقا على آية القصص : ( ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ) (٥) : « زواج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة : لتسكنوا فى أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل الله فى الآخر وهو النهار ولإراده شكركم ، وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف » (٦)

ومما كان يعده من البيان وعده من جاءوا بعده من البديع الالتفات

(١) سورة البقره ( آية ١١١ ) .
(٢) الكشاف ١/١٧٧ .
(٣) سورة البقره ( آية ١٨٥ ) .
(٤) الكشاف ١/٢٢٨ .
(٥) سورة القصص ( آية ٧٣ ) .
(٦) الكشاف ٣/٤٢٩ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٦٧ .

متأثرين بنظم ابن المعتزله من قديم في فنونه، وأول ما نراه يقف عنده من صوره الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في فاتحة الذكر الحكيم، فقد مضى صدرها في لفظ الغيبة، ثم تُرِك إلى الخطاب في الآية الكريمة: (إياك نعبد وإياك نستعين)[1] يقول:[2] «فإن قلت: لِمَ عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت هذا: يسمى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم) وقوله تعالى: (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه). وقد التفت أمرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات:[3]

تطاول ليلك بالأثْمُدِ
ونام الخَلِيُّ، ولم تَرْقُدِ[4]
وباتَ وباتتْ له ليلةٌ
كَلَيْلةِ ذى العائر الأرْمَدِ
وذلك من نبأ جاءَنى
وخُبِّرْته عن أبى الأسودِ

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للاصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد».

ويعلق الدكتور شوقى ضيف على كلام الزمخشرى في أبيات امرىء القيس فيقول: وواضح أن الزمخشرى يجعل في كل بيت التفاتا، وكأنه

(١) سورة الفاتحة (آية ٥).
(٢) الكشاف ١/١٣، ١٤.
(٣) ديوان امرىء القيس ص ٨٤،
(٤) الأثمد: اسم موضع، ذى العائر: ذى الجفن العائر وهو مابه العوار أى القذى لوجعه ورمده.

يجعل عدول امرىء القيس فى البيت الأول إلى الخطاب بدون سبق البيت بما يدل لفظا إلى هذا العدول التفاتاً ، إذ يكفى عنده الخروج عن مقتضى الظاهر تقديراً ، وقد عدل امرؤ القيس فى البيت الثانى إلى الغيبة كما هو واضح فى « بات » أما البيت الثالث فعدل فيه إلى التكلم كما هو واضح فى « جاءنى » (١) .

ومما ذكره تأكيد المدح بما يشبه الذم يقول تعليقاً على آية البروج : ( وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ) : (٢) « وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان . كقوله :

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم
بهنَّ فلولٌ من قِراع الكتائبِ

وقال ابن الرُّقَيَّات :

وما نقموا من بنى أميَّـــــة إلا
أنهـــم يَحْلُمون إن غضبوا (٣)

ووقف عند مراعاة النظير والتناسب واستخرج منها الترشيح فى الاستعارة بما يناسب المستعار ، والتجريد بما يناسب المستعار له . يقول تعليقا على آية البقرة : ( أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ) (٤) : « فإن قلت هب أن شراء الضلالة بالهدى ، وقع مجازا فى معنى الإستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة ؟ كأن ثم مبايعة على الحقيقة ؟ قلت : هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ،

---

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ( هامش ص ٢٦٧ ) .
(٢) سورة البروج ( آية ٨ ) .
(٣) الكشاف ٤/٢٣١ .
(٤) سورة البقرة ( آية ٦٦ ) .

ثم تقفى بأشكال لها وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا ، وهو المجاز المرشح ، وذلك نحو قول العرب فى البليد : كأن أذنى قلبه خطلاوان ، جعلوه كالحمار ثم رشحوا ذلك روما لتحقيق البلادة ، فادعوا القلبه أذنين ، وادعوا لهما الخطل ( الاسترخاء ) ليمثلوا البلادة تمثيلا يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة ونحوه :

ولمّا رأيتَ النَّسْرَ عَزَّ ابنَ دَأْيَةَ
وعشَّش فى وكْرَيْهِ جاشَ له صَدْرِى[1]

لما شبه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر . ونحو قول بعض فُتَّاكهم فى أمه :

فما أمُّ الرُّدَيْنِ وإن أدلَّتْ
بعالمةٍ بأخلاق الكرامِ
إذا الشيطانُ قصَّع فى قفاها
تنفّقناه بالحبل التُّؤامِ

أى إذا دخل الشيطان فى قفاها استخرجناه من نافقائه ( جحره ) بالحبل المثنى المحكم ، يريد : إذا حردت وأساءت الخلق اجتهدنا فى إزالة غضبها وإماطة مايسوء من خلقها . استعار التقصيع أولا ، ثم ضم إليه التنفق ثم الحبل التؤام . فكذلك لما ذكر ، سبحانه الشراء أتبعه بما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه تمثيلا لخسارهم وتصويراً لحقيقته » (٢) .

ويلاحظ الزمخشرى أن هذا الترشيح الذى يلائم المستعار يقابله نمط آخر من التعبير ، يؤتى فيه بما يلائم المستعار له ، وهو مايسمى بالتجريد .

(١) ابن دأيه : الغراب ، وواضح أنه شبه الرأس واللحية بالوكرين .
(٢) الكشاف ١/ ٧٠، ٧١ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

يقول تعليقا على آية النحل : ( فأذاقها الله لباس الجوع والخوف )[١] :
« يقولون ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب : شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر البشع ، وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ، وما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث ، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل : فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف . ولهم فى نحو هذا طريقان لابد من الإحاطة بهما .. أحدهما أن ينظروا فيه إلى المستعار له كما نُظر إليه ههنا ونحوه قول كثيّر :

غَمْرُ الرِّداء إذا تبسَّم ضاحكا
غلِقتْ لضحكته رقابُ المـــالِ

استعار الرداء للمعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه صون الرّداء لما يُلقَى عليه ، ووصفه بالغمر ( الكثير المحيط ) الذى هو وصف المعروف والنوال ، لا صفة الرداء نظراً إلى المستعار له . والثانى أن ينظروا فيه إلى المستعار .. ولو نُظر إليه فيما نحن فيه لقيل : فكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير : ضافى الرداء إذا تبسم ضاحكا »[٢] :

ونراه يشير إلى التقسيم فى مواضع مختلفة ، من ذلك آية فاطر : ( ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير )[٣] يقول :
« قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم وهو المرجىء لأمر الله ، ومقتصد : وهو الذى

---

(١) سورة النحل آية ١١٢ .
(٢) الكشاف ٢/٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ .
(٣) سورة فاطر آية ٣٢ .

خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وسابق من السابقين »[١] .

وقد يسمى التقسيم التفصيل ، يقول تعليقا على آية البقرة : ( وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء[٢] ) وقرأ الأعمش : يغفر بغير فاء مجزوما على البدل من يحاسبكم ... ومعنى هذا البدل التفصيل لجملة الحساب لأن التفصيل أوضح من المفصّل »[٣] .

وتكلم عن الاستطراد فى آية فاطر : ( وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهـذا ملح أجاج ومن كلٍّ تأكلون لحما طريًّا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون )[٤] فإن الله ضرب البحرين : العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر ، ثم قال على سبيل الاستطراد فى صفة البحرين وما علق بها من نعمته وعطائه[٥] .

تلك كانت مساهمة الزمخشرى فى علم البديع ، وهى مساهمة لم يكن القصد منها خدمة مباحث هذا العلم بمقدار ما كان القصد منها بيان أثرها فى بلاغة القرآن وإعجازه .

وبعد ... فقد رأينا فى هذا الفصل غياب بيئة المتفلسفة عن المسرح البلاغى وازدياد نشاط المتكلمين الذى توجه عبد القاهر الجرجانى بكتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ورأينا كيف أثبت النقاد والأدباء وجودهم فى القرن الخامس الهجرى .

---

(١) الكشاف ٣/٦١٢ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٦٩ .
(٢) سورة البقرة ( آية ٢٨٤ ) .
(٣) الكشاف ١/٣٣٠ ، ٣٣١ .
(٤) سورة فاطر ( آية ١٢ ) .
(٥) الكشاف ٣/٦٠٤ .

# الفصل الثانى

## إعجاز القرآن ( للبقلانى )

# الفصل الثانى

## إعجاز القرآن ( للباقلانى )

مصنّف هذا الكتاب هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى[1] (المتوفى سنة ٤٠٣ للهجرة) ، وهو من أعلام المتكلمين على مذهب الأشاعرة . نشأ فى البصرة وتثقف ثقافة عربية إسلامية منوعة على كبار علماء عصره ، فأخذ الفقه عن أبى بكر الأبهرى ( ٢٨٩ — ٣٧٥ هـ ) والحديث عن أبى بكر القطيعى راوى مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ( ٢٧٤—٣٦٨ هـ ) والأصول عن أبى عبد الله الشيرازى ( المتوفى سنة ٣٧١ هـ ) ،والكلام عن أبى عبد الله الطائى صاحب أبى الحسن الأشعرى ، واللغة عن أبى أحمد العسكرى خال أبى هلال العسكرى . وتلقّى المذهب الأشعرى على اثنين من أعرف العلماء به ، وأخصّ تلاميذ الأشعرى ، هما أبو الحسن الباهلى البصرى ، وأبو بكر ابن مجاهد[2] .

يقول ابن خلدون فى مقدمته أثناء حديثه فى فصل علم الكلام : « وكثر أتباع الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، واقتفى طريقته من بعده تلاميذه ، كابن مجاهد وغيره ، وأخذ عنهم القاضى أبو بكر الباقلانى ، فتصدّر للامامة فى طريقتهم وهذبها ، ووضع المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وأن العرض لا يقوم

---

(١) راجع ترجمته فى شذرات الذهب ٣/ ٩٦٠ والأنساب للسمعانى ص ٦١ .

(٢) انظر مقدمة إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨ ، ١٩ .

بالعرض ، وأنه لا يبقى زمانين ، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم ، وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية فى وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها ، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول . فكملت هذه الطريقة ، وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية ، إلا أن صور الأدلة فيها بعض الأحيان ، على غير الوجه الصناعى لسذاجة القوم . ولأن صناعة المنطق التى تسبر بها الأدلة وتعتبر بها الأقيسة ، لم تكن حينئذ ظاهرة فى الملة ، ولو ظهر منها بعض الشىء ، فلم يأخذ به المتكلمون ، لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة ، فكانت مهجورة عندهم لذلك ، ثم جاء بعد القاضى أبى بكر الباقلانى إمام الحرمين أبو المعالى ، فأملى فى الطريقة كتاب الشامل ، وأوسع القول فيه ثم لخصه فى كتاب الإرشاد ، واتخذه الناس إماماً لعقائدهم » (١) .

وللباقلانى مصنفات كثيرة لم يصلنا منها غير ثلاثة كتب: « التمهيد »(٢) وهو من أهم الكتب الكلامية التى يعتز بها أهل السنة ، لأنه أجمع كتاب يبصرهم بمسائل الخلاف بينهم وبين مخالفيهم فى الرأى والعقيدة ، ويرشدهم إلى أقوى الأدلة الجدلية ، والبراهين العقلية التى تعضد مذهبهم . وكتاب « رسالة الحُرَّة » وقد طبع تحت اسم « الإنصاف »(٣) وكتاب « إعجاز القرآن » موضوع بحثنا .

أما بقية كتبه فمنها ما هو مفقود ، ومنها مالا يزال مخطوطاً فى مكتبات

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٣٤ ، ٨٣٥ .

(٢) طبع بالقاهرة فى سنة ١٣٦٦ هـ . بتحقيق الأستاذين محمود محمد الخضيرى ، محمد عبد الهادى أبو ريدة

(٣) طبع بالقاهرة فى سنة ١٣٦٩ هـ بتحقيق المرحوم الشيخ محمد زاهد الكوثرى .

الشرق والغرب ينتظر منّا من يبعثه من مرقده بالتحقيق والنشر.

وكان الباقلانى لسنا بارعاً فى الجدل والاحتجاج، ومن الأبحاث التى عنى بها مبحث الإعجاز فى القرآن، وخص به كتاباً مفرداً، هو هـــذا الـكتاب الذى بين أيدينا.

وقد استهلّه بالتعرض لمطاعن الملاحدة على أسلوب الذكر الحكيم، مبيناً أن الحاجة إلى الحديث فى إعجاز القرآن أمسّ من الحاجة إلى المباحث اللغوية والنحوية(١)، ويشير إلى أن الجاحظ صنّف فى نظم القرآن كتاباً، ويقول: « إنه لم يزد فيه على ما قاله المتـكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى(٢) ».

ويمضى فى الـكتاب فيجعل أول فصل فيه لبيان أن القرآن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى معجزة تقوم على بلاغته، ويستشهد لذلك بآى من الذكر الحـكيم. ويفتتح فصـلا ثانياً يتم به الفصل الأول وما ساق فيه من حجج على إعجاز القرآن، وفى تضاعيف ذلك يرد ردّاً عنيفاً على من عللوا لإعجاز القرآن بالصّرفة أو بعبارة أخرى بصرف العرب عن معارضته، وواضح أنه إنما يرد هنا على المعتزلة(٣).

ويفتتح فصلا لبيان وجوه الإعجاز القرآنى فى رأيه ورأى الأشاعرة من أصحابه، ولم يلبث أن عقد فصلا لنفى الشعر عن القرآن، وتلاه بفصل ثان عن نفى السجع عنه(٤)، ردّ فيه ما ذكره الرمانى من أن فواصله تباين

---

(١) إعجاز القرآن ص ٥.

(٢) المصدر السابق ص٦.

(٣) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٨.

(٤) انظر إعجاز القران ص٥٧ وما بعدها

السجع مباينة تامة ، إذ الفواصل تتبع المعنى ، أما السجع فيتبعه المعنى .

ويعقد عقب ذلك فصلا يتحدث فيه عن وجوه البديع ، وتصوّر أن سائلا يسأل : هل يمكن أن يُعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمَّنه من البديع ؟ ويجيب الباقلانى عن هذا السؤال بإيراد بعض ألوان من البديع ، مما عرف بعضه عند ابن المعتز ، وبعضه عند قدامة ، وبعضه عند أبى هلال العسكرى وخاله ، وغير هؤلاء من الذين درسوا البديع واستنبطوا بعض فنونه ، ويعرض معها نماذج من أمثلتهم لتلك الفنون ، ويعقّب عليها بنماذج وردت فى القرآن الكريم — وهذه الفنون هى :

١ ـ الاستعارة :

استهل الباقلانى كلامه فى البديع بالحديث عن الاستعارة [١] مثله فى ذلك مثل ابن المعتز فى كتابه « البديع » وأبى هلال العسكرى فى كتابه « الصناعتين » ، إلا أنه لم يضع لها تعريفاً محدداً ، ولكنه أتى بأمثلة وشواهد لم تخرج فى جملتها عما استشهد به ابن المعتز وأبو هلال العسكرى .

٢ ـ الإرداف :

عرفه بنفس تعريف قدامة بن جعفر فقال : « هو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ هو تابع له وردف [٢] ومثل له بما مثل به قدامة .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٦٦ ـ ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٧١ وانظر نقد الشعر ص ١٧٨ .

٣ — التشبيه الحسن :

يقول الباقلاني : «ومما يعدّونه من البديع التشبيه الحسن كقول امرىء القيس[١] .

كأنَّ قلوبَ الطّيرِ رطْباً ويابساً
لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالِي

واستبدعوا تشبيه شيئين بشيئين على حسن تقسيم ، ويزعمون أن أحسن ما وجد للمحدثين فى هذا قول بشار[٢] :

كأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فوقَ رءوسنا
وأسيافَنَا ليلٌ تهاوَى كواكِبُهْ

ومن البديع عنده فى التشبيه قول امرىء القيس[٣] :

له أيْطَلا ظَبْيٍ وساقَا نعامةٍ
وإرْخاء سِرْحَانٍ وتقريبُ تتفُلِ

وذلك فى تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء ، أحسن فيها . ومن التشبيه الحسن فى القرآن قوله تعالى : « ولهُ الجوارِ المنشآتُ فى البحر كالأعلامِ »[٤] وقوله تعالى : « كأنّهنّ بيض مكنون »[٥] .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٧٢ وانظر ديوان امرىء القيس ص ١٤٥ .
(٢) ديوانه ص ٥٥ .
(٣) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/٧٥٧ وما به من مراجع .
(٤) سورة الرحمن ( آية ٢٤ ) .
(٥) سورة الصافات ( آية ٤٩ )

٤ — الغلو والإفراط فى الصفة[1] :

كقول النمر بن تولب[2] :

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ

أسبادَ سيف قديم أثرهُ بادى[3]

تظلُّ تحفرُ عنه إن ضربت به

بعد الذراعين والساقين والهادى

ومن هذا الجنس فى القرآن : ( يوم نقول لجهنّم هل امتلأتِ وتقول هلْ من مزيد )[4] وقوله : ( إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لهـا تغيظاً وزفيراً )[5] .

٥ — المماثلة :

وهو من الفنون التي أخذهـا عن أبى أحمد العسكرى ونراه يتفق مع أبى هلال فى التسمية ، بينما يختلف مع قدامة إذ كان يسميه « التمثيل » دالاً به على الاستعارة التمثيلية وبعض صور الكناية[6] ،

٦ — المطابقة :

يقول : « ويرون من البديع أيضاً ( المطابقة ) وأكثرهم على أن معناها أن يذكر الشيء وضدّه ، كالليل والنهار ، والسواد والبياض . وإليه ذهب

(١) اعجاز القرآن ص ٧٧ .
(٢) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١/٣٠٩ ومابه من مراجع .
(٣) نقد الشعر ص ٦٢ والموشح ص ١١٣ والصناعتين ص ٣٦٠ .
(٤) سورة ق ( آية ٣٠ ) .
(٥) سورة الفرقان ( آية ١٢ ) .
(٦) إعجاز القرآن ص ٧٨ وانظر نقد الشعر ص ١٨١ والصناعتين ص ٣٥٣ .

الخليل بن أحمد والأصمعى ، ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز[1] ويصرح هنا بنقله عن ابن المعتز ولا يلبث أن يذكر خلاف قدامة له فى هذا اللقب ، إذ أطلقه على صورة من الجناس الكامل على نحو ما أسلفنا فى الحديث عنه. ومن أمثلة المطابقة عند الباقلانى قوله تعالى : ( يولجُ الليل فى النهار ويولجُ النهار فى الليل)[2] .

٧ — التجنيس :

عرفه فقال : « هو أن تأتى بكلمتين متجانستين[3] وذكر أن منه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى فى تأليف حروفها ومعناها . . . ومنهم من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق . . . كقوله عز وجلّ : ( فأقمْ وجهك للدين القيّم )[4] . . . ويلاحظ أن الباقلانى قد ذكر الفرق بين ابن المعتز وقدامة فى معنى التجنيس[5] ، إذ عمّمه ابن المعتز فى كل كلمتين متجانستين فى تأليف حروفهما ، بينما خصّه قدامة بجناس الاشتقاق كما مرّ بنا .

٨ — المقابلة :

عرفها بقوله : « هى أن يوفق بين معان ونظائرُها والمضاد بضده » وذلك مثل قول النابغة الجعدى :

فتى تم فيه ما يسرُّ صديقَه
على أن فيه ما يسوء الأعاديا

---

(١) إعجاز القرآن ص ٨٠ .
(٢) سورة الحج ( آية ٦١ ) .
(٣) إعجاز القران ص ٨٣ .
(٤) سورة الروم ( اية ٤٢ ) .
(٥) انظر كتاب البديع ص ٣٥ ونقد الشعر ص ١٨٦ .

٩ — الموازنة :

كقول القائل : « اصبر على حر اللقاء ، ومضض النزال وشدة المصَاع »[١] وكقوله تعالى : ( والسماء ذات البُروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود )[٢] . . . وهو ضرب من المزاوجة وتقطيع الكلام دون إحداث سجع فيها ، وهى ما زاده قدامة فى كتابه « جواهر الألفاظ » من حسن البلاغة وقد سماها « اعتدال الوزن »[٣] .

١٠ — المساواة :

ذكرها على أنها ضرب من البديع ، مقتديا بقدامة فى هذا الصنيع ، وعرّفها بنفس تعريف قدامة وهو : « أن يكون اللفظ مساويا للمعنى ، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه »[٤] ومثّل لها بما مثّل قدامة .

١١ — الإشارة :

تأثر فى هذا الفن بقدامة أيضاً ، وعرّفه بما لا يخرج عن تعريف قدامة فقال : « هو اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة » كقوله تعالى : ( ولو أن قُرآناً سُيّرت بهِ الجبال أو قُطّعت به الأرض أو كُلّم بهِ الموتى بل لله الأمرُ جميعاً )[٥] .

١٢ — المبالغة :

وهى من الفنون التى اقتفى فيها أثر قدامة ، وهى عنده تأكيد معانى القول[٦] . . . ومثل لها بما مثل به قدامة .

(١) إعجاز القرآن ص ٨٨ ، المصاع ـ المقاتلة والمجالدة بالسيوف .
(٢) سورة البروج ( اية ١ـ٣ ) .
(٣) انظر جواهر الألفاظ ص ٣ والبلاغة تطور وتاريخ ص ١١٠ .
(٤) إعجاز القرآن ص ٨٩ ونقد الشعر ص ١٧١ .
(٥) سورة الرعد ( آية ٣١ ) .
(٦) اعجاز القران ص ٩١ وانظر نقد الشعر ص ١٦٠ .

١٣ — الغلو :

أخذه عن قدامة ومثـل له بقول زهير بن أبى سلمى[١] :

لَوْ كَانَ يَقْعد فَوْقَ الشّمس من كرم
قومٌ بأوّلهم أو مجدهم ، قَعَدُوا

١٤ ـ الإيغال :

تابع فيه قدامة ومثل له ببيت امرىء القيس الذى مثل به قدامة ، وذكر أنه يوجد فى الشعر خاصـة ، ولا يطلب مثله فى القرآن إلا فى الفواصل[٢] .

١٥ — التوشيح :

من الفنون التى تأثر فيها بقدامة ، وعرّفه بقوله : « هوأن يشهد أول البيت بقافيته ، وأول الكلام بآخره »[٣] كقوله تعالى : ( فمن تَابَ من بعْد ظُلْمِه وأصلح فإنّ الله يتوبُ عليه إن الله غفور رحيم )[٤] . وقد مر بنا أن ابن المعتز لقب هذا الفن « رد أعجاز الكلام على ماتقدمها[٥] وسماه من جاء بعده باسم « رد أعجاز الكلام على الصدور » .

١٦ — صحة التقسيم :

لم يعرّفه ، ولكنه مثّل له بما مثّل به قدامة[٦] .

---

(١) انظر شعر زهير بن أبى سلمى ص٢٢٤ .
(٢) اعجاز القران ص ٩٢ .
(٣) المصدر السابق : الموضع نفسه . وانظر نقد الشعر ص ١٩١ .
(٤) سورة المائدة ( آية ٣٩ ) .
(٥) البديع ص ٤٧ .
(٦) إعجاز القرآن ص ٩٤ وانظر نقد الشعر ص ١٤٩ .

١٧ — صحة التفسير :

عرفه فقال : « هو أن توضح معان تحتاج إلى شرح أحوالها ، فإذا شرحت أثبتت تلك المعانى من غير عدول عنها ولا زيادة ولا نقصان »[١] .

كقول القائل :

ولى فرسٌ للحلم بالحلم مُلْجَمٌ

ـرسٌ للجهل بالجَهْـل مُسْرَجُ

والواقع أن الباقلانى بتعريفه هـذا لم يخرج عن تعريف قدامة ، كما أن المثال الذى ذكره هو أحد الأمثلة التى ذكرها قدامة[٢] .

١٨ — التكميل والتتميم :

بيّن معناه فقال : « هو أن يأتى بالمعنى الذى بدأ به بجميع المعانى المصحّحة المتممّة لصحته ، المكملة لجودته ، من غير أن يخلّ ببعضها ولا أن يغادر شيئاً منها »[٣] كقوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت إن الله عليمٌ خبير )[٤] وقد تأثر الباقلانى فى هـذا الفن بقدامة ابن جعفر الذى سماه « التتميم » وأبى هلال العسكرى الذى سماه التتميم والتكميل »(٥) .

(١) إعجاز القرآن ص٩٥ .
(٢) انظر نقد الشعر ص١٥٤ — ١٥٦ .
(٣) إعجاز القرآن ص ٩٥ .
(٤) سورة لقمان ( آية ٣٤ ).
(٥) انظر نقد الشعر ص١٦٨ والصناعتين ص ٣٨٩ :

١٩ — الترصيع :

وهو عنده أنواع منها : « الترصيع مع التجنيس » وذلك كقوله تعالى: ( إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغىّ ثم لا يقصرون )(١) ويقول : « وقد أولع الشعراء بنحو هـــذا ، فأكثروا فيه ، ومنهم من اقتنع بالترصيع فى بعض أطراف الكلام ، ومنهم من بنى كلامه كلّه عليه » (٢) . ثم يقول : « ومما يقارب الترصيع ضرب يسمى « المضارعة » (٣) وذلك كقول الخنساء :

حامى الحقيقة ، محمودُ الخليقة مَهْـ
ـدِىّ الطريقة ، نَفّاعٌ وضرّارُ

جوّابُ قاصيةٍ ، جزّازُ ناصيةٍ
عَقّادُ ألوية للخيْـلِ جرّارُ

وواضح ما يحمله هـذا الضرب من الجناس بالإضافة إلى الترصيع ، وهو جناس ناقص فى حروفه ، وقد سبق الباقلانى إلى هـذه التسمية ـ المضارعة ـ قدامة بن جعفر(٤) .

٢٠ — التكافؤ :

يقول الباقلانى إنه قريب من « المطابقة » مع أن قدامة إنما يريد به المطابقة نفسها ، وذكرها الباقلانى آنفا ، وكان يجب عليه أن يختار أحد اللقبين : إما لقب ابن المعتز وهو الطباق ، وإما لقب قدامة ، وكان شيئا من

(١) سورة الأعراف ( اية ٢٠١ ، ٢٠٢ ) .
(٢) إعجاز القرآن ص ٩٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٩٧ .
(٤) جواهر الألفاظ: ص ٣ ومابعدها وانظر سر الفصاحة ص ٢٣٢ .

تحرير مسائل البديع كان ينقصه . وقد مثل له الباقلانى بقول المنصور : « لا تخرجوا من عز الطاعة ، إلى ذل المعصية »(١) .

٢١ — التعطف :

وهو نفس ما سماه قدامة باسم المطابق(٢) ، وقد عرض له كما مر بنا ، فكان ينبغى أن يورد هذا المصطلح هناك ، ويقول إن قوماً يسمون ما يطلق عليه قدامة لقب المطابق باسم « التعطف » على نحو ما يلقانا ذلك عند أبى هلال العسكرى(٣) .

٢٢ — السلب والإيجاب :

جعله الباقلانى فناً مستقلا عن الطباق أو ما سماه قدامة بن جعفر باسم التكافؤ » متابعاً فى ذلك أبا هلال العسكرى ، وأنشد مثالا له قول بعض الشعراء(٤) :

ونُنكِر إن شئنا عَلى النّاس قولَهم
ولا يُنكرون القَوْلَ حين نقولُ

٢٣ — الكناية والتعريض :

جعلها فناً من فنون البديع مقتدياً بابن المعتز ، ومثل لها بقول الشاعر يصف فرساً :

(١) إعجاز القرآن ص ٩٧ وانظر الصناعتين ص ٣١٢ .
(٢) إعجاز القرآن ص ٨١ ، ٩٨ وانظر نقد الشعر ص ١٨٥ والبلاغة تطور وتاريخ ص ١١١ .
(٣) الصناعتين ص ٢٤٠ .
(٤) إعجاز القرآن ص ٩٨ وانظر الصناعتين ص ٤٠٥ .

وأحمر كالدّيباج ، أمّا سماؤه
فريّا ، وأما أرضُـه فمحول(١)

٢٤ — العـكس والتبديل :

تابع فيه قدامة(٢) ، ولـكنه لم يعرّفه . ومثّل له بقول الحسن البصرى : اللهم أغننى بالافتقار إليك ،ولا تُفْقرنى بالاسـتغناء عنك » . وقوله : « بع دنياك بآخرتك ، ترْبَحهما جميعاً ، ولا تبـع آخرتك بدنياك ، فتخْسرهما جميعاً »(٣) .

وقد يدخل فى هـذا الباب قوله تعالى : ( يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل )(٤) .

٢٥ — الإلتفات :

يصرح الباقلانى (٥) فى فاتحة حديثه عن هذا الفن بأنه ينقل عن رسالة لأبى أحمد العسكرى . ولعلّها كتاب « صناعة الشعر » الذى ذكره ياقوت فى ترجمته . وبذلك يضع الباقلانى فى يدنا المفتاح الذى نعرف به سر اتفاقه مع أبى هلال فى بعض الألقاب والمصطلحات التى لم ترد عند ابن المعتز وقدامـة . ومعنى الإلتفات عنده :«أنه اعتراض فى الـكلام ، ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتاً وكان الـكلام منتظماً . . . فمتى خرج عن الـكلام الأول ثم رجع إليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتاً » (٦) .

---

(١) البيت منسوب لطفيل الغنوى فى أمالى المرتضى ٢ /١٦٩ وروايته :

وأحمر كالدينار ، أما سماؤه فخصب ، وأما أرضه فمحول

وغير منسوب فى ديوان المعانى ٢ /١٠٦ .

(٢) راجع جواهر الألفاظ ص ٣ وما بعدها وقارن بسر الفصاحة ص ٢٣٩ .

(٣) إعجاز القرآن ص ٩٨ .

(٤) سورة الحج (آية ٦١).

(٥) إعجاز القرآن ص ٩٩ .

(٦) المصدر السابق : الموضع نفسه .

وقد مرّ بنا أن الأصمعى أول من تنبه إلى هـــذا الفن وأعطاه اسمه الاصطلاحى لأول مرة ، وجعله ابن المعتز على نوعين(١) وتأثر به قدامة وأبو هلال العسكرى(٢) . ويذكر الباقلانى فى ثنايا حديثه عن الإلتفات أن من أصحاب البديع من لا يعدّ « الاعتراض » و « الرجوع » من هـــذا الباب(٣) ومرّ بنا إفراد ابن المعتز لهما عنه وجعلهما فنيين مستقلين .

٢٦ — التذييل :

جعله الباقلانى من فنون البديع مثله فى ذلك مثل أبى هلال العسكرى(٤)، وقد ألحقه المتأخرون بباب الإطناب فى علم المعانى ، وقد أخذ الباقلانى هذا الفن من أبى أحمد العسكرى .

٢٧ — الاستطراد :

من الفنون التى نقلها عن أبى أحمد العسكرى وقد نص على ذلك صراحة ، وقد مرّ بنا أن ابن المعتز كان يدخل هذا الفن فى « الخروج من معنى إلى معنى »(٥) .

٢٨ — التكرار :

جعله من فنون البديع(٦) ومثل له بقوله تعالى : ( فإن معَ العسر يسراً إن مع العسر يسراً )(٧) وجدير بالذكر أنّ أبا هلال لم يدخله فى البديع ، ولكنه ألحقه بضروب الاطناب فى الكلام لغرض تأكيد القول

(١) البديع ص ٥٨ .
(٢) انظر نقد الشعر ص ١٦٧ والصناعتين ص ٣٩٢ .
(٣) إعجاز القرآن ص ١٠١ .
(٤) المصدر السابق ص ١٠٢ وانظر الصناعتين ص ٣٧٣ .
(٥) البديع ص ٦٠ .
(٦) إعجاز القرآن ص ١٠٦ .
(٧) سورة الانشراح ( آية ٥ ، ٦ ) .

لدى السامع[١] . وربما تابع الباقلانى فى ذلك أبا أحمد العسكرى[٢] .

٢٩ — الاستثناء :

من الفنون التى أخذها الباقلانى عن أبى أحمد العسكرى ، ونراه يتفق فى هـذه التسمية مع أبى هلال العسكرى[٣] الذى ذكر صراحة أنه ينقل فيه عن خاله ، وهو نفس ما سماه ابن المعتز « تأكيد المدح بما يشبه الذم » .

* * *

ويعقب الباقلانى على ما ذكره من ضروب البديع بقوله : « ووجوه البديع كثيرة جدًّا ، فاقتصرنا على ذكر بعضها ، ونبهنا بذلك على مالم نذكر كراهة التطويل ،فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع . وقد قدر مقدّرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التى نقلناها ، وأن ذلك ممّا يمكن الاستدلال به عليه ، وليس كذلك عندنا ، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوّصل إليها بالتدريب والتعوّد والتصنّع لها »[٤] .

ويمضى فيقول : « إنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذى ادّعوه فى الشعر ووصفوه فيه ، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ، ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرّب بهوالتصنع له . . . أما شأو نظم القرآن فليس له مثال يُحتذى عليه ، ولا إمام يُقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً » (٥) .

---

(١) انظر الصناعتين ص ١٩٣ .
(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٢ .
(٣) الصناعتين ص ٤٠٨ .
(٤) إعجاز القرآن ص ١٠٧ .
(٥) المصدر السابق ص ١١١ ، ١١٢ .

ويلاحظ على فنون البديع التى ذكرها الباقلانى أنه سار فى النظر إليها على مذهب المتقدمين من أمثال الجاحظ وابن المعتز وقدامة ، وأبى هلال العسكرى ، فقد سلك فيها بعض الفنون التى صارت فيما بعد من مباحث علم البيان . وكذلك سلك فيها بعض الأساليب التى صارت لدى المتأخرين من مباحث علم المعانى .

ولم يضف الباقلانى بكتابه جديداً فى البديع ، فجميع الفنون التى ذكرها أخذها عن سابقيه .

# الفصل الثالث

## العمدة فى صناعة الشعر ونقده (لابن رشيق القيروانى)

ذكر ابن خلدون [1] « أن أهل المشرق أقوم على فن البيان من أهل المغرب ، وسبب ذلك عنده أن علم البيان كالى فى العلوم اللسانية ، وأن الصنائع الكمالية توجد فى وفور العمران ، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب . أو لعناية العجم — وهم معظم أهل المشرق — بتفسير القرآن ، كتفسير الزمخشرى ، وهو كله مبنى على هذا الفن ، وهو أصله ، وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه « علم البديع » خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الآداب الشعرية وفرعوا له ألقابا ، وعددوا أبوابا ، ونوعوا أنواعا ، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب ، وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ ، وصعبت عليهم مآخذ البلاغة [2] والبيان لدقة أنظارهما ، وغموض معانيهما ، فتجافوا عنهما » ثم قال . « وممن ألف فى البديع من أهل أفريقية ابن رشيق ، وكتاب العمدة له مشهور ، وجرى كثير من أهل أفريقية والأندلس على منحاه » ويتضح من كلام ابن خلدون مشاركة علماء المغرب فى تطوير علوم العربية .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٦٧ .

(٢) ذكر ابن خلدون أن علم المعانى يسمى « علم البلاغة » .

ومؤلف كتاب ( العمدة ) هـــو أبو الحسن [1] بن رشيق القيروانى ( المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة ) أحـــد بلغاء القيروان ، وشعرائها المجيدين ، وعلمائها المبرزين .

ثقافته ومنابعها :

امتدت يد ابن رشيق إلى أكثر ماعرفت المكتبة العربية يومئذ فقرأه ، وحفظ منه وأبدى فيه رأيا ، فقبل ورد ، وأطرى وذم وعدل وتمثل حتى كان علمه — كما يقولون — علمين : علم رواية وعـــلم دراية . أما أساتذته فهم : [2]

١ — أبو عبد الله التميمى محمد بن جعفر القزاز ، وكان شيخ اللغة فى المغرب ، إماما علامة ، قيما بعلوم اللغة العربية ، مهيبا عند الملوك والعلماء ، محبوبا عند العامة ، وله مؤلفات فى اللغة والأدب ، توفى بالقيروان سنة ٤١٢ هـ. وقد قارب السبعين . [3]

ويقول عنه تلميذه ابن رشيق فى كتاب ( الأنموذج ) : « أنـــه فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين ، وكان مهيبا عند الملوك والعلماء وخاصة الناس ، محبوبا عند العامة ، قليل الخوض إلا فى علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكا شديداً ، وكان له شعر مطبوع مصنوع ، ربما جاء به مفاكهة وممالحة من غير تحفّز ولا تحفل ، يبلغ بالرفق والدعة ، على الرحب والسعة ،

---

(١) انظر فى ترجمة ابن رشيق ، روضات الجنات ص ٢١٧ وابن خلكان ( تحقيق إحسان عباس طبعة دار الثقافة ببيروت ) جـ ٢ ص ٨٥ ومعجم الأدباء ٨ / ١١٠ وشذرات الذهب ٣/٢٩٧ وفوات الوفيات ٣/٢٥٥ وأنباه الرواة ١/٢٩٨ وبغية الوعاه ص ٢٢٠ .

(٢) نوابغ الفكر العربى ( ابن رشيق القيروانى ) ص ٤٦ .

(٣) وفيات الأعيان ( تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ) ٤/١١ .

أقصى مايحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعانى ، وتوكيد المبانى ، علما بتفاصيل الكلام ، وفواصل النظام » . [(١)]

وذكر ابن رشيق أنه صاحب ( الجامع ) فى اللغة الذى يقارب تهذب الأزهرى[(٢)] وله كتاب « ضرائر الشعر[(٣)] » .

٢ — أبو أسامة : وقال عنه ابن رشيق : « وكان عالما باللغة وقد عاصرته » . [(٤)]

٣ — أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى ، وكان أحد أساتذة النقد الذين أخذ عنهم ابن رشيق [(٥)] ، وكتاب العمدة ينطق بما يكنه له ابن رشيق من تقدير وإجلال .

٤ — أبو اسحق الحصرى القيروانى ، وذكر ابن رشيق أنه أنشد بين يديه شعراً أعجبه .

٥ — الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن أبى سهل الخشنى الضرير ، ويقول فيه ابن رشيق : « كان مشهورا بالنحو واللغة جداً مفتقراً إليه فيهما بصيراً بغيرهما ، ولم يرقط ، ضرير أطيب منه نفسا ، ولا أكثر منه حياء مع دين وعفة » [(٦)]

٦ — أبو عبد الله محمد بن إبراهيم السمين ، ويكثر ابن رشيق من الرواية عنه ، وقد سأله عن المقاطع . [(٧)]

---

(١) وفيات الأعيان ٤/١٠ .
(٢) معجم الأدباء ١٨/١٠٥ .
(٣) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٨٣ أدب .
(٤) العمدة ٢/١٩١ .
(٥) نوابغ الفكر العربى ( ابن رشيق القيروانى ) ص ٤٧ .
(٦) نوابغ الفكر العربى ( ابن رشيق القيروانى ) ص ٤٨ وانظر العمدة ١/١٥٥ .
(٧) انظر العمدة ١/٢١٦ .

أولئك هم شيوخ ابن رشيق وأساتذتـــه الذين وقفنا على طرف من أخبارهم، وتأكد لنا أخذه عنهم، ومما لاشك فيه أن ثمة غيرهم.

وقرأ ابن رشيق كتاب « البيان والتبيين » للجاحـــظ، واطلع على ما كتبه ابن سلام الجمحي وابن قتيبة، وقرأ كتاب « البديـــع » لابن المعتز وتأثره به واضح فيما كتب، ووقف على كتاب قدامة بن جعفر. كما قرأ كتاب « الموازنة بين الطائيين » للآمدى، قراءة الدارس الذى يتمثل مايقرأ فنراه يقول : « وكان أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى يفضل ابتداءات البحترى جداً، وهو الذى وضع كتاب الموازنة والترجيح بين الطائيين ونوه فيه بالبحترى أعظم تنويه » [1] :

وكذلك قرأ للرمانى ونقل عنه فى كثير من المواطن، وأكثر مايـكون ذلك حينما يتعرض للحديث عن البلاغة وفصولها. [2]

وتأثر بـكتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » للقاضى الجرجانى وأكثر من الاستشهاد بآرائه ونقل كثيراً منه، ويستطيع أن يقف على ذلك من يتصفح كتاب « العمدة » رافضا لها فى بعض الأحيان، أو مفسراً إياها، كالذى نراه حين يقول عن البحترى : « غير أن القاضى الجرجانى فضله بجودة الاستهلال — وهو الابتداء — على أبى تمام وأبى الطيب، وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة، ولست أرى لذلك وجها إلا كثرة شعره كما قدمت فإنه لوحاسبهما ابتداء جيدا بابتداء مالأربى عليهما وقصرا عن عذره » [3] كما تأثر بالحاتمى فى حلية المحاضرة وأكثر من النقل عنها.

---

(١) العمدة ١/٢٣٣.

(٢) المصدر السابق ١/٢٤١.

(٣) المصدر السابق ١/٢٣٢، ٢٣٣.

هذا بالإضافة إلى استعداد ابن رشيق الفطرى ،فقد كان لهذا الاستعداد أثره الواضح فى إنتاجه . فلم يكن متلقيا عن شيوخه فحسب ، ولم يكن مجرد قارىء لما كتبه سابقوه ، وإنما كان فوق ذلك بكثير ، كان بوتقه تصهر مايلقى فيها ثم تخرجه للناس شيئا جديداً كل الجدة ، يرضى عما يتلقى أحيانا ، ويرفض أحيانا ، ويناقش ويعارض أحيانا ثالثة ، مما يؤكد أنه كانت له شخصيته الواضحة فيما خلف من آثاره ، وليس كما زعم المرحوم الدكتور مندور الذى يقول : « وتلى عبد القاهر مؤلفون ، بل وعاصره مؤلفون كأبى على الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ أو سنة ٤٥٦ للهجرة صاحب « العمدة » الذى جمع فى كتابه الكثير من أخبار الأدب العربى والنقد العربى وعلوم اللغة دون أن يتضح له منهج خاص وشخصية متميزة . »[١]

ويعتبر ابن رشيق من شعراء[٢] عصره المبرزين ، ويقال أنه هو وابن شرف كانا شاعرى قصر المعز لكن ابن بسام يقدمه على ابن شرف ويرفعه درجات ، وابن رشيق لايرفع نفسه ، فوق درجته ، وإنما يضع نفسه موضعها ، فلا يتطاول على أمثال المتنبى أو البحترى أو أبى تمام ، يقول ابن بسام : « وحدثت أن أبا على بن رشيق ناجى نفسه بمعارضة أبى الطيب فى بعض أشعاره ، وراطن شيطانه بالدخول فى مضماره ، فأطال الفكرة ، وأعمل النظرة ، فأداه جهده ، وذهب به نقده إلى معارضة قوله :

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٢) جمع الأستاذ الميمنى شعره فى كتاب سماه ( النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف ) ثم قام الدكتور عبد الرحمن ياغى بجمعه وزاد فيه ( انظر هامش وفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس ٢/٨٥ ) طبعة دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٩ م ) .

« أمن ازديارك فى الدّجى الرّقبـــاء »[١]

فبث عيونه واستمد ملائكته وشياطينه ، وألف قصيدته إلا أنها لم تبلغ مبلغ قصيدة المتنبي ، فصان نفسه عن أن يتحدث عنه بأن تكون الهرة أحزم منه »[٢] . ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

ولابن رشيق مصنفات كثيرة منها :[٣] « قراضة الذهب » وهو كبير الفائدة . وكتاب « الشذوذ » فى اللغة . يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة فى بابها . وكتاب « طراز الأدب » وكتاب « المادح والمذام » وكتاب « متفق التصحيف » وكتاب « تحرير الموازنة » وكتاب « الاتصال » وكتاب « المن والفـــداء » وكتاب « غريب الأوصاف ولطائف التشبيهات لما انفرد به المحدثون » وكتاب « أرواح الكتب » وكتاب « شعراء الكتاب » وكتاب « المعونة » فى الرخص والضرورات ، وكتاب « الرياحين » وكتاب « صدق المدائح » وكتاب « الأسماء المعربة » وكتاب « إثبات المنازعة » وكتاب « معالم التاريخ » وكتاب « التوسع فى مضايق القول » وكتاب « الحيلة والاحتراس » .[٤]

وما يعنينا من مؤلفات ابن رشيق هو كتاب « العمدة » لأنه تعرض فيه بالذكر والشرح لطائفة كبيرة من فنون البديع التى يهمنا التعرف عليها .

---

(١) انظر نوابغ الفكر العربى ( ابن رشيق القيروانى ) ص ٥٨ وهذا الشطر مطلع قصيدة للمتنبى وشطره الثانى ( إذ حيث كنت من الظلام ضياء ) انظر ديوان المتنبى ١/ ١٢ .

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٢/ ٨٨ وانظر مقدمة كتاب العمدة ص ١١ وكتاب علم البديع للدكتور عتيق ص ٢٢ .

(٤) وفيات الأعيان ٢/ ٨٩ .

ويحدثنا ابن رشيق فى خطبة الكتاب عن سبب تأليفه فيقول : [١]

« قد وجدت الشعر أكبر علوم العرب . وأوفر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تقبل شهادته ، وتمتثل إرادته لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ( إن من الشعر لحكما ) وروى ( لحكمة ) ، وقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ( نعم ماتعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته ، فيستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم ، مع ما للشعر من عظيم المزية ، وشرف الأبية ، وعز الأنفة وسلطان القدرة وجدت الناس مختلفين فيه متخلفين عن كثير منه : يقدمون ويؤخرون ، ويقلون ويكثرون . قد بوبوه أبوابا مبهمة ولقبوه ألقابا متهمة [٢] ، وكل واحد منهم قد ضرب فى جهة ، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه ، وشاهد دعواه ، فجمعت أحسن ماقاله كل واحد منهم فى كتابه ليكون ( العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ) إنشاء الله تعالى » .

« وعولت فى أكثره على قريحة نفسى ، ونتيجة خاطرى خوف التكرار ورجاء الاختصار : إلا ما تعلق بالخبر ، وضبطته الرواية ، فإنه لا سبيل إلى تغيير شىء من لفظه ولا معناه ، ليؤتى بالأمر على وجهه ، فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه ، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه ، فهو من ذلك إلا أن يكون متداولا بين العلماء ، لا يختص به واحد منهم دون الآخر ، وربما نحلته أحد العرب ، وبعض أهل الأدب ، تستراً بينهم ، ووقوعاً دونهم ، بعد أن قرنت كل شكل بشكله ، ورددت كل فرع إلى أصله ، وبينت للناشىء المبتدىء وجه الصواب فيه ، وكشفت عنه لبس الارتياب به ، حتى أعرف باطله من حقه ، وأميز كذبه من صدقه » [٣] .

---

(١) العمدة ١/١٦ .

(٢) متهمة بفتح الهاء أى مشكوك فيها .

(٣) العمدة ١/١٧ .

ومن ذلك يتضح لنا غرض ابن رشيق من وراء تصنيفه ، والمنهاج الذى رسمه لنفسه فى إخراجه ، مع بيان مقدار ماله وما لغيره .

ولكن يجب أن نفهم أن تعويله على نتيجة خاطره ، وقريحة نفسه لا يعنى الابتكار ، وإنما يعنى التصرف فى النقل فيما يجوز فيه التصرف . فإذا لم يكن المنقول كذلك من خبر أو رواية فعندئذ يورده بنصه ، وقد كانت هذه الطريقة أحيانا موهمة لأنها جعلت بعض الدارسين يظن أن الآراء التى لا تسند إلى مصدر من ابتكار ابن رشيق ، وذلك خطأ لا يتبين إلا بعرض كتابه على ماسبق من كتب وآراء[1] .

ودارس العمدة معذور إذا هو لم يستطع رد كل رأى إلى صاحبه لأن ابن رشيق ساق الكلام متصلا أحيانا ، بحيث يخفى على القارىء أن خيوط النسج مأخوذة من مواضع مختلفة .

ولكن ابن رشيق على الرغم من ذلك ناقد قدير ، لم تضع شخصيته بين آراء سابقيه ، ولقد جمع خير ما عندهم وأودعه كتابه حتى أصبح منهلاً للنقاد والبلاغيين .

والكتاب يتألف من جزءين يضمان نحو مائة باب ، حاول مصنفه أن يجمع فيها كل ما وقف عليه مما كتب عن صناعة الشعر ومسائله البيانية والبديعية .

وكما يفهم من الكلمة التى اقتبسناها من خطبة الكتاب ، فإن عمله فيه عمل جمع وتبويب لا عمل بحث ودرس ، وإن كانت له من حين لآخر التفاتات وتفسيرات وملاحظات دقيقة تنم عن سعة اطلاعه وبصره بالشعر .

---

(١) انظر تاريخ النقد الادبى عند العرب ص ٤٤٥ .

ومما يلاحظ على الكتاب أن المؤلف أفرد أبوابا منه لمباحث البيان ، وأخرى للمحسنات البديعية ، وفى ذلك ما يوحى بأنه قد بدأ يستقر فى أذهان النقاد ورجال البلاغة أن البيان شىء والبديع شىء آخر ، والكتاب على الرغم من كل شىء قد وعى لنا مادة ضخمة من البلاغة والنقد معا .

ويستهل ابن رشيق كلامه عن البديع بباب يعرف فيه كلا من المخترع والبديع من الشعر ، ويفرق بينهما ثم ينتهى بذكر أول من قام بجمع البديع . فالمخترع من الشعر عنده هو[1] : « مالم يسبق إليه قائله ، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو مايقرب منه كقول امرىء القيس[2] :

سَمَوْتُ إليها بعْدَ ما نَامَ أهْلُها
سُمُوَّ حباب الماء حالاً على حالِ

فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره ، وسلم الشعراء إليه ، فلم ينازعه أحد إياه . فهو يقرر أن أول الناس اختراعا للشعر امرؤ القيس ، وأن له فى شعره اختراعات كثيرة أورد نماذج منها . ومن الشعراء المخترعين عنده أيضا طرفة بن العبد .

ثم يستطرد فيقول : « وما زالت الشعراء تخترع إلى عصرنا هذا ، وتولد غير أن ذلك قليل فى الوقت »[3] . ويدفعه ذكر التوليد إلى تعريفه فيقول : « والتوليد أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيه زيادة ، فلذلك يسمى التوليد ، وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضا ( سرقة ) إذا كان ليس آخذا على وجهه » .

---

(١) العمدة ١ / ٢٦٢ .
(٢) ديوانه ص ١٤١ .
(٣) العمدة ١ / ٢٦٣ .

والفرق عنده بين الاختراع والإبداع [١] — وإن كان معناهما فى العربية واحداً — أن الاختراع : خلق المعانى التى لم يسبق إليها ، والإتيان بما لم يكن منها قط ، والإبداع : إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف، والذى لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع ، وإن كثر وتكرر ، فصار الاختراع للمعنى ، والإبداع للفظ ، فإذا تم للشاعر أن يأتى بمعنى مخترع فى لفظ بديع فقد استولى على الأمد ، وحاز قصب السبق .

واشتقاق الاختراع من التليين يقال « بيت خرع » إذا كان لينا ، والخروع فعول منه ، فكأن الشاعر سهل طريقة هذا المعنى ولينه حتى أبرزه . ثم ينتقل بالكلام إلى علم « البديع » فيقول : « وأما البديع ، فهو الجديد ، وأصله فى الحبال ، وذلك أن يفتل الحبل جديدا ليس من قوى حبل نقضت ثم فتلت فتلا آخر ، وأنشدوا للشماخ بن ضرار :

أطار عقيقه عنه نسالا

وأدمج دمج ذى شطن بديع [٢]

وعنده أن البديع ضروب كثيرة ، وأنواع مختلفة ، وأنه سوف يذكر منه ما وسعته القدرة ، وساعدت فيه الفكرة ، وأن ابن المعتز هو أول من جمع البديع ، وألف فيه كتابا ، وأنه لم يذكر فيه سوى خمسة أبواب [٣] . الاستعارة أولها ، ثم التجنيس ، ثم المطابقة ، ثم رد الأعجاز على الصدور ، ثم المذهب الكلامى . وعد ماسوى هذه الخمسة أنواع محاسن ، وأباح أن يسميها ، من شاء ذلك بديعا ، وخالفه من بعده فى أشياء يقع التنبيه عليها

---

(١) العمدة ١/٢٦٥ .

(٢) انظر ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى ( تحقيق صلاح الدين الهادى ) طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٨ ) ص ٢٣٣ — والشطن : الحبل الشديد الفتل .

(٣) العمدة ١/٢٦٥ .

والاختيار فيها حيثما وقعت من كتابه « العمدة » . ثم بدأ فى الحديث عن ألوان البديع من وجهة نظره وهى :

١ — المجاز :

إستهل فنونه بالمجاز ونبه على كثرته فى كلام العرب فقال : « كثيرا ماتستعمل العرب المجاز ، وتعده من مفاخر كلامها ،فإنه دليل الفصاحة ورأس البلاغة ، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات » ثم عرض لمعناه ومأخذه من اللغة فقال : «[1] ومعنى المجاز طريق القول ، ومأخذه ، وهو مصدر جزت مجازا كما تقول : قمت مقاما ،وقلت مقالا حكى ذلك الحاتمى». ثم ينقل كلام ابن قتيبة فى الرد على من ذهب إلى أن المجاز كذب فيقول : « ومن كلام عبد الله بن مسلم ابن قتيبة فى المجاز قال : لو كان المجاز كذبا لكان أكثر كلامنا باطلا ، لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السعر ، ونقول كان هذا الفعل منك فى وقت كذا ، والفعل لم يكن وإنما يكون . . . »

وهو إنما أراد به طرق القول التى تحتاج شيئا من التأويل ، ثم يؤكد أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا فى القلوب والأسماع . وقد تأثر ابن رشيق فى ذلك بما كتبه الرمانى[2] عند ماقرر أن الاستعارة أبلغ وأحسن من الحقيقة . وقد أسلفنا أن أبا هـــلال العسكرى جعل الاستعارة والمجاز مترادفين .

ويقول ابن رشيق : « إن البلاغيين خصوا به بابا بعينه وذلك أن يسمى

(١) العمدة ١/٢٦٦ .
(٢) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٩ .

الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب »[١] وينشد من أمثلته قول جرير ابن عطية :

إذا سَقَطَ السَّماءُ بأَرْضِ قَوْمٍ
رعيناهُ وإنْ كانُوا غِضَابَا

إذ أراد بالسماء المطر لقربه من السماء ويجوز أن تريد بالسماء السحاب لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال: «سقط» يريد سقوط المطر ، وقال : «رعيناه» والمطر لا يرعى ، ولكن أراد النبت الذي يكون عنه ،فهذا كله مجاز . ويذكر منه : ( واسأل القرية )[٢] أي أهلها [٣] . ومثل (ليلة ساهرة ) على المجاز أي ليلة يسهر فيها الناس .

« وأدخل البلاغيون المتأخرون المثالين الأولين في باب المجاز المرسل ، والمثال الثالث في المجاز العقلي ، على أن الباب لم يتضح في نفس ابن رشيق ، فقد أدخل فيه أمثلة من الاستعارة والتشبيه والكناية ، ومعروف أن البلاغيين بعده جعلوا المجاز علما على الاستعارة والكناية والمجاز المرسل والعقلي ، وأخرجوا التشبيه لأن ركنيه وهما المشبه والمشبه به حقيقيان ، ولكن على كل حال هذه أول نظرة دقيقة للباب ، فقد كانت كلمة المجاز تلقانا قبله منذ الجاحظ دون تحديد دقيق لما تصدق عليه من صور البيان »[٤] .

٢ — الاستعارة :

لم يزد ابن رشيق على ما كتبه سابقوه في الاستعارة شيئا ، وبين أنها

(١) العمدة ١/٢٦٦ .

(٢) سورة يوسف ( آية ٨٢ ) .

(٣) العمدة ١/٢٦٧ .

(٤) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٨ .

أفضل المجاز[1] وتابع ابن المعتز فجعلها أول أبواب البديع ، وليس فى حلى الشعر أعجب منها ، وهى من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ، ونزلت موضعها ، والناس مختلفون فيها ، فمنهم من يستعير للشىء ماليس منه ولا إليه كقول لبيد :

وغـــداة ريح قد وزعت وقرة
إذ أصبحت بيد الشمال زمامها[2]

فاستعار للريح الشمال يدا ، وللغداة زماما ، وجعل زمام الغداة ليد الشمال إذ كانت الغالبة عليها ، وليست اليد من الشمال ، ولا الزمام من الغداة ، ثم ذكر أن منهم من يخرجها مخرج التشبيه كما قال ذو الرمة[3] :

أَقَامَتْ به حتّى ذَوَى العُودُ فى الثَّرى
وساق الثرّيا فى ملاءته الفجـــر

فاستعار للفجر ملاءة وأخرج لفظه مخرج التشبيه . ثم يتحدث عن الحدود المختلفة للاستعارة ناقلا عن على بن عبد العزيز الجرجانى وابن وكيع المصرى، وأبى الفتح عثمان بن جنى ، وأبى الحسن الرمانى قارنا صورا من الاستعارة التصريحية إلى أخرى من الاستعارة المكنية .

ثم بين السر فى استعارتهم لفظ الشىء لغيره فيقول : « والاستعارة إنما هى من اتساعهم فى الكلام اقتدارا ودلالة ،ليس ضرورة ، لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك فى لغة أحد من الأمم غيرهم ، فإنما استعاروا مجازا واتساعا ، ألا ترى أن للشىء عندهم أسماء كثيرة ، وهم يستعيرون له مع

---

(١) العمدة ١/٢٦٨ .
(٢) وزعت . كففت ، ويروى ( كشفت ) .
(٣) انظر ديوانه ص ٢٩١ .

ذلك ؟ على أنا نجد أيضا اللفظة الواحدة يعبر بها عن معان كثيرة نحو (العين) التي تكون جارحة ، وتكون الماء ، وتكون الميزان ، وتكون المطر الدائم الغزير وتكون نفس الشيء وذاته ، وتكون الدينار ، وما أشبه ذلك كثير ، وليس هذا من ضيق اللفظ عليهم ، ولكنه من الرغبة في الاختصار ، والثقة بفهم بعضهم عن بعض . ألا ترى أن كل واحد من هذه التي ذكرنا له اسم غير العين أو أسماء كثيرة ؟ »[1] : ثم ينهي حديثه عن الاستعارة بأمثلة من الاستعارة المختارة ، وأخرى من الاستعارة في القرآن والحديث وهو يشبه في ذلك العسكري .

٣ — التمثيل :

أفرد له فصلا ، وجعله من ضروب الاستعارة[2] ، متابعا في دلالته قدامة ابن جعفر ، ويقول إن بعضهم يسميه المماثلة ، وهو إما يقصد أبا هلال العسكري أو خاله أبا أحمد اللذين سمياه بهذا الاسم كما أسلفنا . ثم عرفه بقوله : « أن تمثل شيئا بشيء فيه إشارة نحو قول امرىء القيس —[3] وهو أول من ابتكره ولم يأت أملح منه :

وما ذرفت عيناك إلاّ لتقدحي
بسهميكِ في أعْشَار قلْب مُقتَّل

فمثل عينيها بسهمي الميسر — يعني المعلّى ، وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء — فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ، ومثل قلبه بأعشار الجزور — فتمّت له جهات الاستعارة والتمثيل » .

ثم فرق بين الاستعارة والتشبيه والتمثيل فقال : « والتمثيل والاستعارة

(١) العمدة ١/ ٢٧٤ .
(٢) المصدر السابق ١/٢٧٧ .
(٣) ديوانه ص ٣٨ .

من التشبيه ، إلا أنهما بغير أداته ، وعلى غير أسلوبه ، والمثل المضروب فى الشعر راجع إلى ما ذكرته»[1] .

٤ — المثل السائر :

أشار إلى كثرته فى كلام العرب نظما ونثرا ، وبين أن أفضله أوجزه ، وأحكمه أصدقه ، وشرح قولهم « مثل شرود ، وشارد » أى سائر لا يرد كالجمل الصعب الشارد الذى لا يكاد يعرض له ولا يرد . . وزعم قوم أن الشرود ما لم يكن له نظير كالشاذ والنادر ، ثم ساق أمثلة من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر مشيراً إلى الأمثال الطوال والقصار منها ، ثم تحدث عن سبب نظم المثل فقال : « والمثل إنما وزن فى الشعر ليكون أشرد له ، وأخف للنطق به ، فمتى لم يتزن كان الإتيان به قريبا من تركه[2] ومعروف أن البلاغيين يدخلونه فى التمثيل أو الاستعارة التمثيلية .

٥ — التشبيه :

تحدث عنه ابن رشيق مستمدا فيه من الرمانى[3] وقدامة وعلى بن عبد العزيز الجرجانى فعرفه بقوله : « هو صفة الشىء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه ألا ترى أن قولهم (خد كالورد) إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها ، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه »[4] . ثم بين وقوعه على الأعراض لا على الجواهر ، لأن الجواهر فى الأصل كلها واحد ، اختلفت أنواعها أو اتفقت . وإذا كان قدامة جعل التشبيه غرضا من أغراض الشعر

---

(١) العمدة ١/٢٨٠ .

(٢) المصدر السابق ١/٢٨٢ .

(٣) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٤ وما بعدها ونقد الشعر ص ١٣٢ والوساطة ص ٤١ .

(٤) العمدة ١/٢٨٦

فقد جعله ابن رشيق فنا من فنون البديع . ولم يزد على ما قاله سابقوه فيه شيئا سوى دقة التعريف .

وتحدث ابن رشيق عن فائدة التشبيه فقال : « والتشبيه والاستعارة جميعا يخرجان الأغمض إلى الأوضح ، ويقربان البعيد كما شرط الرماني في كتابه وهما عنده في باب الاختصار . ثم بين أن الرماني جعل التشبيه على ضربين [١] : تشبيه حسن ، وتشبيه قبيح ، فالتشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانا ، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك ، قال : « وشرح ذلك أن ما تقع عليه الحاسة أوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحاسة ، والمشاهد أوضح من الغائب ، فالأول في العقل أوضح من الثاني ، والثالث أوضح من الرابع ، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره والقريب أوضح من البعيد في الجملة ، وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف » .

وعرض لكلام قدامة [٢] في التشبيه فارتضى بعضه ، ورفض بعضه الآخر ، ثم تكلم عن سبيل التشبيه فقال : « وسبيل التشبيه : إذ كانت فائدته إنما هي تقريب المشبه من فهم السامع وإيضاحه له — أن تشبه الأدون بالأعلى إذا أردت مدحه وتشبه الأعلى بالأدون إذا أردت ذمه » [٣] . ويذكر أن أدوات التشبيه هي الكاف وأمثالها ، أو كأن وما شاكلها شيء بشيء في بيت واحد إلى أن صنع امرؤ القيس في صفة عقاب :

كأنَّ قُلُوبَ الطّيرِ رطْبًا ويابسًا

لدى وكرها العُنَّاب والحَشَفُ البَالِي

---

(١) العمدة ١ / ٢٨٧ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق ١ / ٢٩٠ .

فشبه شيئين بشيئين فى بيت واحد . واتبعه الشعراء فى ذاك . ثم جاءوا بتشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فى بيت واحد ( بالكاف وبغير كاف ) . كقول مرقش[1] .

النَّشْرُ مِسْكٌ ، والوجوهُ دَنَا
نِيرٌ وأطرافُ الأكف عنَمَ

ثم أتوا بتشبيه أربعة بأربعة[2]، بالكاف أيضاً وبغير كاف كقول امرىء القيس :

له أيْطَلاَ ظَبْيٍ ، وساَقاَ نعامةٍ
وإرخاء سِرْحانٍ وتقْرِيب تتفُلِ

وتشبيه خمسة بخمسة كقول أبى الفرج الوأواء ، وأتى به بغير آلة تشبيه[3] .

فأسْبَلَتْ لؤلؤا من نرجس ، و سَقَتْ
وَرْدًا ، وعضَّتْ على العنَّاب بالبَرَدِ

وخلص من ذلك إلى أن التشبيه قد يقع بين الضّدين والمختلفين كقولك: ( العسل فى حلاوته كالصبر فى مرارته ، أو كالخل فى حموضته )[4] ثم ذكر قول أبى الحسن الرمانى : « أن هذا الضرب من التشبيه لا يقال إلا بتقييد وتفسير » ودلل على ذلك بالأمثلة والشواهد .

---

(١) العمدة ١ / ٢٩٢
(٢) المصدر السابق ١ / ٢٩٣ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٩٤ .
(٤) المصدر السابق ١ / ٢٩٥ .

٦ — الإشارة :

يقول ابن رشيق : « الإشارة من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة ، تدلّ على بعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز ، والحاذق الماهر ، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة ، واختصار وتلويح يُعرف مجملاً ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه »[1] فمن ذلك قول زهير[2] :

فإني لو لقيتك واتجهنـــــا

لكان لكل منكرة كفاء

فقد أشار له بقبح ما كان يصنع لو لقيه . وذكر ابن رشيق أن هذا أفضل بيت عند قدامة[3] في الإشارة . ثم يقول : « ومما جاء من الإشارة على معنى التشبيه قول الراجز يصف لبناً ممذوقاً[4] :

« جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط » .

فإنما أشار إلى تشبيه لونه ، لأن الماء غلب عليه فصار كلون الذئب . وقسم ابن رشيق الإشارة إلى أنواع كثيرة منها :

١ — التفخيم : كقوله تعالى : ( القارعة ما القارعة )[5] .

٢ — الإيماء : كقوله تعالى : ( فغشيهم من اليّم ما غشيهم )[6] فأومأ إليك وترك التفسير معه .

٣ — التعريض : وهو نوع من الكناية وقد أسلفنا أن ابن المعتز

(١) العمدة ١/٣٠٢ .
(٢) انظر شعر زهير بن أبي سلمى ص ١٤٠ .
(٣) انظر نقد الشعر ص ١٧٦ .
(٤) العمدة ١/٣٠٣ .
(٥) سورة القارعة ( آية ١ ، ٢ ) .
(٦) سورة طه ( آية ٧٨ ) .

وأبا هلال العسكرى قد جعلا الكناية والتعريض شيئاً واحداً . ومثل لها ابن رشيق بقول كعب بن زهير لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فِى فتيةٍ من قريْش قَالَ قائلهُمْ

ببطن مكة لمّا أسلموا زولوا

فعرض بعمر بن الخطاب ، وقيل بأبى بكر رضى الله عنهما ، وقيل برسول الله صلى الله عليه وسلم تعريض مدح .

٣ — التلويح : كقول المجنون قيس بن معاذ العامرى[(١)] :

لقد كنت أعلو حبّ ليلى فلم يزل

بى النقّض والابرام حتّى علانيـــا

فلوح بالصحة والكتمان، ثم بالسقم والاشتهار تلويحاً عجيباً .

٤ — الكناية والتمثيل : كما قال ابن مقبل — وكان جافياً فى الدين — يبكى أهل الجاهلية وهو مسلم فقيل له مرة فى ذلك — فقال[(٢)] :

وما لى لا أبكى الدّيار وأهلها

وقد رادهـــا روّادعك وحميرا

وجاء قطا الأحباب من كلّ جانب

فوقّع فى أعطاننا ثم طيرا[(٣)]

فكنى عما أحدثه الإسلام ومثل كما ترى .

---

(١) العمدة ١/٣٠٤ .

(٢) المصدر السابق ١/٣٠٥ .

(٣) انظر طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ( لابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢ هـ . ط . محمود صبيح ) ص ٥٥ . ورواية البيت الأول :

ومالى لا أبكى الديار وأهلها .. وقد زارها زوارعك وحميرا

٦ — الرمز : جعله ابن رشيق من أنواع الإشارة ومثل له بقول أحد القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت :

عقلت لها من زوجها عدد الحصى
مع الصبح أو مع جنح كلّ أصيل

يريد أنى لم أعطها عقلا ولا قوداً بزوجها ، إلا الهم الذى يدعوها إلى عدّ الحصى ، ثم تحدث عن أصل الرمز فقال : « الكلام الخفى الذى لا يكاد يفهم ثم استعمل حتى صار الإشارة »(١) ويلاحظ أن ابن رشيق يتفق مع ابن وهب فى تعريفه للرمز وإن كان لم يتوسع فيه كما فعل ابن وهب .

٧ — اللمحة : جعلها من الإشارات، ومثل لها بقول أبى نواس يصف يوماً مطيراً :

وشمسه حـــــــرّة مخدرة
ليس لها فى سمائها نور

فقوله « حرّة » يدل على ما أراد فى باقى البيت ، إذ كان من شأن الحرة الخفر والحياء ، ولذلك جعلها مخدرة ، وشأن القيان والمملوكات والتبذل والتبرّج .

٨ — اللغز : ويسمى المحاجاة ، والتعمية أعم أسمائه ، وهو أن يريد المتكلم شيئاً فيعبر عنه بعبارات يدل ظاهرها على غيره ، وباطنها عليه(٢) ، وقد رأينا أن الجاحظ وقف عند طائفة من اللغز فى الجواب . وأدرج فيها

(١) العمدة ١/ ٦-٣ .

(٢) تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن (لابن أبى الأصبع المصرى تحقيق د . حفنى محمد شرف) ص ٥٧٩ .

ما سمى فيما بعد باسم الأسلوب الحكيم . وعرفه ابن وهب فقال : « هو قول لستعمل فيه اللفظ المتشابه طلباً للمعاياة والمحاجة[1] » . وذكر ابن رشيق أنه من أخفى الإشارات وأبعدها وعرفه بقوله :« هو أن يكون للكلام ظاهر عجب لا يمكن ، وباطن ممكن غير عجب كقول ذى الرمة يصف عين الإنسان[1] .

وأصفر من قعب الوليد ترى به
بيوتاً مبناة وأودية قفـــــرا

فالباء فى ( به ) للالصاق كما تقول « لمسته بيدى » أى : ألصقتها به وجعلتها آلة اللمس ، والسامع يتوهمها بمعنى فى ، وذلك ممتنع لا يكون ، والأول حسن غير ممتنع .

٩ — اللحن : هـذا الفن من الفنون التى ذكرها ابن وهب فى كتابه البرهان فى وجوه البيان وقد عرفه بقوله : « هو التعـريض بالشىء من غير تصريح ، أو الكناية عنه بغيره[3] » ، وبيّن الأوقات والمواطن التى يستعمل فيها وذلك على الوجه الذى بيّناه من قبل . أما ابن رشيق فعرفه بقوله :« هو كلام يعرفه المخاطب بفحواه وإن كان على غير وجهه[4] » وذكر أن الناس يسمونه فى وقتنا هذا ( المحاجاة ) لدلالة الحجا عليه . وذلك نحو قول الشاعر يحذر قومه :

---

(١) البرهان فى وجوه البيان ص١٤٧ .

(٢) العمدة ١/٣٠٧ وأنظر ديوان ذى الرمة ص ٢٥٤ والبيت فى الديوان :
وأصفر من قعب الوليد ترى به ... قبابا مبناة وأودية خضراً
( وأصفر من قعب الوليد ، يعنى : العين ) .

(٣) البرهان فى وجوه البيان ص ١٣٣ .

(٤) العمدة ١/٣٠٧ ، ٣٠٨ .

خلّوا على الناقة الحمـــــــراء أرحلـكم

والبازل الأصهب المعقول فاصطنعوا

إن الذّئاب قـد اخضّرت براثنهـا

والنّاس كلهم بكـــــر إذا شبعوا

فأراد « بالناقة الحمـراء » الدّهناء ، و « بالجمـل الأصهب » الصمان ، و « بالذئاب » الأعداء ، يقول : قد اخضرت أقدامهم من المشى فى الـكلأ والخصب ، والناس كلهم إذا شبعوا طلبوا الغزو فصاروا عدواً لـكم كما أن بكر بن وائل عدوكم .

ثم قال : « وسبيل المحاجاة أن تـكون كالتعريض والـكناية ، وكل لغز داخل فى الأحاجى » .

١٠ ـ التعمية : جعلهـا من الإشارة وقال : « وهـذا مثل للطير وما شاكله كقول أبى نواس :

* واسْم عليه خبن للصّفا *[1] .

وما أشبهه ، وهو معنى مشهور .

ثم ذكر أن من الإشارات مصحوبة ، وهى عند أكثرهم معيبة كأنها حشو واستعانة على الـكلام نحو قول أبى نواس[2] :

مال إبراهيم بالمـــــا

ل كذا غـــرباً وشرقاً

ولم يأت بها أبو نواس حشواً ، ولـكن شطارة وعبثاً بالـكلام ، وإن

---

(١) العمدة ١/٣٠٩ .

(٢) ديوانه ص ٤٦٤ .

شئت قلت بيانا وتثقيفا . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر بن العاص : « وكيف بك إذا بقيت فى حثالة من الناس ، قد مرجت عهودهم ، وأماناتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا ؟ وشبك بين أصابع يديه » ولا أحد أفصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبعد كلاما منه الحشو والتكلف .

ويقول[١] « : وقالوا : مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت ، فهذا باب تتقدم الإشارة فيه الصوت ، وقيل : حسن الاشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان وباللسان، جاء بذلك الرمانى نصا ، وقاله الجاحظ من قبل ، وأخذ على بعض الشعراء قوله[٢] :

أشارت بطرْفِ العَينِ خيفةَ أَهْلِها
إشارة مذعور ولم تتكلّمِ
فَأَيقَنْتُ أنّ الطرف قد قال : مَرْحبًا
وأهْلاً وسَهْلاً بالحبيب المتيّمِ

إذ كان هذا كله مما لا تحمله إشارة خائف مذعور .

١١ — الحذف :

جعله من أنواع الاشارة[٣] ، ومثل له بما أنشده الفراء قال : * قلت لها : قومى ، فقالت : قاف * يريد « قد قمت » .

---

(١) العمدة ١/٣٠٩ ، ٣١٠ .
(٢) هما لعمر بن أبى ربيعة المخزومى ( انظر ديوانه ص ٢٣٢ ) .
(٣) العمدة ١/٣١٠ .

١٢ — التورية :

لم يعرف ابن رشيق التورية ولكنه مثل لها بقول علية بنت المهدى فى طل الخادم[١] :

أيا سرحة البستان طال تشوقى
فهل لى إلى ظل إليك سبيل
متى يشتفى من ليس يرجى خروجه
وليس لمن يهوى إليه دخول ؟

فورت بظل عن طل ، وقد كانت تجد به[٢] ، فمنعه الرشيد من دخول القصر ، ونهاها عن ذكره ، فسمعها مرة تقرأ : ( فإن لم يصبها وابل )[٣] فما نهى عنه أمير المؤمنين ، أى ( فطل ) فقال : ولا كل هذا .

وليست هذه هى التورية المعروفة عند البلاغيين المتأخرين ، فهى عندهم : أن تكون الكلمة تحتمل معنيين ، فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله ، لا ما استعمله كقول على ـ عليه السلام ـ فى الأشعث بن قيس[٤] وهذا كان أبوه ينسج الشمال باليمين . لأن قيسا كان يحوك الشمال التى واحدتها شمله .

ومما وقع من التورية فى القرآن الكريم قوله تعالى : ( قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم[٥] ) فانظر إلى كون الضلال له محملان ، وهما الحب وضد

---

(١) العمدة ١/٣١١ .
(٢) وجد به يجد بكسر الجيم وضمها وجدا : هام به .
(٣) سورة البقرة ( آية ٢٦٥ ) .
(٤) انظر تحرير التحبير ص ٢٦٨ وبديع القرآن ص ١٠٢ وخزانة الأدب ص ٢٣٩ .
(٥) سوره يوسف ( آية ٩٥ ) .

الهوى ، وكيف أهمل أحد الاحتمالين وهو الحب ، واستعمل دلالته على ضد الهوى ، والمراد ما أهمل لا ما استعمل فستجده أوجز لفظ وأحلاه .

ثم تكلم ابن رشيق عن التورية فى أشعار العرب فقال : « إنما هى كناية : بشجرة ، أو شاة ، أو بيضة ، أو ناقة أو مهرة أو ما شاكل ذلك كقول المسيب[1] بن علس :

دعا شجر الأرض داعيهم
لينصره السدر والأثأب

فكنى بالشجر عن الناس ، وهم يقولون فى الكلام المنثور : جاء فلان بالشوك والشجر ، إذا جاء بجيش عظيم .

ويختم هذا الباب بكلام المبرد عن الكناية فيقول : « قال المبرد وغيره : « الكناية على ثلاثة أوجه: هذا الذى ذكرته آنفا أحدها ، والثانى : التعمية والتغطية التى تقدم شرحها ، والثالث : الرغبة عن اللفظ الخسيس ، كقول الله عز وجل : ( وقالوا لجلودهم . لم شهدتم علينا )[2] فإنها فيما ذكر كناية عن الفروج، ومثله فى القرآن وفى كلام الفصحاء كثير »[3] .

ويلاحظ أن ابن رشيق قد أفاض فى باب الإشارة وأدخل فيها التعريض والكناية والتعمية ، وهو فى ذلك أدق من صاحب الصناعتين الذى أفرد عنها كثيراً من أقسام الكناية ، بينما كان ينبغى أن يسلكها فيها ، على أنه تلاها بما سماه « التتبيع » وهو نوع منها[4] . وحديث ابن رشيق

(١) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١/١٧٤ .

(٢) سورة فصلت ( آية ٢١ ) .

(٣) العمدة ١/٣١٣ .

(٤) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٨ .

عن الإشارة مظهر من مظاهر تنظيمه لمباحث السابقين ، وضم الأشباه إلى أشباهها وجعلها تحت لون واحد .

٧ — التتبيع :

جعله من أنواع الإشارة ، وذكر أن قوما يسمونه ( التجاوز ) وهو : « أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه ، ويذكر ما يتبعه في الصفة ، وينوب عنه في الدلالة عليه ، وأول من أشار إلى ذلك امرؤ القيس يصف امرأة[1] .

وَيُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا
نَؤُومُ الضحى لم تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلْ

فقوله . « يضحى فتيت المسك » تتبيع ، وقوله « نؤوم الضحى » تتبيع ثان ، وقوله : « لم تنتطق عن تفضل » تتبيع ثالث ، وإنما أراد أن يصفها بالترفه والنعمة ، وقلة الامتهان في الخدمة ، وأنها شريفة مكفية المؤونة ، فجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة ، وهذا هو ما سماه المتأخرون بالكناية ومن أحسن ما وقع في هذا الباب قول حسان بن ثابت[2] .

أولادُ جفْنة حَوْلَ قـــبر أبيهم
قبر ابن مارية الـكريم المفضل

فقوله : « حول قبر أبيهم » تتبيع مليح، أشار به إلى أنهم ملوك مقيمون لا يخافون فينقلون من مكان إلى مكان، وأنهم في مستقر عز، وأرض خصب لا تجدب ، أراد الشام ، وأن ذلك دأبهم من القدم ، فهم حول قبر أبيهم .

---

(١) العمدة ١/٣١٣ وديوانه ص ٤٥ .

(٢) العمدة ١/٣١٩ وديوانه ( نشر دار صادر بيروت ١٩٦١) ص ١٧٩ .

٨ — التجنيس :

ذكر أن التجنيس ضروب كثيرة منها[١] .

( ا ) المماثلة : وهى المطابقة عند قدامة بن جعفر والتعطف عند أبى هلال العسكرى وعرفها ابن رشيق فقال : « هى أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى ، نحو قول زياد الأعجم وقيل الصلتان العبدى يرثى المغيرة ابن المهلب :

فانعَ المُغيرة للمغيرةِ إذْ بدَتْ
شَعْواء مشعلة كنَبيح النّابح

فالمغيرة الأولى : رجل ، والمغيرة الثانية . الفرس ، وهو ثانية الخيل التى تغير . ثم قال ويجرى هذا المجرى قول الأودى :

وأقطعُ الهَوْجلَ مُسْتَأْنِساً
بِهَوْجَلٍ عَيْرانَةٍ عنتريس »[٢]

أنشده قدامة على أنه طباق ، وسائر الناس يخالفونه فى هذا المذهب وقد جاء رد الأخفش على بن سليمان عليه فى ذلك ، وإنكاره على رأى الخليل والأصمعى فى كتاب حلية المحاضرة للحاتمى .

(ب) التجنيس المحقق : « هو ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن ، رجع إلى الاشتقاق أو لم يرجع ، نحو قول أحد بنى عبس[٣] :

---

(١) العمده ١/٣٢١ .

(٢) المصدر السابق ١ /٣٢٢ وانظر نقد الشعر لقدامة ص ١٨٦ ، ( عيطموس أو عنتريس ) .

(٣) العمده ١/٣٢٣ .

وذلكم أن ذل الجار حالفكم
وأن أنفكم لا يعرف الأنفا

فاتفقت الأنف مع الأنف فى جميع حروفهما دون البناء ، ورجعا إلى أصل واحد ، وهذا عند قدامة أفضل تجنيس وقع ، والجرجانى يسميه التجنيس المطلق .

(جـ) المضارعة ( أو التجنيس الناقص ) : وذكر أنه على ضروب كثيرة منها(١) :

١ — أن تزيد الحروف وتنقص نحو قول أبى تمام :

* يمدّون من أيد عواص عواصم *

وهما سواء لولا الميم الزائدة ، وذكر أن الجرجانى يسميه التجنيس الناقص .

٢ — أن تتقدم الحروف وتتأخر ، كقول الطائى(٢) :

بيضُ الصَّفائِح ، لاسُود الصَّحائِفِ فِى
متونهنّ جلاء الشّك والريبِ

فقوله « الصفائح ، لاسود الصحائف » هو الذى أردت . ثم تكلم عن أصل المضارعة فقال : « أن تتقارب مخارج الحروف ، وفى كلام العرب منه كثير غير متكلف ، والمحدثون إنما تكلفوه »(٣) وذكر أن الرمانى يسمى هذا النوع ( المشاكلة ) وهى عنده ضروب : هذا أحدها وهى المشاكلة فى اللفظ خاصة ، ثم المشاكلة فى المعنى .

---

(١) العمدة ١/٣٢٥ .
(٢) انظر ديوانه ١/٤٠ .
(٣) العمده ١/٣٢٦ .

٣ — وقد تجىء المضارعة بالتصحيف ونقص الحروف كقول بعضهم :

فإن حلّوا فليس لهم مقـــــــر

وإن رَحَلُوا فليس لهم مَقَـــــرُّ

ثم بين أن شرط التصحيف التناسب فى الخط[(١)] ، سواء كان كلمة واحدة أو كلمتين ، وقد أحدث المولدون النوع الأخير . ثم أشار إلى أن القدماء لم يكونوا يعرفون التجنيس بهذ اللقب[(٢)] ، ودلل على ذلك بما حكى عن رؤبة ابن العجاج وأبيه ، وذلك أنه قال له يوما : أنا أشعر منك : قال : وكيف تكون أشعر منى وأنا علمتك عطف الرجز ؟ قال : وما عطف الرجز ؟ قال : * عاصم يا عاصم لو اعتصم * قال . يا أبت أنا شاعر ابن شاعر ، وأنت شاعر ابن معجم فغلبه ، فأنت ترى كيف سماه عطفا ، ولم يسمه تجانسا » .

ونراه فى كل ذلك يسوق الشواهد لجميع الألوان ، ثم يعرض لأقوال البلغاء فيقر بعضها ، وينكر بعضها الآخر فى أسلوب علمى واضح .

ثم ختم كلامه فى هذا الباب بالحديث عن العلاقة بين التجنيس والطباق فقال : « وإذا دخل التجنيس نفى عد إطباقا ، وكذلك الطباق يصير بالنفى تجنيسا »[(٣)] ولم يكتف بذلك بل نبه على أنه سيفرد لهما بابا .

٩ — الترديد :

عرفه بقوله : هو أن يأتى الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر ، فى البيت نفسه أو فى قسيم منه »[(٤)] .

---

(١) العمدة ١/٣٢٨ .

(٢) المصدر السابق ١/٣٣١ وانظر الصبغ البديعى ص ١٨٩ .

(٣) العمدة ١/٣٣٢ .

(٤) المصدر السابق ١/٣٣٣ وأنظر شعر زهير بن أبى سلمى ص ٢٣ .

ومن ذلك قول زهير :

وَمَنْ هَابَ أسباب المنايا ينلنه
وَلَوْ رَامَ أسباب السّماءِ بِسُلَّمِ

فردد كلمة ( أسباب ) وعلقها بمعنى فى الشطر الأول ، ثم بمعنى آخر فى الشطر الثانى . وقد بين ابن رشيق فى باب التجنيس الذى مر بنا أن الترديد نوع من المجانسة ،(١) والترديد عند ابن رشيق هو نفس ماسماه أبو هلال باسم ( المجاورة ) .

١٠ — التصدير :

« وهو أن يرد أعجاز الكلام على صدره ، فيدل بعضه على بعض ، ويسهل استخراج قوافى الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة ، ويكسب البيت الذى يكون فيه أبهة، ويكسوه رونقاوديباجة،ويزيدهمائيةوطلاوة »(٢) وواضح من تعريفه هذا أنه يستمد فى هذا الباب من ابن المعتز الذى سماه رد أعجاز الكلام على ماتقدمها ، وأورد ابن رشيق أقسامه الثلاثة التى ذكرها ابن المعتز وهى : مايوافق آخر كلمة من البيت آخر كلمة من النصف الأول ، مايوافق آخر كلمة من البيت أول كلمة منه ، وما وافق آخر كلمة من البيت بعض مافيه . وقد نص ابن رشيق على هذا النقل صراحة . ثم تحدث عن الفرق بين التصدير والترديد فقال : « التصدير قريب من الترديد ، والفرق بينهما أن التصدير مخصوص بالقوافى ترد على الصدور ، فلا تجد تصديرا إلا كذلك حيث وقع من كتب المؤلفين ، وإن لم يذكروا فيه فرقا ، والترديد يقع فى أضعاف البيت » .

(١) العمده ١/٣٢٣ .
(٢) المصدر السابق ٢/٣ .

١١ — المطابقة :

أشار إلى أن المطابقة عند جميع الناس ماعدا قدامة بن جعفر : « جمعك بين الضدين فى الكلام أو بيت شعر »[١] ثم أشار إلى خروج قدامة على هذا الاجماع باطلاقه ( المطابقة ) على نوع من الجناس كما سبق ، واطلاقه ( التكافؤ ) على المطابقة المعروفة عند الناس . يقول : « وسمى قدامة هذا النوع - الذى هو المطابقة عندنا — التكافؤ ، وليس بطباق عنده إلا ماقدمت ذكره ولم يسمه التكافؤ أحد غيره » .

وينقل ابن رشيق عن ( الخليل بن أحمد ) ، و ( الأصمعى ) حديثهما عن المطابقة ثم عرض لتعريف الرمانى وابن المعتز والجرجانى للمطابقة موضحا ذلك بالأمثلة والشواهد .

وعقد بابا لبيان الفرق بين الجناس والمطابقة .

١٢ — المقابلة :

حدها بقوله : « هى مواجهة اللفظ بما يستحقه فى الحكم »[٢]. وذكر أنها بين التقسيم والطباق ، وتتصرف فى أنواع كثيرة ، وأصلها ترتيب الكلام على مايجب فيعطى أول الكلام مايليق به أولا ، وآخره مايليق به آخرا ، ويأتى فى الموافق بما يوافقه ، وفى المخالف بما يخالفه . وهذا هو نفس تعريف قدامة بن جعفر للمقابلة .

ثم أضاف : « أن أكثر ماتجىء المقابلة فى الأضداد ، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة . مثال ذلك ما أنشده قدامة لبعض الشعراء :

---

(١) العمدة ٢/٥ .

(٢) المصدر السابق ٢/٥١ .

فوا عجباً كيف اتفقْنا فناصحٌ
وفيٌّ ومطويٌّ على الغل غادرُ ؟

فقابل بين النصح والوفاء بالغل والغدر ، وهكذا يجب أن تكون المقابلة الصحيحة ولكنه أخذ على قدامة بأنه لم يبال بالتقديم والتأخير فى هذا الباب .

ويقول ابن رشيق : « ومن المقابلة ماليس مخالفا ولاموافقا كما شرطوا إلا فى الوزن والازدواج فقط ، فيسمى حينئذ موازنة »[1] .

كقول النابغة :

أخلاق مجـــد تجلت مالها خطر
فى البأس والجود بين الحلم والخبر

وعلى هذا الشعر حشا النعمان بن المنذر فم النابغة درا ، ثم ذكر ابن رشيق : « أنه قد بين فى أول هذا الباب أو المقابلة بين التقسيم والطباق فكلما توفر حظها منهما كانت أفضل »[2] .

١٣ — التقسيم :

ذكر اختلاف العلماء حول التقسيم فقال : اختلف الناس فى التقسيم : فبعضهم يرى أنه استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به ، كقول بشار يصف هزيمة :

بضربٍ يذُوق الموت من ذَاقَ طعمهُ
ويُدْرِك مَنْ نجى الفرَار مَثالبه

---

(١) العمدة ٢/١٩ .

(٢) المصدر السابق ٢/٢٠ .

فراحوا فريق فى الأسارى ، ومثله
قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

فالبيت الأول قسمان : إما موت ، وإما حياة تورث عارا ومثلبة .

والبيت الثانى ثلاثة أقسام : أسير ، وقتيل ، وهارب ، فاستقصى جميع الأقسام ، ولا يوجد فى ذكر الهزيمة زيادة على ما ذكر . وجعل من أنواع التقسيم ( التقطيع )[١] وسماه قوم ( التفصيل ) . وتكلم عن الترصيع فقال: « وإذا كان تقطيع الأجزاء مسجوعا أو شبيها بالمسجوع فذلك هو الترصيع عند قدامة ، وقد فضله وأطنب فى وصفه إطنابا عظيما »[٢] وبذلك يدخل ابن رشيق الترصيع ضمن التقسيم ، وقد مر بنا أن الجاحظ نوه بالتقسيم وجودته ، وأفرد له كل من قدامة وأبى هلال العسكرى بابا مستقلا .

١٤ — التسهيم :

وهو ( التوشيح ) عند قدامة وأبى هلال العسكرى ، وقد سماه بهذا الاسم ( التسهيم )[٣] متابعا فى ذلك على ابن هارون المنجم . وقال : إن ابن وكيع سماه ( المطمع ) . وهو أنواع . منه مايشبه المقابلة ، وهو الذى اختاره الحاتمى ، نحو قول جنوب أخت عمرو ذى الكلب :

فأقسم يا عمرو لو نبهاك
إذا نبها منك داء عضالا
إذا نبها ليث عريسة
مفيتاً مفيداً نفوساً ومالا[٤]

---

(١) العمدة ٢/٢٥ .

(٢) المصدر السابق ٢/٢٦ .

(٣) المصدر السابق ٢/٣١ .

(٤) العريسة : بكسر العين المهملة وتشديد الراء = الشجر الملتف، وهو مأوى الأسد .

وخـــــرق تجاوزت مجهوله

بوجناء حرف تشكى الكلالا[١]

يقول ابن رشيق أردت قولها : « مفيتاً نفوسا ومفيدا مالا » فقابلت مفيتا بالنفوس ، ومفيدا بالمال . ثم تحدث عن سر الصنعة في التسهيم فقال : « وسر الصنعة في هذا الباب أن يكون معنى البيت مقتضيا قافيته ، وشاهدا بها دالا عليها كالذي اختاره قدامة « للراعي »[٢] وهو قوله :

وإن وُزِنَ الحصَى فوَزَنْت قوْمِي

وجدت حَصَى ضَرِيبتهم رَزِينا

فهذا النوع الثاني هو أجود من الأول للطف موقعه .

والنوع الثالث شبيه بالتصدير ، وهو دون صاحبيه ، إلا أن قدامة لم يجعل بينهما فرقا ، وأنشد للعباس بن مرداس :[٣]

هم سودوا هجناء وكل قبيلة

يبيّن عن أحسابها من يسودها

وقد علق على ذلك بقوله : « وإن تأملت قوافي ماهذه سبيله لم تجد له من لطف الموقع ما للقافية الراعي ، وإنما اختير هذا النوع على ما ناسب المقابلة

---

(١) خرق : بفتح فسكون = المكان الواسع تنخرق فيه الرياح ، أرادت الفلاة . الوجناء الناقة .

الحرف : المهزولة ولا يقال جمل حرف وإنما يقال ناقة حرف شبهوها إذا كانت ضامرة من الهزل بالحرف من حروف الهجاء وهو الألف .

تشكى . أصله تتشكى فحذف أحدى تاءيه .

الكلال . التعب والاعياء .

(٢) العمدة ٢/٣٢ .

(٣) انظر ديوانه تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ط . دار الجمهورية ببغداد ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م ) ص ١٢٢ .

والتصدير لأن كل واحد منهما مداول عليه من جهة اللفظ ؛ إما بالترتيب ، وإما باشتراك المجانسة ، والقافية في بيت الراعي دالة على نفسها بالمعنى وحده ، فصار استخراجها أعجب وأغرب ، وتمكنها أشد وأوكد » . ثم بين مأخذ التسهيم والمطمع والتوشيح من اللغـــة وبعض الناس يسمونه ( التوشيج ) بالجيم .

١٥ — التفسير :

عرفه بقوله . « هو أن يستوفى الشاعر شرح ما ابتدأ به مجملا وقلما يجيء هذا إلا في أكثر من بيت واحد »[1] ثم أشار إلى صحيحه وسقيمه وساق أمثلة كثيرة ولم يخرج عما قاله قدامة فيه .

١٦ — الاستطراد :

تحدث ابن رشيق عن الاستطراد ناقلا فيه عن الحاتمي ، وعرفه بقوله : « هو أن يرى الشاعر أنه في وصف شيء ، وهو إنما يريد غيره ، فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه فذلك استطراد ، وإن تمادى فذلك خروج[2] » . ثم ذكر أن أكثر الناس يسمى الجميع استطرادا والصواب ما بينه . ونبه على تساهل الحاتمي في تسمية الخروج استطراداً فقال : « قال الحاتمي : وقد يقع من هذا الاستطراد ما يخرج به من ذم إلى مدح ، كقول زهير[3] :

إن البخيلَ ملوم حيث كان ولـــــ
ـكن الجواد على عـــــلاته هرم

فسمى الخروج استطراداً كما تراه اتساعاً .

(١) العمدة ٢/٣٥ .

(٢) المصدر السابق ٢/٣٩ .

(٣) المصدر السابق ٢/٤٠ وانظر شعر زهير بن أبي سلمى ص ١٠٠ .

ثم بين أن من الاستطراد نوعا يسمى الادماج ثم مثل له بأمثلة من بينها مثال يدل على أن المأمون هو الذى سماه بهذا الاسم .

١٧ — التفريع :

بين أن منزلته من الاستطراد كالتدريج من التقسيم وذلك . « أن يقصد الشاعر وصفا ما ثم يفرع منه وصفا آخر يزيد الموصوف تأكيداً » كقول ابن المعتز :

كلامه أخـــــدعُ من لحظِهِ
ووعْدُهُ أخْـدعُ من طَيْفِهِ

فبينا هو يصف خدع كلامه فرع منه خدع لحظة ، ويصف خدع وعده فرع منه خدع طيفه . ثم قال : « وحق التفريع أن يكون الآخر من الموصوفين زائداً على الأول درجة : فى الحسن إن قصد المدح ، وفى القبح إن قصد الذم ، وهو نوع خفى إلا على الحـــاذق البصير بالصنعة » . ثم شفع ذلك بالأمثلة .

١٨ — الإلتفات :

تحدث عنه مورداً كلام قدامة وابن المعتز فيه فقال : « وهو الاعتراض عند قوم ، وسماه آخرون الاستدراك ، وسبيله أن يكون الشاعر آخذا فى فى معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثانى فيأتى به ، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل فى شىء مما يشد الأول » . (١)

ثم بين أن منزلة الألتفات فى وسط البيت كمنزلة الاستطراد فى آخر البيت

(١) العمدة ٢/٤٥ .

وإن كان ضده فى التحصيل ، لأن الألتفات تأتى به عفوا وانتهازا ولم يكن لك فى خلد فتقطع له كلامك ، ثم تصله بعد إن شئت ، والاستطراد تقصده فى نفسك ، وأنت تحيد عنه فى لفظك حتى تصل به كلامك عند انقطاع آخره ، أو تلقيه القاء وتعود إلى ما كنت فيه .(١) ثم أشار إلى التفاتات الأصمعى .

١٩ — الاستثناء :

تابع أبا هلال العسكرى وخاله أبا أحمد فى تسمية توكيد المدح بما يشبه الذم باسم الاستثناء ، وأشار إلى تسمية ابن المعتز . ثم بين أن هذه التسمية مجرد اصطلاح فقال : « وليس هذا الاستثناء على مارتبه النحويون فتطلبه بحروف الاستثناء المعروفة ، وإنما سمى اصطلاحا وتقريبا ، وسماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمى وأصحابه ، ولم يسم حقيقة »(٢) ثم قال : « ومن أصحاب التآليف من يعد فى هذا الباب ماناسب قول الشاعر :

فأصْبحتُ ممّا كانَ بينْى وبينَها

سِوَى ذِكْرِها كالقابِضِ الماءَ باليد

وليس من هذا الباب عندى ، وإنما هو من باب الاحتراس والاحتياط فلو أدخلنا فى هذا الباب كل ماوقع فيه استثناء لطال ، ولخرجنا فيه عن قصده وغرضه ولكل نوع موضع »(٣)

٢٠ — التتميم :

تابع قدامة فيه ، وأشار إلى أنه يسمى ( التمام ) أيضاً ، وبعضهم يسمى ضربا منه احتراسا وإحتياطا ، من مثل قول طرفة :

---

(١) العمدة ٢/٤٦ .

(٢) المصدر السابق ٢/٤٨ .

(٣) المصدر السابق ٢/٥٠ .

فسقى ديارَكَ — غيرَ مفسدها —

صَوْبُ الربيع وديمة تَهْمى

ثم تحدث عن معناه فقال : « هو أن يحاول الشاعر معنى ، فلا يدع شيئا يتم به حسنه إلا أورده وأتى به : إما مبالغة ، وإما احتياطا واحتراسا من التقصير » . ثم عقب ذلك بالأمثلة والشواهد من القرآن الكريم والشعر .

٢١ — المبالغة :

تحدث عن المبالغة مبينا أنها ضروب كثيرة ، ثم عرض لاختلاف النقاد والبلاغيين فيها بين مستحسن ومستقبح[١] ، ثم قال : « والمبالغة فى صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد معنى حسن بالغ فيشغل الأسماع بما هو محال ، ويهول مع ذلك على السامعين ، وإنما يقصدها من ليس بمتمكن من محاسن الكلام » . ثم ذكر أن من أحسن المبالغة وأغربها عند الحذاق : التقصى ، وهو بلوغ أقصى ما يمكن من وصف الشىء كقول عمرو ابن الأيهم التغلبي :[٢]

ونُكْرِم جارَنَا مَا دَامَ فِينا

وَنُتْبِعه الكرامةَ حيث كانَا

فتقصى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه .

ومن أغربها أيضاً عنده ترادف الصفات ، وفى ذلك تهويل مع صحة لفظ لا تحيل معنى كقوله تعالى : « ( أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض ) . »[٣]

(١) العمدة ٢/٥٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/٥٥ .

(٣) سورة النور ( آية ٤٠ ) .

ثم خلص فى النهاية إلى قوله : « ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة ، إلى كثير من محاسن الكلام » ثم شفع ذلك بأمثلة من الشعر القديم والقرآن الكريم .

٢٣ — الايغال :

بين أنه ضرب من المبالغة ، إلا أنه فى القوافى خاصة لايعدوها وصوره كما صوره قدامه والعسكرى ، وقال إن الحاتمى وأصحابه يسمونه (التبليغ)[١] وهو تفعيل من بلوغ الغاية . وتسمية قدامة أدق .

وجعل من الإيغال الاستظهار يقول : « ومن هذا نوع يسمى الاستظهار وهو قول ابن المعتز لابن طباطبا العلوى أو غيره :

فأنتم بَنُو بِنْتِــــــه دُونَنَا
وَنَحْنُ بنو عمّــــه المُسْـــلم

فقوله « المسلم » استظهار ، لأن العلوية من بنى عم النبى عليه الصلاة والسلام أيضاً أعنى أبا طالب ومات جاهليا ، فكأن ابن المعتز أشار بحذفه إلى ميراث الخلافة .

ثم فرق بين الإيغال والتتميم فقال : « وليس بين الإيغال والتتميم كبير فرق إلا أن هذا فى القافية لا يعدوها وذلك فى حشو البيت »[٢] ثم ختم حديثه فى هذا الفصل بالكلام عن اشتقاق الإيغال ناقلا عن ابن دريد والأصمعى .

٢٣ — الغلو :

قال فى باب المبالغة :[٣] « فأما الغلو فهو الذى ينكره من ينكر المبالغة

(١) العمدة ٢/٥٨ .

(٢) المصدر السابق ٢/٦٠ ﻫ

(٣) المصدر السابق ٢/٥٥

من سائر أنواعها ، ويقع فيه الإختلاف » ثم أشار هنا إلى أن من أسمائه الاغراق والافراط ، ورد على من يقصر فضيلة الشاعر على معرفته بوجوه الاغراق والغلو فقال : « ولا أرى ذلك إلا محالا ، لمخالفته الحقيقة ، وخروجه عن الواجب والمتعارف .. وقد قال الحذاق : خير الكلام الحقائق فإن لم يكن فما قاربها وناسبها »[١] وتحدث عن الغلو عند قدامة وعلى بن عبد العزيز الجرجانى والحاتمى .

ثم قال : « وأحسن الاغراق مانطق فيه الشاعر أو المتكلم بكاد ، وماشا كلها نحو كأن ، ولو ، ولولا وماأشبه ذلك »[٢] ثم ذكر اشتقاق الغلو والاغراق فى اللغة .

٢٤ ـ التشكك :

وهو عنده : « من ملح الشعر ، وطرف الكلام ، وله فى النفس حلاوة وحسن موقع بخلاف ماالغلو والاغراق ، وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ، ولا يميز أحدهما من الآخر[٣] وذلك نحو قول زهير[٤] :

وَمَا أَدْرِى وسوف إِخالُ أَدْرِى
أقومٌ آل حصن أم نساء ؟

فقد أظهر أنه لم يعلم أنهم رجال أم نساء ، وهذا أملح من أن يقول : هم نساء ، وأقرب إلى التصديق ، فأنت ترى كيف وقع هذا الشك من اليقين ؟ وكيف حلاوته فى الصدر وقبوله ، فإنه لو كان يقينا مابلغ هذا المبلغ . وقد مر بنا أن ابن المعتز قد سماه ( تجاهل العارف ) .

---

(١) العمدة ٢/٦٠ .
(٢) المصدر السابق ٢/٦٤ .
(٣) المصدر السابق ٢/٦٦ .
(٤) انظر شعر زهير بن أبى سلمى ص ١٣٢ .

ونراه يقطع حديثه فى فنون البديع ليتكلم عن الحشو واستدعاء القوافى أو قل غصبها ، وكأنما فتح هذين البابين ليصحح الموقف ، فمن الحشو ماهو مستحب كقول ابن المعتز فى وصف خيل :

صَبَبْنَا عليها ـ ظَالِمِينَ ـ سياطَنَا
فطارتْ بها أيد سراع وأرجلُ

وهو احتراس واضح كبيت طرفة آنف الذكر ، وكان حريا به أن ينحيه عن الحشو ، وكأنه أحس ذلك فاستدرك على البيت قائلا أنه شبيه بالتتميم .[1] وهو من صميمه حسب اصطلاحه واصطلاح من أخذ عنهم .

٣٥ ـ التكرار :

تحدث عنه متابعا فى ذلك لأبى أحمد العسكرى ، إذ نجد الباقلانى[2] يصرح بأنه من البديع ، ويمثل له بالآية الكريمة : (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ) .[3] يقول ابن رشيق : « وللتكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيها فأكثر مايقع التكرار فى الألفاظ دون المعانى ، وهو فى المعانى دون الألفاظ أقل فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعا فذلك الخذلان بعينه ، ولا يجب على الشاعر أن يكرر اسما إلا على جهة التشوق والإستعذاب ، وإذا كان فى تغزل أو نسيب »[4] .

وإذا كان ابن رشيق قد عده من البديع ، فقد أخرجه أبو هلال العسكرى[5] وجعله فرعا من فروع الاطناب لتوكيد الكلام .

---

(١) العمده ٢/ ٦٩ .
(٢) إعجاز القرآن ص ١٠٦ .
(٣) سورة الإنشراح ( آية ٥ ) .
(٤) العمده ٢/ ٧٣ ، ٧٤ .
(٥) الصناعتين ص ١٩٣ .

٢٦ ـ المذهب الكلامى :

نقل ماقاله ابن المعتز من اسناد تسمية هذا النوع ( المذهب الكلامى ) إلى الجاحظ وأنه لم يعثر على شىء منه فى القرآن الكريم ، وهو ينسب إلى التكلف ،[١] ثم قال كالمعترض على ابن المعتز : « غير أن ابن المعتز قد ختم بهذا الباب أبواب البديع الخمسة التى خصها بهذه التسمية وقدمها على غيرها »[٢] فهو يأخذ عليه هذا التناقض حيث يجعله أحد أبواب البديع الخمسة الأساسية عنده ثم بعد ذلك ينسبه إلى التكلف !!

وصرح ابن رشيق بأنه نقل هذا الباب عن ابن المعتز فقال : « وقد نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله ابن المعتز إلا ما لا خفاء به عن أحد من أهل التمييز ، واضطرنى إلى ذلك قلة الشواهد فيه »[٣] .

٢٧ ـ نفى الشىء بإيجابه :

ذكر أن هذا الباب من المبالغة وليس بها مختصا إلا أنه من محاسن الكلام فإذا تأملته وجدت باطنه نفيا ، وظاهره إيجابا[٤] وذلك مثل قول القائل : « سرت على طريق لا يهتدى بمنارة » وهو لا يريد أن له منارا لا يهتدى به ، ولكن يريد أنه ليس له منار البتة .

ويبدو أن هذا اللون من إبتكار ابن رشيق ، فهو لم يرد عند أحد من سابقيه كما أنه لم يسنده إلى أحد كعادته .

---

(١) العمدة ٢/٧٨ .
(٢) المصدر السابق ٢/٧٩ .
(٣) المصدر السابق ٢/٨٠ .
(٤) المصدر السابق • الموضع نفسه .

٢٨ — الاطراد :

أشار إلى أن من حسن الصنعة أن تطرد الأسماء من غير كلفة ولا حشو فارغ، فإنها إذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر، وقلة كلفته ومبالاته بالشعر.[1] وذلك نحو قول الأعشى:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد

وأنت امرؤ ترجو شبابك وائلُ

ولاشك أن الكلفة واضحة في هذا البيت، بالاضافة إلى الأبيات الأخرى التي استشهد بها ابن رشيق على هذا النوع.

٢٩ — التضمين والاجازة :

نبه على أن هذا الباب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقوب في العلم ولا حذق بالصناعة كجماعة ممن وسم في بلده بالمعرفة ونسب إليها مكذوبا عليه فيها : ثم خاص من ذلك إلى بيان معنى التضمين فقال « هو قصدك إلى البيت من الشعر أو القسيم[2] فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل ».[3] ويلاحظ أنه يستمد من ابن المعتز وقد استشهد بمعظم شواهده على التضمين. ثم أشار إلى المعنى الثاني للتضمين «وهو تعليق القافية بأول البيت الذي بعدها»[4]. وعرض هنا للاجازة وهي بناء الشاعر شطرا على شطر آخر لشاعر غيره، أو بناؤه بيتا على بيت لزميل له. كما عرض للتمليط وهو أن يتساجل شاعران فينشيء أحدهما شطرا أو بيتا ويكمل الثاني الشطر أو البيت. وروى أن

(١) العمدة ٢/٨٢ .

(٢) القسيم . الشطر .

(٣) العمدة ٢/٨٤ .

(٤) المصدر السابق ٢/٨٩ .

امرأ القيس قال للتوأم اليشكرى : « إن كنت شاعرا كما تقول فملط أنصاف ما أقول فأجزها ، قال : نعم ، قال امرؤ القيس : (١) .

أحار ترى بريقاهب وهنا

فقال التوأم		كنار مجوس تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس		أرقت له ونام أبو شريح

فقال التوأم		إذا ماقلت قد هدأ استطارا

ولا يزالان هكذا ، يصنع هذا قسيما وهذا قسيما إلى آخر الأبيات .

٣٠ — الاتساع :

وهو أن يكون فى البيت من الامتداد فى معناه مايجعله يؤول تأويلات مختلفة ، فكلما تأمل فيه ناقد أو شارح استنبط منه معنى جديدا . ومن ذلك قول امرىء القيس : (٢) :

مِكَرٍ مفرٍّ مُقْبِل مــدبر معًا
كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السيلُ مِنْ عَلِ

فإنما أراد أنه يصلح للكر والفر ، ويحسن مقبلا ومدبرا ، ثم قال « معا » أى : جميع ذلك فيه ، وشبهه فى سرعته وشدة جريه بجلمود صخر حطه السيل من أعلى الجبل ، فإذا انحط من عال كان شديد السرعه ، فكيف إذا أعانه قوة السيل من ورائه ؟

ثم ذكر ابن رشيق المعانى التى يمكن أن يؤول إليها بيت امرىء القيس.

---

(١) العمدة ١/ ٢٠٢، ٢/ ٩١ وأنظر ديوان امرىء القيس ص ١٠٧ .
(٢) العمده ٢/ ٩٣ وانظر ديوان امرىء القيس ص ٥٢ .

٣١ — الاشتراك :

تحدث عن الأشتراك فذكر أنه على أنواع : منها مايكون في اللفظ ، ومنها مايكون فى المعنى ، [1] فالذى يكون فى اللفظ ثلاثة أنواع:

أ — أن يكون اللفظان راجعين إلى حد واحد ومأخوذين منحد واحد فذلك اشتراك محمود ، وهو التجنيس ... وقد تقدم القول فيه .

ب — أن يكون اللفظ يحتمل تأويلين أحدهما يلائم المعنى الذى أنت فيه ، والآخر لايلائمه ، ولا دليل فيه على المراد ، كقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملّكا

أبو أمّــه حى أبوه يقاربه

فقوله (حى) يحتمل القبيلة ، ويحتمل الواحد الحى وهذا الاشتراك مذموم قبيح .

ج — والنوع الثالث ليس من هذا فى شىء ، وهو سائر الألفاظ المبتذلة للتكلم بها ، لا يسمى تناولها سرقة ، ولاتداولها اتباعا ، لأنها مشتركة لا أحد من الناس أولى بها من الآخر فهى مباحة غير محظورة ، إلا أن تدخلها استعارة أو تصحبها قرينة تحدث فيها معنى ، أو تفيد فائدة ، فهناك يتميز الناس ، ويسقط اسم الاشتراك الذى يقوم به العذر ، ولو غيرت اللفظة وأتى بما يقوم مقامها .

أما الاشتراك فى المعانى فنوعان:[2]

أ ـ أن يشترك المعنيان وتختلف العبارة عنهما ، فيتباعد اللفظان ، وذلك هو الجيد المستحسن .

---

(١) العمدة ٢/٩٦ .

(٢) المصدر السابق ٢/٩٨ .

ب ـ وهذا النوع على ضربين [١] أحدهما مايوجد فى الطباع من تشبيه الجاهل بالثور والحمار ، والحسن بالشمس والقمر ، والشجاع بالأسد وما شابهه .

والآخر ضرب كان مخترعا ، ثم كثر حتى استوى فيه الناس ، وتواطأ على الشعراء آخرا عن أول نحو قولهم فى صفة الخد (كالورد) وفى القد (كالغصن) وما شاكل ذلك .

٣٢ ـ التغاير :

عرفه بقوله « هو ان يتضاد المذهبان فى المعنى حتى يتقاوما ثم يصحا جميعا ، وذلك من افتنان الشعراء وتصرفهم وغوص أفكارهم ، ومن ذلك قول بعض العرب المتقدمين يذكر قوما بأنهم لايأخذون إلا القود دون الدية [٢] .

لا يشربون دماءهم بأكفهم

إن الدماء الشافيـــات تكال

ومن مليح التغاير عنده قول أبى الشّيص :

أجـــد الملامة فى هواك لذيذة

حباً لذكـــــرك ، فليلمنى اللوْم

وقول أبى الطيب فى عكس هذا :

أأحبه وأحب فيه ملامــــة

إن المـــلامة فيه من أعـــدائه

---

(١) العمدة ٢/ ٢٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، الموضع نفسه .

وذكر ابن رشيق أن هذا عند الجرجانى هو النظر والملاحظة ، وأنه يعده فى باب السرقات[1] .

* * *

على هذا النحو درس ابن رشيق فنون البديع ، وهو فى دراسة هذا الفن يتتبع كل محسن من محسنات الكلام ، ويعرض فيه آراء السابقين وأمثلتهم وما أصاب اسم المصطلح من التغيير ، أو أصاب معناه من التجدد عند الدارسين. والبديع عنده كما هو عند الذين سبقوه شامل لعناصر الحسن فى العمل الأدبى ، من غير تفريق أو محاولة لتوزيعها على علوم البلاغة الثلاثة .

وأهمية دراسته لاترجع إلى الفنون القليلة التى أضافها منوها بها وهى الاتساع والاطراد ، ونفى الشىء بايجابه ، والتفريع ، والترديد والتتبيع والاشتراك والتغاير ، والتكرار وإنما ترجع إلى أنه استوفى قراءة أكثر ماسبقه من مصنفات ، ونص فى مواضع كثيرة على المصنفين الذين استمد منهم ، وقارن بين آرائهم ، وأشار إلى اختلافهم أحيانا فى ألقاب بعض المصطلحات .

ونلمح من مظاهر تجديد ابن رشيق فى البديع أنه أربى على أبى هلال فى تهذيب كلام السابقين ، وضم الأشباه إلى الأشباه ، كعده الترصيع من التقسيم ، وجعله الكناية واللغز وما شاكلها من أقسام الاشارة ، وتعرضه للفرق بين الألوان المتقاربة ، كفرقه بين الاستطراد والالتفات والايغال والتتميم وما إلى ذلك بسبيل مما يتضاءل أمامه كل مؤلف سبقه. كما أنه كثيرا ماينبه على سر الصنعة فى اللون الذى يعرض له كما قال فى ( التسهيم ) .

ولعل فى كل ماسبق مايصور قيمة كتاب ( العمدة ) فى تاريخ البلاغة

---

(١) العمدة ٢/١٠٣ .

العربية عامة والبديع خاصة ، وأن هذه القيمة ترجع حقيقة إلى دقة جمعه للآراء المتقابلة فى فنونها المختلفة .. ويقول الدكتور بدوى طبانة : « إن ملكة الابتكار تكاد معالمها تكون مفقودة فى هذا الكتاب ، وإن كان لصاحبه شيء من الفضل ، فهو فيما جمعه من الروايات المأثورة ، وما نقله من كلام غيره من علماء البيان ونقاد الشعر ، ولهذا يعد كتاب ( العمدة ) من أهم المراجع التى يعتمدها الباحثون فى علم البلاغه عند العرب ، والطالبون بفنونها التى يزخر هذا الكتاب بالكثير منها ، كما يجدون فيه إشارات واضحة إلى الكتاب والمؤلفين فى البلاغة ، وما استطاعوا أن يستخرجوه من فنونها ، وماوضعوه من ألقابها ومصطلحاتها » [1]

---

(١) البيان العربى ص ١٣٥ .

## الفصل الرابع

# سر الفصاحة (لابن سنان الخفاجى)

ألف هذا الكتاب عالم من علماء القرن الخامس الذين ميزوا أنفسهم فى ميدان البلاغة ،وهو أبو محمد عبد الله [1] بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى (المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة) .

أخذ العلم والأدب عن علماء عصره وفى مقدمتهم أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى ، شاعر المعرة ، وأديبها وفيلسوفها العظيم ، وقد ذكر ذلك ابن سنان صراحة فى أكثر من موضع فى كتابه « سر الفصاحة » وممن تردد أسماؤهم فى هذا الكتاب : الجاحظ ، وأبو بكر الصولى فى أخبار أبى تمام ، وأبو الحسن الرمانى ، والحسن بن بشر الآمدى فى موازنته ، وأبو سعيد السيرافى ، وأبو الفتح بن جنى ، والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى.

وفى سر الفصاحة مايدل على أن ابن سنان كان واسع الثقافة ، أما فى الشعر وما يتصل به من نقد فتدل على ذلك النصوص الشعرية الكثيرة التى استشهد بها ، وما نثره من تعليقات عليها ، وكذلك الشأن فيما يتصل بثقافته النثرية ، وما أشار إليه من بعض نصوص النثر ، وأما فى الاعتزال وعلم الكلام وما يتصل بهما من مباحث الفلسفة فتدل على ذلك أيضاً بقوله عن

---

(١) انظر ترجمته فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ١/٢٣٣ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/٩٦ وفى زبده الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ٢/٣٦ وفى مواضع مختلفة من هذا الجزء والجزء الأول . وراجع ابن القلانس ص٩١ وما بعدها . وكتابة سر الفصاحة ( نشر مكتبة صبيح بالقاهره سنة ١٩٥٣ م ) .

بعض الفلاسفة ، وترداده لذكر بعض المعتزلة مثل الجبائى ، وجعلته تلمذته لأبى العلاء واسع الاطلاع على كتب اللغة ، وينص من ترجموا له على أنه سمع الحديث النبوى وبرع فيه .

وكان ابن سنان شاعرا بارعا ، وله ديوان مطبوع ببيروت سنة ١٣١٦ للهجرة ، وهو أحد الشعراء الذين عنى البارودى بالاختيار من أشعارهم فى مختلف الموضوعات ، ويتضح من أشعاره أنه كان يكثر من المديح ، مما جعله يتصل بكثير من شخصيات عصره وموطنه .

ولم يخلف ابن سنان من الكتب سوى كتاب ألفه فى الصرفة [1] وكتاب سر الفصاحة وهو أثر من أنفس الآثار البيانية التى خلفها القرن الخامس ، لأنه خلاصة مركزه لكثير من وجوه النظر فى العربية وأصولها ، وفقه لغتها ، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبى مع آراء سديدة فى النقد والبلاغة وفنون الأدب ، تدل على تبحر وسعة اطلاع ، ورأى منظم وعمق فى التفكير الأدبى ، [2] وكل ذلك يراه رأى العيان دارس هذا الكتاب ، ولقد يخطىء كثير من الباحثين حين يعدون غير مؤلف هذا الكتاب من الآخذين فى التحول بالدراسة البيانية الواسعة إلى منهج علمى منظم ، ويغفلون أثر ابن سنان فى هذا السبيل مع أنه لا يقل عن كثير منهم جهداً فى نصرة المذهب العلمى فى دراسة الأدب ونقده .

ويذكر ابن سنان فى مقدمة كتابه « سر الفصاحة » معرفة حقيقة الفصاحة يقول . « أما بعد : فإنى لما رأيت الناس مختلفين فى ماهية الفصاحة وحقيقتها ، أودعت كتابى هذا طرفا من شأنها ، وجملة من بيانها ، وقربت

(١) معجم الأدباء لياقوت ٣/١٣٩ .
(٢) البيان العربى ١٣٨ ، ١٣٩ .

ذلك على الناظر وأوضحته للمتأمل ، ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال ولا مع الإسهاب إلى الإملال »[1] .

ويقدم ابن سنان أثناء حديثه عن الفصاحة عدة فصول فى الأصوات والحروف والكلام واللغة ، وهل هى تواضع أم توقيف ؟[2] ويتعرض هنا للحديث عن العرب واللغة العربية ، وقد يأخذك العجب من هذه الغيرة الواضحة على العرب وبيانهم التى تراها فى « سر الفصاحة » كما رأيتها عند الجاحظ حين قرر أن البديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان،والتى ترى فيها أثر الحمية العربية والعصبية القومية فإن الخفاجى يرى : ألا اخفاء بمميزات اللغة العربية على سائر اللغات ، أما السعة فالأمر فيها واضح ، ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها لغة تضاهى العربية فى كثرة الأسماء للمسمى الواحد ، على أن اللغة الرومية[3] بالضد ، فإن الاسم الواحد يوجد فيها المسميات المختلفة كثيرا ، وقد كان بعض اللغويين حصر أسماء السيف والأسد فى لغة العرب فكانت أوراقا عدة ، وهى مع السعة والكثرة أخصر اللغات فى ايصال المعانى وفى النقل إليها يبين ذلك فليس كلام ينقل إلى لغة العرب إلا ويجىء الثانى أخصر من الأول ، مع سلامة المعانى وبقائها على حالها . وهذه بلاشك فضيلة مشهورة وميزة كبيرة . لأن الغرض فى الكلام ووضع اللغات بيان المعانى وكشفها ، فإذا كانت لغة تفصح عن المقصود وتظهره مع الاختصار والاقتصار فهى أولى بالاستعمال ، وأفضل مما يحتاج فيه إلى الإسهاب والاطالة . وأخبر عن أبى داود المطران ، وهو

(١) سر الفصاحة ص ٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) هى المعروفه الآن باللاتينية .

عارف باللغتين : العربية والسريانية أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السريانى قبحت وخست ، وإذا نقل الكلام المختار من السريانى إلى العربى إزداد طلاوة وحسنا [١] . وقد حكى أن بعض ملوك الروم سأل عن شعر المتنبي فأنشد له :

كَأَنَّ العيسَ كانت فَوْقَ جَفْنِي
مُنَاخات فلما ثُرْنَ سَالاَ

وفسر له معناه بالرومية فلم يعجبه ، وقال كلاما معناه : ما أكذب هذا الرجل !! كيف يمكن أن يناخ جمل على عين إنسان ؟ [٢] .

وتحدث ابن سنان عن الفصاحة وفرق [٣] بينها وبين البلاغة ، وجعلها خاصة بالألفاظ بينما جعل البلاغة عامة فى الألفاظ والمعانى . وبذلك كان كل كلام بليغ فصيحاً ولم يكن كل فصيح بليغا وهو فرق اصطلاحى ظل شائعا بعده عند كثير من البلاغيين وربما كان أول من اصطلح عليه . [٤] وعرف البلاغة تعريفات استمدها مما كتبه الجاحظ فى بيانه . وخرج من ذلك إلى تفصيل الحديث فى فصاحة الكلمه والكلام . وهنا نراه يناقش الرمانى [٥] فيما ذهب إليه من أن تأليف الكلام على ثلاثة أضرب : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا . وهو القرآن الكريم . ويجرى

---

(١) سر الفصاحة ص ٤٨ .

(٢) هذا الاستهجان راجع إلى عدم تصور المعانى لا إلى إخفاء فى الألفاظ ودلالتها اللغوية وفى الكلام استعارات لابد من إدراكها حتى تحسن الترجمة من لغة إلى أخرى ، ويمكن تذوق ما فيها من الحسن البيانى بعد إدراكه .

(٣) سر الفصاحة ص ٥١ .

(٤) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٥٣ .

(٥) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٨ ، ٨٨ .

الأول والثـــانى فى كلام الناس . ويقول :[1] .

« إن كلامـــه فى ذلك فاسد وغير صحيح ، لأن الـكلام إما متنافر أو متلائم ولا واسطه » ويصرح هنا بأن فى كلام العرب متلائما كالقرآن . وأن إعجازه الحقيقى إنما يرجع إلى صرف الله لهـــم عن معارضته .[2] ويذهب إلى أن المتلائم قد يفوق بعضه بعضاً . كما أن المتنافر قد يشتد تنافره وقد يقل ويضعف .

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن بديع ابن سنان يجدر بنا أن نشير إلى المصادر التى استمد منها فى كتابه وهذه المصادر هى : النحاة والبلاغيون والنقاد والمتـكلمون . ومن يتصفح كتاب « سر الفصاحة » يجد فيه أثر هذه الطوائف واضحا جليا .

وقد عاصر ابن سنان عبد القاهر الجرجانى ( المتوفى سنة ٤٧١ هـ ) وابن رشيق القيروانى ( المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ) إلا أنه يبدو أن أحد هؤلاء الثلاثة لم يؤثر فى صاحبه أى لون من التأثير . ولم يقرأ أحدهم ما كتبه الآخر ، ولم يشر أى منهم فى مؤلفه إشارة يستدل منها على تلاقيهم .

وما يعنينا من كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان لتحقيق الغرض المروم هو ما عرض له من ألوان البديع .

البديع فى سر الفصاحة :

لم يفرد ابن سنان بابا مستقلا للبديع كما فعل سابقوه ولـكنه تناول فنونه أثناء حديثه عن الفصاحة .. وهذه الفنون هى :

---

(١) سر الفصاحة ص ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ .

١ — الاستعارة :

ذكر أن من وضع الألفاظ موضعها ( حسن الاستعارة ) [١] ثم نقل تعريف الرمانى [٢] لها فقال : « هى تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للابانة ، وتفسير هذه الجملة أن قوله عز وجل : ( واشتعل الرأس شيباً ) [٣] استعارة ، لأن الاشتعال للنار ، ولم يوضع فى أصل اللغة للشيب فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه ؛ لأن الشيب لما كان يأخذ فى الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول ، كان بمنزلة النار التى تشتعل فى الخشب ، وتسرى حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة ، فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة فى الوضع بيان ، ولا بد من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى لأنها الأصل والاستعارة الفرع ، وليس يخفى على المتأمل أن قوله تعالى : ( واشتعل الرأس شيبا ) أبلغ من — كثر شيب الرأس — وهو حقيقة هذا المعنى » .

ثم عرض للفرق بين الاستعارة والتشبيه فقال : « فإن قال قائل : فما الفرق بين الاستعارة والتشبيه إذا كان الأمر على ما ذكرتم ؟ قيل . الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن وهو أن التشبيه على أصله لم يغير عنه فى الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة مخرج ليست العبارة له فى أصل اللغة » [٤] . على أن الرمانى قال فى كلامه :

« إن التشبيه فى الكلام بأداة التشبيه ، وهو يعنى - كأن والكاف

(١) سر الفصاحة ص ١٣٤ .

(٢) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٦ .

(٣) سورة مريم ( آية ٤ )

(٤) سر الفصاحة ص ١٣٥ وانظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٩ .

وما جرى مجراها ـ وليس يقع الفرق عندى بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط ، لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعة له ، ويكون حسنا مختاراً ، ولا يعده أحد فى جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه ، ومن ذلك قول الشاعر :

سَفَرْنَ بدوراً وانتقبنْ أهلةً
وَمِسْنَ غُصوناً والتفتن جآذرا[(١)]

وقول الآخر :

وأسبَلَتْ لؤلؤاً من نرجس فسقتْ
ورداً وعضتْ على العُنّاب بالبرد

وكلاهما تشبيه محض وليس باستعارة ، وإن لم يكن فيهما لفظ من ألفاظ التشبيه » ثم أوضح أنه لابد للاستعارة من حقيقة هى أصلها . وهى مستعار ، ومستعار منه ومستعار له ، فالمستعار لفظ الاشتعال فيما مثلنا به . والنار مستعار منه ، والشيب مستعار له ، وجعلها على ضربين[(٢)] قريب مختار ، وبعيد مطرح ، فالقريب المختار : ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح ، والبعيد المطرح : إما أن يكون لبعده مما استعير له فى الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك ، والقسمان معاً يشملهما وصفه بالبعد ، لكن هذا التفصيل يوضح ، وإذا ذكرت الأمثلة بان القريب فى الاستعارة من البعيد ، وعرف المرضى منها والمكروه ، وتنزلت الوسائط بينهما بحسب النسبة إلى الطرفين .

---

(١) البيت لأبى القاسم الزاهى، وقد شبههن بالأهلة عند لبس النقاب لظهور حواجبهن مقوسات فوقه . والجآذر : أولاد البقر الوحشى .

(٢) سر الفصاحة ص ١٣٦ .

ثم ذكر أن هذا الفن قد أورده المحدثون كثيراً ، وإن كان المتقدمون بدأوا به . وممن أكثر استعماله أبو تمام حبيب بن أوس ، فأورد منه فى شعره الجيد المحمود ، والردىء الذى هو غاية فى القبح .

ونراه هنا ينقل عن الرمانى تحليله لبعض الاستعارات التى وردت فى القرآن الكريم فيقول . « وقد خرج على بن عيسى ما ورد فى القرآن من الاستعارة ، فكان من ذلك قوله تعالى :

( وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا[(١)] ) لأن حقيقته عمدنا لكن ( قدمنا ) أبلغ لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم يقدم من سفر . لأنه من أجل إمهاله لهم عاملهم كما يفعل الغائب عنهم إذا قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم به ، وفى هذا تحذير من الاغترار بالإمهال[(٢)] » ، وقوله تعالى : ( إنا لما طغى الماء حملنا كم فى الجارية )[(٣)] ، لأن حقيقة ( طغى ) علا ، والاستعارة أبلغ . لأن — طغى — علا قاهرا . ونراه هنا يؤكد ما ذهب إليه الرمانى وما تابعه فيه ابن رشيق من أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة .

وناقش ابن سنان الآمدى فى بعض تحليلاته للاستعارات فى موازنته بين أبى تمام والبحترى فقال : « وقد اختار أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى الكاتب من جملة الاستعارة قول امرىء القيس :

فقلتُ له لـمّا تمطّى بِصُلْبِـــــــه
وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وناء بِكَلْكَلِ

---

(١) سورة الفرقان ( آية ٢٣ ) .
(٢) سر الفصاحة ص ١٣٦ وانظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) سورة الحاقة ( آية ١١ ) .

وقال : إن هذه الاستعارة في غاية الحسن والجودة والصحة ، لأنه إنما قصد وصف أحوال الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئا . قال : وهذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئاته وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرمه ، فلما جعل له وسطا يمتد وأعجازا رادفة للوسط استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده ، لأن قولهم تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ، وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه ، وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة لملاءمة معناها لمعنى ما استعيرت له »[1] .

وقد علق ابن سنان على ما ذكره الآمدى فقال : « وهذا الذى قاله أبو القاسم لا أرضى به غاية الرضى ، ولو كنت أسكن إلى تقليد أحد من العلماء بهذه الصناعة ، أو أجنح إلى اتباع مذهبه من غير نظر وتأمل لم أعدل عما يقوله أبو القاسم ، لصحة فكره ، وسلامة نظره ، وصفاء ذهنه ، وسعة علمه ، لكننى أغلب الحق عليه ، ولا أتبع الهوى فيما يذهب إليه ، وبيت امرىء القيس عندى ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها بل هو من الوسط بينهما ، وإنما قلت ذلك لأن أبا القاسم قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسم الصلب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ، وذكر الكلكل من أجل نهوضه ، فكل هذا إنما يحسن بعضه لأجل بعض ، فذكر الصلب إنما حسن لأجل العجز ، والوسط والتمطى لأجل الصلب والكلكل لمجموع ذلك . وهذه الاستعارة المبنية على غيرها ، فلذلك لم أر أن أجعلها من أبلغ الاستعارات وأجدرها بالحمد والوصف »[2] .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٣٨ وانظر الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ١/ ٢٥٠ .

(٢) سر الفصاحة ص ١٣٩ .

وينقل ابن سنان رأى على بن عبد العزيز الجرجانى فى بعض تحليلاته لاستعارات المتنبي يقول: (١) «وذكر القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ـ صاحب كتاب الوساطه بين المتنبي وخصومه ـ أن بعض أصحابه جاراه أبياتا أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة وخرج عن الاستعمال والعادة، وكان منها قوله (٢) :

مسرَّةٌ فى قلوب الطيب مفرقها
وحسرة فى قلوب البيض واليلبِ (٣)

وقوله :

تجمَّعتْ فى فؤاده همَمٌ
ملء فؤاد الزمان إحداها (٤)

قال : فقلت له : هذا ابن أحمر يقول :

ولِهَتْ عليه كُلُّ مُعْصِفَةٍ
هَوْجاء ليس لِلُبِّها زَبَرُ (٥)

فما الفصل بين من جعل للريح لبا ومن جعل للبيض واليلب قلوباً وهذا الكميت يقول :

---

(١) سر الفصاحة ص ١٤٤ وانظر الوساطة ص ٤٢٩ .
(٢) انظر ديوان المتنبى ( ط . الحلبى ١/٩٠ ) .
(٣) مفرقها : موضع إفتراق الشعر من الرأس .
البيض : واحده بيضة وهى الخوذه .
اليلب : الدرع . يعنى أن الطيب يسر باستعمالها إياه ، والبيض واليلب يتحسران لأنهما من ملابس الرجال .
(٤) أنظر ديوان المتنبى ٤/٢٧٧ .
(٥) الزبر : الرأى أو القوة .

ولـمّا رأيت الدهر يقلبُ ظهره
على بطنه فِعْلَ المُـمعَّـك بالرملِ[1]

وهذا ابن رميلة يقول :

همُ ساعدُ الدهر الذى يُتّـقى به
وما خير كف لا تنوء بساعـــد

وذكر أبياتاً من هذا النحو ، ثم قال : فكيف أنكرت على أبى الطيب أن جعل له فؤاداً ؟

قال : فلم يحر جوابا غير أن قال : إذا استبرت نفسى[2] وجدت بين استعارة ابن أحمر للريح لبا ، واستعارة أبى الطيب للطيب قلوبا بونا بعيدا . وربما قصرّ اللسان عن مجاراة الخاطر ، ولم يبلغ الكلام مبلغ الهاجس » .

ثم قال القاضى أبو الحسن : « وقد أجد لهذا الفصل الذى تخيل له بعض البيان ، وذلك أن الريح لما خرجت بعصوفها عن الاستقامة ، وزالت عن الترتيب شبهت بالأهوج الذى لامسكة فى عقله ، ولا زبر للبه ، ولما كان مدار الهوج على التباس العقل حسن من هذا الوجه أن يجعل للريح عقلا ، فأما الدهر فإنما يراد بذكره أهله ، فإذا جعل للدهر ساعدا فقد أقيم أهله مقام هذه الجوارح من الإنسان ، وليس للطيب والبيض واليلب ما يشبه القلب ، ولا ما يجرى مع هذه الاستعارة فى طريق » .

وقد علق ابن سنان على هذا بقوله : « فلعمرى إن الأمر على ما ذكره القاضى أبو الحسن ، وقد سهل بيت ابن أحمر بهذا التخريج الذى جرت به

---

(١) الممعك : من التمعك وهو التمرغ .

(٢) سر الفصاحة ص ١٤٥ وانظر الوساطة ص ٤٣٠ ( وسبر الشىء : خبره ، السبر : استخراج كنه الأمر كالاستبار ) .

العادة ، وإن لم يكن حسنا ولا محمودا لكنه أصلح من قلوب الطيب لأن تلك الاستعارة لاوجه لها من عادة ولا غيرها ، وكذلك ما قاله فى ساعد الدهر لأنه تأويل لا يستمر لأبى الطيب مثله»[١] .

وناقش ابن سنان أبا بكر الصولى فى بعض تحليلاته لاستعارات أبى تمام فقال . « ومازال الناس ينكرون قول أبى تمام[٢] :

لا تَسْقِنِى ماءَ المَلامِ فإننى
صَبٌ قد استعذبتُ ماء بُكائِى

ويحكون الحكاية المعروفة عن سائل سأل أبا تمام أن ينفذ له فى إناء شيئا من ماء الملام ، وربما نسبها بعض الرواة إلى عبد الصمد بن المعذل » . وذكر أن أصحاب أبى تمام قد تصرفوا فى التأويل له ، فقال بعضهم : إن أبا تمام أبكاه الملام وهو يبكى على الحقيقة فتلك الدموع هى ماء الملام . وهذا الاعتذار فاسد ، لأن ابا تمام قال : « قد استعذبت ماء بكائى » وإذا كان ماء الملام هو ماء بكائه فكيف يكون مستعفيا منه مستعذباله ؟

وينقل ابن سنان الخفاجى قول أبى بكر محمد بن يحيى الصولى[٣] . كيف يُعاب أبو تمام إذا قال : ماء الملام وهم يقولون . كلام كثير الماء ، وما أكثر ماء شعر الأخطل ، قاله يونس بن حبيب . ويقولون : ماء الصبابة ، وماء الهوى يريدون الدمع ، وقال ذو الرمة[٤] :

---

(١) سر الفصاحة ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٢ وانظر أخبار أبى تمام للصولى ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق : الموضع نفسه .

(٤) انظر ديوانه ص ٦٥٢ .

أأن ترسمت من خرقاءَ منزلةً
ماءُ الصبابة من عينيك مسجومُ[1]

وقال أيضاً :

أدارا بحزْوى هِجت للعينْ عبرةً
فماءُ الهوَى يرفضُّ أو يترقرق

وقالوا : ماء الشباب ، قال أبو العتاهية :

ظبي عليه من الملاحة حُلَّةٌ
فماء الشباب يجول فى وجناته

ويدافع الصولى عن أبى تمام فيقول : « فما يكون إذا استعار أبو تمام من هذا كله حرفا فجاء به فى صدر بيته ، لما قال فى آخره ـ فإننى صب قد استعذبت ماء بكائى ـ قال فى أوله ( لا تسقنى ماء الملام ) وقد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوى معناه ، قال الله عز وجل : ( وجزاء سيئة سيئة مثلها )[2] فالسيئة الثانية ليست بسيئة لأنها مجازاة ، ولكنه لما قال : ( وجزاء سيئة ) قال : ( سيئة ) فحمل اللفظ على اللفظ ، وكذلك قوله تعالى :(فبشرهم بعذاب أليم )[3] لما قال : بشر هؤلاء بالجنة ، قال : بشّر هؤلاء بالعذاب ، والبشارة إنما تكون فى الخير لا فى الشر »[4].

ويعلق ابن سنان على كلام الصولى فيقول « هذه جملة ما قاله أبو بكر وهى غير لائقة بمثله من أهل العلم بالشعر ، لأن قولهم كلام كثير الماء ، وماء الشباب

---

(١) خرقاء : اسم امرأة.
(٢) سورة الشورى ( آية ٤٠ ) .
(٣) سورة آل عمران ( آية ٢٥ ) وسورة التوبة ( آية ٣٤ ) وسورة الانشقاق ( آية ٢٤ ) .
(٤) سر الفصاحة ص ١٦٣ وانظر أخبار أبى تمام ص ٣٥ ، ٣٦ .

وقول يونس : أن الأخطل أكثرهم ماء شعر إنما المراد به الرونق ، كما يقال : ثوب له ماء ، ويقصد بذلك رونقه ، ولا يحسن أن يقال : ما شربت أعذب من ماء هذا الثوب . كما لا يجمل أن يقال : ما شربت أعذب من ماء هذه القصيدة ، لأن هذا القول مخصوص بحقيقة الماء لا بماء هو مستعار له ، وأبو تمام بقوله : لا تسقني ماء الملام ذاهب عن الوجه على كل حال ، ثم لا يجوز أن يريد هنا بالماء الرونق ، لأن الملام لا يوصف بذلك ، وإنما يذم ويستقبح ، ولا يحمد ويستحسن[1] » .

ثم ذكر أن مقابلة اللفظ باللفظ واستشهاده بالآيات المذكورة مجاز لا يقاس عليه وساق أمثلة كثيرة تكشف عن وجوه الحسن في الاستعارة ، وأخرى تكشف عن رديئها المسترذل على نهج ما صنعه ابن المعتز وقدامة وأبو هلال العسكري وابن رشيق القيرواني .

وعرض بعد ذلك للحقيقة فقال : « فأما الحقيقة فلا تحتاج فيها إلى مثال لأن أكثر الكلام على ذلك »[2] . ويلاحظ أن ابن سنان أفاد كثيرا مما كتبه الرماني عن الاستعارة ولم يزد عما أورده سابقوه في الاستعارة شيئا .

٢ — الاعتراض والايغال .

ذكر ابن سنان أن من وضع الألفاظ مواضعها ألا تقع الكلمة حشوا ، ثم عرض لتحديده وتقسيمه إلى حسن وقبيح ، وأدخل في الحسن ما سماه من سبقوه باسم ( الاعتراض والتتميم والايغال ) واستشهد على ذلك بقول أبي الطيب :

---

( ١ ) سر الفصاحة ص ١٦٤ .

( ٢ ) المصدر السابق ص ١٦٨ .

وتحتقر الدنيا احتقارَ مجرّبٍ
يرى كل ما فيها — وحاشاك — فانيا

فكلمة — حاشاك — هنا لم تدخل إلا لكمال الوزن ، لأنك لو قلت : « احتقار مجرب يرى كل مافيها فانيا » . كان كلاما صحيحا مستقيما ، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاء حسنا للممدوح فى موضعه . ونأخذ على ابن سنان تسميته مثل ذلك حشوا لأن هذا يقال له اعتراض لاحشو .

ونقل ابن سنان حديث قدامة بن جعفر عن الايغال ، وذكر أن أصحاب صناعة الشعر سموه بهذا الاسم وأرادوا بذلك أن الشاعر يوغل بالقافية فى الوصف إن كان واصفا ، وفى التشبيه إن كان مشبها[1] .

ومنه قول ذى الرمة :

قف العيس فى أطلال مية فاسأل
رسوما كأخلاق الرداء . . . .

فتم الكلام ، ثم قال : المسلسل — فزاد شيئا .

وقد مر بنا فى الصفحات الأولى من هذا البحث أن الأصمعى قد تنبه إلى الإيغال وإن لم يقترح له اسمه ، ونقله قدامة عنه .

٣ — التوشيح ( التسهيم ) :

تأثر فى هذا الفن بالآمدى فقال . « هو الكلام الذى يدل بعضه على بعض ، ويأخذ بعضه برقاب بعض ، وإذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتى من عجزه ، والشعر الجيد أو أكثره مبنى على هذا »[2] وذكر أن بعض

---

(١) سر الفصاحة ١٨١ .
(٢) المصدر السابق ص ١٨٧ .

الناس يسمى هذا الفن من الشعر ( التوشيح ) وبعضهم يسميه ( التسهيم ) .

ومثاله قول الشاعر :

عجبتُ لِسَعْى الدهر بيْنِى وبيْنَهَا
فلما انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فهذا البيت إذا سمع الإنسان صدره ، وكان قد عرف الروى المقصود فيه ، عرف الكلمة التى تكون قافية قبل الوصول إليها .

ثم ذكر : « أن من وضع الألفاظ موضعها ألا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة فى الذم ولا فى الذم بالألفاظ المعروفة المدح ، بل يستعمل فى جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض ، فى موضع الجد ألفاظه ، وفى موضع الهزل ألفاظه »[١] .

٤ — الكناية .

جعلها من وضع الألفاظ موضعها فقال : « ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح ، وذلك أصل من أصول الفصاحة وشرط من شروط البلاغة ، وإنما قلنا فى الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح ، لأن مواضع الهزل والمجون وإيراد النوادر يليق بها ذلك ، ولا تكون الكناية فيها مرضية ، فإن لكل مقام مقالا ، ولكل غرض فنا وأسلوبا »[٢] .

ومن حسن الكناية عنده قول أبى الطيب[٣] :

(١) سر الفصاحة ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٤ وانظر ديوان المتنبى ٣/١٤٩ ورواية البيت فيه :
( تشتكى ما اشتكيت من طرب الشو ... ق إليها والشوق حيث النحول ) .

تدعي ما ادعيتَ من ألم الشو
ق إليها والشوق حيثُ النحول

فكنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية. ويمضى ابن سنان إلى أصل ثان من أصول التأليف وهو المناسبة بين الألفاظ [1] إما من طريق الصيغة وإما من طريق المعنى. وأدخل فى الطريق الأول ما سماه المتأخرون بمراعاة النظير. وقال إن منها السجع والازدواج.

٥ — السجع والازدواج:

جعلهما من التناسب بين الألفاظ فى الصيغ، وحد السجع بأنه. «تماثل الحروف فى مقاطع الفصول. وذكر أن بعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج فى الكلام، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيرا، وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتمحل واستكراه، فأذهب طلاوة الكلام وأزال ماءه. وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ، يحسنها ويظهر آثار الصنعة فيها، ولولا ذلك لم يرد فى كلام الله تعالى، وكلام النبي عليه السلام، والفصيح من كلام العرب» [2].

وحمل هنا على الرمانى [3] وغيره من المتكلمين الذين فرقوا بين فواصل القرآن والسجع فقالوا: «إن الفواصل بلاغة، والسجع عيب، لأن الفواصل تتبع المعانى والسجع تتبعه المعانى. فقال. «فأما قول الرمانى: إن السجع عيب والفواصل بلاغة — على الإطلاق فغلط، لأنه أراد بالسجع ما يكون تابعا للمعنى وكأنه غير مقصود، فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن كان يريد

(١) سر الفصاحة ص١٩٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢٠١.
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٣ وانظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٨٩.

بالسجع ماتقع المعانى تابعة له وهو مقصود متكلف ، فذلك عيب والفواصل مثله . وكما يعرض التكلف فى السجع عند طلب تماثل الحروف ، كذلك يعرض فى الفواصل عند طلب تقارب الحروف ، وأظن أن الذى دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما فى القرآن فواصل ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا ، رغبة فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم وهذا غرض فى التسمية قريب » (١) . وعنده أن لا فرق بينهما ، وأن السجع يحمد مادام يأتى طوعا سهلا تابعا للمعانى . ويذكر أن القرآن لم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود لعلوه فى الفصاحة ، ويضيف أن من فواصله متماثلا ويريد به المسجوع . ومتقاربا ويريد به المزدوج ويشير الى تسمية قدامة ابن جعفر لترك المناسبة فى مقاطع الفصول باسم ( التخميع )(٢) .

ثم ينتقل إلى الحديث عن القوافى ، ويحمل على أبى العلاء لالتزامه مالا يلزم فى قوافى شعره وفواصل سجعه . ويطالب إلى الشعراء ألا يفتتحوا قصائدهم بما يتطير منه أو يستكره(٣) ، وأن يتحرزوا من الإقواء(٤) وغيره من عيوب القوافى .

٦ ـ الترصيع :

جعله من التناسب بين الألفاظ ، وعرفه بما لم يخرج عن تعريف سلفه قدامة بن جعفر فقال : « ومن التناسب أيضا الترصيع ، وهو أن يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت المنظوم أو الفصل من الكلام المنثور مسجوعة ،

(١) سر الفصاحة ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٢١٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٢١٧ . والاقواء : هو اختلاف إعراب القافية فيكون بعضها مثلا مرفوعا وبعضها مجرورا .

وكأن ذلك شُبِّه بترصيع الجوهر فى الحلى ، وهذا مما قلنا إنه لا يحسن إذا تكرر وتوالى لأنه يدل على التكلف وشدة التصنع ، وإنما يحسن إذا وقع قليلا غير نافر »[1] ومثال ذلك قول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليقة مه
دىُّ الطريقة نفاع وضرارُ
جواب قاصية جزاز ناصية
عقاد ألوية للخيل جرار

٧ ـ الجناس :

جعلة من التناسب بين الألفاظ ثم عرفه بقوله : « هو أن يكون بعض الألفاظ مشتقا من بعض إن كان معناهما واحدا ، أو بمنزله المشتق إن كان معناهما مختلفا ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى »[2] فجعلة كما ترى شاملا للمشتق وغيره على خلاف ما ذهب إليه أبو هلال العسكرى[3] ، ثم بين أنه إنما يحسن فى بعض المواضع إذا كان قليلا غير متكلف،ولا مقصود فى نفسه ، وأشار إلى أن العرب المتقدمين استعملوه فى أشعارهم ، ثم جاء المحدثون فلهج به منهم مسلم بن الوليد الأنصارى وأكثر من استعمال المطابق والمخالف ، حتى قيل عنه إنه أول من أفسد الشعر ، وجاء أبو تمام حبيب بن أوس بعده فزاد عليه فى استعماله والاكثار منه .

وذكر أن بعض البغداديين يسمى تساوى اللفظتين فى الصفة مع اختلاف المعنى « المماثل »[4] وذلك كقول زياد الأعجم :

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٢٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٣) انظر الصناعتين ص ٣٢١ .
(٤) سر الفصاحة ص ٢٢٨ .

ونبئتهم يستنصرون بكاهلٍ
وللؤم فيهم كاهلٌ وسنامُ

فكلمة ( كاهل ) الأولى اسم رجل ، وكاهل الثانية ما بين الكتفين ، وهذا كناية عن بلوغ اللؤم فيهم غايته .

ويسمى ( المجانس ) ما توافقت فيه اللفظتان بعض الاتفاق . وأشار هنا إلى تسمية قدامة لنوع منه باسم [1] ( المطابق ) وأن أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدى أنكر عليه ذلك أشد الإنكار . كما أشار إلى تسميته مالا تماثل فيه جميع حروف الكلمتين باسم ( المضارعة )[2] مثل ( تلاق وتلاف ) . ثم أسند إلى شيخه أبى العلاء تسمية نوع من الجناس ورد فى شعره سماه ( مجانس التركيب ) لأنه يركب من الكلمتين ما يتجانس به الصيغتان [3] ، كقول الشاعر :

مطايا مطايا وجدكن منازل
منى زل عنها ليس عنى بمقلع

وقد ذم ابن سنان صنيع أستاذه وقال إنه لا يعد فصاحة ولا بلاغة .

ويقول ابن سنان : « فأما مجانس التصحيف ، فقد ورد فى شعر أبى عبادة كقوله :

ولم يكن المغتر بالله إذ شرى
ليعجز والمعتز بالله طالبه[4]

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٢٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٢ .

(٣) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٠٢ والبلاغة تطور وتاريخ ص ١٥٦ .

(٤) سر الفصاحة ص ٢٣٣ وديوان البحترى ٢١٥/١ ، والشاهد فى ( المغتر والمعتز ) .

وهذا أقل طبقات المجانس ، لأنه مبنى على تجانس أشكال الحروف فى الخط ، وحسن الكلام وقبحه لا يستفاد من أشكال حروفه فى الكتابة ، إذ لا علاقة بين صيغة اللفظ فى الحروف وشكله فى الخط ».

ويخرج ابن سنان من ذلك إلى التناسب بين الألفاظ من طريق المعنى فيقول . « أما تناسب الألفاظ عن طريق المعنى ، فإنها تتناسب على وجهين: أحدهما أن يكون معنى اللفظتين متقاربا ؛ والثانى أن يكون أحد المعنيين مضاداً للآخر أو قريبا من المضاد ، فأما إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة وقد سمى أصحاب صناعة الشعر المتضاد من معانى الألفاظ المطابق » .

٨ — المطابق :

سماه أبو الفرج قدامة بن جعفر ( المتكافىء )(١) وأنكر عليه ذلك الآمدى(٢) ؛ وأبو الحسن على بن سليمان الأخفش . ويقـــول : « وسمى أصحاب صناعة الشعر ما كان قريباً من التضاد ( المخالف ) وقسم بعضهم التضاد فسمى ما كان فيهما لفظتان معناهما ضدان كالسواد والبياض ـ المطابق ـ وسمى تقابل المعانى والتوفيق بين بعضها و بعض حتى تأتى فى الموافق بما يوافق وفى المخالف بما يخالف على الصحة (المقابلة) وسمى ما كان فيه سلب وإيجاب ( السلب والإيجاب ) ولم يجعله من المطابق »(٣) .

واختار ابن سنان إطلاق اسم ( المطابق ) على كل أولئك ، ثم أشار إلى أن المطابق يجرى مجرى المجانس(٤) فى أنه لا يستحسن منه إلا ماقل ووقع

(١) سر الفصاحة ص ٢٣٤ .
(٢) انظر الموازنة ١/ ٢٨٥ .
(٣) سر الفصاحة ص ٢٣٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٣٥ .

غير مقصود ولا متكلف ، متبعاً ذلك بأمثلة تكشف عن جهتى الحسن والقبح مع شرح واف لها .

٩ — التبديل .

عرض له فى أثناء حديثه عن الطباق فقال : « ومما يجرى مجرى المطابق أن يقدم فى الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاماً ويتلى بآخر يجعل فيه ما كان مقدما فى الأول مؤخراً فى الثانى ، وما كان مؤخراً مقدما »[١] ، وأشار إلى أن قدامة بن جعفر سماه[٢] ( التبديل ) وهو عكس الكلام . وذلك مثل قول الحسن البصرى . ( إن من خوفك حتى تلقى الأمن ، خير لك ممن أمنك حتى تلقى الخوف ) . وكقول عمر بن عبيد فى بعض دعائه : ( اللهم اغننى بالفقر إليك ، ولا تفقرنى بالإستغناء عنك ) .

١٠ — الأرداف والتتبيع :

جعله من نعوت البلاغة والفصاحة[٣] ، وهو ضرب من الكناية ومثل له ببيت عمر بن أبى ربيعة (بعيدة مهوى القرط) كناية عن طول العنق، ومثله . ( نئوم الضحى ) وهو كناية عن ترف المرأة وأن لها من يكفيها أمرها .

وذكر ابن سنان أن أصحاب صناعة البلاغة يسمونه الأرداف[٤] ولا يشرحون العلة فى سببه وحسنه من المبالغة ، وهو يقصد فى ذلك قدامة ابن جعفر . واكتفى ابن رشيق بتسميته ( التتبيع ) ، أما أبو هلال العسكرى فسمى الباب باسم ( الأرداف والتوابع ) وذلك على نحو ما أسلفنا .

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٣٩ .
(٢) راجع جواهر الألفاظ ص ٣ وما بعدها .
(٣) سر الفصاحة ص ٢٧٠ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٧٢ .

١١ — التمثيل :

وهو : « أن يراد معنى فيوضح بألفاظ تدل على معنى آخر . وذلك المعنى مثال للمعنى المقصود ، وسبب حسن هذا مع ما يكون فيه من الإيجاز أن تمثيل المعنى يوضحه ويخرجه إلى الحس والمشاهدة . لأن المثال لابد من أن يكون أظهر من الممثل ، والغرض منه إيضاح المعنى وبيانه (١) .

ويلاحظ أن التمثيل عنده كما كان عند قدامة وابن رشيق ، ويتطابق مع ما سماه أبو أحمد العسكرى باسم ( المماثلة ) ويشمل الاستعارة التمثيلية وبعض صور الكناية .

ويقول ابن سنان معقباً على ذلك : « هذا منتهى ما نقوله فى الألفاظ بانفرادها واشتراكها مع المعانى ، ومن وقف عليه عرف حقيقة الفصاحة ومائيتها ، وعلم أسرارها وعللها ، فأما الكلام على المعانى بانفرادها ، فقد قدمنا القول بأن البلاغة عبارة عن حسن الألفاظ والمعانى ، وأن كل كلام بليغ لابد من أن يكون فصيحاً ، وليس كل فصيح بليغاً ، إذ كانت البلاغة تشتمل على الفصاحة وزيادة لتعلق البلاغة مع الألفاظ بالمعانى» (٢) ثم مضى يذكر ما يتعلق بالمعانى مفردة من الألفاظ ، وبين أن حصر المعانى بقوانين تستوعب أقسامها وفنونها على نحو ماصنع بالألفاظ فعسير متعب لا يليق بهذا الكتاب تكلفه ، ولكن يحتاج إلى أن يومىء إلى المعانى التى تستعمل فى صناعة تأليف الكلام المنظوم والمنثـــور ، ويبين كيف يقع الصحيح فيها والفاسد والتام والناقص ، على أن من كان سليم الفكر صحيح التصور لم يخف عنه شيء مما تستر النفوس ، وإن كان قد يخفى عنه كثير مما ذكره من

(١) سر الفصاحة ص ٢٧٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٧٥ .

الـكلام والألفاظ ، لأن فى الألفاظ مواضعة واصطلاحا يختلف الناس فى المعرفة بهما بحسب اختلافهم فى معرفة اللغه وفهم الاصطلاح والمواضعه ، والمعانى ليس فيها شىء من ذلك ، وإنما معيارها العقل والعلم وصفاء الذهن[١] ثم ذكر أن لها فى الوجود أربعة مواضع :

الأول : وجودها فى أنفسها ، والثانى : وجودها فى أفهام المتصورين لها والثالث : وجودها فى الألفاظ التى تدل عليها . والرابع : وجودها فى الخط الذى هو أشكال تلك الألفاظ المعبر بها عنه . ويقول . « وإذا كان هـذا مفهوماً فإنا فى هذا الموضع إنما نتكلم على المعانى من حيث كانت موجودة فى الألفاظ التى تدل عليها دون الأقسام الثلاثة المذكورة . ولم نتكلم عليها من حيث وجدت فى جميع الألفاظ ، بل من حيث توجـــد فى الألفاظ المؤلفة المنظومة على طريقة الشعر والرسائل وما يجرى مجراهما فقط إذ كان ذلك هو مقصودنا فى هذا الـكتاب ، وإذا بان هذا فإن الأوصاف التى تطلب من هذه المعانى هى : الصحة ، والـكمال ، والمبالغة ، والتحرز مما يوجب الطعن ، والاستدلال بالتمثيل والتعليل وغيرهما[٢] » .

١٢ — الصحة فى التقسيم :

وهو أن تـكون الأقسام المذكورة لم يخل بشىء منها ، ولا تـكررت ، ولا دخل بعضها تحت بعض ، ومثال ذلك قول نُصَيْب[٣] :

فقال فـريق القوم لا ، وفريقهم
نعم ، وفريق قال : ويحك ما ندرى

(١) سر الفصاحة ص ٢٧٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٧٧ .
(٣) المصدر السابق : الموضع نفسه .

فليس فى أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام . أى أن الشاعر قد استوفى جميع أقسام المعنى الذى هو آخذ فيه .

ومن التقسيم المعيب عنده قول جرير :

صَارتْ حَنِيفَةُ أثلاثاً فثلثهم
من العبيد وثلثٌ من مواليهـــا

لأن الشاعر قد أخل بقسم من الثلاثة .

١٣ — صحة التشبيه :

« وهو أن يقال أن أحد الشيئين مثل الآخر فى بعض المعانى والصفات ولن يجوز أن يكون أحد الشيئين مثل الآخر من جميع الوجوه حتى لا يعقل بينهما تغاير البتة ، لأن هذا لو جاز لكان أحد الشيئين هو الآخر بعينه ، وذلك محال ، والأحسن فى التشبيه أن يكون أحد الشيئين يشبه الآخر فى أكثر صفاته ومعانيه ، وبالضد حتى يكون ردىء التشبيه ما قل شبهه بالمشبه به ».(١)
ومن أدواته الكاف وكأن وما يجرى مجراهما . وتحدث ابن سنان عنه حديثا مفصلا استمد فيه من الرمانى وما قاله من أن حسن التشبيه إنما يرجع إلى تشبيه الخفى بالظاهر المحسوس ،(٢) والذى لا يعتاد بالمعتاد ، ووضح ذلك بأمثلة للتشبيه الجيد وأخرى للتشبيه الردىء .

١٤ — صحة المقابلة :

عرفها بنفس تعريف قدامة بن جعفر ، ثم قال : « والأصل فى هذه

(١) سر الفصاحة ص ٢٩٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩١ وانظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٦ .

المناسبة [١] فإن لها تأثيرا قويا فى الحسن» [٢] ثم أورد أمثلة من النظم والنثر تدل على حسن المقابلة وفسادها .

١٥ — صحة التفسير :

عرفه بما لم يخرج عما قاله قدامة بن جعفر فقال : « هو أن يذكر مؤلف الكلام معنى يحتاج إلى تفسيره ، فيأتى به على الصحة من غير زيادة ولا نقص » [٣]، وساق له أمثلة تدل على صحته وفساده .

١٦ — المبالغة والغلو :

ذكر اختلاف النقاد وأصحاب البلاغة فيها بين مستحسن وغير مستحسن فقال : ( الناس مختلفون فى حمد الغلو وذمه ، فمنهم من يختاره ويقول أحسن الشعر أكذبه ، ويستدل بقول النابغة وقد سئل من أشعر الناس ؟ فقال : من استجيد كذبه ، وأضحك رديئه ، وهذا هو مذهب اليونانيين فى شعرهم. ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التى تخرج إلى الاحالة ، ويختار ما قارب الحقيقة ودانى الصحة ) [٤]

وذهب إلى مدح المبالغة والغلو ، لأن الشعر مبنى على الجواز والتسمح ، ولكنه رأى أن يستعمل فى ذلك ( كاد ) وماجرى فى معناها ليكون الكلام أقرب إلى حيز الصحة ، وذلك كقول البحترى: [٥]

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

---

(١) اسم الإشارة يعود على صحة المقابلة فى المعانى .

(٢) سر الفصاحة ص٣١٤.

(٣) المصدر السابق ص ٣١٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٣١٩.

(٥) المصدر السابق ص ٣٢٠ .

وجعل من المبالغة « الاستثناء » فى مثل قول النابغة الذبيانى :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

وهذا هو ماسماه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم .

١٧ — التحرز مما يوجب الطعن :

عرفه بقوله : ( هو أن يأتى بكلام لو استمر عليه لكان فيه طعن ، فيأتى بما يتحرز به من ذلك الطعن (١) كقول طرفة :

فسقى ديارك — غير مفسدها —
صوب الربيع وديمة تهمى

وهذا هو ماسماه الجاحظ ( إصابة المقدار ) (٢) وجعله قدامة أحد ضربى التتميم وسماه المتأخرون فاصلين له عن التتميم باسم ( الاحتراس ) لأن قوله ـ غير مفسدها ـ احتراس للديار من فسادها ومحو رسومها بكثرة مايسقط فيها من المطر . ونقل ابن سنان عن قدامة بعض الأمثلة التى تمثل العيب والقبح .

١٨ — الاستدلال بالتمثيل :

وهو عنده : « أن يزيد فى الكلام معنى يدل على صحته بذكر مثال له (٣) » نحو قول أبى العلاء :

---

(١) سر الفصاحة ص ٣٢٢ .
(٢) البيان والتبين ١/٢٢٨ .
(٣) سر الفصاحة ص ٣٢٤ .

لَوْ اختصرْتم من الإحسانِ زرتكم
والعذْبُ يُهْجَرُ للافراط فى الخصَرِ

فدل على أن الزيادة فيما يطلب ربما كانت سببا للامتناع منه ، بتمثيل ذلك بالماء الذى لايشرب لفرط برده ، وإن كان البرد فيه مطلوبا محمودا .

والاستدلال عند ابن سنان هو نفس ماسماه أبو هلال ( الاستشهاد والاحتجاج )[١].

١٩ — الاستدل بالتعليل :

مثل له بقول أبى الحسن التهامى[٢] :

لو لم يكن أقحوانًا ثغرُ مبسمِها
مَا كَانَ يزدادُ طيبًا سَاعَةَ السَّحَرِ

ومنه قوله تعالى : ( لو كانَ فيهما آلهة إلا الله لفسدتا )[٣] .

وينهى ابن سنان حديثه فى المعانى بقوله : ( هذا مبلغ مانقوله فى المعانى مما يستدل به على غيره ، لأن حصرها مما لاسبيل إليه على مابيناه ، وقد قدمنا ذكره » .

. . .

تلك هى فنون البديع التى عرض لها ابن سنان فى كتابه ، موزعة بين اللفظ والمعنى على الوجه الذى رأيناه مع الإحكام والإتقان ، وقد عالجها جميعا فى ثنايا حديثه عن سر الفصاحة ، كما أنه استمدها من سابقيه ، فلم يكن

(١) الصناعتين ص ٤١٦ .

(٢) سر الفصاحة ص ٣٢٧ .

(٣) سورة الأنبياء ( آية ٢٢ ) .

له فضل الاستقلال إلا فيما كتبه عن «الاستدلال بالتعليل» الذى لم يتعرض له أحد من البلاغيين سوى أبى هلال العسكرى الذى أدرجه تحت الاستشهاد والاحتجاج . كما خالفهم فى تسمية بعض الفنون ، ورفض بعض الفنون التى اعتادوا ذكرها فى كتبهم .

ثم عرض ابن سنان بعد ذلك لبعض آراء النقاد فى الشعر ، [1] وفى القدماء والمحدثين يقول : « وقد صنف قوم فى نقد الشعر رسائل ذكروا فيها أبوابا من الصناعة لاتخرج عما ذكرناه فى كتابنا هذا ، إلا أنهم ربما جعلوا للمعنى الواحد عدة أسماء كالترصيع الذى يسمونه ترصيعا وموازنة وتسميطا وتسجيعا ، وهو كله يرجع إلى شىء واحد ، وإذا وقف على ماصنفوه فى هذا الباب وجد الأمر فيما قلنا ظاهرا ، والتكرير بينا واضحا » [2]

وواضح أنه يعترف بمراجعته لمن كتبوا قبله فى البلاغة والنقد ، وقد شكا من اختلافهم فى تلقيب بعض الفنون . ثم عقد بعد ذلك فصلا تحدث فيه عن الفرق بين المنظوم والمنثور ، وما يقال فى تفضيل أحدهما على الآخر ، وفصلا فيما يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفته من علوم اللغة [3] والنحو ، وما يحتاجه الشاعر من معرفة علمى العروض والقوافى ، وأخبار العرب وأنسابهم وأمثالهم ، وما يحتاجه الكاتب من بعض ذلك ومن معرفة فنون المخاطبات ورسوم التقليدات مع الاطلاع على كتاب الله وشريعته وأحاديث رسوله عليه السلام .

ويختم ابن سنان كتابه بوصية للشاعر والناثر : « بترك التكلف والاسترسال مع الطبع ، وفرط التحرز ، وسوء الظن بالنفس ، ومشاورة أهل المعرفة ، وبعض

(١) سر الفصاحة ص ٣٢٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٣٦ ، ٣٣٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٤١ .

الإكثار والإطالة ، وتجنب الإسهاب فى فن واحد من فنون الصناعة ، فإن كلام الإنسان ترجمان عقله ، ومعيار فهمه . وعنوان حسه ، والدليل على كل أمر لولاه لخفى منه ، وبحسب ذلك يحتاج إلى فضل التثقيف واجتماع اللب عند النظم والتأليف » [١] .

ومن العرض السابق يتضح أن الخفاجى قد عالج فنون البديع . فى ثنايا كلامه عن سر الفصاحة الذى يتمثل عنده فى حسن اللفظ وحسن المعنى . وإذا كان قد أفاد كثيرا فى كتابه من معارف البلاغيين المتقدمين عليه ، فإن ذلك لم يمنعه أحيانا من انتقادهم ومناقشتهم . وتصحيح مالم يقبله من كلامهم فى بعض فنون البديع .

وكان له بالإضافة إلى ذلك ملاحظاته وآراؤه الخاصة التى نثرها فى ثنايا كتابه على حسب المناسبات والمقتضيات ، فهو عالم يحكم عقله . وليس ناقدا يحكم ذوقه وقد لاحظنا خبرته بالنصوص وتلمسه لأسرار الجمال فيها . إلا أننا نأخذ عليه كثرة أحكامه المطلقة والتعميم فى قضاياه ، كبنائه الفصاحة فى اللفظة المفردة على التباعد بين مخارج الحروف . وعلى الرغم من ذلك فلا ننفى جهده فى الكتاب ، ولا ننكر فضله فى أنه ساعد بكتابه فى وضع الأساس العلمى لاتجاه أصحاب البديع [٢] . وكان من أقوى الدعائم التى ارتكز عليها المتأثرون فى التفرقة بين اللفظى والمعنوى من فنون البديع . كما أنه ترك لنا أفكارا فى الفصاحة والأصوات مازال بعضها أصولا ثابتة حتى الآن . وقد انتهى ابن سنان من تأليف كتابه هذا ( سنة ٤٥٤ للهجرة ) .

---

(١) سر الفصاحة ص ٣٤٣ .

(٢) انظر تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ( للدكتور محمد زغلول سلام — طبعة دار المعارف بمصر ) ص ٢٦٣ .

# الفصل الخامس

## البديع فى نقد الشعر ( لأسامة بن منقذ )

مصنف هذا الكتاب أبو المظفر أسامة [1] بن مرشد بن منقذ (المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة . ) من فرسان بنى منقذ وعلمائهم وشجعانهم ، تلقى الثقافة التى كان يتلقاها الأمراء فى ذلك العصر ، فدرس الحديث والأدب ، والنحو ، واللغة ، وحفظ الكثير من الشعر ، وأخذ من ذلك بنصيب واف ، تشهد له به كتبه ، وماضمت من أحاديث كثيرة متنوعة الأغراض ، ومن مأثور كلام البلغاء من المتقدمين ، وما استشهد به من شعر ومنثور ، وما اقتبسه من شعر السابقين ، وما أورده فى شعره من ألفاظ لغوية استعملت فى معانيها الدقيقة ، مما لم يكن يجرى إلا على أقلام كبار البلغاء ، وقد تتلمذ على يد أستاذه ابن المغيره ( المتوفى سنة ٥٠٣ للهجرة ) [2] ، كما عاش فى بيئة أدبية ممتازة ، وكان الأمراء من بنى منقذ ممن يقصدهم الشعراء والأدباء . كما أنهم كانوا علماء شعراء . ويحفظ الأدب كثيرا من أشعار أبية وأعمامه . [3]

كان أسامة شاعر أديبا فارسا . ألف كثيرا من الكتب الأدبية

---

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ٥/١٨٨ ووفيات الأعيان ١/٦٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٤٢٧ والكامل لابن الأثير ١١/١٩١ ، ١٩٢ ، ٢١٩ ودائرة المعارف الإسلامية ٢/٧٩ وشذرات الذهب ٤/٢٧٩ والسلوك للمقريزى ١/١٢٥ ومقدمة ديوان أسامه ( تحقيق الدكتورين أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ) ومقدمة كتاب (الاعتبار؛ لأسامة بن منقذا ( فيليب حتى ) ومقة كتاب المنازل والديار ص ٣٠ .

(٢) أنظر أعلام العرب ( أسامة بن منقذ ) للدكتور أحمد كمال زكى ص ٧.

(٣) أنظر مقدمة ديوان أسامة للدكتور أحمد بدوى ص ٢.

والتاريخية . ومن أهمها : كتاب الاعتبار . وله أهمية كبرى بين المؤلفات العربية ، لأنه كتب فيه مذكرات صور فيها تصويرا حيا العصر الذى عاش فيه فى حالتى الحرب والسلم . وقد نشره لأول مرة المستشرق الفرنسى (هارتويج ديرنبورج) سنة ١٨٨٦ م عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، وعليها إجازة من « مرهف » بن أسامة .[١]

وله كتاب التاريخ البدرى الذى جمع فيه أسماء من شهد بدرا من الفريقين ، وكتاب تاريخ القلاع والحصون ، وكتاب أخبار النساء ، وذيل يتيمة الدهر ووضع كتاب أخبار أسرته ، ابن الجوزى المتوفى بعده وله أيضا كتاب لباب الآداب الذى أورد فيه ألوانا شتى من الآداب والفضائل الفردية والاجتماعية ، جامعا ما يلائم ذلك من قرآن أو حديث أو حكمة أو شعر بليغ . ولأسامة ديوان شعر ضخم[٢] ، جمعه بنفسه وعنى به من بعده ابنه مرهف .

ومن أهم الكتب التى تركها أسامه « البديع فى نقد الشعر » وهو موضوع دراستنا . وقد جمع فيه : « ماتفرق فى كتب العلماء المتقدمين المصنفة فى نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه »[٣] والذى وقف عليه كتاب البديع لابن المعتز ، وكتاب حلية المحاضرة للحاتمى ، وكتاب الصناعتين للعسكرى ، وكتاب اللمع[٤] للعجمى . وكتاب العمدة لابن رشيق فجمع من ذلك

(١) كتاب الاعتبار ( مقدمه المحرر ) ص : ى وأنظر أعلام العرب ( أسامة بن منقذ ) ص ٨ .

(٢) حقق الديوان وقدم له الدكتور أحمد أحمد بدوى والأستاذ حامد عبد المجيد وطبعته وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٣ وذلك عن نسخة خطية محفوظة بدار الكتب تحت ١٦٨٧٧ ز .

(٣) انظر البديع فى نقد الشعر ص ٨ .

(٤) قرر الدكتور أحمد بدوى بأنه لم يعثر على كتاب ولا مؤلف بهذا الاسم ، ولكن ى فى كشف الظنون ( لمع الصناعة ) أى البديع لمحمد بن أحمد الأردستانى المتوفى سنة ٤٢٤ هـ ، ولعله هو كشف الظنون ( انظر هامش البديع فى نقد الشعر ص ٨ ) .

أحسن أبوابه ، وذكر منه أحسن مقالاته ليكون كتابا مغنيا عن هذه الكتب لتضمنه أحسن مافيها .

هكذا ذكر أسامه مراجع كتابه ، لم يدع ابتداع شيء ومما أورده فيه بل قرر فى صراحه أن لسابقيه : « فضيلة الابتداع ، وله فضلية الاتباع »

ولكن يبقى لكتاب أسامة أنه حفظ ماضيعه الزمن من بعض كتب مصادره . فقد كان أسامة ناقلا وجامعا لكل ماحوى كتاب البديع من فنون ، وعلى هذا تنحصر الإفادة من هذا الكتاب فى الوقوف على كلام بعض الذين سبقوه لمن لم يستطع الوقوف على هذا الكلام فى مصادر الأصلية وهو فى هذا يقارب كتاب العمدة لابن رشيق ، وقد اشتمل هذا الكتاب على خمسة وتسعين بابا ، ولايحسبن القارىء أن هذه الأبواب كلهافنون بديعية أو محاسن للكلام ، كتلك المحاسن التى عرفناها فى كتب أولئك الذين سبقت دراستهم ، بل إن كثيرا من تلك الأبواب تعرض لذكر بعض العيوب التى تغض من صناعة الشعر ، وتحط من شأن صاحبه ، ومن هنا يصدق عليهعنوانه الذى أثبت فيه أنه فى « نقد الشعر » أى فى بيان محاسنه وعيوبه معاً .(١)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة : المعانى ، والبيان والبديع لم يكن معروفا فى ذلك الحين ، بل كانت مسائلها يختلط بعضها ببعض ، وكانت كلمة البيان تطلق أحيانا على المسائل المعروفة عندنا بعلم المعانى وعلم البيان ، وكانت الموضوعات التى نعدها الآن من علم البيان مندرجة غالبا بين أبواب البديع ، ولم نعثر على استخدام كلمة المعانى للدلالة على أى طائفة من مسائل البلاغة يومئذ .(٢)

(١) انظر البيان العربى ص ١٩٦ .

(٢) انظر مقدمة البديع فى نقد الشعر ص ٣ .

ولم تحدد مسائل كل علم هذا التحديد الذى انتهى إلينا إلا بعد عصر أسامه ، حين عرفت البلاد كتاب المفتاح الذى ألفه السكاكى ، كما أن هذه الاصطلاحات الفنية والتقسيمات الخاضعة للمنطق لم يكن قد تم وضعها فى ذلك العصر .

وكان دارسو البلاغة فى عصر أسامه يرمون إلى هدفين : أولهما دراسة بلاغة القرآن ، ومعرفة مظاهر فصاحته ، وثانيهما القدرة على تذوق القول الجميل والقدرة على إنشائه . وكتاب أسامه فى جملته حافل يتلمس الأسباب التى تزين الأسلوب وتكسبه الجمال والروعة ، وقد ذكر فيه جملة من أبواب البلاغة ليست مرتبة كالترتيب الذى انتهت إليه علوم البلاغة فى عصرنا الحاضر . ومعظم ماأورده أسامه يندرج تحت مانسميه اليوم علم البديع ، وإن كان قد أطلق عليها جميعا البديع فى نقد الشعر وهى :

١ — التجنيس :

لم يعرفه ابن منقذ وقد استمد فيه عن الآمدى والعسكرى وابن رشيق وهو عنده ثمانية أنواع : [١]

١ — التجنيس المغاير .

وهو أن تكون الكلمتان اسما وفعلا كقوله تعالى . ( وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين[٢] ) وكقوله : ( فأقم وجهك للدين القيم ) . [٣]

---

(١) البديع فى نقد الشعر ص ١٢ .
(٢) سورة النمل ( آية ٤٤ )
(٣) سورة الروم ( آية ٤٣ ) .

٢ — التجنيس المماثل.[١]

أن تكون الكلمتان اسمين أو فعلين كقوله تعالى. (فروح وريحان)[٢] وكقوله (وجنى الجنتين دان)[٣]. وقد أسلفنا أن ابن رشيق قد جعل المماثلة من ضروب التجنيس وهى عنده: « أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى ».[٤]

٣ — تجنيس التصحيف[٥]:

أن تكون النقط فرقا بين الكلمتين . . . كما فى بيت أبى تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب

فى حده الحد بين الجد واللعب

وكقول البحترى:

ولم يكن المغترّ بالله إذ شرى

ليعجز، والمعتزّ بالله طالبه

وهذا هو ما سماه بعد ذلك (التطريف) وأفرد به بابا مستقلا[٦]، وقد أخذ أسامه هذا الفن عن القاضى الجرجانى[٧] الذى جعله من فنون البديع وأفرد له باباً وتابع فيه ابن رشيق[٨] الذى جعله ضرباً من ضروب التجنيس.

---

(١) البديع فى نقد الشعر ص ١٤ .

(٢) سورة الواقعة (آية ٨٩) .

(٣) سورة الرحمن (آية ٥٤) .

(٤) العمدة فى نقد الشعر ١/٣٢١ .

(٥) البديع فى نقد الشعر ص ١٧ .

(٦) المصدر السابق ص ١٢٩ .

(٧) الوساطة ص ٤٦ .

(٨) العمدة ١/٣٢٧ .

٤ — تجنيس التحريف[١] :

وهو أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين . . مثل قول الشاعر :

أحبابنا ، ما بين فـــر قتكم وبين الموت فرق
جازيتمونا فى بعــــا دكم بما لا نستحق
أفنيتم العـبرات فأبقوا وملكتم رقى فرقوا

٥ — تجنيس التصريف :

وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف . كقوله تعالى : ( لكنا أهدى من إحدى الأمم ) وكقوله . ( وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ) .[٢] وكقوله النبي عليه السلام . ( الخيل معقود بنواصيها الخير ) وقد استمد أسامه هذا النوع من العسكرى[٣] الذى يقول . « ومن التجنيس نوع آخر يخالف ماتقدم بزيادة حرف أو نقصانه » ومثل له بالآية الكريمة : ( وهم ينهون عنه وينأون عنه )[٤] وهذه الآية أوردها أسامة للاستشهاد بها على هذا النوع. أما الجرجانى فقد أدخله فى التجنيس الناقص[٥] وجعله ابن رشيق ضربا من ضروب المضارعة[٦] ، وأشار إلى تسمية الجرجانى له بالتجنيس الناقص .

٦ — تجنيس الترجيع[٧]

وهو أن ترجع الكلمة بذاتها ، كما قال الله تعالى ( إن ربهم بهم يومئذ

(١) البديع فى نقد الشعر ص ٢٠ .
(٢) سورة الكهف ( آية ١٠٤ ) .
(٣) الصناعتين ص ٣٣١ .
(٤) سورة الأنعام ( آية ٢٦ ) .
(٥) الوساطة ص ٤٣ .
(٦) العمدة ١/٣٢٥ .
البديع فى نقد الشعر ص ٢٦ .

لخبير )[١] وكقوله : ( ولكنا كنا مرسلين ) .[٢]

وكما قال بعض العرب :

وما منعت دار ، ولا عز أهلها

من الناس إلا بالقنا والقنابل[٣]

وكان يجب على ابن منقذ أن يدخل هذا النوع فيما سماه بتجنيس التصريف .

٧ — تجنيس العكس :

وهو أن تكون الكلمة عكس الأخرى . . كقول أبي تمام :

بيض الصفائح لا سُود الصحائف في

مَتُونِهن جلاءُ الشك والريبِ

ويبدو أن أسامه أخذ هذا النوع من العسكرى ، وإن كان العسكرى لم يضع له اسما إلا أنه عرفه بقوله : « هو أن تأتى بكلمتين متجانستى الحروف إلا أن فى حروفها تقديما وتأخيرا ،[٤] ومثل ببيت أبى تمام سالف الذكر .

٨ — تجنيس التركيب :

وهو أن تكون الكلمة مركبة من كلمتين[٥] . . . كقول أبى العلاء المعرى :

---

(١) سورة العاديات ( آية ١١ ) .

(٢) سورة القصص آية ٤٥ .

(٣) القنا : الرماح . والقنابل : جمع قنبلة . والقنبلة والقنبل : الطائفة من الناس ومن الخيل .

(٤) الصناعتين ص ٣٣١ .

(٥) البديع فى نقد الشعر ص ٣٣ .

البابلية باب كل بليـــة

فتوقين دخول ذاك البـاب[1]

ومنه قول الشاعر :

إن ترمك الغربةُ فى معشرٍ

تضافروا فيــك على بغضهم

فَدَارِهم مَادُمْتَ فِى دَارِهم

وَأَرْضِهِم مَادُمْتَ فِى أَرْضِهِم

هذه هى أنواع التجنيس عند أسامه ، وقد جارى ابن رشيق فى تقسماته المتعددة للتجنيس وأخذ عن الجرجانى والعسكرى بعض أنواعه . وإن كان الجرجانى[2] هو أدقهم فى تقسيمه للتجنيس . وتتميز تقسيماته بالسهولة .

٢ — طبقات التطبيق :

وهو عنده أن تكون الكلمة ضد الأخرى[3] . . . . كقوله تعالى : ( وأنهُ هوَ أضحكَ وأبكىَ ، وأنهُ هُوَ أمَاتَ وأحْيا )[4] ، وكقول مسلم بن الوليد :

لاَ تَعْجَبِى يا سلم من رجلٍ

ضَحِكَ المشيبُ براسه فبَكىَ

ويلاحظ أنه يجمع بين الشىء وضده ، وهذا هو ماسماه أبو هلال

---

(١) البابلية : نسبة إلى بابل : بلد بالعراق تنسب اليه الخمر .

(٢) الوسة ص ٤١ وما بعدها .

(٣) البديع فى نقد الشعر ص ٣٦ .

(٤) سورة النجم ( آية ٣٣ ) .

العسكرى[١] بالمطابقة ، والتى خالفه فيها قدامة فذكر أنها إيراد لفظتين متشابهتين فى البناء والصيغة مختلفتين فى المعنى .

٣ — الاستعار

لم تكن الاستعارة عنده كالاستعارة الاصطلاحية اليوم ، ولا مقسمة أقساما عدة كتلك التى نألفها ، بل هى عنده : « أن يستعار الشىء المحسوس للشىء المعقول »[٢] كقوله تعالى : ( لا تظلمون فتيلا )[٣] ، وردد ماسبق أن ذكره العسكرى[٤] والرمانى[٥] وابن رشيق[٦] من أن الاستعارة أوكد فى النفس من الحقيقة ، وتفعل فى النفوس مالا تفعله الحقيقة . فقوله ( فتيلا ) أنفى للكثير والقليل من قوله شيئا . ومن أحسن الاستعارات عنده قول ذى الرمة :

أَقَامتْ به حتى ذَوَى العودُ فى الثَّرى

ولفّ الثّريا فى ملاءته الفجـــر

ويلاحظ أن بحث الاستعارة عنده ضعيف ، ولم يناقش الاستعارة المكنية كما ناقشها مثلا الآمدى[٧] .

٤ — العكس :

عرفه بقوله : « هو أن تأتى الجملتان إحداهما عكس الأخرى »[٨] كقوله

(١) الصناعتين ص ٣٠٧ .
(٢) البديع فى نقد الشعر ص ٥٤١ .
(٣) سورة النساء ( آية ٧٧ ) .
(٤) أنظر الصناعتين ص ٢٦٩ .
(٥) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٩ .
(٦) العمدة ١/٢٦٦ .
(٧) انظر الموازنة ١/٢٥٠ وما بعدها .
(٨) البديع فى نقد الشعر ص ٤٦ .

تعالى : ( يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى )[١] وكقول عبد الله ابن الزبير الأسدى :

رمى الحدثان نسوة آل حرب
بأحداث[٢] سمدن لها سمودًا[٣]
فردّ شعورهن السود بيضا
وردّ وجوههن البيضَ سُودا

وهذا الفن أدخله ابن المعتز[٤] فى المطابقة ، وسماه قدامة وابن سنان الخفاجى التبديل[٥] وجعله ابن سنان مما يجرى مجرى المطابق . أما أبو هلال فقد وافق أسامه بن منقذ فى التسمية وعرفه بقوله : « هو أن تعكس الكلام فتجعل فى الجزء الأخير منه ماجعلته فى الجزء الأول »[٦] وأشار إلى أن بعضهم يسميه التبديل .

٥ — الترديد ويسمى التصدير :

حده بقوله : « هو رد أعجاز البيوت على صدورها ، أو ترد كلمة من النصف الأول فى النصف الثانى »[٧] كقول الشاعر زهير :

---

(١) سورة يونس ( آية ٣١ ) سورة الروم ( آية ١٩ ) .
(٢) ويروى فى بديع ابن المعتز ص (٣٨) والعمدة ٢/٦ « بمقدار » والمقدار : ما قدره الله .
(٣) الحدثان . الليل والنهار .. أى رمى تقدير الله نسوة آل حرب بأحداث . السمود . تغير الوجه من حزن . وآل حرب . بنو أمية .
(٣) البديع ص ٣٦ وما بعدها .
(٤) سر الفصاحة ص ٢٣٩ وانظر جواهر الألفاظ ص ٣ وما بعدها .
(٥) الصناعتين ص ٣٧١ .
(٦) البديع فى نقد الشعر ص ٥١ .

إن تلْـق يوماً على علاته هرما

تلق السّماحة منه والندى خلقا

وقد مر بنا أن ابن المعتز[١] سماه « رد أعجاز الـكلام على ماتقدمها » وسماه أبو هلال[٢] رد الأعجازعلى الصدور ، وسماه ابن رشيق التصدير.[٣]

٦ — التتميم :

« وهو أن يذكر الشاعر معنى ، ولايغادر شيئا يتم به إلا أتى به ، فيتكامل له الحسن والإحسان ، ويبقى البيت ناقص الـكلام ، فيحتاج إلى مايتممه به من كلمة توافق مافى البيت من تطبيق أو تجنيس »[٤] كقوله تعالى : ( من عمل صالحا « من ذكر أو أنثى » وهو مؤمن )[٥] . ومنه قول أبى تمام :

بدر أطاعت فيك بادرة النوى

( ولعا ) ، وشمس أولعت بشماس

فالبيت تم دون قوله ( ولعا ) واحتاج إلى كلمة أخرى فأتى بهامجانسة لأولعت فانسكبت فى البيت ، ولولا ذلك لـكانت حشوا . وقد أسلفنا أن ابن المعتز سماه اعتراض كلام فى كلام لم يتم معناه ، بينما سماه الحاتمى[٦] ( التتميم ) ، وسماه العسكرى ( التتميم والتـكميل ) .

---

(١) البديع ص ٤٧ .

(٢) انظر الصناعتين ص ٣٨٥ .

(٣) العمدة ٢/٣ .

(٤) البديع فى نقد الشعر ص ٥٣ .

(٥) سورة النحل ( آية ٩٧ ) .

(٦) خزانة الأدب ص ١٣١ .

٧ — الاحتراس :

بينه بقوله : « هو أن يكون على الشاعر طعن ، فيحترس منه » (١) .

كقول عدى بن الرقاع :

فَسَقَى ديارك — غير مفسدها —
صوب الربيع وديمةٌ تهمى

فالشاعر احترس بقوله : ( غير مفسدها ) لأن مداومة الأمطار سبب لخراب الديار . ومنه قوله تعالى : ( أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء )(٢) فاحترس بقوله سبحانه وتعالى ( من غير سوء ) عن إمكان أن تدخل فى البرص والبهق وغير ذلك . وهذا هو ماسماه ابن سنان الخفاجى ( التحرز مما يوجب الطعن ) .

٨ — التنكيت :

تحدث عنه فقال : « هو أن تقصد شيئا دون أشياء ، لمعنى من المعانى ، ولولا ذلك لكان خطأ من الكلام وفساداً فى النقد » (٣) . ثم ذكر أن ابن عباس سئل عن قوله تعالى :

( وأنه هو رب الشعرى ) (٤) لم لاقال : رب الثريا . فقال : كان قد ظهر فى العرب رجل يقال له : ابن أبى كبشه عبد الشعرى ، لأنها أكبر نجم فى السماء ، فقصدها الله تعالى دون النجوم ، لأنها عبدت ولم تعبد الثريا . وهى التى أدعيت فيها الربوبية دون سائر النجوم . فإذا كانت هى من خلق الله

(١) البديع فى نقد الشعر ص ٥٥ .
(٢) سورة القصص ( آية ٣٢ ) .
(٣) البديع فى نقد الشعر ص ٥٦ وتحرير التحبير ص ٤٩٩ وانظر أنوار الربيع لابن معصوم ٥/٣٥٣ .
(٤) سورة النجم ( آية ٤٩ ) .

فمن باب أولى عبادة الله وهو خالق كل شيء . ويقصد أسامه بالنكته هنا فائدة بلاغية يستطيع بها الشاعر أو البليغ أن يتمم المعنى أو يكمله أو يوضحه ولولا هذه النكتة لم يفهم المعنى . ولم تعرف العلة في تخصيص هذا الشيء دون غيره من الأشياء .

ومن أمثلة هذا الباب الشعرية قول الخنساء[1] :

يذكّرني طُلوع الشَّمْسِ صخراً
وأذْكُره لكلّ غروب شمس

فخصت هذين الوقتين ، وإن كانت تذكره في كل وقت ، لما في هذين الوقتين من النكتة المتضمنة تأبين الميت ، والمبالغة في وصفه بالشجاعة والكرم لأن طلوع الشمس وقت الغارات على العدو ووقت غروبها وقت وقود النيران للقرى .

وقد انفرد أسامة بهذا اللون ، وهو يعد من الفنون البديعية الأصلية لأثره في بلاغه الكلام وقد ذكر ابن حجة أن هذا النوع : « يستحق لغرابته في أن ينظم في أسلاك البديع ، ويغار عليه من أن يعد مع المماثلة والموازنة ، ومع التطرير والترصيع » .[2]

٩ — التعليق والادماج :

عرفه بقوله . « هو أن تعلق مدحا بمدح ، وهجوا بهجو ، ومعنى بمعنى »[3] كقول المتنبي :

---

(١) البديع في نقد الشعر ص ٥٧ وانظر تحرير التحبير ص ٥٠٠.
(٢) خزانة الأدب ص ٣٧٥ .
(٣) البديع في نقد الشعر ص ٥٨ .

إلى كم ترد الرسل فيما أتوا به
كأنهم فيما وهبت مـــــلام

فعلق الكرم بالشجاعة لكونه شبه رسل العدو بأعلام فى الهبة ، فهو كثيرا مايردهم عما يطلبون منه تهاونا برسلهم ، وشجاعة عليهم ، وتسرعا إلى حربهم ، ورغبة فى مادون سلمهم ، ثم حصل من التشبيه الذى علق به الكرم بالشجاعة وصفه بغاية الكرم ، إذ دل على أنه عاشق فى الجود ، ولا يسمع فيه ملاما ، ولا يصغى إلى عاذل .

وكقوله أيضاً :

حسن فى عيون أعـــدائه أقـــ
ـــبح من ضيفه رأته السوام[1]

فقد أدمج الحسن مع القبح وكلاهما مدح ، ووصفه بالكرم لأن الإبل إذا رأت ضيفه علمت أنها تنحر له .

ويلاحظ أن أسامة قد جعل التعليق والإدماج مترادفين ، إلا أن بينهما فرقا وهو أن التعليق يصرح فيه بالمعنيين المقصودين على شدة اتحادهما ، والإدماج يصرح فيه بمعنى غير مقصود قد أدمج فيه المعنى المقصود ، والتعليق والإدماج هو ماسماه البلاغيون المتأخرون « مراعاة النظير » .

١٠ — التورية :

« وهى أن تكون الكلمة بمعنيين فتريد أحدهما ، فتورى عنه بالآخر »[2] أى أن المتكلم يستعمل أحد المعنيين ، ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله .. كقوله الشاعر .

---

(١) السوام . الماشية والابل الراعيه .

(٢) البديع فى نقد الشعر ص ٦٠ .

خيلٌ صيامٌ ، وخيلٌ غيرُ صائمةٍ
تحت العجاج، وأخرى تعلك اللجما[٣]

أراد بالصيام ها هنا القيام ، فورى عنه بقوله : « تعلك اللجما ». ويقول ابن حجة : « كانت خواطر المتقدمين عن نظم التورية بمعزل ، وأفكارهم مع صحتها ماخيمت عليها بمنزل ، ولكنها ربما وقعت لهم عفواً من غير قصد لأنهم على كل حال ولاة هذا الشأن وأدلة هذا الركب ، وقيل أن أول من كشف غطاءها وجلا ظلمة أشكالها أبو الطيب المتنبى » ،[٢] وقد مر بنا أن ابن رشيق[٣] جعل التورية نوعا من أنواع الإشارة ، وإن كانت التورية عنده ليست هى التورية المعروفة عند البلاغيين المتأخرين . أما أسامة فقد عرفها تعريفيا دقيقا وبين معناها وأفراد لها بابا مستقلا .

١١ — التقسيم :

عرفه فقال : « هو أن يقسم المعنى بأقسام تستكمله، فلا تنقص عنه ولا تزيد عليه »[٤] أى أنه عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذى هو آخذ فيه بحيث لايغادر منه شيئا ومثال ذلك قوله تعالى : ( هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ).[٥] وليس فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق، والطمع فى الأمطار ولا ثالث لهذين القسمين .

ومنه قول زهير :

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٤٠ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

(٣) العمدة ١/٣١١.

(٤) البديع فى نقد الشعر ص ٦١ .

(٥) سورة الرعد (آية ١٢ ) .

فإنّ الحق مقطعه ثلاث
يمينٌ أو نفارٌ ، أو جلاء

ولا يوجد فى ذكر الحق زيادة على ماذكر . وقد مر بنا أن الجاحظ (١) نوه بالتقسيم وجودته وعلل به استحسان عمر بن الخطاب لبعض شعر زهير وعبدة بن الطبيب . وسماه قدامة (٢) « صحة التقسيم » وجعله أول أبواب البديع فى كتابه ، وتابعه فى التسمية أبو هلال العسكرى (٣) أما ابن رشيق (٤) فسماه « التقسيم » .

١٢ — التجزئة :

وهى عنده : « أن يكون البيت مجزأ ثلاثة أجزاء أو أربعة »(٥) كقول أبى الطيب المتنبى :

فنحن فى جذل ، والروم فى وجل
والبحر فى خجل والبرّ فى شغل

وكقول الشاعر(٦) :

وِصَالُكم هجرٌ ، وحبكمِ قلىً
وانصافكم ظلم ، وسلْمكم حرب

وإذا كان أسامة قد خص التقسيم بالمعانى ، فقد جعل التجزئة خاصة

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٤٠ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٣ .
(٢) نقد الشعر ص ١٤٩ .
(٣) الصناعتين ص ٣٤١ .
(٤) العمدة ٢/ ٢١
(٥) البديع فى نقد الشعر ص ٦٣ .
(٦) ينسب البيت فى العمدة للعباس بن الأحنف راجع (٢/ ٢٥ ) وقد استشهد به ابن رشيق فى ( التقسيم ).

بالألفاظ ، وكان الأجدر به أن يجعل التقسيم والتجزئة فى باب واحد بدلا من بابين . والتجزئة هى نوع من أنواع التقسيم « ففيها يقسم البيت إلى ثلاثة أجزاء مسجعة إن كان سداسيا ، أو أربعة مسجعة إن كان ثمانيا ، مع التزام السجع فى الأجزاء على قافية البيت » (١) .

١٣ — التطريز :

فى هذا الفن ينقل أسامة مباشرة عن العسكرى (٢) فيقول : قال صاحب الصناعتين : « هو أن تأتى فى الأبيات مواضع متقابلة كأنه طراز » (٣) ومثل له بما مثل به أبو هلال ، وهو قول أبى تمام :

أعوامُ وَصلٍ كادَ يُنْسِى طولَهَا
ذِكرُ النَّوَى فكأنَّهـا أيامُ
ثم انبرتْ أيّامُ هجرٍ أردفت
بجَوًى أسًى فكأنها أعوامُ
ثم انقضتْ تلك السنون وأَهلُهـا
فكأَنهم وكأنهـا أحـلامُ

وقد استشهد أسامة على هذا الفن بكثير من الشعر وكأنه يريد أن يعارض أبا هلال الذى ذكر أن هذا النوع قليل فى الشعر (٤) .

١٤ — التفسير :

عرفه أسامة فقال : « هو أن تذكر جملة ، فلا تزيد فيها ولا تنقص منها

(١) تحرير التحبير ص ٢٩٩ وراجع أنوار الربيع لابن معصوم ٦ / ٢٠١ وما بعدها .
(٢) عبارة الصناعتين : ( هو أن يقع فى أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن فيكون فيها كالطراز فى الثوب ) ص ٤٢٥ .
(٣) البديع فى نقد الشعر ص ٦٤ .
(٤) الصناعتين ص ٤٢٥ .

ولا تخالف بينها »[1] مثـــل قول الشاعر :

شـبه الغيث فيه والليث والشمـ
ـس[2] فسمح ، ومحرب ، وجميل

والتفسير هو من مستخرجات قدامة بن جعفر ، وتابعة فيه أبو هلال العسكرى ومثل له بالبيت الذى استشهد به أسامة ، وسماه بدر الدين[3] ابن مالك وآخرون « التبيين » وهو عبارة عن أن يأتى المتكلم فى أول الكلام نثرا كان أو نظما بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه دون أن يفسر ، فإن كان الكلام نظما فالتفسير إما فى البيت الأخير ، أوفى بقية البيت إن كان الكلام الذى يحتاج إلى التفسير فى أوله كما فى المثال سالف الذكر .

١٥ — الاستطراد :

ذكر أن الاستطراد نبه عليه أبو تمام والبحترى ، ثم عرفه فقال : « هو أن تمدح شيئا أو تذمه ثم تأتى فى آخر الكلام بشىء هو غرضك فى أوله »[4] ثم بين أنه ورد فى أشعار المتقدمين بالطبع ، وفى أشعار المتأخرين بالقصد ، ومنه قول السموءل بن عاديا :

وإنا لقوم لا نرى القتل سبـــة
إذا ما رأته عامر وســـلول
يقرب حب الموت آجالنا لنـــا
وتكرهـــــه آجالهم فتطول

(١) البديع فى نقد الشعر ص ٧٢ .
(٢) رواية الصناعتين ( ص ٣٤٦ ) . « البدر » .
(٣) انظر أنوار الربيع ٦/١٢٣ .
(٤) البديع فى نقد الشعر ص ٧٥ .

فالشاعر مدح نفسه وقبيلته ، واستطرد بهجاء قبيلتين هما عامر وسلول .
وهذا الفن هو ماسماه ابن المعتز[١] الخروج من معنى إلى معنى ، وسماه أبو هلال الاستطراد وذكر أنه يقرب من حسن الخروج[٢] ، وسماه ابن رشيق الاستطراد وفرع منه الإدماج[٣] . والواقع أن هناك فرقا بين الاستطراد والخروج من معنى إلى معنى .. فالاستطراد هو أن يكون الشاعر فى غرض من أغراض الشعر ، يوهم أنه مستمر فيه ، ثم يخرج منه إلى غيره لمناسبة بينهما ، ولابد من التصريح باسم المستطرد به بشرط ألا يكون قد تقدم له ذكر ، ثم يرجع إلى الأول ويقطع الكلام ، فيكون المستطرد به آخر كلامه . فالاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الأول ، وقطع الكلام بعد المستطرد به ، والأمران معدومان فى الخروج من معنى إلى معنى ، وذكر الحاتمى[٤] فى حلية المحاضرة أنه نقل تسمية « الاستطراد » عن البحترى ..

١٦ — الاستخدام :

حده بقوله : « هو أن تكون الكلمة لها معنيان ، فتحتاج إليها فتذكرها وحدها فتخدم للمعنيين »[٥] ومثل له بقوله تعالى :(ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى )[٦] . فالصلاة هنا تحتمل أن تكون فعل الصلاة ، وموضع الصلاة فاستخدم الصلاة بلفظ واحد لأنه قال سبحانه : إلا عابرى سبيل ، فدل على أنه أراد موضع الصلاة ، وقال تعالى : حتى تعلموا ماتقولون فدل على أنه فعل الصلاة .

(١) كتاب البديع لابن المعتز ص ٦٠ ، ٦١ .
(٢) الصناعتين ٣٩٨ وما بعدها .
(٣) العمدة ٢/٤١ .
(٤) تحرير التحبير ص ١٣٠ .
(٥) البديع فى نقد الشعر ص ٨٢ .
(٦) سورة النساء (آية ٤٣) .

ومنه قول جرير بن عطية :

إذا سقط السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غضابا

فالسماء تحتمل معنيين : المطر ، والنبات فاستخدم المعنيين بقوله : إذا سقط ، وبقوله : رعيناه ، لأن السقوط من حالات المطر ، والرعى من حالات الكلأ .

وقد تحدث ابن حجة عن الاستخدام فقال : « قل من البلغاء من تكلفه وصح معه بشروطه لصعوبة مسلكه وشدة التباسه بالتورية ، وهو أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية وأحلى موقعا فى الأذواق السليمة . . »[١]

١٧ — الإغراق :

« وهو أن يبالغ فى الشىء بلفظه ومعناه »[٢] كقول الشاعر :

فكأنما ألفاظه يوم النوى
من رقة الشكوى دموع دموع

والإغراق فوق المبالغة ودون الغلو ، وهو فى الإصطلاح إفراط فى وصف الشىء بالممكن البعيد وقوعه عادة ، وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلم يكاد أو ما شا كلها نحو كأن ولولا ولو وما أشبه ذلك »[٣] .

١٨ — التوهيم :

عرفه أسامه فقال : « وهو أن تجىء الكلمة توهم أخرى »[٤]

كقول المتنبى :

---

(١) خزانة الأدب ص ٥٤ .
(٢) نقد الشعر ص ٨٣ .
(٣) العمدة ٢ /٦٤.
(٤) البديع فى نقد الشعر ص ٨٦ .

فإن الفئام الـــتى حوله

لتحسد أرجلهـــا الأرؤس

فإن لفظة الأرجل أوهمت السامع أن لفظة ( القئام ) بالقاف ، ومراد الشاعر الفئام بالفاء وهى الجماعات . والقئام بالقاف يصدق على أقل الجمع من العدد، والفئام بالفاء . الجماعات. ومنه قوله تعالى : ( أصيب به من أشاء ) [١] فإن إصابة العـــذاب أوهمت السامع أن لفظة ( أشاء ) بالسين المهملة من الإساءة .

وقد ذكر ابن حجة « أنه من الأليق أن ينتظم التوهيم فى سلك باب التورية »[٢] . إلا أن هنا فرقا بين التورية والتوهيم : « فالتورية توهم وجهين صحيحين قريباً وبعيداً ، والمراد البعيد منها . والتوهيم : يوهم صحيحاً وفاسداً والمراد الصحيح منهما ، التورية لا تكون إلا باللفظة المشتركة ، والتوهيم يكون بها وبغيرها ، أن إيهام التورية مما يتعمده الناظم ، والتوهيم مما يتوهمه القارىء أو السامع »[٣] .

١٠ — الاتفاق والإطراد :

وهو عنده : « أن يتفق للشاعر شيء لا يتفق عاجلا كثيراً[٤] » . كقول المتنبى :

لحمدانُ حمدون وحمدون حارثٌ

وحارثُ نعمانٍ ونعمانُ راشـــدُ

---

(١) سورة الأعراف ( آية ١٥٦ ) .

(٢) خزانة الأدب ٣٩٢ .

(٣) انظر تحرير التحبير ص ٣٩٤ .

(٤) البديع فى نقد الشعر ص ٨٧ .

أولئك أنيابُ الخلافة كلها
وسائر أملاك الزمان الزوائد

ويتضح من ذلك أن الاتفاق والإطراد عند أسامة بمعنى واحد وإن كان البلاغيون المتأخرون قد فرقوا بينهما[١] .

٣٠ — التوشيح :

« هو أن تريد الشيء فتعبر عنه عبارة حسنة ، وإن كانت أطول منه »[٢] . ومثّل له بقول المتنبي :

بلادٌ إذا زار الحسان بغيرها
حصى أرضها ثقبنه للمخانق

فالبيت كله عبارة عن أن حصى هذه الأرض يشبه الدر . وهذا النوع مما فرعه قدامة ، وجعله من ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت وقال : « هو أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته ، ومعناها متعلقا به ، حتى أن الذى يعرف قافية القصيدة التى البيت منها ، إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته »[٣] .

ويلاحظ أن أسامة قد اتفق مع قدامة فى التسمية واختلف معه فى التعريف . وتعريف قدامة أدق ، لأنه سمى توشيحا لكون معنى أول الكلام يدل على لفظ آخره ، فيتنزل المعنى منزلة الوشاح ، ويتنزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح »[٤] وسماه ابن رشيق :[٥]

(١) خزانة الأدب ص ١٦٠ ، ٣٦٩ .
(٢) البديع فى نقد الشعر ص ٨٩ .
(٣) نقد الشعر ص ١٩١ .
(٤) انظر تحرير التحبير ص ٢٢٨ .
(٥) العمدة ٢/٣١ .

« التسهيم » وبين أن الذى سماه تسهيماً هو على بن هارون المنجم ، وأن ابن وكيع سماه « المطمع » .

٢١ — التشعيب :

وهذا الفن يدخل فى رد الأعجاز على الصدور ، إلا أن أسامة أفرد له باباً مستقـلا وعرفه بقوله : « أن يـكون فى المصراع الثانى كلمة من المصراع الأول »[١] .

كقول أبى عبادة :

خليلٌ أتانِى نفعُه وقت حاجتى
إليه ، وما كل الأخلاّء ينفعُ

٢٢ — التجاهل :

نرى أسامة ينقل هنا مباشرة عن أبى هلال العسكرى ، فيقول . « قال صاحب الصناعتين: هو أن يقول الشاعر لا أدرى ، أو يستفهم ببعض حروف الاستفهام »[٢] كقول العرجى :

أيَا ظَبْية الوعساء بين جَلاَجِلٍ
وبيْن النقا أأنت أمْ أمّ سالِمٍ ؟[٣]

وهذا هو ما سماه ابن المعتز ( تجاهل العارف ) وسماه العسكرى — كما أسلفنا — ( تجاهل العارف ومزج الشك باليقين ) —[٤] والبيت الذى ذكره

(١) البديع فى نقد الشعر ص ٩١ .

(٢) البديع فى نقد الشعر ص ٩٣ .

(٣) البيت لذى الرمة — انظر ديوانه ص ٧٠٠ .

(٤) انظر الصناعتين ص ٣٩٦ .

أسامه للعرجى هو أحد الأبيات التى استشهد بها العسكرى . أما ابن رشيق فسماه ( التشكك )[1] .

٢٣ — الكناية والاشارة :

فرق أسامة بينهما فقال . « الفرق بين الكناية والإشارة أن الإشارة إلى كل شىء حسن ، والكناية عن كل شىء قبيح »[2] مثل قوله عز وجل ( فيهن قاصرات الطرف )[3] إشارة إلى عفافهن . وقوله سبحانه : ( كانا يأكلان الطعام )[4] كناية عن قضاء الحاجة . ومن الإشارة عنده قول عمر ابن أبى ربيعة :

بَعِيدَةُ مَهْوَى القُرْطِ إما لِنَوْفَلٍ
أَبُوها ، وإمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمِ

فأشار بقوله : « بعيدة مهوى القرط » . إلى طول عنقها ، ومر بنا أن قدامة سمى ذلك « الإرداف »[5] وجعله من نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى . وذكر أسامة فى هذا الباب ( التعريض )[6] ويبدو أنه تأثر بابن رشيق الذى تحدث عن الاشارة وأدخل فيها التعريض والكناية والتعمية[7] .

٤ — المبالغة والتفريط .

تحدث عن المبالغة فقال : « اعلم أن المعنى إذا زاد عن التمام سمى مبالغة ،

(١) العمدة ٢/٦٦ .
(٢) البديع فى نقد الشعر ص ٩٩ .
(٣) سورة الرحمن ( آية ٥٦ ) .
(٤) سورة المائدة ( آية ٧٥ ) .
(٥) نقد الشعر ص ١٧٨ .
(٦) البديع فى نقد الشعر ص ١٠٣ .
(٧) العمدة ١/٣٠٢ .

وقد اختلفت ألفاظه فى كتبهم ، فسماه قوم: الإفراط والغلو والإيغال والمبالغة، وبعضه أرفع من بعض »(١) كقول امرىء القيس :

كأن عيونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبائِنا
وَأرحلنا الجذْع الذى لَمْ يُثَقَّبِ

فتم القول عند قوله الجذع ، ثم بالغ بقوله : الذى لم يثقب .

وعرف التفريط بقوله : « هو أن يقدم الشاعر على شيء ، فيأتى بدونه فيكون تفريطا منه ، إذ لم يكمل اللفظ أو يبالغ فى المعنى »(٢) ومثل له بقول حسان بن ثابت(٣) :

لَنَا الجفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى
وأسيَافُنا يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دما

فالشاعر فرط فى قوله : الجفنات، لأنها دون العشرة ، وهو يقدر أن يقول لدينا الجفان، لأن العدد الأقل لا يفتخر به ، وكذلك قوله :« وأسيافنا لأنها دون العشرة،وهو يقدر أن يقول :وبيض لنا. وفرط فى قوله: الغر،لأن السواد أمدح من البياض لكثرة الدهن والقرى فيها . وفرط فى قوله : يلمعن بالضحى وهو قادر على أن يقول . بالدجى ، لأن كل شيء يلمع فى الضحى . وفرط فى قوله: يقطرن وهو قادر على أن يقول يجرين ، لأن القطر قطرة بعد أخرى. ثم ينقل تفسير قدامة للبيت فيقول : « قال قدامة :(٤) إنه أراد بقوله : الغر المشهورات ، وقال بالضحى ، لأنه لا يلمع فيه إلا العظيم اللامع الساطع النور،

---

(١) البديع فى نقد الشعر ص ١٠٤ .
(٢) المصدر السابق ص ١٤٦ .
(٣) ديوانه ص ٢٢١ .
(٤) نقد الشعر ص ٦٣ ، ٦٤ .

والدجى يلمع فيه يسير النور كالحباحب ، وأما أسياف وجفنات فإنه يضع القليل موضع الكثير كما قال سبحانه وتعالى : لهم جنات ودرجات . وقوله : يقطرن دما هو المعروف والمألوف،ولو قال : يجرين لخرج عن العادة ، وينوب قطر عن جرى ، كما مسح سوق الابل عن أعناقها » .

٢٥ ـ الازدواج :

حده بقوله :(هو أن تزاوج بين الكلمات والجمل بكلام عذب وألفاظ عذبة حلوة[١]. ومثل له بقوله تعالى :( فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه )[٢] وقوله عز وجل:(عليما حكيما،غفورا رحيما)[٣] وأشباه ذلك لأنه ربما يكون كلمتين مختلفتين ، وربما يكون مؤتلفا ومختلفا ، وكلمتين كلمتين كقول العرب .

ومطْعم الغُنْم يوم الغُنْم مُطْعِمهُ
أنَّى توجَّه والمَحْرُومُ مَحْرُومُ

ومنه أن يكون البيت مجموعا من كلمة كلمة أو كلمتين كلمتين . مثل قول امرئ القيس :

فدمعهما سَكْبٌ وسَحٌّ وديمةٌ
وَرَشٌّ وَتَوْكَافٌ وتنهملانِ[٤]

وهنا لا بد من التفريق بين الازدواج والتجنس المماثل ، فالفرق بينهما هو احتلاف معنى الكلمتين فى التجنيس واتفاقهما فى الازدواج . على أن

---

(١) البديع فى نقد الشعر ص ١١١ .
(٢) سورة البقره ( آية ١٩٤ ) .
(٣) فواصل آيات تتكرر فى القرآن كثيراً .
(٤) البديع فى نقد الشعر ص ١١٤ ، السكب والسح : الصب .
الديمة : مطر يدوم أياما لا يقلع . التوكاف : القليل من المطر تنهملان : تسيلان .
( قال أبو بكر البطليوسى : عطف الفعل على المصدر لقوة شبه الفعل بالمصدر ) .

الرمانى[١] قد عد الازدواج تجنيسا ، وذكر منه قوله تعالى : ( فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ) . وأفرد أبو هلال للسجع والازدواج بابا ، وتحدث عنه ابن سنان وجعله من المناسبة بين الألفاظ فى الصيغ .

٢٦ ـ الترصيع .

عرفه بقوله : « هو أن يكون البيت مسجوعا »[٢] ومثل له بقوله تعالى ( ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه )[٣] ، وقول المتنبى :

فى تاجه قمر ، فى ثوبه بشر
فى درعه أسد تدمى أظافره

ومنه قول أبى صخر الهذلى :

سود ذوائبها بيض ترائبها
محض ضرائبها صيغت على الكرم[٤]

ويلاحظ أن أسامة ينقل هنا عن قدامة وأبى هلال العسكرى[٥] ، وردد ما سبق أن ذكره قدامة من أن أكثر الشعراء المصيبين من القدماء والمحدثين قد غزوا هذا المغزى ورموا هذا المرمى[٦] . ولكن قدامة كان أدق منه حينما ذكر : « أن الترصيع يحسن إذا اتفق له فى البيت موضع يليق به ، فإنه ليس فى كل موضع يحسن ، ولا على كل حال يصلح ، ولا هو أيضا إذا تواتر

(١) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٩١ وتحرير التحبير ص ٤٥٣ .
(٢) البديع فى نقد الشعر ص١١٦ .
(٣) سورة البقرة ( آية ٢٦٧ ) .
(٤) الذوائب : الشعر فى أعلى الجبهة ، الترائب : الصدور أو ما تحت العنق . محض ضرائبها . خالصة الأخلاق .
(٥) الصناعتين ص ٣٧٥ وما بعدها .
(٦) البديع فى نقد الشعر ص ١١٧ وانظر نقد الشعر لقدامة ص ٤٦ .

واتصل فى الأبيات كلها بمحمود ، فإن ذلك إذا كان دل على تعمل وأبان عن تكلف » ونفس هذه الفكرة رددها أبو هلال العسكرى[١] .

٢٧ — الرجوع والاستثناء :

بين معناه فقال : « هو أن تذكر شيئاً ثم ترجع عنه »[٢] مثل قولك : « ليس له عقل ، بل مقدار مايوجب الحجة عليه » وكقول الشاعر :

ولا عَيْبَ فيهم غير أنْ سُيُوفَهم

بِهِنَّ فلولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ويلاحظ أن الرجوع والاستثناء عند ابن منقذ بمعنى واحد ، بينما رأينا ابن المعتز قد فصل بينهما ،وسمى الاستثناء :« توكيد المدح[٣] بما يشبه الذم » وكذلك فصل بينهما أبو هلال العسكرى وسماهما الرجوع والاستثناء ، وأفرد لكل منهما بابا مستقلا من كتابه . وهذا الفن قريب إلى حد كبير بما سماه أبو هلال « السلب[٤] والإيجاب » وهو أن يبنى المتكلم كلامه على نفى شىء من جهة وإثباته من جهة أخرى .

٢٨ ـ النفى :

لم يعرفه أسامة وأشار إلى كثرته فى أشعار العرب والمحدثين ، والواقع أن هذه صيغة من صيغ التشبيه ، وكان ينبغى ألا تنفرد ببحث خاص — ومثل له أسامة بقول عدى بن الرقاع[٥] :

---

(١) الصناعتين ص ٣٧٧ .

(٢) البديع فى نقد الشعر ص ١٢٠ .

(٣) كتاب البديع ص ٦٢ .

(٤) الصناعتين ص ٤٠٥ .

(٥) البديع فى نقد الشعر ص ١٢٣ .

وما مخدر ، ورد يرشح شبله
بخفان قـــد أحمى جميع الموارد
كأنّ دماء الهاديات بنحـــره
صبيب ملاءات ، خضيب مجاسد
بأمنع منه موئلا حـــين تلقه
إذا الحرب أبدت عن خدام الخرائد[1]

٢٩ — التذييل :

وهو عنده : « أن تأتى فى الكلام جملة تحقق ما قبلها »[2] . ومثل له بقوله تعالى : ( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله )[3] . ففى هذه الآية الكريمة تذييلان : أحدهما قوله تعالى : ( وعدا عليه حقا ) فإن الكلام قد تم قبل ذلك ثم أتى سبحانه بتلك الجملة لتحقق ما قبلها . والآخر قوله : ( ومن أوفى بعهده من الله ) فخرج هذا الكلام مخرج المثل السائر لتحقيق ما تقدمه . ونبه أسامة على كثرة هذا الفن فى القرآن الكريم . ومثاله من المنظوم قول بعض العرب :

فدعوا : نزال ، فكنت أول نازل
وعـــلام أركبه إذا لم أنزل

---

(١) المخدر : الأسد .
خفان : مأسدة قرب المكوفة .
ثوب مجسد : مصبوغ بالزعفران .
الورد : الجرىء .
الهاديات من الابل : أول رعيل يطلع منها .
خدام : جمع خدمة وهى الخلخال

(٢) البديع فى نقد الشعر ص ١٢٥ .
(٣) سورة التوبة ( آية ١١١ ) .

فعجز هذا البيت كله تذييل ، وقد استمد أسامة فى هذا الفن من أبى هلال العسكرى والبيت الذى ذكره أسامة هو أحد شواهد العسكرى على هذا الفن[1] . وعرفه ابن سنان بقوله : « هو أن يكون اللفظ زائدا على المعنى وفاضلا عنه »[2] . والتذييل هو ضرب من الاطناب ، والفرق بينه وبين التكميل أن التكميل يرد على معنى يحتاج إلى الكمال ، والتذييل لم يفد غير تحقيق الكلام الأول وتوكيده .

٣٠ — التسهيم :

عرفه بقوله : « هو أن تعلم القافية لما يدل عليه الكلام فى أول البيت »[3] ومثل له بقول البحترى :

فليس الذى حلّلته بمحـــلّل

وليس الذى حرّمته بحـــرام

وهذا البيت من عجيب التوشيح عند أبى هلال[4] ، وذلك أن من سمع النصف الأول عرف الأخير بكماله . وسماه قدامة « التوشيح » أما ابن سنان فقد ذكر أن بعض الناس يسمى هذا الفن من الشعر « التوشيح » وبعضهم يسميه التسهيم[5] .

٣١ — التشطير والمقابلة :

« وهو أن يقابل مصراع البيت الأول كلمات المصراع الثانى »[6] . كقول جرير :

---

(١) انظر الصناعتين ص ٣٧٤ .

(٢) سر الفصاحة ص ٢٤٣ .

(٣) البديع فى نقد الشعر ص ١٢٧ .

(٤) الصناعتين ص ٣٨٣ .

(٥) سر الفصاحة ص ١٨٧ .

(٦) البديع فى نقد الشعر ص ١٢٨ .

وباسطُ خــيرٍ فيكم بيمينهِ
وقابضُ شرٍّ عنكمُ بِشماليَا

ومنه قول المتنبي :

أزورهُم وظلامُ الليل يشفع لى
وأنثنى ، وضياءُ الصبح يغرى بى

فقد جمع هذا البيت بين الزيارة والانثناء والانصراف ، وبين السواد والبياض والليل والصبح والشفاعة والاغراء وبين « لى » و « بى » . ولم يزد أسامة على ما أورده قدامة[1] وأبو هلال[2] وابن سنان[3] الخفاجى فى المقابلة شيئا ، إلا أنه سمى الباب « التشطير والمقابلة » .

٣٢ـ الاعتراض :

حده بقوله : « هو أن تذكر فى البيت جملة معترضة ، لاتكون زائدة ، بل يكون فيها فائدة »[4] مثل قول الشاعر :

إن الثمانينَ - وبُلّغتها -
قدْ أحوجتْ سمْعِى إلى تُرْجمان

فقوله . ( وبلغتها ) جملة اعتراضية بين اسم إن وخبرها فى الشطر الثانى وقد جعلها ابن رشيق[5] التفاتا وذكر أن جماعة من الناس عدوها تتميا . وقد استفاد أسامة فى هـــــذا الفن من ابن المعتز[6] وأبى هلال

(١) نقد الشعر ص ١٥٢ .
(٢) الصناعتين ص ٣٣٧ .
(٣) سر الفصاحة ص ٣١٣ .
(٤) البديع فى نقد الشعر ص ١٣٠
(٥) العمدة ٢/٤٥ .
(٦) كتاب البديع ص ٥٩ ، ٦٠ .

العسكرى[١] ، والبيت الذى استشهد به أسامة هو أحد شواهد العسكرى

٣٣ ـ الانسجام :

يقول أسامة : « اعلم أن الانسجام أن يأتى كلام المتكلم شعراً من غير أن يقصد إليه ، وهو يدل على فور الطبع والغريزة »[٢] مثل قول ابن هرمة لبعض الحجّاب :

بالله ربّك ، إن دخلت فقُلْ له
هَذَا ابن هرمة واقف بالبابِ

فقد أتى الكلام متحدّراً كتحدر الماء المنسجم ، سهولة سبك ، وعذوبة ألفاظ ، حتى كان له وقع فى النفوس وتأثير فى القلوب ، مع خلوه من البديع ، وبعده عن التصنيع .

٣٤ ـ الإغراب :

ينقل أسامة هنا مباشرة عن قدامة فيقول : « قال قدامة : هو أن يكون المعنى مما لم يسبق إليه على جهة الاستحسان ، قال : فيقال : طريف وغريب ، إذا كان فردا قليلا فإذا كثر لم يسمّ بذلك »[٣] . ومثل له بقول الشاعر :

وما لبس العشاقُ ثوباً من الهوى
ولا بدّلوا إلا الثياب التى أبلى
وما شربوا كأساً من الحبّ مرة
ولا حلوة إلا وشربهم فضلى

(١) الصناعتين ص ٣٩٤ .
(٢) البديع فى نقد الشعر ص ١٣١ .
(٣) البديع فى نقد الشعر ص ١٣٢ .

٣٥ ـ الظرافة والسهولة :

لم يوضح الظرافة والسهولة فى نظره ، ولـكنه ذكر أن أشعار العرب والمحدثين قد ورد فيها الظريف السهل .واستشهد على ذلك بقول بعضهم[(١)]:

هَوَى صاحِبى ريح الشْمال إذا جرت
وأشْهى لقلبى أن تَهبَّ جَنُوب
يقولون : لو عزّيت قلبك لا رعوى
فقلتُ : وهل للعاشقين قـلوب

٣٦ ـ صحة الأقسام :

سماه أسامه « الأقسام » وقال : « اعلم أن محاسن الشعر الأقسام الشريفة للمعانى اللطيفة »[(٢)] ومثل له بقول النابغة :

نبـّئت أن أبا قابوس أوعدنى
ولا قرار على زأر من الأسـد
ما إن أتيت بشىء أنت تكرهه
إذا فلا رفعت سوطى إلىَّ يدى

ويلاحظ أن تسمية أسامة لهذا الفن غير واضحة ، وكلامه عنه ضعيف ، وقد مر بنا أن قدامة سماه «صحة التقسيم » وعرفه بقوله : «هو أن يبتدىء الشاعر فيضع أقساما فيستوفيها ، ولا يغادر قسماً منها »[(٣)] ، وتابعة فيه أبو

(١) البديع فى نقد الشعر ص ١٣٤ .
(٢) المصدر السابق ص ١٤٠ .
(٣) نقد الشعر ص ١٤٦ .

هلال العسكرى[١] ، وسماه ابن سنان[٢] الصحة فى التقسيم ومثل له بما مثل به قدامة وأبو هلال .

٣٧ ـ الانصراف :

حدة بقولة : « هو أن يرجع من الخبر إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الخبر »[٣] كقوله تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم »[٤] ومنه قول جرير :

أَتَنْسَى إذْ تُوَدِّعنا سُلَيْمَى

بعُودِ بَشامةٍ سقِيَ البشَامَ

فالشاعر مقبل على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له . والانصراف عند أسامه هو نفس ماسماه قدامه وأبو هلال العسكرى باسم « الالتفات » وبيت جرير الذى مثل به أسامة هو أحد شواهد العسكرى[٥] .

٣٨ — التضمين :

عرفه بقوله : « هو أن يتضمن البيت كلمات من بيت آخر[٦] ومثل اه بقول عنترة العبسى :

إذْ يتقّون بى الأَسنّة لَمْ أَخِمْ

عنها ولـكن تَضَايَقَ مقْدَمِى[٧]

(١) انظر الصناعتين ص ١٤١ .

(٢) سر الفصاحة ص ٢٧٧ .

(٣) البديع فى نقد الشعر ص ٢٠٠ .

(٤) سورة يونس ( آية ٢٢ ) .

(٥) انظر الصناعتين ص ٣٩٢ .

(٦) البديع فى نقد الشعر ص ٢٤٩ .

(٧) لم أخم : لم أجبن ، مقدمى . موضع أقدامه ( والمعنى لما جعلنى أصحابى حاجزا بينهم وبين الأسنة لم أجبن ولـكن تعذر التقدم ) .

ضمّنه مسلم بن الوليد فقال :

لقـــــــد سَمَا للخرمى فَلَمْ يقُلْ

يَوْمَ الوغىَ : أنى تضَايَق مقْدَمِي[١]

ولم يخرج أسامه فى حديثه عن التضمين عما كتبه ابن المعتز ، ومن بعده ابن رشيق القيروانى الذى ذكر أن هذا الباب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقوب فى العلم ولا حذق بالصناعة[٢] .

٣٩ — المبادى والمطالع :

تحدث أســـامه عن المبادى والمطالع فقال : « قال بعض الـكتاب : أحسنوا الابتداءات فإنها دلائل البيان ، وقالوا : ينبغى للشاعر أن يتحرز فى ابتدائه مما يتطير منه ، ويستحقر من الـكلام ، خاصة فى المدائح والتهانى »[٣] وأشار إلى أنهم أنـكروا على أبى نواس قوله فى أول قصيدة مدح بها البرامكة[٤] :

أرَبع البِلَى ، إنّ الخشوعَ لبادٍ

عليك ، وإنى لم أخنكَ ودَادِى

فلما انتهى إلى قوله :

سـلام على الدنيا إذا ما فقـدتم

بنى برْمَكٍ من رَائِحينَ وغَادٍ

---

(١) فى كتاب البديع لابن المعتز ينسب البيت للأخيطل ، الخرمى : لعله بابك الخرمى أحد الثائرين على الدولة العباسية .

(٢) العمدة ٢/٨٤ .

(٣) البديع فى نقد الشعر ص ٢٨٥ .

(٤) انظر ديوان أبى نواس ص ٢٢٠ .

استحكم تطيرهم ، ونكبوا بعد ذلك بأسبوع واحد ، ويلاحظ أن أسامه ينقل مباشرة عن أبى هلال العسكرى الذى سماه « المبادىء »[١] ، وقد خالفه أسامه فى التسمية . والمراد بها ابتداءات القصائد ، وقد فرع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال .

٤٠ — الأواخر والمقاطع :

أفرد أسامه بابا للأواخر والمقاطع[٢] نبه فيه إلى أن يتحرز الشاعر فيها مما يتأول عليه ، ويئول أمره إليه ، وكذلك ينبغى أن تكون أواخر القصائد حلوة المقاطع ، توقن النفس بأنه آخر القصيدة ، لئلا يكون كالنثر ، وهو فى ذلك يردد ما قاله العسكرى[٣] بأن يكون آخر بيت فى القصيدة أجود بيت فيها ، وأدخل فى المعنى الذى قصد له فى نظمها ، ثم تحدث عن جودة الفاصلة وحسن موقعها ، وتمكنها فى موضعها .

٤١ ـ التخليص والخروج :

وهو ما سماه سابقوه « حسن التخلص والخروج من معنى إلى معنى » ونبه أسامة إلى أنه يستحب أن يكون الخروج والتشبيب فى بيت واحد ، وهو شىء ابتدعه المحدثون دون المتقدمين[٤] .

* * *

ولا يقف بديع أسامة عند حد الحديث عما يجمل به الأسلوب ، مما يدخل معظمه فى أبواب علم البديع — كما ذكرنا ـ ولكنه عرض لكثير مما ينقص من جمال القول ويضع من شأنه ، فاستحق الكتاب بذلك عنوانه الموضوع له

(١) الصناعتين ص ٤٣١ .
(٢) البديع فى نقد الشعر ص ٢٨٦ .
(٣) الصناعتين ص ٤٣٢ .
(٤) البديع فى نقد الشعر ص ٢٨٨ وانظر الصناعتين ص ٤٥٤ .

وهو البديع في نقد الشعر ، فالنقد الصحيح هو ذكر المحاسن والعيوب ، حتى ينال النص نصيبه من بيان جماله وقبحه .

عرض أسامة إذن كثيراً مما يعرض للنصوص فيذهب بكثير من جمالها فحدثنا عن الحشو ، والغلط ، والتفريط ، والفساد ، والتناقض ، والتهجين ، والمعاظلة ، والبرود ، والجهامة ، والتكلف ، والتعسف ، والمخالفة والتثليم ، وغير ذلك مما يقلل من قيمة النص ، وهو في كل ما عرضه يذكر عنوان الباب ، ويضع له تعريفاً سهلا ، ثم يكثر من الأمثلة أيما إكثار ، ويأتى من ذلك بما ورد في القرآن الكريم ، ثم بما قد يكون من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم يتبع ذلك بأمثلة من شعر البلغاء ، ونثر الفصحاء .

* * *

هذا هو كتاب ( البديع في نقد الشعر ) لأسامة بن منقذ ، ولا شك أن هذا الكتاب — كما هو واضح من اسمه أولا ، ومن ذكرنا لأبوابه ثانياً — يقتصر على أبواب البديع دون المعاني[1] ، ولا يحوى تلك المقدمات الطويلة التي اعتدناها في كتب المشارقة ، وهو حافل بالشواهد الكثيرة حتى إن النصوص تغلب فيه على الشروح والعلل والتخريجات ، وهو من هذه الناحية يمثل الطابع العام لهذه الدراسات عند الشوام والمصريين والمغاربة .

وقد عرض علينا أسامة تجاربه الشعرية بوصفه شاعراً من الشعراء المجيدين وربما يكون في ذلك مرددا لكلام سابقيه ، إلا أن بعض ما جاء في فصول الكتاب يدل على تجربة شخصية كابدها ابن منقذ بالاضافة إلى ثقافته وغزارة اطلاعه ، ومن هنا تبدو أهمية الكتاب وقيمته .

---

(١) انظر تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري ص ٣٢٢ .

إلا أن الكتاب لا يخلو من الخطأ والاضطراب والخلط ، وقد أخذ عليه ذلك بعض علماء البلاغة والنقد ومن بينهم زكى الدين بن أبى الاصبع المصرى يقول : « وبديع أسامه بن منقذ على مافيه من التوارد والتداخل وتسمية أقسام الباب الواحد أبوابا ، وضم أنواع المآخـــذ ، وأصناف العيوب إلى المحاسن ، والاعتداد بها فى عدة أبواب المحاسن ، ومخالفة الشواهد والتراجم إلى فنون من الزلل ، وضروب من الخلـــل ، يعرف صحتها من وقف على كتابه ، وأنعم النظر فيه ، وتدبر جملة معانيه » . (١)

ويقول مرة أخرى : « وإذا وصلت إلى بـــديع ابن منقذ وصلت إلى الخبط والفساد العظيم والجمع بين أشتات الخطأ وأنواعه من التواردوالتداخل وضم غير البديع والمحاسن إلى البديع ، كأنواع العيوب وأصناف السرقات ومخالفة الشواهـــد التراجم ، وفنون من الزلل والخلل يعرف صحتها من وقف على كتابه وأنعم النظر فيه ، لاجرم أنى لم أعتد بـكتابه فى عـــدة ماوقفت عليه من ذلك وإن كنت قلما رأيت منها كتابا خلا عن موضع نقد بحسب منزلة واضعه من العلم والدراية » (٢)

وقال عنه ابن حجة : « وإذا وصلت إلى بديع ابن منقذ ، وصلت إلى الخبط والفساد والجمع بين أسباب الخطأ وأنواعه من التداخل والتبديل » (٣) وهى نفسها عبارة ابن أبى الأصبع .

وعلق الدكتور محمد زغلول سلام على الكتاب فقال : « وكتاب أسامه فى حد ذاته يبدو ذا قيمة محـــدودة فى تاريخ النقد لقلة ماجاء فيه من الآراء

---

(١) بديع القرآن ص ١٣ .
(٢) تحرير التحبير لابن أبى الأصبع ص ٩١ .
(٣) خزانة الأدب ص ١٣٩ .

المبتكرة ، فهو فضلا عما ذكرناه لايتعدى ، كونه سرداً لأبواب البديع التى عرفت حتى عصره ، وهو سرد مع حصر تقريبا ، ولكنه حصر ينقصة الذوق الأدبى ، ويفتقر إلى حاسة النقد ، كما لايخلو من الخطأ والاضطراب والخلط . » (١)

« ومما يدل على هذا الخبط والفساد عدم دقة أسامة فى التعرف عل النكت البلاغية ، وذلك واضح فى تعريفاته الشكلية ، واقتصاره على سوق الأمثلة دون تعليق مما يفهم منه عدم اهتمامه ببيان مواطن الجمال فى الباب الذى يورده ، وقد يسوق فى الباب أمثلة لاتنطبق عليه ، ويبدو أنه بعد أن يستنفد الأمثلة التى ينقلها عن سابقيه ويريد أن يطبق من عنده ومن محفوظه يسىء التطبيق ويخلط بين هذا وذاك فيأتى بعد الأمثلة والشواهد الصحيحة بأمثلة وشواهد لاينطبق عليها تعريف الباب الذى يتكلم فية » (٢)

ومما يؤخذ على أسامة خلطة بين الأبواب كالخلط بين التورية والكناية والخلط بين التذييل والتتميم ويدخل فيها بعض أمثلة المبالغة والتسهيم والترديد والتصدير والتشعيب . وأمثلة كثيرة .

وقد يبلغ هذا الخلط والاضطراب حد تكرار الفنون البلاغية تحت أبواب متعددة بأسماء متغايرة فيكرر باب الترديد والتصدير مرة أخرى تحت اسم التشعيب ، وما جاء فى باب التورية فى الاشارة ، وفى المبالغة أورد ماحقة أن يذكر فى التتميم وهكذا (٣) .

* * *

(١) انظر تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٢٥ .
(٣) المصدر السابق الموضع نفسه .

# خاتمة

# ( خاتمة )

وبعد . فقد كان كل ماقد مناه محاولة لتتبع نشأة (البديع) وتطوره على مدى فترة زمنية إمتدت حتى القرن السادس الهجرى . ولقد تصلح هـــذه المحاولة أن تـكون أساسا لمواصلة الدرس وتعميقه .. « فالبديع » علم من علوم العربية طال إهماله ، ولم يلق مايستحق من عناية الباحثين .

ولقد كان تحديدنا لهذه المرحلة الزمنية مقصوداً ، ذلك أن مرحلة النشأة هى أهم مراحل التأريخ العلمى وأصعبها لاجدال ، لأنها تتناول ماعرف بعد ذلك علما مستقلا إبان تخلقه مع أمشاج مختلفة من المعارف اللغوية ، وتلك صعوبة معروفة من صعوبات البحث العلمى الذى يتصل بالمراحل الباكرة فى نشأة العلوم ، نرجو ألا تـكون قد أثرت على مسار البحث كما عرضناه .

ولما كنا قد حددنا هذه الفترة الصعبة ميداناً للبحث ، فقد خشينا أن تستغرقنا الدراسات التاريخية عن البيئات الاجتماعية والسياسية وغير ذلك مما يـكاد يـكون تقليديا فى كثير من الدراسات ، وقد خشينا أيضاً أن نقع فريسة الأحـكام التعميمية التى تنبنى على الروايات دون النصوص ، من أجل ذلك كان تقسيم البحث وفقا للـكتب التى وصلت إلينا والتى عرضت — بطريق أو بأخرى — لفن البديع ، والدافع الحقيقى لهذا التقسيم أن تـكون هذه الدراسة وصفية ؛ تتبع الظواهر كما هى ، وكما تمثلها النصوص الفعلية لما بين أيدينا من مؤلفات ، وهذه الطريقة قد تـكون أقرب إلى سلامـــة الاستنتاج لأنها تتدرج مع البديع كتاباً كتاباً بحيث يمكن أن يظهر لنا البدء

والتطور عن طريق تأثير المؤلفات السابقة فيما يلحقها ، ومن ثم كان البحث بعد الفصل الذى تناولنا فيه معنى لفظة البديع وتطورها ، شاملا للكتب التى ظهرت فى هذه الفترة ابتداء من كتاب ( البديع ) لعبد الله بن المعتز ( ت . ٢٩٦ هـ . ) حتى كتاب ( البديع فى نقد الشعر ) لأسامة بن منقذ ( ت . ٥٨٤ للهجرة ).

ولسنا هنا بصدد إيجاز ماعرضناه فى فصول البحث ، ولكننا نوجز أبرز ماتوصلنا إليه من نتائج على النحو التالى :

أولا — أن دراسة العرب لفنون البديع كانت جزءاً من عمل كامل نشأ وتطور لحاجة واضحة لدى المسلمين ، ونعنى بها حاجتهم إلى فهم النص القرآنى الكريم ، ومعرفة أسراره وخصائصه ومناط الإعجاز فيه ، ومعنى ذلك أن ( البديع ) لم يكن دراسة هامشية لاقيمة لها بل كان لها مكانها فى هذا المنهج العام . ومعناه أيضاً أن ( البديع ) نشأ نشأة عملية تتصل بالنصوص الحية قبل أن يصل العلماء فيه إلى وضع المصطلحات الخاصة به . على أن هذه الحقيقة — وهى حقيقة مقررة فى تاريخ الحركة العقلية عند العرب — تستتبع أن نفهم نشأة ( البديع ) وتطوره فى ضـــوء المنهج العربى العام فنلتمس اتجاهاته فيما كان موجوداً لدى العرب من علوم ، خاصة فى علوم اللغة عامة ثم فى علوم الفقه والكلام ، ذلك أن هذه العلوم جميعا نشأت النشأة نفسها وكانت تهدف إلى الغاية نفسها ، فضلا عن أن التخصص الدقيق لم يكن معروفا آنذاك ، ومن ثم كان من يتناول البديع تابعا لمذهب نحوى معين . ولمذهب فقهى بعينه ، ولمذهب كلامى معلوم . على أنه من الحقائق المقررة أن العلوم تتأثر بالجو العام السائد فى زمانها قبل أن تتأثر بمصادر خارجية، وهذه الحقيقة تتطلب لاشك درسا أكثر شمولا تتوافر فيه للباحث أدوات الدرس

مما يكفينا هنا أن نشير إلى الإحساس بالحاجة إليه .

ثانيا — ومع وضوح تلك الحقيقة فإن التناول العربي لعلم البديع لم يسلم من التأثر بالمنهج الفلسفي ، وبمنهج أرسطو على وجه الخصوص ، وقد أشرنا إلى ذلك حين عرضنا لكتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر ( ت . ٣٣٧ هـ . ) كما أشرنا إليه عند عرضنا لكتاب ( البرهان في وجوه البيان ) لاسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب والذي عرف خطأ (بنقد النثر) ونسب إلى قدامة.

على أن هذا التأثر بالمنهج اليوناني ـ وهو تأثر ظهر في علوم عربية أخرى ـ لا يعني أن البديع كان متأثرا بالفلسفة تأثرا كاملا ، بل يعني أنه أخذ عن المنهج الأرسطي ،وبعض هذا المنهج كان مختصا بدراسة الفن القولي على ما هو معروف في كتابيه ( الشعر ) و ( الخطابة ) . وهناك من يذهب في العصر الحديث إلى أن العلوم المتصلة باللغة تلتقي في كثير من الظواهر العامة .

ثالثا — أن هذه الفترة الزمنية الطويلة والتي عرضنا فيها عددا غير قليل من الكتب لم تشهد استقلال علم البديع عن علوم البلاغة الأخرى ، فمنذ كتب ابن المعتز كتابه ( البديع ) وبناه على خمسة من الفنون هي: الاستعارة، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد الأعجاز على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي ، حتى كتاب « أسامة بن منقذ » الذي اشتمل على خمسة وتسعين بابا ، نقول إن العلماء قد طوروا البحث البديعي بما أضافوه من دراسة لظواهره ،لكنهم لم يفردوه علما مستقلا يتميز بمنهج خاص. وهذه الظاهرة جديرة بأن تلفتنا إلى أن علوم البلاغة التي نشأت — في الأساس — لفهم أسرار الإعجاز القرآني ، لم تكن قد تفرعت هذا التفريع الذي نعرفه ، فهل كان ذلك عيبا في المنهج أم أنه كان يمثل اتجاها معينا ؟

ونحن حين نسأل هذا السؤال إنما ننظر فيه إلى عدد آخر من العلوم

العربية التى كانت قد تميزت بمناهج خاصة بها ، فى مراحل أكثر تقدما من القرن السادس ، كما نعلم عن علوم النحو والصرف والدراسات المعجمية التى كانت قد استقرت استقرارا واضحاً فى القرن الرابع الهجرى .

وأغلب الظن - فيما نرى - أن علوم البلاغة لم تتفرع فروعا مستقلة طول هذه الفترة لأنها كانت تتصل - كما ذكرنا - بالنصوص الحية ، أى أنها لم تكن تقصد إلى وضع قواعد جامدة تصب فيها الظواهر صبا ، وإنما كانت تتناول الفن القولى نثراً أو شعراً فتعرضه على ما توصلت إليه - بالملاحظة الذاتية على الأغلب - من فنون البلاغة على العموم . ومعنى ذلك أن المعانى والبيان والبديع كما عرفت بعد ذلك كانت تتعاون كلها فى تفسير النصوص ، وهذا ملحظ نراه حقيقا بالاعتبار لأن التقسيم البلاغى لا يقصد إلى تشتيت أدوات البحث وتقطيعها ، فالتقسيم وإن كان يقتضيه المنهج لا يرمى - فى النهاية — إلى أن يكون كل فن من فنونه منعزلا عن الآخر ، بل إن هذه الفنون جميعا تشكل حلقات فى سلسلة واحدة ، تخدم الأولى الثانية وتمهد لها وصولا إلى فهم النصوص . وذلك كله يلفتنا مرة أخرى إلى مكانة البديع من الدرس البلاغى عند العرب كما عرفه أصحابه فى قرون الازدهار الأولى التى كانت تتصل - كما ذكرنا - باللغة فى مصادرها الحية ، وليس فى قواعدها الجامدة التى تبتعد فى الأغلب عن روح هذه المصادر .

رابعا — أن هناك نتائج تفصيلية أخرى كثيرة عرضناها فى سياقها من البحث عند الحديث عن كل كتاب ، ومدى تأثره بما سبقه من الكتب ، فى محاولة لتتبع تطور فنون البديع عبر التاريخ .

ولنا - من بعد - مقترحات نوجزها فيما يلى :

١ — أن هناك الآن دعوات كثيرة تنادى بتطوير الدرس العربى عامة، والدرس البلاغى بحيث يساير تطور الحياة ويتمشى مع ما يصل إليه الآخرون من مناهج فى دراسة اللغة وفى دراسة الفنون القولية، وهذه الدعوات لا بأس منها لكنها تكون خطأ كبيرا إذا تمت قبل درس مناهجنا القديمة أولا درسا تفصيليا ، ذلك لأن كل لغة لها طبيعتها الخاصة وتطورها الخاص مما يفرض تناولا واقعيا لهذه اللغة ، وإذا كانت هناك مجموعة من المبادىء العامة التى يمكن أن تنطبق على عدد كبير من اللغات فإن الخصائص المميزة سوف تظل تفرض شروطا خاصة للدرس ، وأولها ضرورة تتبع التاريخ الخاص بهذه اللغة، والخطوة الأولى فى التجديد هى قتل القديم بحثاً كما يقولون.

وإذا كنا قد حاولنا أن نؤرخ «للبديع» حتى القرن السادس فان مواصلة التأريخ تصبح ضرورة منهجية حتى يتبين لنا سير هذا العلم لدى العلماء العرب وأثره فى حياة العربية . وذلك يتطلب جهداً ندرك مشقته لأنه يتطلب البحث عن المخطوطات المنتشرة فى أماكن مختلفة والعمل على نشرها نشراً علميا ، فضلا عن أننا نشعر بوجوب درس الكتب الأخرى التى تتصل بدرس العربية والتى كانت تشير إلى الظواهر البلاغية خلال تناولها للنصوص . إن عملية هذه التأريخ ضرورية لوضع أساس واضح نستطيع أن نميز به المناهج التى تصلح للعربية من تلك التى لا تصلح لها .

٢ — إن طريقة تدريس « البديع » فى مدارسنا وجامعاتنا فى حاجة إلى مراجعة ، لأن الطالب يتلقاها جامدة لا تتصل باللغة بسبب ، وهو يستظهرها استظهارا يبعده عن فهم أسرار اللغة وبذلك تنتفى جدوى الدرس البلاغى ، إن لم يكن يضر بالدرس العربى على العموم ، إذ يقر فى أذهان الطلاب صعوبته وجفافه وجموده وعدم اتصاله بالحياة . وحتى يتم الدرس الشامل الذى اقترحناه

فيما سبق ، فإننا نقترح ضرورة وصل الدرس البلاغى — بما فيه البديع — بالنصوص الحية التى تعبر عن الفن كما تمثله النصوص العربية الكثيرة على اختلاف عصورها وذلك اتباعا للمنهج العربى الذى أوضحته دراستنا فى هذا البحث ، ومثل هـذا الربط جدير بأن يتمثل الطلاب معه فنون البديع تمثلا واضحاً .

٣ — إن دعوتنا إلى ضرورة درس المناهج القديمة أولا لا ينبغى أن تجعلنا ننفصل عما يطوره الغربيون الآن من مناهج ، خاصة تلك التى تعرف الآن بالدراسات الأسلوبية وهى - فيما يقول عنها أصحابها - تتخذ وسائل علمية فى تفسير الظواهر ، ومنها ماهو قريب من مباحث « البديع » كما عرفه العرب. وهذه المناهج الجديدة قد تساعدنا على فهم القديم فهماً صحيحاً ، وعلى تطويره تطويراً مناسبا .

ومهما يكن من أمر ، فإن « البديع » ليس عبثا كما يتصور بعض الناس بل إنه يتصل باللغة التى بجوهر الإنسان ، وليس من شك فى أن له قيمته التى تتعلق « بالشكل » الذى يتصل اتصالا وثيقا « بالمضمون » ، كما يمثل ملامح الحضارة التى ينشأ فى ظلها لأن « الصياغة » أو « الشكل » تعبر عن روح معين للجماعة ، كما تعبر عن خصائص متميزة لدى الأفراد .

ومن الأساتذة المعاصرين من يرى للبديع قيمة كبيرة فى الدرس البلاغى وذلك حين يقول :

« إننى لا أشك كثيرا فى أن مانسميه البديع ، وما اصطلحنا على تسميته لعبا لغويا أو زينة يجب أن يعاد النظر فيه ، فكثيرا ما أطل هذا الذى نسميه بديعاً على ادراكات أسطورية أو رمزية . . .[1] » . « ولم يكن البديع

(١) نظرية المعنى فى النقد العربى ( د . مصطفى ناصف ) ص ١٣٤ .

إلا مرحلة خاصة من مراحل حياة الرموز فى الشعر العربى ، ولا يوجد معنى حقيقى لفكرة تقاليد الشعر بمعزل عن هذه الرموز، ليست تقاليد الشعر العربى هى التشبيه الرائع أو الاستعارة القريبة ، وإنما هى رموز خاصة تداولها الشعراء كل بطريقته الخاصة ، والبديع – إذا أصررنا على استعمال هذه الكلمة غير الوضيئة أسلوب خاص فى فهم الرمز وتناوله »(١) .

وسواء أكانت للأشكال البديعية دلالتها الرمزية أم لا ، فإن لها – لا شك – مكانها من الدرس البلاغى مما يستحق العناية العلمية الصحيحة ، وهو ما نرجو أن يكون بحثنا هذا قد مهد الطريق إليها .

والله ولى التوفيق

---

(١) نظرية المعنى فى النقد العربى ص ١٣٧ .

# المصادر والمراجع

# المصادر والمراجع


دكتور ابراهيم سلامه :

• بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ـ ط . مطبعة مخيمر بالقاهرة ١٩٥٠ م .

ابن الأثير : عز الدين ( ٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ ) .

• الكامل فى التاريخ ـ نشر دار صادر ببيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٥ م .

ابن الأثير : الامام مجد الدين أبى السعادات ( ٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ ) .

• النهاية فى غريب الحديث والأثر ـ تحقيق طاهر أحمد الزاوى ، محمود محمد الطناحى ـ الطبعة الأولى ـ ط. عيسى البابى الحلبى ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

دكتور إحسان عباس :

• تاريخ النقد الأدبى عند العرب ( نقد الشعر ) ـ الطبعة الأولى ـ ط . مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

دكتور أحمد ابراهيم موسى :

• الصبغ البديعى فى اللغة العربية ـ نشر دار الكاتب العربى ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م .

دكتور أحمد كمال زكى :

• أسامة بن منقذ ـ نشر سلسلة أعلام العرب ـ ط. دار الكاتب العربى ـ ( يولية ) ١٩٦٨ م .

• ابن المعتز العباسى ـ نشر سلسلة أعلام العرب ـ ط . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ م .

أرسططاليس :

• كتاب أرسططاليس فى الشعر نقل أبى بشر متى بن يونس القنائى من السريانى إلى العربى ـ حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره فى البلاغة العربية دكتور شكرى عياد ـ نشر دار الكتاب العربى ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .

• فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد ـ ترجمة وتحقيق دكتور عبد الرحمن بدوى ـ نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣ م .

• الخطابة ( الترجمة العربية القديمة ) ـ حققه وعلق عليه دكتور عبد الرحمن بدوى ـ نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ م .

أسامة بن منقذ : أبو المظفر ( ٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ ) .

• ديوانه ـ تحقيق دكتور أحمد أحمد بدوى ، حامد عبد المجيد ـ نشر وزارة المعارف العموميه ـ ط . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٣ م .

• كتاب الاعتبار ـ نشر فيليب حتّى ـ ط . جامعة برنستون بأمريكا ١٩٣٠ م .

• المنازل والديار ـ تحقيق مصطفى حجازى ـ نشر لجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م .

ابن أبى الاصبع المصرى ( ٥٨٥ ـ ٦٥٤ هـ ) .

• بديع القرآن ـ تحقيق د . حفنى محمد شرف ـ الطبعة الأولى ـ ط . نهضة مصر . ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م .

• تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ـ تحقيق د. حفنى محمد شرف ـ ط. لجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

الأصمعى : أبو سعيد عبد الملك بن قريب ( ١٢٢ ـ ٢١١ هـ ) .

• الأصمعيات ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ـ الطبعة الثانية ـ ط . دار المعارف ١٩٦٤ م .

ابن أبى عون : (ت ٣٢٢ هـ ) .

• التشبيهات ـ تصحيح محمد عبد المعيد خان ـ ط . كمبردج ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م .

ابن الأنبارى : أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ( ت ٥٧٧ هـ ).

• نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ـ تحقيق دكتور إبراهيم السامرائى ـ الطبعة الثانية ـ نشر مكتبة الأندلس ببغداد ١٩٧٠ م .

الآمدى : أبو القاسم الحسن بن بشر ( ت ٣٧١ هـ ) .

• الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ ط . دار المعارف ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م .

البحترى: أبو عبادة (ت ٢٨٤ هـ )

• ديوانه ـ تحقيق حسن كامل الصيرفى ـ ط . دار المعارف ١٩٦٣ م .

دكتور بدوى طبانة :

• أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية والنقدية ـ الطبعة الأولى ـ ط. مطبعة مخيمر بالقاهرة ١٩٥٢ م.

• البيان العربى ( دراسة فى تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى ) — الطبعة الثانية — ط . مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م .

• قدامة بن جعفر والنقد الأدبى — الطبعة الثانية — ط . المطبعة الفنية الحديثة بالقاهرة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

ابن بسَّام : أبو الحسن على ( ت ٥٤٢ هـ ) .

• الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة — القسم الرابع / المجلد الأول ـ ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .

الباقلانى : أبو بكر محمد بن الطيب ( ٤٠٣ هـ ) .

• إعجاز القرآن ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ ط . دار المعارف ١٩٦٣م.

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى ( ت ٨٧٤ هـ ).

• النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦ م .

أبو تمام : حبيب بن أوس الطائى ( ت ٢٣١ هـ )

• ديوانه ( بشرح الخطيب التبريزى ) ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ ط . دار المعارف ١٩٦٤ م .

ابن تيمية : تقى الدين أبو العباس أحمد ( ت ٧٢٨ هـ ) .

● كتاب الإيمان ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٣٢٥ هـ .

ثعلب : أبو العباس أحمد بن يحيى ( ت ٢٩١ هـ ) .

● قواعد الشعر ـ تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ـ الطبعة الأولى نشر دار المعرفة بالقاهرة ١٩٦٦ م .

الجرجانى : عبد القاهر بن عبد الرحمن ( ت ٤٧١ هـ ) .

● أسرار البلاغة ـ تحقيق هـ . ريتر ـ ط . استانبول ١٩٥٤ م .

● دلائل الإعجاز ـ تصحيح وتعليق أحمد مصطفى المراغى ـ ط . المطبعة العربية بالقاهرة .

الجرجانى : القاضى على بن عبد العزيز ( ت ٣٩٢ هـ ) .

● الوساطة بين المتنبي وخصومه — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، على محمد البجاوى ـ الطبعة الثانية ـ ط . دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .

جرنباوم : جوستاف :

● دراسات فى الأدب العربى — ترجمة الدكتور إحسان عباس وآخرين منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٥٩ م .

ابن جنى : أبو الفتح بن عثمان ( ت ٣٩٢ هـ ) .

● الخصائص — تحقيق محمد على النجار — الطبعة الثانية — ط . دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر ( ت ٢٥٥ هـ ) .

● البيان والتبيين — تحقيق عبد السلام هارون — الطبعة الثالثة — نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ومكتبة الهلال ببيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

• الحيوان — تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الأولى ـ ط . الحلبي ١٣٥٧ هـ .

ابن حجة الحموى : تقى الدين أبو بكر على ( ت ٨٣٧ هـ ) .

• خزانة الأدب وغاية الأرب ـ الطبعة الأولى ـ ط . المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٠٤ هـ .

الحريرى : أبو محمد القاسم بن على البصرى ( ٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ ) .

• المقامات الأدبية ـ الطبعة الثالثة ـ ط . الحلبي ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م .

حسان بن ثابت : الأنصارى ( ت ٥٠ هـ ) .

• ديوانه ـ ط . دار صادر ببيروت ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

حنا الفاخورى :

• الجاحظ ( نوابغ الفكر العربى ) ط . دار المعارف ١٩٦٤ م .

الحاتمى : أبو على محمد بن الحسن ( ت ٣٨٨ هـ ) .

• الرسالة الموضحة ( فى ذكر سرقات أبى الطيب المتنبي وساقط شعره ) تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ـ نشر دار صادر ببيروت ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

حاجى خليفة : مصطفى عبد الله ( ١٠٦٧ هـ ) .

• كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ـ الطبعة الثالثة ـ نسخة مصورة ـ نشر المكتبة الإسلامية بطهران ١٣٨٨ هـ .

الخطيب البغدادى : الحافظ أبو بكر أحمد بن على ( ت ٤٦٣ هـ ) .

• تاريخ بغداد ( أو مدينة السلام ) ـ نشر دار الكتاب العربى ببيروت.

الخطيب القزوينى : جلال الدين أبو عبد الله ( ت ٧٣٩ هـ ) .

● الإيضاح ( لمختصر تلخيص المفتاح فى المعانى والبيان والبديع ) ـ الطبعة الثانية ـ نشر مكتبة محمد على صبيح ـ ط . مطبعة الجمالية الحديثة بالقاهرة .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ( ت ٨٠٨ هـ ) .

● المقدمة ( كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ) ـ الطبعة الثالثة ـ نشر مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى ببيروت ١٩٦٧ م .

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ( ت ٦٨١ هـ )

● وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ الطبعة الأولى ـ ط . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٦٧ هـ .

● وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ط . دار الثقافة ببيروت ١٩٦٩ م .

ذو الرمة : غيلان بن عقبة ( ت : ١١٧ هـ ) .

● ديوانه ـ الطبعة الثانية ـ نشر المكتب الإسلامى بدمشق ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م .

ابن رشيق : أبو على الحسن ( ت ٤٦٣ هـ ) .

● العمدة ( فى صناعة الشعر ونقده ) ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة ـ ط . مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م .

الرمانى : أبو الحسن على بن عيسى ( ٣٧٦ هـ ) .

● النكت فى إعجاز القرآن ـ طبعت ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

تحقيق الأستاذ محمد خلف الله أحمد ، د . محمد زغلول سلام ـ ط . دار المعارف بالقاهرة .

ابن الرومى : على بن العباس ( ت ٢٨٤ هـ ) .

• ديوانه ـ شرح الشيخ محمد شريف سليم — ط . دار إحياء التراث العربى ببيروت ١٣٣٥ هـ — ١٩١٧ م .

دكتور زكى مبارك :

• النثر الفنى فى القرن الرابع — الطبعة الثانية ـ ط . مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م .

الزمخشرى : الإمام جار الله محمود بن عمر ( ت ٥٣٨ هـ ) .

• الكشاف ( عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ) نشر دار الكتاب العربى ببيروت .

زهير بن أبى سلمى :

• شعره ( صنعة الأعلم الشنتمرى ) تحقيق دكتور فخر الدين قباوه ـ الطبعة الأولى ـ ط . المطبعة العربية بحلب ـ سوريا ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م .

السبكى : بها الدين أبو حامد ( ٧١٩ ـ ٧٧٣ هـ ) .

• عروس الأفراح فى شروح التلخيص ـ الطبعة الثانية ـ ط . مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٣ هـ .

السمعانى : أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى ( ٥٦٢ هـ ) .

• الأنساب ـ نشر المستشرق د . س . مرجليوث ـ ط . ليدن ١٩١٢ م نسخة مصورة عن الطبعة ـ نشر مكتبة المثنى ببغداد ١٩٧٠ م .

ابن سلام الجمحى : أبو عبد الله محمد ( ت ٢٣٢ هـ )

● طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين — ط . المطبعة المحمودية التجارية الكبرى بالقاهرة .

ابن سنان : أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجى ( ت ٤٦٦ هـ ) .

● سر الفصاحة ـ تحقيق عبد المتعال الصعيدى ـ ط . مطبعة صبيح بالقاهرة ١٣٧٢ هـ . — ١٩٥٣ م .

ابن سينا :

● تلخيص كتاب الخطابة لأرسطو ـ ط . وزارة التربية والتعليم بالقاهرة .

السيوطى : جلا الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر ( ت ٩١١ هـ ) :

● بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ـ الطبعة الأولى ـ ط . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦ هـ .

● الإقتراح فى علم أصول النحو ـ ط . حيدر أباد ١٣١٠ هـ .

الشريف المرتضى : على بن الحسين ( ت ٤٣٦ هـ )

● أمالى المرتضى ( غرر الفوائدودرر القلائد ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الأولى ـ ط . عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ١٣٧٣هـ ١٩٥٤ م .

الشماخ بن ضرار الذبيانى :

● ديوانه ـ تحقيق صلاح الدين الهادى ـ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٨م



دكتور شوقى ضيف :

• البلاغة تطور وتاريخ ـ ط . دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م .

• الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ـ الطبعة الرابعة ـ ط. دار المعارف . ١٩٦٠ م .

• الفن ومذاهبة فى النثر العربى ـ الطبعة الثالثة ـ ط . دار المعارف . ١٩٦٠ م .

• النقد ـ ط . دار المعارف ١٩٥٤ م .

الصولى . أبو بكر محمد بن يحيى ( ت ٣٣٥ هـ ) :

• أخبار أبى تمـــام ـ تحقيق خليل محمود عساكر ، محمد عبده عزام ، نظير الاسلام الهندى ـ نشر المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ببيروت .

• الأوراق ( أشعار أولاد الخلفاء ) ـ نشرج . هيورث . دن ـ ط . الصاوى بمصر ١٩٣٦ م .

ابن طباطبا . محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى ( ت ٣٢٢ هـ ) .

• عيار الشعر ـ تحقيق الدكتورين . طه الحاجرى ، محمد زغلول سلام نشر المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٥٦ م .

دكتور طه حسين :

• من حديث الشعر والنثر ـ ط. دار المعارف ١٩٦١م .

دكتور طه الحاجرى :

• الجاحظ ( حياته وآثاره ) ط. دار المعارف ١٩٦٢ م .

العباس بن مرداس السلمى :

● ديوانه — تحقيق دكتور يحيى الجبورى ـ ط. دار الجمهورية ببغداد ١٣٨٨ هـ. ١٩٦٨ م .

ابن العديم : كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ) .

● زبدة الحلب من تاريخ حلب ـ نشر وتحقيق سامي الدهـــــان ـ ط. المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .

عبد الرءوف مخلوف :

● ابن رشيق القيروانى ( نوابغ الفـكر العربى ) ـ ط دار المعارف ١٩٦٤ م .

عبد الرحيم أحمد العباسى :

● معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ ط. مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٧ م .

دكتور عبد العزيز عتيق :

● علم البديع ط. دار النهضة العربية ببيروت١٩٧٠ م .

● فى تاريخ البلاغة العربية ـ ط . دار النهضة العربية ببيروت ١٩٧٠ م

العسكرى : أبو أحمد الحسن بن عبد الله (ت ٣٨٢ هـ ) :

● المصون فى الأدب ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ ط. مطبعة حـكومة الـكويت ١٩٦٠ م .

العسكرى : أبو هلال (ت ٣٩٥ هـ) .

● الصناعتين ـ تحقيق محمد على البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الأولى ـ ط. عيسى البابى الحلبى ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .

• ديوان المعانى ـ نشر مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٢ هـ .

• كتاب التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء ـ تحقيق دكتور عزة حسن ط. مطبعة الترقى بدمشق ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .

أبو عبيدة : معمر بن المثنى ( ت ٢٠٨ هـ ) :

• مجاز القرآن ـ تحقيق محمد فؤاد سزكين ـ نشر الخانجى بالقاهرة ١٩٥٤ م

دكتور على الجندى :

• فن التشبيه ـ الطبعة الأولى ـ ط. نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٢ م.

دكتور على سامى النشار :

• مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ـ ط. دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٧ م .

عمر بن أبى ربيعة : ( ت ٩٣ هـ ) :

• ديوانه ـ تصحيح بشير يموت ـ الطبعة الأولى ـ ط . المطبعة الوطنية ـ بيروت ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م .

ابن العماد الحنبلى : ( ت ١٠٨٩ هـ . ) :

• شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ نشر المكتب التجارى بيروت ـ نسخة مصورة .

عنترة : ابن شداد العبسى :

• ديوانه ـ تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوى ـ نشر المكتب الإسلامى ـ بيروت ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

أبو الفرج الأصفهانى : على بن الحسين ( ت ٣٥٦ هـ ) :

● الأغانى ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ نشر دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٩ م .

ابن قتيبة : ابو محمد عبد الله بن مسلم ( ت ٢٧٦ هـ . ) :

● الشعر والشعراء ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ ط . دار المعارف ١٩٦٦ م .

● تأويل مشكل القرآن ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ ط . الحلبى بالقاهرة .

قدامة بن جعفر : ( ت ٣٣٧ هـ ) :

● نقد الشعر ـ تحقيق كمال مصطفى ـ نشر مكتبة الخانجى بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٣ م .

جواهر الألفاظ ـ ط . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٢ م .

نقد النثر ( المنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر ) ـ تحقيق الدكتور طه حسين ، عبد الحميد العبادى ـ الطبعة الرابعة ـ ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤٠ م .

القرطبى : أبو عبد الله بن أحمد الأنصارى ( ت ٦٧١ هـ ) .

● الجامع لأحكام القرآن ـ ط . دار الكتب المصرية ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢ م .

القزاز : أبو عبد الله التميمى محمد بن جعفر ( ت ٤١٢ هـ ) :

● ضرائر الشعر ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ـ تحت رقم ١٨٣ ( أدب ) .

القفطى : على بن يوسف ( ت ٦٤٦ هـ . ) :

● أنباه الرواه على أنباء النحاه ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط . دار الكتب ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م .

ابن قيم الجوزية : شمس الدين أبى عبد الله محمد ( ت ٧٥١ هـ ) :

• كتاب الفوائد ( المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان ) ـ تصحيح السيد محمد بدر الدين النعسانى ـ الطبعة الأولى ـ ط . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٧ هـ .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد ( ت ٢٨٥ هـ . ) :

• الكامل فى اللغة والأدب ـ الطبعة الأولى ـ ط. مطبعة التقدم العلمية القاهرة ١٣٢٣ هـ .

المتنبى : أبو الطيب ( ٣٠٣ـ٣٥٤ هـ ) :

• ديوانه ـ تصحيح مصطفى السقا ، إبراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبى ـ الطبعة الثانية — ط . الحلبى ١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦ م .

محمد باقر الخوانسارى :

• روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ـ ط. طهران ١٣٠٦هـ .

دكتور محمد زغلول سلام :

• تاريخ النقد العربى إلى القرن الرابع الهجرى — ط . دار المعارف ١٩٦٤ م .

• تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى — ط . دار المعارف .

محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى ( ت ٧٦٤ هـ ) :

• فوات الوفيات ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ ط . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٥١ — ١٩٥٣ م .

دكتور محمد مصطفى هداره :

● مشكلة السرقات فى النقد العربى ـ ط . لجنة البيان العربى ١٩٥٨ م .

دكتور محمد مندور :

● النقد المنهجى عند العرب — ط . نهضة مصر ١٩٤٨ م .

امرؤ القيس : بن حجر الكندى :

● ديوانه ـ نشر دار صادر ـ بيروت ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م .

المرزبانى : أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ( ت ٣٨٤ هـ ) :

● الموشح ( مآخذ العلماء على الشعراء فى عدة أنواع من صناعة الشعر ) ـ تحقيق محمد على البجاوى ـ ط . دار نهضة مصر ١٩٦٥ .

مسلم : الإمام أبى الحسين بن الحجاج القشيرى النيسابورى (٢٠٦ — ٢٦١هـ)

● صحيح مسلم ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ الطبعة الأولى ـ ط . عيسى البابى الحلبى ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

دكتور مصطفى ناصف :

● نظرية المعنى فى النقد العربى — ط . دار القلم بالقاهرة ١٩٦٥ م .

ابن المعتز : عبد الله ( ت ٢٩٦ هـ ):

● كتاب البديع ـ نشر كراتشقوفسكى ـ نسخة مصورة ـ منشورات دار الحكمة ـ حلبونى ـ دمشق .

● طبقات الشعراء المحدثين — تحقيق عبد الستار فراج — نشر دار المعارف ١٩٥٦ م .

ابن معصوم . السيد على صدر الدين ( ١٠٥٢ — ١١٢٠ هـ ) :

• أنوار الربيع فى أنواع البديع ـ تحقيق شاكر هادى شاكر ـ الطبعة الأولى ـ ط . مطبعة النعمان بالنجف الاشرف ـ العراق ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ( ت ٨٤٥ هـ ) :

• السلوك لمعرفة دول الملوك ـ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ م .

ابن النديم : ( ت ٣٨٥ هـ ) :

• الفهرست ـ نسخة مصورة عن طبعة ليبزج ـ نشر مكتبة خياط ـ بيروت .

أبو نواس : الحسن بن هانىء ( ١٤٥ — ١٩٩ هـ ) :

• ديوانه ـ نشر دار صادر ـ ببيروت ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢م .

ابن وهب : أبو اسحق بن ابراهيم بن سليمان :

• البرهان فى وجوه البيان ـ تحقيق الدكتور أحمد مطلوب ، الدكتورة خديجة الحديثى ـ الطبعة الأولى ـ ط . مطبعة العانى ـ بغداد ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .

• البرهان فى وجوه البيان ـ تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف ـ ط . مطبعة الرسالة ـ القاهرة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

أبو يعلى حمزة بن القلانسى :

• تاريخه المعروف بذيل تاريخ دمشق ـ ط . مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩٠٨ م .

اليافعى : أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان( ت ٧٦٨ ه ) :

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ـ الطبعة الثانية — منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات — بيروت ١٣٩٠ ه — ١٩٧٠ م .

ياقوت الحموى : ( ت ٦٢٦ ه ) :

- معجم الأدباء . نشر دار المأمون بالقاهرة ١٩٣٦ م .

# مصادر عامة


— دائرة المعارف الإسلامية ـ الطبعة الثانية ـ نشر لجنـــة الترجمة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .

— لسان العرب لابن منظور ـ الطبعة الأولى ـ ط . المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠١ هـ.

— مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد ٢٣ سنة ١٩٤٨ م .

— مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد ٢٤ سنة ١٩٤٩ م .

- sapir Edward: culture, languge and Perssonality california, 1960.

# فهرس

# الفهرس

صفحة



## الباب الأول

## في النشأة



## الباب الثاني

## من ابن طباطبا العلوي إلى أبي هلال العسكري

## الباب الثالث



* * *



